دكتور أحمد سيد محمد



في

الأدبين الفاطمي والأيوبي



الطبعة الثانية

الشخصية المصرية

فى الأدبين الفاطمى والأيوبى

الشخصية المصرية

فى الأدبين الفاطمى والأيوبى

تأليف

دكتور أحمد سيد محمد

أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية

كلية التربية – جامعة عين شمس

الطبعة الثانية

١٩٩٢



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

واكب البحث فى الشخصية ظهور فكرة القومية فى تاريخ النهضة المعاصرة ، واتخذ عدد جم من الدارسين مظاهر النشاط البشرى مجالا للكشف عن مقوماتها ومعرفة أبعادها .

ولا شك أن الأدب بمختلف فنونه وشتيت لغاته ميدان رحب لدراسة الشخصية .

ويعالج هذا الكتاب موضوع الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى من خلال النصوص الأدبية لعصرين هما أزهى عصور الأدب العربى فى مصر . ويهدف إلى تحديد مقومات الشخصية المصرية وإبراز سماتها والكشف عن كيانها فى ذلك الأدب ومقدار تصويره لها ، ومدى تأثيرها فيه .

وهذه الدراسة تعتمد على التعرف – من خلال الأدب – على سمات المجتمع وتبرز آثاره فى خلق أو تطوير نمط أدبى خاص وتستخلص آثار الصراع الطويل بين الإنسان والأرض والزمان على الإنتاج الأدبى .

ومن ثم فإن هذا الكتاب يجسد فكرة راودت بعض الباحثين ، ويجيب عن تساؤلات فريق آخر منهم ، ويسهم فى دراسة الأدب العربى بمصر . وهو أدب مازال ينتظر المزيد من الجهود فى البحث عن المفقود ، وتحقيق المخطوط ودراسة المطبوع ، ويعمق مفهوم الشخصية المصرية ووضعها فى إطارها من خلال تفاعلها مع الأدب العربى فى تلك الفترة .

القاهرة فى ديسمبر ١٩٧٨ م

المؤلف

تمهيد

الشخصية المصرية ومقوماتها

لم يستخدم العرب القدامى كلمة « شخصية » وإنما استخدموا كلمة شخص (١) وأرادوا به الإنسان ذكراً أو أنثى ورددوا قول عمر بن أبى ربيعة فى الرائية :

فكـانِ مجنـيَّ دونَ مـن كنتُ أتَّقـى ثلاثُ شخـوصٍ كاعـبانِ ومعْصـرُ

حيث أثبت الشخص وأراد به المرأة ، والشخص كل جسم له ارتفاع وظهور والمراد به إثبات الذات ، فاستعير لها لفظ الشخص ، والجمع أشخاص وشخوص وشخاص .

قال ابن سيدة : ولم أسمع بفعل فأقول : إن الشخاصة مصدر (٢) .

فمادة الكلمة « شخص » قديمة ومستعملة فى اللغة . وأما كلمة « شخصية » فهى مصدر صناعى وليدة المصطلحات النفسانية .

فإذا تتبعنا هذه الكلمة فى اللغات الأوربية وجدناها لاتينية الأصل Persona ومنها اشتقت الكلمة الفرنسية Personalité(٣) والإنجليزية Personality وقد استخدمت الكلمة اللاتينية Pessona للدلالة على القناع الذى كان يلبسه الممثل فى العصور القديمة ليخلع على نفسه ثوب الدور الذى يمثله وليظهره أمام الجمهور بمظهر خاص .

وقد اهتم أحد الباحثين بدراسة التطور التاريخى لهذا اللفظ اللاتينى Persona ، وحاول تصنيف معانيه فى ميادين اللاهوت والفلسفة والاجتماع وعلم النفس . ووضعها فى صنفين رئيسين هما :

الدلالة على المظهر الخارجى ، والدلالة على جوهر الإنسان أو طبيعته الداخلية ، وظلت الدلالتان مثار جدل طويل بين الدارسين المعاصرين والسابقين (٤) .

---

(١) راجع مادة شخص فى لسان العرب .

(٢) المجمع الوسيط ط مجمع اللغة العربية جـ ١ القاهرة ١٩٦٠ .

(٣) La Rouss Page 128e?, PARIS 1972

(٤) الشخصية وقياسها د . محمد عماد الدين إسماعيل ص ١٣ .

ومنذ القدم ودراسة الشخصية تحظـى باهتمام المفكرين ، فدعوة سقراط « اعرف نفسك » هى فى الحقيقة دعوة إلى البحث عن الشخصية . وعلى مر التاريخ تعددت المحاولات الباحثة عن إدراك الشخصية الإنسانية ، ولكن الدراسات العلمية أخذت فى الظهور عند مستهل القرن العشرين مع بداية نشاط علم النفس واستقلاله عن غيره من العلوم (١) حيث وجه علماء الطب العقلى والتحليل النفسى عنايتهم إلى هذا الميدان (٢)

وحول مفهوم الشخصية تباينت وجهات نظر الدارسين وراح كل فريق منهم يعرفها من خلال جانب يريد إبرازه :

فمنهم من ركَّز على فكرة التوافق الاجتماعى ، واعتبر الشخصية معادلة للجانب الاجتماعى فى الفرد « فهى التى تتحدد وتتشكل على أساس استجابته للآخرين وخاصة فى الجوانب الاجتماعية » وبعضهم أكد كمونها فى الفرد نفسه ونظر إليها على أنها ذلك التنظيم الديناميكى الذى يكمن بداخل الفرد والذى ينظم كل الأجهزة النفسية والجسمية التى تملى على الفرد طابعه الخاص والتكيف مع بيئته .

وذهب فريق ثالث إلى القول بانفراد الشخصية وتميزها ، فالشخصية هى التى تجعل الفرد يتصرف مستقلا عن كل ما يحمله ذهنه من ميول حضارته الأساسية (٣)

وهذه التعريفات المختلفة تدور جميعها حول المدلول الفردى Individual لكلمة الشخصية فهى نموذج Patiern حياة الفرد أو ذلك المجموع الكلى لاتجاهات السلوك التى تعطى معنى للفرد وتميزه على الأعضاء الآخرين فى المجتمع(٤) .

ـ وإلى جانب هذا المدلول الفردى فإن علم النفس الاجتماعى نظر إلى مدلول الشخصية نظرة أعم أطلقها على مجموع الأفراد فى مجتمع ما ، وإن أكد عدم انخراط الجميع فى ذلك المدلول (٥) . فالشخصية إنما تتكون نتيجة لاستغراق الفرد ومشاركته وإحساسه بالحياة

(١) الشخصية وقياسها د . محمد عماد الدين إسماعيل ص ١٣ .

(٢) المرجع فى علم النفس د . سعد جلال ص ١٣ ٥ .

(٣) الشخصية وقياسها د . محمد عماد الدين إسماعيل ص ٦ وما بعدها .

(٤) الثقافة والتربية د . حسن الفقى ص ٤٧ .

(٥) المرجع فى علم النفس د . سعد جلال ص ٥٢٢ .

الاجتماعية ، ولذلك فإن الاهتمام بدراسة النمط الاجتماعى للشخصية من ألزم الجوانب لاستكمال وحدة المجتمع (١) .

ويؤكد الدكتور حامد عمار القول بأن النمط الاجتماعى للشخصية إنما يمثل السمات الغالبة فى شخصيات الأفراد والاستجابات الاجتماعية المقننة التى يمكن توقعها من أكبر عدد من الأفراد ، وليس معنى هذا أنه لا يوجد من بينهم من يشذُ عن هذا التوقع ، أو يحيد عن المسلك « الوسط » بالمعنى الإحصائى المعروف .

والنمط الاجتماعى فى أى مجتمع يتكون نتيجة لمقومات البيئة وظروفها ، وتركيب جماعاتها ، ونتيجة لأبعادها التاريخية التى عاش خلالها أفراد ذلك المجتمع ، وتوصلوا فى أثناء معاناتهم ومراسهم لها إلى نوع من التكيف والملاءمة مكنهم من بلوغ أكبر قسط من الطمأنينة إليها والألفة إليها ، ونظراً لاختلاف الظروف التى تحيط بالمجتمعات تختلف أنماطها وما تمثله من قيم واتجاهات تنعكس فى سلوك الأفراد ونظرتهم إلى الحياة وما يصطلحون عليه من علاقات وارتباطات ، ومن ثم يظهر الاختلاف فى الأنماط الاجتماعية بين مختلف الأمم (٢) .

وقد استغل بعض الدارسين المعاصرين المدلول الجماعى لكلمة « شخصية » فى استنباط سمات محددة تمثل الطابع القومى لمجتمع من المجتمعات (٣) .

وقد اتسع مدلول كلمة « الشخصية » فى الدراسات المعاصرة فلم يعد مقصوراً على الإنسان وحده ، سواء بالمعنى الفردى أم الجماعى ، بل أطلق أيضاً على البيئة الطبيعية بما فيها من جماد وحياة . فعلم الجغرافيا كما أطلق عليه أحد العلماء هو فن التعرف على شخصيات الأقاليم ووصفها وتفسيرها ، وذهب إلى القول بأن شخصية الإقليم كشخصية الفرد تنمو وتتطور وتتدهور (٤) .

---

(١) فى بناء البشر د . حامد عمار القاهرة : ١٩٦٨ ، ص ٧٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٣) انظر الطابع القومى للشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية د . عبد العزيز الرفاعى : القاهرة ١٦٧١ ، ص ٥ ، ٦ .

(٤) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٣ .

ويستخدم الأستاذ أحمد لطفى السيد كلمة « الشخصية » بدلالتها الفردية والجماعية ، ويذهب إلى أن العناصر المؤثرة فى كليهما عناصر مترابطة ، فشخصية الإنسان المعنوية تتألف من معتقداته الدينية والاجتماعية والسياسية أى من آرائه فى الحياة ، فإذا كان ناقص الشخصية فجدير ألا يكون صالحاً لعمل نافع ، وكما أن شخصية الفرد هى الشرط لوجود العمل ولنجاحه فى الحياة الحديثة ، لأنها مناط الثقة به وإصلاحيتها لتأليف مجموع عامل مفيد ، كذلك شخصية الأمة هى الأساس الأول لرقيها ، بوصف أنها أمة ، لأن شخصيتها هى أساس احترامها فى عين غيرها ، ومجمع خصائصها القومية ، وعقد عاداتها وأخلاقها ، وبالجملة هى مجمع مقوماتها بوصف أنها كائن طبيعى حى مستقل بوجوده عما عداه (١) .

وربما كان لظهور فكرة القومية فى العصر الحديث أثر فى اتساع مدلول كلمة « الشخصية » ، فأصبحت تطلق على جنس من الأجناس البشرية ، ولعل بدعة ترجيح الجنس الآرى على الجنس السامى فى فضائل الأمم والأفراد (٢) . تؤكد دلالة « الشخصية » على معناها الواسع الذى يشمل دراسة عناصر البيئة المادية والبشرية وما يتم من صراع بينهما .

وفى العصر الحديث ظهرت دراسات مختلفة لم يستعمل دارسوها لفظ الشخصية للدلالة على المعنى الفردى وإنما أطلقوها على المعنى القومى (٣) .

وواضح من خلال العرض السابق لمدلول كلمة « الشخصية » أنها استخدمت للدلالة على « الذات » إنساناً أو غيره ، كما استخدمت أيضا فى الميدان الجماعى أو القومى للدلالة على السمات العامة لشعب معين أو جنس بشرى .

ومصر موضوع هذه الدراسة مزيج مركب من عدة جوانب :

الجانب المادى : الذى يتجلى فى بيئة طبيعية أخذت حيزا من القشرة الأرضية ، وظهرت فيها الحياة منذ عصور بعيدة ، ولها حدود ومعالم تضيق وتتسع ، وتكبر وتصغر متأثره بعوامل

---

(١) المنتخبات ، أحمد لطفى السيد ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، جـ ١ ، ص ٢٦ .

(٢) سعد زغلول ، عباس العقاد ، ص ١٤ .

(٣) ذكرت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد عدة نماذج من هذه الدراسات التى كتبت بمختلف اللغات فى كتابها « الشخصية المصرية » ، ص ٩ وما بعدها .

التغير الطبيعي وبالحركات السياسية على مدى العصور ، وهذا الكيان المادى بمختلف أبعاده من تربة وموقع وغير ذلك له تأثيره فى تشكيل الإنسان الذى عاش فى هذه البيئة الطبيعية .

والجانب البشرى : فهناك سلالات بشرية هبطت أرض مصر منذ عصور سحيقة فى التاريخ وتعاقبت عليها أجناس وافدة من مختلف بقاع العالم واختلطت هذه الأجناس حيناً واحتكت ، وترك ذلك كله آثاره فى تكوين الشخصية المصرية .

والجانب الحضارى : وهو النتاج الملموس لتفاعل الجنس البشرى مع البيئة الطبيعية ، وهذا الجانب الحضارى هو الصورة المحسوسة التى تنطلق منها إلى التعرف على مقومات الشخصية المصرية ، لأنه يحمل طابعها ، ويدل على خصائصها ويصور معظم جوانبها .

وبهذا المفهوم لمصر – مصر الأرض والإنسان والتفاعل بينهما ، مصر البيئة الطبيعية بكل مقوماتها ، والأجناس البشرية بمختلف عناصرها ، والحضارات التى انبثقت منها أو انصهرت فيها على تطور تاريخها – أعالج الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى » .

البيئة الجغرافية :

يقول الأستاذ هنرى بر « HENRY BERR » المشرف على صدور الموسوعة التاريخية الكبرى « تطور الإنسانية L'Evolution de L'humanité » فى تقديمه للمجلد الرابع منها، وعنوانه « الأرض والتطور البشرى » .

« لاريب أن أثر البيئة قوى جداً على الإنسان ، فالجفاف والرطوبة والرياح والضوء والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تعدل من صفات الكائن الحى تعديلا دائماً أو مؤقتاً سواء كان هذا الكائن حيوانا أو نباتاً ، كما أن الطعام الذى يستهلكه الكائن الحى يؤثر فى نموه .. إن البيئة – بلاشك – تركت أثرها القوى فى تكوين الإنسان خلقاً وتفنناً ، وأن قوة هذا الأثر ومدى تأثيره لا تزالان موضع بحث .. ولا غرابة فى أن تؤثر مظاهر البيئة الطبيعية فى خيال الشاعر أو أن يستوحى الفنان من البيئة الطبيعية التى يعيش فيها آيات فنه ، وأن وضع قاعدة عامة عن العلاقة بين البيئة والفن ستفتح للناقد الأدبى مجالا واسعاً للبحث [١] .

---

(١) الأرض والتطور البشرى ، لوسيان فيفر ، ترجمة محمد السيد غلاب : القاهرة ١٩٧٣ .

ويقول « محيى الدين بن عربى » فى « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» (٢ - ٣) :
حكى لنا بعض الأدباء عن « على بن الجَهْم » وكان بدوياً جافيا لما قدم على المتوكل وأنشده يمدحه بقصيدته التى يقول فيها :

أنت كالكلبِ فى حفاظِك للودِّ وكالتَّيْسِ فى قراعِ الخطوبِ
أنت كالدَّلوِ لاعَدِمْناك دلوا من كبارِ الدلا كثيرَ الذنوبِ

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة لفظه ، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبهه به لعدم المخالطة وملازمة البادية، فأمر له بدار حسنة على شاطىء دجلة فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف يغذى الأرواح ، والجسر قريب منه وأمر بالغداء اللطيف أن يتعاهد به . وكان يركب فى أكثر الأوقات فيخرج إلى محلات بغداد فيرى حركة الناس ولطافة الحضر ويرجع إلى بيته ، فأقام على ذلك ستة أشهر والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته . فاستدعاه الخليفة بعد مدة فأنشده :

عيونُ المها بينَ الرُّصافةِ والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيثُ أدرى ولا أدرى
أعدْنَ لىَ الشَّوْقَ القديمَ ولم أكنْ
سلوْتُ ، ولكنْ زدْنَ جمْراً على جمرِ
سلِمْنَ وأسلمْنَ القلوبَ كأنَّما
تُشكُّ بأطرافِ المثقَّفةِ السُّمْرِ
وقلنَ لنا : نحنُ الأهلَّةُ إنَّما
نضُىءُ لمن يسرى بليْلٍ ولا نَقْرى

فقال المتوكل : « لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة » (١)

---

(١) ديوان على بن الجهم ، تحقيق خليل مردم بك ، ص ١٤٣ ، ط ٣ ، لجنة التراث العربى بيروت ، ١٩٥٩م.

من هذه الحقيقة المؤكدة عن تأثير البيئة الطبيعية فى تكوين الشخصية أنطلق فى بحثى عن مقومات الشخصية المصرية موضحاً ملامح هذه البيئة ، مبيناً آثارها .

ولما كانت تأثيرات الطبيعة تتميز - إلى حد كبير - بالثبات فإن الملامح التى تنعكس على الأدب من خلال تأثيرها قلما تختلف من عصر إلى عصر .

وتتشكل جغرافية مصر الطبيعية من : الموقع ، والسطح ، والمناخ ، ولكل دوره فى تشكيل شخصيتها .

الموقع :

لا يختلف موقع مصر بحدوده الطبيعية منذ فجر تاريخها إلى اليوم ، ومصر الحديثة تمتد من خط ٣٥° إلى ٢٥° طولا ، ومن خط ٣١° إلى ٢٢° عرضاً ، وتبلغ مساحتها ٣٨٦١١٠ ميلا مربعا وإن كان الجانب العامر بالحياة من هذه المساحة لا يتجاوز ١٣٥٧٨ ميلا مربعا .

ولقد رسم هذا الموقع صورة البيئة الطبيعية لشخصية مصر إذ أخذت من أثيوبيا الجبلية الوعرة بيئة منبسطة كأفضل ما يكون الاستواء واستمدت منها تربة رسوبية بركانية دون أن تعانى من البركنة والزلزلة ، ثم أخذت مائية الموسميات دون أن تأخذ منها رطوبتها الزائدة ومناخها القاسى (١).

ودور الموقع المصرى فى امتزاج الحضارات الإنسانية القديمة يشهد به تاريخ مصر اليونانية ، الذى جمع بين حضارات الهند والصين والشرق الأدنى واليونان حيث سهل ذلك الموقع عملية احتكاك هذه الحضارات (٢) .

ومصر - بموقعها - تكاد تنفرد بين قدر من العزلة فى غير تقوقع وقدر من الاحتكاك - لا يصل إلى حد التميع ، ومقارنة بين اليمن ولبنان ومصر من هذه الزاوية نجد أن اليمن فى بعض النواحى تشبه مصر فهى المفتاح الآخر للبحر الأحمر ، ومع ذلك فقد أخذت من هذا الموقع المفتوح الانطواء الحضارى والتشتيت خاصة بعد انهيار سد مأرب فى حين أخذت مصر الانطلاق الحضارى وصلابة الشخصية . وكذلك الشأن بالنسبة للبنان ، إذ يشبه موقعه موقع

(١) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٤٥٤ .

(٢) الحركة الفكرية فى مصر د . عبد اللطيف حمزة ، ص ٧ .

مصـر فى بعض النواحـــى لكن هذا الموقع انتهى بلبنان إلى تميع الشـخصيـة وبمصـر إلى التطور والتوازن .

وبهذه المعادلة احتفظت مصر بكيان مستقل وشخصية قوية متميزة ، فلم يؤد موقعها – كواحة صحراوية – إلى الشعور بالذات ذلك الشعور الذى قد يتحول إلى نظرية عنصرية وإنما كان الوعى بالذات إقليميا أكثر منه عنصريا وجغرافياً قبل أن يكون جنسياً (١) .

وسنـرى مدى تأثير هذه القيمة النفسيـة على شخصيـة مصر فى الأدبين الفاطمى والأيوبى (٢)

وتوسط موقع مصر الجغرافى له دوره فى تكوين سمات الشخصية المصرية ، الخلقية والنفسية التى انعكست على الحضارة والآداب ، فقد سهل موقعها – كما سبق ذكره – تلاقى الحضارات وامتزاجها ، ونتج عن ذلك تكوين الذوق المصرى الذى قام بعملية سَبْرٌغور الألوان الثقافية ، حيث أخـــذ يتذوقهـا ويهضمها ، ثم اهتدى إلى تمييز ما يلائمه منها . وهذا ما فعلتـه « هليوبوليس » فى مصر الفرعونية القديمة ، ثم ما فعلته « الإسكندرية » فى العهدين الإغريقى والرومانى ، ثم ما فعلته « القاهرة » فى العصر الإسلامى .

وتأثير الموقع فى تكوين شخصية مصر الأدبية متعدد الجوانب ، فقد لعب دور الوسيط فى تجميع الحضـارات ، وأثر بطريق غير مباشر حين أصبح هذا الموقع حجر الزاوية فى النشاط التجارى ، الذى بلغ قمته فى العصور الوسطى .

ولا يخفى دور هذا النشاط فى نمو الاقتصاد ووفرة الثروات التى تنعكس على كل الفنون ومن أهمها الآداب .

وفى تاريخ أدبنا العربى صـور صـادقـة تروى آيات ازدهاره ، خـلال فـترات التـقـدم

---

(١) شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٨٢ .

(٢) اكتسبت مصر من موقعها الجانب الإقليمى لا التعصب الجنسى وستتجلى آثار هذه الظاهرة فى أدب مصر الفاطمية والأيوبية حين نرى فيضاً من التغنى بمصر وجمالها ، ولكنه خال من روح الشعوبية ، بل أكثر من ذلك فإن معظم الذين تغنوا بها شعراء من أصول جنسية غير مصرية .

الاقتصادى ، كمــا حدث في العصر العباسى الأول فى بغداد والعصرين الفاطمى والأيوبى فى مصر .

السطح :

يرى بعض الباحثين أن هضاب مصر كانت خضراء ممطرة فى الأزمان السحيقة ، وأن مجرى النيل كانت تحفه عدة مستنقعات ، تعذر على الإنسان أن يقيم حياته فيها ، فعاش على الرعى والصيد بين جنبات الهضاب الخضر ، ثم حدث جفاف وتحجرت الهضاب ، وغادرها سكانها ، واتجهوا إلى المستنقعات فى أسفل الوادى وحولوها بجهود جبــارة إلى حقول مزروعة ، تشقها مجارى الرى والصرف ، وبدأ الإنسان المصرى يكون سطح مصر .

« فمصر هبة المصريين » وهذا ما أكد صفات الشخصية ، والرسوخ والانفراد بالذات ، وأثر فى تكوين الشخصية المصرية (١) .

وقد تبلورت صورة السطح منذ فجر التاريخ وتحددت معالمها فى بيئتين مختلفتين : هما بيئة الوادى الخصيب ، وبيئة الصحراء الجرداء ، ولكل منهما سماته الخاصة ودوره الفعال فى تكوين شخصية مصر ، فعلى الرغم من أن منطقة الوادى هى المنطقة المعمورة بالحياة والسكان فإن للصحراء دوراً هاماً فى تشكيل الإنسان المصرى تاريخياً وحضارياً .

ويبدأ الوادى فى الجنوب شديد الضيق تحتضنه من الشرق والغرب مرتفعات ، وتسير بحذائه متجهة نحو الشمال ، فتأخذ المرتفعات فى التواضع فى حين يتسع الوادى حتى إذا بدأ الانفراج عند الدلتا لم يكن اتساع السهل فيها وانخفاض التل حولها إلا استمراراً

---

(١) كانت المرتفعات المحيطة بمصر ممطرة ، ثم جفت فتحولت إلى صحراء ، ولا تزال شواهد سكناها القديمة ماثلة فيما عثر عليه من العديد من الأدوات البدائية التى خلفها الإنسان الأول فى مواضع متفرقة على سطحها . راجع تفاصيل هذه الفكرة فى :

(أ) تاريخ الشرق الأدنى القديم الجزء الأول مصر والعراق ، د . عبد العزيز صالح ، ص ١٦ .

(ب) تكوين مصر . د . شفيق غربال ، ص ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ م

لاتجاهات تحددت منذ البداية . ، وفيما بين الوادى والدلتا يستمر انحدار السطح العام متصلاً مطرداً من الجنوب إلى الشمال .

وقد شكل السطح جسم مصر كما أثر فى تكوين روحها وعقلها . فمصر التى تترامى نحو ١٢٠٠ كيلو متر بين الشمال والجنوب تبدو كالكأس الطويلة أو الزهرة ، ساقها الصعيد ، وزهرتها الدلتا ، وبرعمها الفيوم ، ويشبهها بعض الباحثين بالنخلة : صعيدها باسق ودلتاها كالمظلة المنفرجة فى حين أن الفيوم عرجونها . وقد حدد السطح بهذه الصورة نمط الحياة السياسية والإدارية فى مصر . فمصر مسافة لا مساحة تمثل مشكلة تنظيم إدارى داخلى دون أن تتحول إلى مشكلة سياسية ومسألة وجود وكيان » (١) .

وقديماً وصف « أبو الصلت » فى رسالته المصرية وادى النيل بقوله :

ويكتنفها من مبدئها فى العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل وهو المقطم والآخر فى الضفة الغربية منه ، والنيل بينهما ، وهما أجردان غير شامخين يتقاربان جداً فى وضعها من لدن أسوان إلى أن ينتهيا إلى الفسطاط ، ثم تتسع مسافة ما بينهما وتنفرج قليلا فتتسع أرض مصر من الفسطاط الى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرماء وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية (٢) .

ويتميز سطح مصر بالتجانس فى مسيرة الوادى والتلال المحيطة به وتكوين تربته ، فكل جوانب السطح ومظاهره ، تتدرج على المحور الطولى من المنبع إلى المصب ، فحواف هضبتى الوادى تخضع لظاهرة التدرج تباعداً أو ارتفاعاً ، فهما تزدادان تباعداً كلما اتجهنا شمالاً ، كما تقلان ارتفاعاً ، ومع انفراج الدلتا تزداد الحواف التليّة تواضعاً بمقدار ما تزداد تباعداً (٣) .

وتتزايد التربة سمكا كلما اتجهنا شمالا ، فمتوسط سمكها عند أسوان وقنا حوالى ٦.٧ أمتار ، أما فى جنوب الدلتا فيبلغ متوسط السمك حوالى ٨.٥ الأمتار ، ولا يعرف السطح تغييراً مفاجئاً ، وإن كان ثمة تغيير فهو خاضع لظاهرة التدرج ، ولهذا فإنه لا يبدو واضحاً إلا فى الطرفين فى برارى الدلتا والنوبة العليا ، ومع ذلك فهو اختلاف إقليمى ثانوى الدرجة (٤) .

---

(١) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٧١ .

(٢) الرسالة المصرية ص ١٦ ، نوادر المخطوطات م١ تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مكتبة الحلبى ١٩٧٣م

(٣) شخصية مصر – دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ص ١٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧ .

لقد أثار هذا التجانس انتباه العرب فوصفوا مصر بقولهم : « هى ما بين أربع صفات ، فضة بيضاء ، أو مسكة سوداء ، أو زبرجدة خضراء ، أو ذهبة صفراء ، وذلك أن النيل يعم أرضها، فتصير كالفضة البيضاء ، ثم ينصب عنها فتصير مسكة سوداء ، ثم تزرع فتصير زبرجدة خضراء ، ثم تستحصد فتصير ذهبة صفراء » (١)

ولتجانس السطح أبعاد شتى فى تكوين الشخصية المصرية : فإن هذا التدرج الهادىء ينعكس بالضرورة على المحاصيل الزراعية ، وعلى الإنتاج بل على السكان والحياة (٢) .

وهذه الأرض السهلة المنبسطة ، من شأنها أن تدعم أواصر الجماعة ، فتكسب المصرى سمات الترابط الأسرى والتآزر الجماعى ، وتجعله كثيراً ما يضحى بنزعاته الفردية ، فى مقابل الروح الجماعية .

ويتجلى الفرق واضحاً بين تأثير هذه البيئة السهلية ، وتأثيرغيرها من البيئات الوعرة ، فى تثبيت إحدى النزعتين الفردية أو الجماعية على السكان ، وإذا لاحظنا تأثير جغرافية الأرض المقسمة تقسيماً طبيعياً على سكانها ، حيث تسود بينهم روح النزعة الفردية ، بسبب انتشار البيئات المحلية بما يترتب عليه اختلاف تلون السمات الإنسانية والطباع البشرية .

ومن آثار سهولة السطح على تكوين الشخصية المصرية أنها جعلت الروح المصرية تتسم بالبساطة والوضوح وألفة الرتابة ، ولا شك أن لهذه القيم آيات تجلت فى حضارتها وفنونها (٣)، كما كانت ذات آثار فى الناحيتين اللغوية والدينية ، فمصر تختلف عن الشام والمغرب فى هذا الصدد ، لأن طبيعة الوادى السهلة لا تعرف العقبات الجبلية ، أو القلاع الوعرة التى يمكن أن تعتصم بها الأقليات الدينية ، كما فى الشام ، أو تتحصن فيها الأقليات اللغوية كما فى أجزاء مختلفة من بلاد المغرب (٤) .

وقد استمد وادى مصـــر الخصيب هيئته من نهر النيل الذى يمثل جوهر شخصية

---

(١) نهاية الأرب للنويرى جـ ١ ص ٣٥٧ مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومى القاهرة .

(٢) شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ١٧ .

(٣) الطابع القومى للشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية ، د . عبد العزيز الرفاعى ، ص ٢٤ ، القاهرة ١٩٧١ .

(٤) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ص ٦٠ .

مصر (١) ، فمن طينته الرسوبية تشكل الوادى ومن مائه وتربته نشأت الزراعة ، وقامت أعمال السكان ، وتشكلت علاقاتهم فهم يتعاونون فى صد غاراته عليهم ، وفى تنظيم مياهه لرى أراضيهم ويقيمون أفراحهم مرتبطين بموسم غدوه ورواحه ، وقد اتخذوه مركباً يصل بين أطراف مساكنهم وقراهم فسهل تجارتهم الداخلية، واعتمدوا عليه فى تجارتهم الخارجية حيث كانت (قناة أمير المؤمنين) (٢) تصل ما بين البحر الأحمر والنيل ، وفيها تواصل السفن سيرها إلى الإسكندرية ، ولم تكن وسيلة مواصلات لنقل البضائع والنشاط الاقتصادى فحسب ، بل كانت حلقة اتصال بين المصريين داخل بلادهم اتصالاً سياسياً وحضارياً ، وعاملاً من عوامل وحدتهم الوطنية والنفسية ، كما كان عامل جذب للحضارات الخارجية وانصهارها بمصر ، فأصبح دعامة استقرار وتنظيم واجتذاب .

وقد أحس المصريون القدماء بقيمة النيل فى حياتهم فاتخذوه معبودهم وقدموا له القرابين ، وأصبح محوراً من محاور الفن الشعبى والأساطير المصرية .

وشغل جانباً كبيراً فى التراث العربى بمختلف علومه وفنونه ، فتحليل مياهه وأثرها فى جسم الإنسان كان موضع بحث « لابن وحشة » فى كتابه عن الفلاحة ، كما كان تأثير النيل على الطبع المصرى موضع دراسة « لابن خلدون » فى مقدمته ، وكان لمدحه وذمه نصيب فى كتاب « الكندى » عن فضائل مصر .

---

(١) انظر ما جمعة الكندى حول وصف النيل فى كتابه « فضائل مصر » تحقيق د . أحمد العدوى وعلى محمد عمر . القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٢) قناة أمير المؤمنين تطلق على قناة تربط النيل بالبحر الأحمر ، وهذه القناة قديمة حفرت قبل دخول العرب ثم أعيد حفرها على يد عمرو بن العاص بعد أن طمست قبل دخول العرب إلى مصر . وظلت مفتوحة إلى أن قام محمد بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب بالمدينة ودعا إلى خلع المنصور فكتب المنصور إلى عامله على مصر أن يطم هذا الخليج حتى لا تحمل الميرة منه إلى أهل المدينة المنورة فطم وعفى أثره . تاريخ مصر مخطوطة بمكتبة باريس الوطنية تحت رقم ٦٠٣٦ لمؤلفها « نوح أفندى » ص ٤ . راجع تفاصيل هذه القناة ودورها فى النشاط التجارى ما كتبته د . سيدة الكاشف فى كتاب مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، ص ١٦٧ وما بعدها ، القاهرة سلسلة الألف كتاب رقم ٢٤١ .

أما دوره في الأدب المصري قديمه ووسيطه وحديثه فكان ولا يزال موضوع دراسة ومصدر إلهام .

ولقد كانت الصحراء صمام الأمان للحفاظ على الشخصية المصرية ، حفاظاً يسير في خطين متوازين :

أولهما : حمايتها من الذوبان أو التميع ، **وثانيهما** : الاحتفاظ بحضارتها على مر الزمن .

وقد تجلى عملها الأول في حماية مصر من الغزوات الأجنبية ، حيث ظلت الصحراء واقفة بالمرصاد أمام الزحف الأجنبي لا تسمح له بالنفاذ إلى عمق الوادي إلا بقدر ضئيل . فإذا ما نفذ ذاب وتمصر .

إن دور الصحراء المصرية في هذا الصنيع يختلف عن دور الصحراء العراقية ، فالبوادي المحيطة بالعراق أشبه بالتلال الكثيرة التي تشرف على سهل فسيح تنصب فيه سيولها متدفقة كالبحار ، جارفة في تدفقها كل ما تصادفه من رمال وأحجار ، فإذا تجمع كل ذلك في بطن السهل واختلط ماؤه بترابه تألف له من ذلك سطح غير سطحه الأول ، وتربة غير تربته الأولى ، ومن هنا استطاعت القبائل الوافدة على العراق أن تغير من نظمه وأخلاق سكانه ، وأن تبدل من شخصيته (١) .

وعلى العكس من ذلك كانت الصحراء المصرية مصفاة تمر خلالها الأجناس الوافدة لتسلمهم إلى بطن الوادي حيث تتم عملية التذويب والانصهار .

ولصحراء مصر دور آخر لا يقل قيمة عن دورها الأول ، يتجلى في الحفاظ على آثار شخصيتها وتراثها الذي يعد دعامة من أهم دعائم مقوماتها ، فلقد تحولت بطن الصحراء إلى وعاء يضم أوراق البردي ويحميه من غوائل الزمن ، فصانت بذلك حضارة مصر وتراث شخصيتها .

---

(١) الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ، د. عبد اللطيف حمزة ، ص ٦ .

واستمرت صحراء مصر تساند الطبيعة الدينية فى الشخصية المصرية بما تهيئه لها من وسائل الثبات والاتزان والاستغراق ، فعلى جنباتها أقام كهان وادى النيل معابدهم ، وفى رحباتها أوى رهبان مصر المسيحية يحتمون بها .

وقد أكسبت صحراء مصر الشاسعة على الجانبين سكان وادى النيل قدراً من العزلة الروحية والاعتداد القومى ، ذلك أنهم سكنوا فى واديهم الضيق بين متاهات الصحراء ، وكان يقطن الجنوب – حيث يهيىء خانقه مدخلا إلى البلاد – شعوب كانت على الدوام أقل منهم تحضراً ، ولم تكن لهم صلات بحضارات تضارعهم إلا عن طريق الدلتا فكان طبيعياً أن تكون نظمهم السياسية مستقلة بذاتها إلى حد بعيد ، وأن يتمسكوا كل التمسك بعاداتهم الموغلة فى القدم ، وأن يتولد فيهم قدر من العزلة الروحية والاعتداد القومى ، وهى صفات نلمسها فى كثير من الأساطير والتقاليد (١) ولكن هذه العزلة لم تتحول يوماً ما إلى قضية عنصرية أو عصبية جنسية .

المـــــــناخ :

مصر من الناحية المناخية منطقة انتقالية ، وذلك بحكم موقعها الفلكى الكوكبى ، كذلك فإن العامل المسيطر على مناخها عامل واحد بالدرجة الأولى هو كتلة القارة واليابس الأفريقى الصحراوى ، أما البحر المتوسط فينتحى إلى مرتبة ثانوية عامة ومحلية بصفة خاصة ، ولهذا تسيطر على مصر كقاعدة وبانتظام الرياح الشمالية الجافة ، لا يستثنى منها إلا شمال الدلتا .

ومن هنا فإن مناخ إقليم مصر يتسم بقربه من الرتابة حتى ليقال إن لمصر مناخاً وليس لها طقس .

وإن كان الامتداد عبر عشر درجات عرضية تقريباً ، يخلق بعض فروق محلية فإنها لا تتضح إلا فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب ، ففى أقصى الشمال شريط ساحلى ضيق من مناخ البحر المتوسط . بينما يظل المناخ الصحراوى الحار الجاف يحتل سماء مصر التى تقع برمتها دون مدار السرطان .

والواقع أن الفروق الحقيقية فى المناخ المصرى هى الفروق الفصلية قبل أن تكون الفروق الإقليمية . فالفرق بين مناخ الصيف والشتاء فى نقطة واحدة من القطر أوضح وأهم من الفرق بين مناخ أى نقطتين فى فصل واحد (٢) .

---

(١) مصر من الاسكندرية الأكبر إلى الفتح العربى ، هـ ، إيدرسن بل ، ص ٥ .
(٢) شخصية مصر ، دراسة عبقرية المكان ، د . جمال حمدان : ص ٢٤ ـ

وهذا التجانس الأساسى فى المناخ ينعكس على المحاصيل الزراعية وعلى نوع الغذاء : وبالتالى يؤثر فى تكوين الشخصية المصرية جسمياً ونفسياً .

وقد عرفت مصر بطيب خيراتها منذ قديم الزمان ، وذلك بسبب تجانس واعتدال مناخها، فمما يروى عن طيب خيرها فى العصور الوسطى أنه فى كل شهر من شهور القبط صنف من المأكول والمشروب والمشموم يوجد دون غيره ، فيقال « رطب توت ، ورمان بابه ، وموز هاتور ، وسمك كيهك ، وتين بؤونه ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى » (١) .

ويصف المقريزى مناخ مصر بقوله :

« مصر متوسطة الدنيا ، سلمت من حر الإقليم الأول والثانى ، ومن برد الإقليم السادس والسابع ، ووقعت فى الإقليم الثالث فطاب هواؤها ، وضعف حرها ، وخف بردها وسلم أهلها من مشاتى الأهواز ، ومصايف عمان ، وصواعق تهامة ، ودماميل الجزيرة أو جرب اليمن ، وطواعين الشام وحمى خيبر . وأمنوا من نزق الأنهار وقحط الأمطار » (٢) .

واهتم « ابن خلدون » فى مقدمته بملاحظة الصلة بين البيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية ، ومقومات الشخصية البشرية من الناحيتين العضوية والنفسية ، وطبق هذه الدراسة على مصر ، فاهتدى إلى وصف المصريين بجملة صفات من بينها المرح والخفة .

لقد غرس مناخ مصر المعتدل المنتظم فى أعماق الشخصية المصرية هدوء الطبع ، واستقرار النفس ، وجنبها الانفعالات والتقلبات التى تثيرها حدة الطبع وانحراف المزاج .

ومقارنة بين مناخى مصر والجزائر ، وأثر كل منهما على السكان تبين لنا الفروق الواضحة بين الشخصيتين وأثر المناخ فى تكوينهما . فمناخ مصر يتميز بالثبات والتحول التدريجى . وأثار هذا الجو المتقلب تفسرها الإجابة الشائعة على ألسنة كثير من الجزائريين حينما تسأله كيف حالك اليوم فيجيب : « كما الطقس » .

لم يتعود غالبية المصريين فى بلادهم تساقط الأمطار أو تجمع السحب السوداء التى تحجب ضياء الشمس ، وإنما صفا جو بلادهم معظم أيام السنة وسطعت أشعة شمسهم فى كل مكان ، ولم تنتشر الغابات الكثيفة فى أراضيهم مخفية بين أشجارها المتشعبة عوالم يقطفها الحيوان أو الإنسان ، ولم تقم الجبال الشاهقة تحجب وراءها بلدانا أو قرى ولم تتفرق الجزر فى مساحات متباعدة فتحول دون الاتصال السريع بين سكانها . وإنما كان ولا يزال الوضوح بأجل

(١) نهاية الأرب النويرى جـ ١ ص ٣٥٦ ، وفضائل مصر الكندى ص ٧٠ .
(٢) خطط المقريزى ط مكتبة إحياء العلوم ، لبنان ، جـ ١ ص ٤٤ .

معانيه سمة الطبيعة المصرية ، فأصبح سمة الشخصية المصرية أيضاً .

فليس غريبا أن يترتب على ما ألفه المصريون القدماء من غلبة الخير على الشر فى أحوال نيلهم وواديهم وصحراواتهم ومناخهم بعض الأثر الذى صبغ حضارتهم الطويلة بصبغة غالبة من مظاهر الاستقرار والاتصال ، وصبغ حياتهم السياسية بطابع الهدوء والاستمرار ثم الإيحاء إليهم بنوع من الشعور التلقائى بالكفاية ، كفاية الجهد المنتج فى الأرض ، وكفاية الموارد النسبية بها ، فضلا عن كفاية الحضارة فى بلدهم بوجه عام دون حاجة إلى مدد خارجى كبير .

ولم يكن انطباع المصريين بيسر البيئة واستقرارها ووضوح معالمها بغير أثر – مرة أخرى – فى ثبات تقاليدهم وثقافتهم ، وصبغ إنتاجهم الفنى القديم بصبغة غالبة من بساطة الخطوط ووضوح التعبير وسماحة الهيئة والطابع إذا قورن بغيره ، فضلا عن ثبات عقائدهم الدينية التى استوحوها من بيئتهم وبعدهم عن مظاهر التعصب المذهبى وتغليبهم طابع الرحمة فى أربابهم على طابع العنف والنقمة ، بل لم يكن بغير أثر – كذلك – فى تزكية آمال المصريين فى عالم آخر مستقر يجدون فيه أحسن ما استحبوه من الطمأنينة والكفاية والاستقرار فى دنياهم (١)

فالبيئة الفيضية فى مصر جمعت فى تناسب معقول بين حوافز النشاط وإمكانات العمل، فلم تكن الثمرة تسقط من الأشجار لفلاحين كسالى وتوفر النيل والشمس خامات الحياة . ولكن كان لابد لصنعها من معركة ضد الموت ، ضد الفيضانات وضد الرمل والملح (٢) .

فمن البيئة الفيضية اكتسب المصرى صفات الجهد والكدح والصبر والتعاون الجماعى .

الأجناس البشرية .

إذا كانت معرفة الجنس الأصلى لأى شعب من الشعوب مسألة عسيرة ومحوطة بالشكوك والغموض فمن الثابت تاريخيا أن هناك روافدَ عرقية وأصولا جنسية مختلفة احتكت وتفاعلت وأثرت فى بناء الجنس الأصلى للمصريين تأثيراً يختلف قدره تبعا للظروف التى تم فيها (٣)

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول، مصر والعراق ، د. عبد العزيز صالح ص ٤ ، القاهرة ١٩٧٣م.
(٢) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ١١٥
(٣) حاول بعض الباحثين قدامى ومحدثين تحديد الجنس الأصل للمصريين ومن هذه المحاولات ما ذكره كل من ابن عبد الحكم فى فتوح مصر وأخبارها ص ١٨ .. الكندى فى كتابه فضائل مصر ص ٢٨
المقريزى فى خططه جـ ١ ص ٢٧ القلقشندى فى صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣١٣
النويرى فى نهاية الأرب جـ ١ . د . عبد العزيز صالح فى تاريخ الشرق الأدنى القديم جـ ١ ص ٢ وما بعدها

وأهم هذه العناصر :

الهكسوس (١) والليبيون (٢) والأثيوبيون(٣) والأشوريون(٤) والفرس (٥) واليونان (٦)

(١) اندفعت جماعات الهكسوس إلى مصر من جهة الشرق فى أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريباً ، واستمر وجودهم فى مصر حوالى قرن من الزمان ، وقد أوضح هذا الاحتكاك بعض خصائص الشخصية المصرية ، كما أسهم فى تكوينها وخاصة فى النواحى الاجتماعية ، فقد أكسبت مصر الهكسوس بعض عاداتها الاجتماعية ، من ذلك أن الهكسوس جمعوا بين أسمائهم الأجنبية وأسماء مصرية ، وتشبهوا بالمصريين فى ألعابهم وملابسهم

تاريخ الشرق الأدنى القديم ، د . عبد العزيز صالح ، ص ١٨٧ .

(٢) دخل الليبيون مصر متسللين فى عصر الأسرة ١٦ ، وعملوا جنوداً مرتزقة ثم استولوا على الحكم كما فعل المماليك فى مصر فى العصور الوسطى ، وقد تمصر الليبيون فى مصر كشأن مصر مع جميع الوافدين إليها ، فلم يلبث الليبيون أن تناسوا أصلهم الليبى ولم يذكروا عن أنفسهم إلا أنهم فراعنة يدينون بديانة المصريين .

انظر : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ١٠٦ .

(٣) دخل الأثيوبيون مصر من الجنوب وتولوا حكمها خلال الأسرة الخامسة والعشرين ما بين ٧٣٠ – ٦٦٥ ق . م بعد أن طردوا الليبيين ، ولم يعتبر الأثيوبيون أنفسهم دخلاء على مصر بل رددوا فى متونهم أنهم أحلاف طيبة وأتباع الدين الصحيح لأله آمون .

انظر : تاريخ الشرق الأدنى القديم ، د . عبد العزيز صالح ، ص ٢٦٥ .

(٤) قدم الأشوريون من شمال العراق الى مصر غازين : وقد أوضح احتكاك هذا الجنس بالمصريين طبيعة الشخصية المصرية فقد قاومت هذا الغزو حتى طردته ،وباسم الدين راح كهان وادى النيل يبشرون ، ويشجعون الأمراء المصريين حتى تحقق لهم النصر .

انظر : تاريخ الشرق الأدنى القديم : د . عبد العزيز صالح ، ص ٢٧٢ .

(٥) وفدت العناصر الفارسية إلى مصر مرتين ، كانت الأولى على يد « قمبيز » واستمر بقاؤهم أكثر من قرن خلال الأسرة السابعة والعشرين . والثانية على يد « كسرى » الثانى عام ٦١٦ ق . م ، وقد صبغت مصر بعض الأسر الفارسية بعاداتها فسموا أبناءهم بأسماء مصرية واتجهوا بدعواتهم إلى الأرباب المصرين ، وساهم بعض ملوكهم فى إنجاز معابد مصرية فى الدلتا والواحات .

(٦) جاءت إلى مصر جماعات من الإغريق تجاراً وملاحين وجنوداً مرتزقة قبل غزو « الإسكندر الأكبر » لمصر عام ٣٣١ق.م وعمل « بطليموس » على استيطان جاليات من شعبه بمصر ، وقد أثمر وجود الإغريق فى مصر تشييد مدينة الإسكندرية التى لعبت دوراً كبيراً فى الأدب خلال العصرين الفاطمى والأيوبى ، كما عكس هذا الاحتكاك أثر الناحية الدينية فى الشخصية المصرية التى أدركها « الإسكندر » وراح يتقرب إلى المصرين بالرحلة إلى معبد آمون وادّعاء البنوة لآمون

انظر : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى هـ ايدرس . بل . ص ٣٩

والرومان (١) والترك (٢) ، والسودان (٣) والعرب .

وتتميز العلاقة بين الجنسين المصرى والعربى بأنها علاقة امتزاج ، أما علاقة المصريين بغير العرب من الأجناس السابقة فأجدر أن نسميها علاقة اتصال أو احتكاك .

وعلاقة العرب بالمصريين بدأت قبل الإسلام عن طريق التزاور أو طريق الاستيطان أما طريق التزاور فقد سلكه تجار العرب الذين جذبهم ثراء مصر ووفرة خيراتها وتوسط موقعها .

ومنذ أقدم العصور وصعيد مصر عامر بالتجار العرب الذين أتو إليه عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى إن المؤرخ والجغرافى اليونانى « سترابون » المتوفى نحو ٢٥ م قال عن مدينة قفط « KOPTOS » فى الصعيد : إنها مدينة نصف عربية (٤) .

وظل طريق سيناء ينقل الأفواج العربية إلي مصر تجاراً ومهاجرين وكان من بين روادها فى العصر الجاهلى عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان ، والمغيرة بن شعبة وغيرهم .

ويلاحظ على طبيعة هذا الاتصال أن بعض الموجات العربية لم تتجاوز منطقة الوجه البحرى وبعضها الآخر توغل إلى أعماق الصعيد مما جعل تأثير العرب موزعاً فى اتجاهات متعددة ، وأن حياة النازحين فى تلك الفترة أشبه ما تكون بحياة الجاليات الأجنبية فى كنف حكومة غير عربية وأن هذه الجاليات لم تكن متحدة اللغة أو الدين أو السياسة .

كانت الجماعات الوافدة على مصر بعد ميلاد السيد المسيح من أعقاب سبأ ، ومن هؤلاء كانت طلائع العرب الوافدين فى ظل الحكم الإسلامى بل كانوا يمثلون الغالبية من العرب فى مصر ، غير أن وضعهم حينئذ كان يختلف عن وضعهم فى الجاهلية إذ تكاثرت أعدادهم

---

(١) أخذ الجنس الرومانى مكانه بين المصرين ابتداء من سنة ٣٠ ق . م ، ولكنه لم يمتزج بالمصريين وظلا متنافرين سواء قبل اعتناق المسيحية أو بعدها ، وإن حاول الرومان التقرب إلى المصرين من زاوية العقائد والتقاليد الدينية ، وكان من أثر اضطهاد الرومان للمصريين ظهور الرهبنة « عند المصرين ، كما كان لنظم الحكم الرومانى فى مصر آثار عدة فى تكوين الشخصية المصرية .

(٢) الترك يشمل كل الأخلاط التى وفدت إلى مصر من ترك وديلم وصقالبة وشركس وغيرهم وقد قوى نفوذهم بمصر فى أواخر العصر الفاطمى ثم ازداد فى العصر الأيوبى وحكموا البلاد فى العصر المملوكى . البيان والإعراب للمقريزى ص ١١٥ .

(٣) استخدم الخليفة المستنصر هذا الجنس فى حراسة القصر وعلاقاتهم بمصر أسبق من ذلك وما تزال مستمرة . مصر ورسالتها ، حسن مؤنس ، ص ١٤٠ .

(٤) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة إسماعيل الكاشف ص ١١ ، ١٢ .

واستمدوا نفوذهم من السلطة العربية الحاكمة (١)

ثانياً - الفتح العربى وتتابع الهجرات :

منذ قدوم « عمرو بن العاص » إلى مصر مع نفر من جنوده العرب الفاتحين سنة ٢٠ هـ والجاليات العربية تتوافد تباعاً لتحيا فوق تراب مصر حياة منعزلة حيناً وملتحمة بالمصريين أحياناً ، ومع هذا المد المتصل من الهجرات العربية تتوالى أحداث سياسية ، وتنشأ ظروف اجتماعية تهيئان المناخ الطبيعى لعملية مزج ، أو انصهار حقيقى ينبثق منها كيان مصر العربية ، وتتحدد ملامح أدبها المعبر عن شخصيتها .

وإذا تتبعنا عملية الاحتكاك الجنسى فى مصر الإسلامية منذ فتحها حتى نهاية العصر الأيوبى وجدناه يمر بمراحل أهمها ما يلى :

المرحلة الأولى : ويمكن أن نطلق عليها مرحلة « الفتح » وفى تلك المرحلة عاش العرب عيشة القبيلة فى خطط أو قطائع أشبه بجاليات أجنبية فى وسط الشعب المصرى شأنهم فى ذلك شأن بقية العرب القاطنين فى مختلف البلاد ، حيث دأبوا على الحياة داخل معسكراتهم فى الأمصار أو فى الأجناد أو فى الثغور أو الرباط . وفى هذه المعسكرات أقاموا مسجداً يجتمعون فيه ويقيمون شعائر دينهم (٢) .

وعلى هذه الصورة عاشت القبائل العربية الوافدة مع جيش الفتح واختطت لها مدينة الفسطاط ، ومع ذلك فإن هذه المرحلة تسجل احتكاكاً بين الجنود العرب والأسرة المصرية . إذ نزل هؤلاء الجنود ضيوفاً على القبط . فقد اشترط على القبط بعد الفتح أن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين ، وجبت له الضيافة ثلاثة أيام ، ولعل السبب الذى حدا بالعرب إلى ذلك هو إقامتهم بالعاصمة والثغور وقد أخذ العرب واجب الضيافة من الرومان والبيزنطيين فى مصر (٣)

---

(١) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، المقريزى ص ٩١ ، ٩٢ تحقيق د . عبد المجيد عابدين .

(٢) التاريخ السياسى للدولة العربية ، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين ، جـ ١ ، د . عبد المنعم ماجد ط ٤ سنة ٦٧ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ، ص ٤٣ - ٤٤ .

المرحلة الثانية : وفيها يبدأ الاستقرار ، وهى المرحلة التى يصفها المقريزى بقوله : لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عند ما أنزل « عبيد الله بن الحبحاب » مولى سلول « قيساً » بالحوف الشرقى ، فلما كانت المائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها (١).

ولعل القيسية هم أول من فتحوا الأمصار وسكنوها ، وأول من أذن لهم فى ملكية الأرض واستغلالها ، أما معظم القبائل السبئية ، فقد انصرفوا بعيداً عن الحياة الزراعية زمناً بعد استقرار القيسية فى بلبيس(٢).

وفى هذه المرحلة نرى الوجود العربى فى مصر قوى متكافئة ومتفرقة على ديار مصر بنسب أكثر وأشد تنوعاً من ذى قبل ومقسمة من حيث طبيعة العمل إلى فريقين ، فريق مستقر انصرف إلى الأرض يزرعها أو بضاعة يتاجر فيها ، وفريق آخر آثر حياة البداوة ، يعيش على الرعى والغارات .

المرحلة الثالثة : وتمثل دور الأحلاف إذ كان قوامها بقايا العرب الذين احتفظوا بقبليتهم مضافاً إليهم أفواج العرب المهاجرين إلى مصر فى العصور التالية .

وقد تدفقت قبائل عربية على مصر وأخذت مكانها فى تمثيل الشخصية المصرية ولم تنقطع هذه المدة طوال العصور الوسطى .

ففى عهد الفاطميين تدفقت جماعات من بيوت قريش فى الحجاز وغيره ، وكان بعضها فى هيئة أحلاف تجمع بيوتاً مختلفة من القرشيين ومواليهم ، ورحب الفاطميون بهم فى ديار مصر ، سواء من كان منهم على مذهب الفاطميين أو على غير مذهبهم ، وكان من بين الطوائف الوافدة جماعات من العمريين من سلالة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه أيام الفائز الفاطمى فى وزارة «الصالح طلائع بن رزيك » ، ومعهم طائفة أخرى من بنى عدى وبنى كنانة بن خزيمة ، ونزلت جماعة منهم بدمياط والبرلس ، وكذلك ظهرت جماعات من أقارب الفاطمين من سلالة جعفر الصادق فسكنوا مناطق بين منفلوط وسمالوط ومنهم السلاطنة والحيادرة والحسينيون ،

---

(١) البيان والإعراب عما بأرض مصر عن الأعراب ٤ المقريزى ص ١٠١ ، ٢ : ١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٢ .

ولهؤلاء قرية قرب منفلوط لا تزال تحمل اسمهم إلى اليوم تسمى بنى حسين (١)

وكان لقبائل طيىء التى لمع اسمها أيام الفاطميين فضل كبير فى محاربة الصليبيين فأراد « صلاح الدين الأيوبى » مكافأتهم ، فنقل منهم نفراً إلى الحوف الشرقى وأسكنهم مساحات واسعة فى أرض جزام فى الجانب الشمالى الشرقى من الحوف (٢)

ومما لا شك فيه أن وفود هذا العدد الضخم من القبائل العربية إلى مصر واستقرارهم بها كان من أقوى العوامل التى حولت مصر إلى دولة عربية . وقد حدث هذا نتيجة تفاعل شديد بين العرب والمصريين جعل العنصرين يمتزجان امتزاجاً تاماً بحيث أصبح من الصعب أن نفرق بين العربى الأصيل وبين المصرى الأصيل (٣)

وليس من الصواب أن الموجة العربية الإسلامية أزاحت الأساس القبطى إلى الصعيد ، كما حدث مثلا فى الشام أو المغرب فالانتشار العربى فى مصر كان عملية تغلغل لازحزحة (٤)

ولقد ساعد على سرعة ونضج المزج - إلى جانب ما ذكرناه من أسباب - عامل آخر يرجع إلى طبيعة العرب الوافدين ، فإن هؤلاء العرب الذين أتوا إلى مصر لم يكونوا من البدو الذين لاحضارة لهم ، وإنما كان معظمهم من العنصر اليمنى الذى اشتهر منذ القدم بحضارته الراقية وإن كانت هذه الحضارة قد اضمحلت عند قيام الإسلام ، ولكنها تركت فى نفوسهم بقية استعداد للتمدن والتحضر مما ساعد على اندماجهم فى الحضارة المصرية وخلق فنون وآداب تمثل الشخصية المصرية وتعبر عن وجهها العربى الإسلامى(٥)

ثالثاً : عوامل امتزاج الجنسين :

(أ) علاقة الحكام العرب بالمصريين :

أحسّ أقباط مصر منذ الأيام الأولى للحكم العربى بالفارق الكبير بين العرب وغيرهم من الشعوب ، بل تولد هذا الإحساس فى نفوس المصريين قبل الفتح العربى ، ومهد له وأعان على

(١) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب . المقريزى . ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ١١٧ .

(٣) الحياة الفكرية الأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية . د . محمد كامل حسين. ص ٣٠

(٤) شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان . د . جمال حمدان . ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٥) مصر فى عصر الولاة . د. سيدة الكاشف . ص ١٥٠ .

تثبيت أقدامه ، وقد قرب المصريين من العرب ما وجدوه فى الإسلام من نصوص تهتم بهم ، وتبرز شخصيتهم وتوصى بهم خيراً (١)

حقا لقد فرق الإسلام نوعا من التفرقة بين المسلمين والذميين فى بعض المظاهر الاجتماعية كالزى والركوب ، لكن هذه المظاهر شكلية وهينة جداً إذا ما قورنت بمواقف الرومان - مثلا - من المصريين فضلا عن أن حكام مصر المسلمين لم يطبقوها إلا نادراً .

وقد دافع الحكام العرب عن حرية أقباط مصر ، ووقفوا لهم درعا واقية ضد ثورات بعض أفراد القبائل العربية بمصر خاصة فى المرحلة الأولى من العلاقة بين الجنسين ، من ذلك أن بعض المسلمين هدموا كنيسة أنشأها النصارى بمدينة « تنيس » سنة ٣٠٠ هـ فلجأوا إلى السلطان فأعانهم على إعادة بنائها واستخدم الإخشيد جنوده فى تمكين النصارى من إصلاح كنيسة أبى شنودة فى مصر .

وكان بعض قضاة مصر يسمح للنصارى بدخول المسجد ويجلس للقضاء بينهم (٢).

ولم يمض وقت طويل على الحكم العربى بمصر حتى ذابت فكرة العصبية العربية فى الحكم الإسلامى . وتولى أمر مصر حكام ليسوا من ذوى أصول عربية ، ولكن مصر تقبلتهم بقبول حسن وأضفت عليهم من طابعها الأصيل ، فلم يجد حكامها المسلمون غضاضة من مشاركة القبط أعيادهم الدينية ، وليس بدعا أن نرى المصريين يحتفلون بعدة أعياد جمعوا بينها فى مزيج مصرى ، منها ما كان من وحى الطبيعة المصرية ومنها ما هو موروث من الديانات القديمة أو الشرائع السماوية (٣).

وأسند حكام مصر خلال الدولتين الفاطمية والأيوبية مناصب عالية إلى كثير من النصارى وكانت العلاقة بين كبار النصارى وحكام مصر علاقة تعاون واحترام فى كثير من الفترات .

يقول ناصر خسرو :

« رأيت فى مدينة مصر نصرانيا من سراتها قيل إن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد ، وحدث فى سنة ما إن كان النيل ناقصا وكانت الغلة عزيزة ، فأرسل الوزير إلى هذا

---

(١) راجع فضائل مصر للكندى ، حسن المحاضرة للسيوطى .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ترجمة د . عبد الهادى أبو ريده . القاهرة ١٩٥٧ م . آدم متز . جـ ١ ص ٧٤ وما بعدها .

(٣) مصر فى عصر الولاة . د . سيدة الكاشف ص ١١ .

النصراني ، وقال : ليست السنة رخاء والسلطان مشفق على الرعية فأعط ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرضا . قال النصراني : أسعد الله السلطان والوزير ، إن لدى من الغلة ما يمكنني من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات .. فأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل للسلطان بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر (١)

(ب) تعريب الدواوين :

كانت الدواوين فى البلاد التى فتحها العرب تسجل بلغاتها الأصلية ، وقد أبقى « عمر بن الخطاب » على النظام الإدارى فى البلاد المفتوحة ، ومن بينها الدواوين (السجلات) تكتب باللغة اليونانية فى الشام ، وبالفارسية فى فارس العراق ، وبالقبطية فى مصر(٢)

واستمرت الدواوين تعمل بلغاتها المختلفة حتى كان عصر « عبد الملك بن مروان » الخليفة الأموى ، ونقل الديوان من الفارسية إلى العربية (٣) .

وكان « الحجاج بن يوسف الثقفى » صاحب اليد الطولى فى الأخذ بهذا التعريب فى بلاد العراق .

أما فى مصر فقد بدىء فى تعريب دواوينها فى خلافة « الوليد بن عبد الملك » وذلك سنة ٨٧ هـ ، ٧٠٦ م .

ويذهب أحد الباحثين إلى القول بأن تعريب الدواوين فى مصر إنما تم من اليونانية إلى العربية ، ولم يكن نقلا من القبطية إلى العربية . وأن ما ذكره مؤرخو العرب من كون الدواوين بمصر كانت بالقبطية ثم نسخت بالعربية لا يؤيده شىء من الآثار المحفوظة .

وقد يكون الحامل للعرب على هذا القول أنهم لما رأوا عمال الدواوين فى مصر من الأقباط ظنوا أن عملهم كان بالقبطية : أما النص العربى الذى كان مصدر هذا الزعم ، فمذكور فى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى ص ٥٨ . قال : « حتى كانت ولاية « عبد الله بن عبد الملك ابن مروان » فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف « عبدالله

---

(١) سفر نامه لناصر خسرو . المترجم إلى العربية ص ٦٣ . ترجمة د : مصطفى الخشاب .

(٢) التاريخ السياسى د . عبد المنعم ماجد ص ٢٣٧ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير . أخبار سنة ٦٦ هـ ص ٥٢٢

ابن أشناس » عن الدواوين ، وجعل عليها ابن يربوع الفزاوى من أهل حمص ، وذلك سنة سبع وثمانين هجرية » (١)

(جـ) حرمان العرب فى مصر من مرتبات ديوان الجند :

من أهم العوامل التى ساعدت على اندفاع العرب إلى الالتحام الكامل بالمصريين قانون أصدره الخليفة العباسى « المعتصم » يقضى بإسقاط العرب من ديوان الجند (٢) .

وقصة هذا الديوان تبدأ منذ عصر الخليفة « عمر بن الخطاب » فمن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعتمد على جيوش متفرغة للقتال منقطعة له حتى ولى الخلافة عمر ابن الخطاب ، واتسعت الإمبراطورية الإسلامية - ولم يعد نصاب الجيش من الغنيمة كافياً للإنفاق على المقاتلة فرتب « عمر » ديوان الجند ، ونظم للمقاتلة من الحجاز أو من انضم إليهم من عرب الجزيرة (روادف) مرتبات ثابتة تسمى العطاء ، يتسلمونها وعائلاتهم من الصبيان والنساء . وكان العطاء بقدر قرابتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وشهودهم بدراً ، أو المواقع المشهورة مثل القادسية واليرموك ، وكانت أسماؤهم مسجلة فى ديوان يسمى ديوان الجند .

وقد استمر هذا العطاء يدفع للعرب حتى خلافة المعتصم العباسى (٢١٨ ، ٢٢٧ هـ) (٣) ، الذى استكثر من جند الأتراك وأثبتهم فى الديوان وأمر واليه فى مصر « كعب بن نصر الصفدى » بإسقاط العرب من ديوان مصر وقطع العطاء عنهم ، وترتب على هذه الحادثة أن انصرفت جماعات من قبيلة لخم وجذام ومن على شاكلتهم ، إلى السعى وراء الرزق من موارد أخرى ، غير الجهاد والحرب ، وتفرقوا فى الجهات المصرية لممارسة الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو غير ذلك من المهن التى كانت إلى ذلك الحين وقفاً على القبط . (٤)

---

(١)الأدب العربى بمصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ، محمود مصطفى ص ٢٩ .

(٢) البيان المغرب فى أخبار الأندلس لابن عذارى المراكشى جـ ٢ ص ٤٠ تحقيق ومراجعة ليدى بروفنسال : بيروت : ١٩٦٧ .

(٣) التاريخ السياسى : د . عبد المنعم ماجد ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٤) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ص ٥٠ .

سمات الشخصية المصرية

لقد شكل كفاح المصرى فى بيئته الطبيعية صورة الحضارة المصرية التى أخذت تستمد من دفء المناخ وعذوبة النيل وعرق الشعب وسائل نموها وازدهارها .

وظلّت الفلك – وهى رمز الحضارة المصرية – تمخر عباب بحور الزمن حفيظة على كيانها الأساسى ، وجوهرها الحقيقى ، ملقية فى أحضان البحر ما رث من ثيابها مجددة من شطآن الموانىء التى أرست عليها ما استكملت به بنيانها وجددت به شراعها ، حتى إذا ما قاربت مشارف العصر الفاطمى تبدت فى صورة مميزة لكنها متلاحمة شديدة التلاحم . شأنها فى ذلك شأن الإنسان والمجتمعات فى التكوين والتأثير والتأثر .

ومن ثم فلا سبيل إلى التعامل معها – دراسة أو تحليلا – إلا من خلال مظاهرها المتعددة . ويمكن تقسيمها – تقسيماً اعتبارياً – إلى الجوانب التالية :

١ – الجانب السياسى المعبر عنّ العلاقات الخارجية والنظم الإدارية وأساليب الحكم الداخلى .

٢ – الجانب الاجتماعى المعبر عن طبيعة العلاقات بين أفراد المجتمع وعاداتهم ونظام حياتهم بما فيها من عقائد دينية وأعياد ومراسيم وأعمال إلى غير ذلك .

٣ – الجانب الاقتصادى : من الثروات الطبيعية إلى الموارد المختلفة والنظم والعلاقات .

٤ – الجانب الفكرى والثقافى من علوم وفنون وآداب .

الشخصية السياسية

لعل مصر أول أمة عرفها التاريخ ظهرت إلى الوجود عندما تكونت الوحدة بين الدلتا والصعيد نحو ٣٢٠٠ : ٣٤٠٠ قبل الميلاد . فكانت مصر بذلك أمة بمعنى القومية ، (وأول دولة بالمفهوم السياسى الكامل) .

ويكاد ينعقد اجتماع الدارسين على أن مصر والعراق هما أقدم من عرف الحضارة فى التاريخ . فإذا لاحظنا أن مصر سبقت العراق إلى الوحدة السياسية بنحو ٥٠٠ سنة (١) .

تجلت لنا أول سمة من سمات شخصية مصر السياسية وهى العراقة والسبق الحضارى

---

(١) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٧٥ .

ولما كانت النظم السياسية الداخلية تنبثق أساساً من الرغبة الصادقة فى حماية المصالح الحيوية للجماعة ، وكانت هذه المصلحة فى مصر ممثلة خلال عصورها السابقة فى ثرواتها الطبيعية فإن هذه الثروات صبغت الشخصية السياسية بسمات معينة :

روى السيوطى فى حسن المحاضرة ، عن شفى بن عبيد الأصبحى قال : « مصر بلد معافاة من الفتن ، لا يريدها أحد بسوء إلا جزعه الله » (١) وعن كعب قال : « لولا رغبتى فى بيت المقدس ما سكنت إلا مصر . قيل : ولم ؟ قال : لأنها بلد معافاة من الفتن ، ومن أرادها بسوء كبّه الله على وجهه » (٢) . فالوحدة الوطنية من أبرز سمات الشخصية المصرية غرستها فى نفوسهم مواسم الزرع والحصاد والفيضان المنتظمة التتابع ، والداعية شتات الأيدى لمصافحتها فى كل حين .

لقد رأى المصريون أن استتباب النظام وهدوء الحياة ، واستقرارها هو المناخ الطبيعى لاستثمار موارد بيئتهم الطبيعية وطاقاتهم البشرية ، فتنازلوا عن بعض حقوقهم الفردية وقدموها هدية لمصلحة الجماعة .

قد شكلت رعاية مصلحة الجماعة جانباً من علاقة المصريين بحكامهم فتوزيع مياه النيل . وتنظيم جريانه أمر جوهرى فى حياتهم ، والحاكم هو الذى يستطيع تنظيم هذه الأمور ، فمنحوه من السلطة ما يسمح له برعاية المصلحة العامة . وتشابكت عدة عوامل أخرى حددت علاقة المصريين بحكامهم من أهمها : النزعة الدينية فى الشخصية المصرية ففى مصر الفرعونية كان الحاكم إلها بشرا ، والإله موضع إجلال المصريين ، ومن زاوية العاطفة الدينية عند المصريين أراد الإسكندر الأكبر أن يصبغ سلطانه بمشروعية دينية تتجاوب ونوازع الشخصية المصرية .

وبينما قاومت الشخصية المصرية – بأسلوبها الخاص – حكم الفرس والإغريق والرومان تقبلت حكم المسلمين ، على الرغم من تعدد الأجناس الإسلامية الحاكمة . من ولاة تبعث بهم دار الخلافة الإسلامية فى المدينة فدمشق ثم بغداد ، إلى دولة طولونية مستقلة عام ٢٥٤ هـ ثم ولاية عباسية عام ٢٩٢ هـ مرة أخرى إلى دولة إخشيدية مستقلة عام ٣٥٢ هـ إلى أن تصبح خلافة

---

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . للسيوطى جـ ١ ص ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

فاطمية تتبعها عدة ولايات عام ٣٥٨ هـ حتى يؤسس بها صلاح الدين الأيوبى « دولة الأيوبيين » سنة ٥٦٧ هـ وتستمر حتى ٦٤٨ هـ .

فعلاقة المصريين بحكامهم المسلمين يسودها نوع من الاقتناع النفسى الذى ينبعث من النزعة الدينية ، فلقد كانت دائماً ترحب بالحاكم الأجنبى متى كان مسلماً ، ومن أجل ذلك لم تجد غضاضة فى قبول الطولونيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم (١) .

وللميراث الحضارى العريق أثر فى علاقة المصريين بحكامهم فإحساس المصريين بقيمة ميراثهم الحضارى وعظمته وواجبهم فى الحفاظ عليه ونقله من جيل إلى جيل جعلهم يجنحون إلى الهدوء النسبى ولا يعرفون التمرد أو الشطط فى المعارضة أو سيطرة الروح الفردية .

وإذا قارنا بين مصر واليونان من هذه الزاوية فإننا نلاحظ أن شعب اليونان ينزع إلى الاضطرابات السياسية والفكرية على حين أن الشعب المصرى لا يوافقه منذ القدم إلا فكرة الحكم الاستبدادى ، فلم يشهد فى عصوره المختلفة أكثر من نوع واحد من أنواع الحكم الفردى الذى ألفه ودرج عليه (٢) .

وليس معنى تعاون المصرى مع حاكمه أنه لا ينزع إلى تولى السلطة أو لا يستطيعها فمنذ بداية عصر الأسرات وكبار الموظفين المصريين فى الدولة ينعمون بمكانة مرموقة إلى جانب فراعنتهم . وكان أكبر لقب هو لقب « دى فرمسيو » أى الأول لدى الملك أو الأول بعد الملك(٣) .

وفى مصر الإغريقية شاركت بعض العناصر المصرية فى إدارة شئون البلاد .

وتبرز شخصية مصر السياسية خلال العصر الإسلامى فى مشاركة المصريين الأقباط فى إدارة البلاد لاسيما الأجهزة التى تعودوا إدارتها وأبدعوا فيها من قبل كالأجهزة المالية والإدارية (٤) .

---

(١) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، د . عبد اللطيف حمزة ص ٢٠ ، ويشاركه الرأى فى تفسير علاقة المصريين بالحكام المسلمين الدكتور عبد المنعم ماجد ، انظر : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، عبد اللطيف حمزة ص ١٥ .

(٣) تاريخ الشرق الأدنى القديم ، د . عبد العزيز صالح جـ ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٤) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ص ١١٢ .

ويرتبط حديثنا عن علاقة المصريين بحكامهم الحديث عن طبيعة الثورة المصرية أو أسلوب الشخصية المصرية فى ثورتها ، ولقد كانت هذه القضية موضع اهتمام الباحثين فى عصور مختلفة ومنهم من اتُّهِمَ المصريين بالجبن والمذلة ورددوا فى ذلك عبارات مختلفة منها : ما رواه النويرى قال : « روى أن « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سكانها فقال : إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شىء لشىء فقال العقل : أنا لا حق بالشام ، فقالت الفتنة . وأنا معك ، وقال الخصب : أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك . وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة : وأنا معك (١) » .

« وحكى عن الحجاج أنه سأل « أيوب بن القرية » عن طبائع أهل البلاد فقال : أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم منها : رجالها حفاة ، ونساؤها كساة عراة ، وأهل اليمن أهل سمع وطاعة ولزوم الجماعة ، وأهل عمان عرب استنبطوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا ، وأهل فارس أهل بأس شديد ، وعز عتيد ، وأهل العراق أبحث الناس عن صغيرة وأضيعهم لكبيرة ، وأهل مصر عبيد لمن غلب أكيس الناس صغاراً وأجهلهم كباراً (٢) » .

إن لكل شعب أسلوبه الخاص فى المقاومة ، ولقد كان هدف الشعب المصرى دائماً هو المحافظة على ذاته وكيانه الروحى من الذوبان أو التشويه ، ولذلك لجأ إلى العنف والقوة عند ما كان قادراً على ذلك ، ولجأ إلى المقاومة الروحية عندما أعياه استخدام القوة المسلحة فاتخذ من التمرد على حاكمه والتهكم عليه والسخرية منه أسلوبا يعبر عن مقاومته وثورته .

ويشهد التاريخ أن المصريين استخدموا هذين اللونين من الأساليب ، ففى عهد بعض الأسر الفرعونية ثار عمال الجبانات الملكية العاملين بطيبة الغربية ، وفى حكم رمسيس الثالث أضرب العمال عدة مرات وخرجوا من قراهم واعتصموا بالمعابد واتجهوا إلى معبد الرمسيون وكان مركز الإدارة ، واضطرت السلطة إلى التسليم بمطاليبهم وبلغ من جرأة بعض العمال أن قال للوزير عندما دعاه ليحمل متاع الفرعون : دع الوزير نفسه يحمل متاع الفرعون ويحمل خشب الأرز أيضا إذا شاء (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ، النويرى ، جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٤ .

(٣) تاريخ الشرق الأدنى القديم ، د . عبد العزيز صالح ، جـ ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

وثورات المصريين ضد الفرس والإغريق والرومان معروفة فى التاريخ .

وفى مصر الإسلامية شارك المصريون فى الثورة ضد بعض الولاة وخاصة عندما كان يمسهم الأمر (١) .

وأحياناً يسلك المصريون سبيلهم إلى الثورة بالمقاومة الروحية كما حدث فى المقاومة الدينية التى خاضتها مصر ضد الرومان فكانوا يلجأون إلى الفرار إلى المعابد والأديرة ويهجرون مزارعهم وقراهم ويترتب على ذلك الإضراب اضطرابات عامة فى الدولة تهز عروش الحاكمين .

فهذه الثورة التى يصفها البعض بأنها سلبية (٢) هى فى الواقع نوع من العناد فى المقاومة يدل على إصرار شديد وإن بدا فى مظهره ذا طابع سلبى لكنه فى الحقيقة إيجابى .

على أن وصف العمل بالسلب وصف غير دقيق فكل عمل إيجاب : إن مفهوم الصفر فى الرياضة الحديثة أصبح يعنى شيئاً بعد إن كان لا يعنى شيئاً فى نظر أصحاب الرياضة القديمة . وإن دور الحركة السالبة فى تيار الكهرباء أساس فى اكتمال الدورة الكهربائية التى تولد الطاقة . وهذه النزعة التى تميز الشخصية المصرية فى ثورتها قد تبدو للآخرين على أنها نوع من الاستكانة ولكنها فى حقيقتها ثورة فإن العناد القائم على الإصرار أصدق فى تحقيق الإرادة الثورية من الحماقة والتهور .

فالشخصية المصرية فى عنادها تعرف طريقها وتتحمل كل العقبات فى سبيل الوصول إلى غايتها راكبة إلى ذلك مركبها الخاص وطريقها المعبرة عن شخصيتها .

وثمة سلاح أخر تستخدمه الشخصية المصرية فى التعبير عن ثورتها وهو السخرية (لقد كانت النكتة المصرية وحدها ترعب الأقوياء حتى حرم الرومان المحامين المصريين من المرافعة فى محاكم الإسكندرية . لأنهم كانوا يغضون من هيبة القضاء الرومانى بالمزاح والدعابة فى أثناء الدفاع وشرح القضايا) .

وسخرت مصر من حكامها الأجانب بالألقاب والكنى فعبد الله بن عبد الملك الذى رفع الأسعار لقب بـ (المكيس) وكافور الأخشيدى كنى بـ (أبى المسك) (٣) .

---

(١) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ص ٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠ .

(٣) الشخصية المصرية ، د . نعمات فؤاد ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

تلك سمات الشخصية المصرية فى طابعها الثورى وهى لا تتفق أبداً مع صفات الذلة والاستكانة التى وصفها بها بعض الدارسين ولعل قصر نظرهم فى فهم طبيعة الشخصية أو تعصبهم ضدها أو مقارنتهم طبيعة الثورات فى كثير من البلدان بطبيعة الثورة التى تتميز بها الشخصية المصرية ، كل ذلك دفعهم إلى مثل هذا القول . وربما كان لتأملهم طبيعة السياسة الخارجية أثر فى زعمهم أو توهمهم . فالشخصية المصرية ذات طابع سياسى خاص يحدد علاقاتها الخارجية . وعنوان هذه السياسة هو السلام والدفاع عن الحرية ، وقد أيد تاريخها الطويل هذه الحقيقة التى تكونت من عدة عوامل كان للبيئة الطبيعية أثر واضح فيها .

فالشخصية المصرية لا تنزع إلى الغزو أو الإغارة على غيرها من الجيران الأقربين أو الأبعدين ، فقد تكفلت البيئة الطبيعة بإمداد سكانها بكل ما يحتاجون إليه من وسائل الحياة لأنها تمتعت بقسط وفير من الثراء عرفت به طوال تاريخها القديم والوسيط . وإذا كان هذا الثراء غير دافع إلى الغزو أو العدوان فإنه كان عامل تسكين واستيطان لا من جانب الوفرة فحسب ، بل استجابة لنزعة نفسية هى حب الاستقرار والعيش فى سلام . كما دفع هذا الثراء كثيراً من الرعاة والمجاورين الطامعين فى خيراتها إلى الإغارة عليها فاضطر المصريون إلى القتال دفاعا عن ثرواتهم والحفاظ عليها من الطامعين كما لعب موقعها الحساس دوراً فى تشكيل أسلوب سياستها الخارجية فكانت على مر التاريخ مدافعه أكثر منها مهاجمة .

ولعل هذه الحقيقة بالإضافة إلى ما سبق كانت فى اتهام بعض الباحثين لمصر بالجبن أو الاستكانة .

هذه أهم معالم شخصية مصر السياسية التى تشكلت من عناصر الطبيعة والإنسان والتفاعل بينهما وانعكست على سلوكها السياسى وما يدور فى فلكه وسنرى آثار ذلك كله فى الأدبيين الفاطمى والأيوبى .

الشخصية الاقتصادية :

تميزت شخصية مصر الاقتصادية طوال العصور القديمة والوسطى بالاكتفاء الذاتى . روى الكندى : « أجمع أهل المعرفة أن أهل الدنيا مضطرون إلى مصر يسافرون إليها ويطلبون

الرزق بها وأهلها لا يطلبون من غيرها ولا يسافرون إلى بلد سواها حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدينا لغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا (١) » .

وقال سعيد بن عفير : « كنت بحضرة المأمون حتى قال وهو فى قبة الهواء : لعن الله فرعون إذ يقول : (أليس لى ملك مصر) لو رأى العراق ؟! فقلت يا أمير المؤمنين : لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) . فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله وهذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغنى أن أرضاً لم تكن أعظم من مصر وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم ، يحبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله إلى آخره ما بين أسوان ورشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع ، ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر ، وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر (٢) .

وظل الثراء عنوان شخصية مصر الاقتصادية على مدار السنين فى العصور القديمة والوسطى إلا ما ندر .

وتعدد مصادر الثروة ميزة أخرى فى شخصية مصر الاقتصادية ، وأهم مصادر ثروتها هو نتاج بيئتها الزراعية ، فعلى الرغم من أن مصر عرفت مصادر أخرى للثروات (٣) كالتجارة والصناعة وبعض المعادن لكنها كانت محدودة بالنسبة للثروة الزراعية .

وحقيقة أن مصر عرفت فى بعض فترات تاريخها ازدهاراً تجارياً ، لكنها لم تصل فيه إلى درجة تتحدى به قوة الزراعة فى التأثير على الإنتاج . ومن ثم يرى بعض الباحثين أن مصر لم تستغل موقعها الفريد كما كان ينبغى(٤)

وكان لغلبة الثروة الزراعية على موارد مصر آثار عدة فى تكوين شخصيتها لعل أهمها ملكية الأرض وعلاقة المصرى بها ، وقد تطورت هذه العلاقة على مراحل :

---

(١) فضائل مصر ، الكندى ، ص ٤٥ .

(٢) نهاية الأرب ، للنويرى ، جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٣) راجع فكرة ثراء مصر من الذهب فى كتاب مصر أصل الحضارة ، سلامة موسى .

(٤) مصر ورسالتها . حسين مؤنس ص ١٠ .

فقبل العصر الفرعونى كان النظام المتوقع هو ملكية الأرض بصورة جماعية عن طريق المشاع .

ولم تعرف مصر نظام العبودية بالمعنى الذى عرفته أوربا ، وإنما عرفت النظام الإقطاعى الذى يقوم على احتكار أقلية قوية لملكية الأرض الزراعية ، الريف ، ثم غلبة وتسلط المدن على هذا الريف ، ثم سيطرة الحكم المركزى على الجميع بقوة ، وذلك عن طريق اعتبار كل أرض البلد ملكا قانونيا للدولة ممثلة فى الحاكم فرعون أو السلطان ، والفلاح أداة « إنتاج بشرية »(١) .

وفى العصر البطلمى كان الملك هو المالك نظرياً ، وبرغم ذلك فإنه لم يستحوذ على الأرض بمفرده . فهناك « الضياع » وهى الأرض التى يتخلى الملك عن ملكيتها لتكون فى حوزة أعيانه ، وهناك أرض أخرى فى صورة إقطاعات لبعض الجنود المقيمين فى مصر الذين عرفوا باسم أرباب الإقطاعات (٢) .

وتأخذ الصورة شكلا آخر فى ظل الدولة الرومانية ، ففى القرن السادس الميلادى نرى أن الأرض العامة لا وجود لها وقتئذ ، وأن سكان مصر ما بين نبلاء - أشبه بنبلاء الإقطاع - وفلاحين أنصاف عبيد(٣) .

أما فى مصر الإسلامية فقد نهى « عمر بن الخطاب » جنوده بمصر عن الاشتغال بالأرض زراعة أو امتلاكاً وأوشك أن ينكل برجل خالف أمره (٤) .

ثم حدث تطور فى نظام ملكية الأرض خلال العصر العباسى فمنذ عصر الرشيد ١٧٠ هـ : ١٩٣ هـ اتبع الخلفاء العباسيون سياسة إقطاع بعض أقاليم الدولة لبعض الشخصيات ، فقدم « المعتصم » إقليم مصر إقطاعاً لقائده التركى « أبى جعفر أشناس » سنة ٢١٩ هـ ثم أذن له فى توليه الحكم بنفسه (٥)

---

(١) شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان . ص ١٣١ .

(٢) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، دراسة فى انتشار الحضارة الهيلينية واضمحلالها . هـ . ايدرس بل ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٤) فتوح البلدان وأخبارها . لابن عبد الحكم . ص ١١١ .

(٥) مصر فى عصر الولاة د . سيدة الكاشف ص ٣٨ .

والنظام الإقطاعي في الشرق كان يختلف اختلافا كبيراً عنه في الغرب ، فالإقطاع الأوربي كان يتوارث في أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة ، أما في الشرق فلم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه ، كذلك كان السكان في الغرب يقطنون مع الأرض بعكس النظام في الشرق (١)

وفي ظل الدولة الأيوبية أخذ الإقطاع صفة جديدة دخل في كيانها العنصر الحربي ولكنه ظل مخالفا - أيضا - للإقطاع الأوربي ، فالإقطاع في العصر الأيوبي يتلخص في انتفاع الجند بدخل الإقطاعات المختلفة من غير استيلاء على الأرض للإقامة فيها أو زراعتها ، ومن غير أن يكون لهم حق الوراثة في الانتفاع بها .

ومن سمات شخصية مصر الاقتصادية شكواها الدائم من النظام الضريبي وجباية الأموال ، وإن اختلفت في شكلها وأسمائها ومقاديرها ، لكنها كانت بصورة عامة محط سخط الناس .

وفي العصر البيزنطي كان حاكم مصر يقدر الضرائب على أساس المعلومات التي يحصل عليها من الحكام المحليين ، ولكن التنظيم الضريبي في مصر الرومانية عموما أثر في تكوين شخصيتها من عدة طرق ، فقد امتاز هذا النظام بالتعقيد الشديد و« البيروقراطية » الكاملة ، وما يتبع ذلك من آفات اجتماعية كالنفاق والرشوة إلى غير ذلك .

وفي مصر العربية سار التنظيم الضريبي على نمط قريب من النظام الروماني إلا في المعاملات الإنسانية أما في هيكل التنظيم فكان معظمه قريب الشبه بما كان في العصر السابق عليه .(٢) وكانت المكوس بابا مفتوحا أمام الولاة لفرض الضرائب المتعددة الأشكال والألوان .

وفي العصر الفاطمي كثرت الضرائب غير المباشرة وزيد بعضها نظراً لقلة الخراج . وقد ألغى « صلاح الدين الأيوبي » كثيراً من هذه المكوس يقول ابن إياس : « أمر صلاح الدين بإسقاط المكوس عن كل سنة ما يفوق عن مائة ألف دينار » (٣)

هذه أهم ملامح شخصية مصر الاقتصادية وقد أثرت في الشخصية الأدبية من زاويتين : إحداهما مباشرة والأخرى غير مباشرة أما التأثير المباشر على أدبها فقد ظهر في العوامل

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٨ .

(٢) مصر في عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور . جـ ص ٥٦ طبعة كتاب الشعب رقم ٨٧ .

التى أحاطت برقيه وازدهاره فلولا ثراء مصر ما امتدت أيدى حكامها بالعطاء والتشجيع ، وما أتاها صفوة العلماء والأدباء من شتى البقاع . وقد أثر هذا الثراء فى مضمون الأدب وشكله ، فالفحش والمجون وبعض أغراض شعرية أخرى تتأثر بالثراء ، كما لا يمكن أن ينفصل الأسلوب الأدبى انفصالا تاماً عن أسلوب الحياة العامة التى نبت فيها .

أما التأثير غير المباشر فقد تمثل فى العوامل والظروف الاقتصادية التى شكلت بعض سمات الشخصية المصرية بصورة عامة وبالتالى انعكست على الأدب باعتباره مرآة لها ، وأبرز هذه العوامل عاملان هما : الثراء وأسلوب جمع الضرائب فى كثير من العصور ، ومن الممكن أن يكون عامل الثراء واحداً من الأسباب التى حببت المصرى فى الاستقرار وحددت علاقته بحكامه فى الداخل وبغيره من الشعوب فى الخارج .

ولا شك أن لهذه السمات آثارها فى الأدب السياسى وفى أدب الرحلات ، وقد يكون لأسلوب جمع الضرائب وما اقترن به من نظم معقدة أثر فى بروز روح السخرية فى الشخصية المصرية .

الشخصية الاجتماعية :

السمات الاجتماعية لشخصية أى مجتمع من المجتمعات خاضعة لقانون التطور المستمر الذى قد يستبعد بعضها أو يلبسه ثوباً جديداً أو يضيف إليه مظاهر جديدة ، وأريد هنا أن أوضح أهم السمات العامة التى تميز شخصية مصر الاجتماعية وهى :

١ - التمسك بالموروث والحفاظ عليه .

٢ - التلاحم الأسرى .

٣ - النزعة الدينية .

التمسك بالموروث والحفاظ عليه :

الشخصية المصرية مشدودة فى تحركها بميراث ضخم ، ولكنه لا يعوقها عن ممارسة التطور ولا يقف حائلا دون ابتكارها نظمها الداخلية ، أو انفتاحها على النظم الخارجية ، وإنما يقوم هذا الميراث بعملية اختيار وتوازن واختبار لأى تغيير اجتماعى ، فقانون الطفرة غريب عليها ولا تقبله ، وقانون التدرج - عندها - لا يخضع لعنصر الزمان فحسب ، بل وللسبر

والاختبار والاقتناع ثم التكيف وما كان لها أن تقبل ظاهرة ما قبل أن تدمغها بطابع مصرى لتحمل جواز سفر عبورها إلى حصيلة المصريات ، ومن أمثلة ذلك أن الشخصية المصرية ترفض المجوسية وتتقبل المسيحية بدافع من فطرتها الدينية إلى اعتناق الشرائع السماوية ، وما كادت تعتنق المسيحية حتى تبتدع الرهبنة ، وهى ظاهرة تتفق والمؤثرات السياسية فى الشخصية المصرية(١) .

وتأخذ مصر من الحياة الفاطمية كثيراً من المظاهر الاجتماعية التى تتفق مع الطبيعة المصرية كالمهرجانات والاحتفالات بمختلف أنواعها ، وتبدع مصر فى المبالغة ، والإسراف فى التأنق ، وتجسيم صور هذه المظاهر بينما لا يعنيها أن تشغل بالها فى البحوث العقائدية أو الأمور الباطنية التى حواها المذهب الشيعى .

ولقد أدى احتفاء الشخصية المصرية بموروثها الاجتماعى إلى تقديسها بعض المظاهر الاجتماعية كتقدير الطبقة الحاكمة تقديراً ليس مرده إلى الإيمان بالتعاون الصادق مع الحاكمين ، فربما كان خوفاً أو مداراة أو غير ذلك ،، وكاعتبار التفاوت الطبقى عنصراً هاماً فى العلاقات الاجتماعية ، لاستنادا إلى معايير مادية محضة بل قد يكون الدين أو العلم أو الأدب أساساً أعظم شأناً من الجاه أو الثراء ،، وربما كان لتمسك الشخصية المصرية بالموروث أثر فى شيوع نزعة بيروقراطية تولدت ونمت خلال الحكم الرومانى الذى أحكم فيه « دقلديانوس » بأجهزته العديدة صمام الرقابة الشديدة على شتى أنظمة الحياة المصرية مما أدى إلى شيوع ظواهر الخوف والتجسس وعدم الثقة بين المواطنين (٢) .

التلاحم الأسرى :

تستمد الأسرة المصرية قوة تماسكها من زاويتين هما : مكانة المرأة المصرية ، ومن وشائج القربى بين مختلف أفراد الأسرة . أما المرأة فمكانتها عند المصريين القدماء أشهر من الحديث عنها (٣) . ومكانة المرأة المصرية ليست قيمة اجتماعية فحسب ، بل هى انعكاس لدوافع

---

(١) سنرى آثار هذه النزعة فى ظهور التصوف الإسلامى ، وهذا التصوف له إبعاد كثيرة فى أدب مصر خاصة فى العصر الأيوبى .

(٢) مصر من الإسكندر حتى الفتح العربى . هـ أيدرس بل ص ١٧٦ .

(٣) راجع المرأة فى مختلف العصور . أحمد خاكى . والمرأة فى القرآن الكريم عباس العقاد .

فطرية قوية تحكمها غريزة الجنس عند الرجل المصرى ، ثم هى سكن عاطفى تعبر عنها قوة عواطف الرجل المصرى ، وأخيراً هى مظهر اجتماعى توارثته الشخصية المصرية منذ أزمان بعيدة . لقد طلب ملك بابل من « أمنحوتب » أن يزوجه بمصرية فاعتذر « أمنحوتب » قائلا : « لم يسبق أن أرسلت أميرة مصرية إلى أى إنسان » . فعاد البابلى وألح عليه أن يتخير له أى فتاة من قصره ويرسلها إليه باعتبارها أميرة من بيته صونا لكرامته بين شعبه (١) .

وقد أثارت مكانة المرأة المصرية دهشة بعض الدارسين القدامى ، وربما لم يعجبهم تدليل المصريين لنسائهم فوصفوهم بالبلادة أو البرود (٢) .

أما الوشائج الأسرية الأخرى فأبرزها قرابة الدم ، وقد قامت الأسرة المصرية على صلة الدم ثم أخذت تشمل جميع الأفراد الذين يعيشون فى كنف رب الأسرة حتى الأصهار والعتقاء والحظايا وأولادهم الخدم . وزاد رباط الإسلام المتين من ترابط النظام الأسرى فتجدد الثوب الذى لبسته الشخصية المصرية بلبوسها ثوب الإسلام .

وقد اتخذ العقاد من هذه النزعة أساساً لفهم الجانب الثورى فى الشخصية المصرية فهو لا يستطيع أن يفهم كيف يكون المصرى محافظاً شديداً فى المحافظة ثائراً متأهباً للتمرد إلا إذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد ، فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها ، وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة لصيانة موروثاته وتقاليده ..

« إن المصرى لينسى كل شىء إلا وشائج الرحم وآداب الأسرة وقد يسف المجرم إسفاف الخبث والنذالة أو يسف المسكين إسفاف الضعة والمتربة ، لكنه يظل فى صميم نفسه ذلك الخلف المنحدر من أجيال وراء أجيال ، عاشت جميعاً فى ظل الأسرة ودانت جميعاً بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيئية والأخلاق المصطلح عليها » (٣)

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم . د . عبد العزيز صالح . جـ . ص ٢١٦ .

(٢) خطط المقريزى . جـ ١ ص ٨٧ طبعة مكتبة إحياء العلوم لبنان .

(٣) سعد زغلول . عباس العقاد . ص ٢٠

النزعة الدينية

الشخصية المصرية نزاعة للتدين ولها ميل فطرى إليه ، ظهر فى استيحائها صوراً رائعة فى فنونها وآدابها من معتقداتها الدينية خاصة فيما قبل ظهور الشرائع السماوية ، بل إن أدبها الفرعونى انعكاس صادق لما كانت تدين به من معتقدات . والنزعة الدينية فى المصريين تنبعث من البحث عن وسيلة لاستمرار اللذات فمن تشبث المصريين بالحياة نبتت فكرة الخلود عندهم وجندوا طاقتهم الفنية والمادية لتحقيقها . إن الموت الذى يكرهونه إنما هو معبر إلى الضفة الأخرى حيث تتواصل حياتهم كما ألفوها بالتمام (١)

وعندما ظهرت المسيحية سارعت إليها مصر فى القرن الأول الميلادى وأخذت تنتشر تدريجياً خلال القرن الثانى إلا أنّ الأباطرة الوثنيين ناصبوها العداء ، واضطهدوا المصريين فقاوم المصريون ذلك الاضطهاد بقوة وإصرار .

وبدأت الكنيسة القبطية تقويمها الذى سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس عام ٢٨٤ وبعد أن اعتنق الأباطرة الدين المسيحى فى بداية القرن الرابع الميلادى أخذوا يقحمون أنفسهم فى النزاع حول طبيعة المسيح وصفته ، ذلك النزاع الذى نشب بين كنيستى الإسكندرية وبيزنطة ، « ، بلغ حدته فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، وقد عقد الأمبراطور البيزنطى من أجل ذلك مجمعاً دينياً فى (خلدونية) بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م . وأقر هذا المجمع بمذهب الكنيسة القسطنطينية القائل إن للمسيح طبيعتين ، وقرر حرمان بطريرك الإسكندرية من الكنيسة وتكفير من يقول بالطبيعة الواحدة . ولم يقبل مسيحيو مصر هذه القرارات وأطلقوا على أنفسهم الأرثوذكسيين وهى كلمة يونانية معناها أتباع الديانة الصحيحة .

ولا تلبث الشخصية المصرية أن تتكشف حقيقة الإسلام فتعتصم به وإذا بكثير من دور العبادة القديمة تتحول إلى مساجد فى عصر الخليفة العباسى المعتصم .

---

(١) مصر فى عصر الولاة . د . سيدة الكاشف ص ٩ .

ويشارك المهرة من نساجي مصر في صنع الكسوة الشريفة (١) منذ الفتح وأصبح يوم إرسالها إلى الحجاز مهرجاناً دينياً تشارك فيه الطوائف الرسمية والشعبية .

حصيلة من العادات والتقاليد :

ورثت مصر مجموعة من العادات والتقاليد التي تعبر عن فكرها في شتى عصورها ومعتقداتها في الحياة ، فبعض العادات السائدة الآن في مجتمعنا المصري والتي لا وجود لها في غيره من المجتمعات ، كعادة تلقين الميت ، وسعف النخيل ، وليلة الخامس عشر ، والأربعين هي عادات فرعونية بقيت في ظل الإسلام وما زلنا نمارسها مسلمين ومسيحيين (٢)

وتلقى بعض البرديات أضواء باهرة على الحياة العائلية السعيدة في العصر الروماني وما يتخللها من حفلات خاصة بأعياد الميلاد ، وولائم الغذاء والعشاء ومناسبات اجتماعية أخرى (٣) .

وكان للأقباط أربعة عشر عيداً منها سبعة كبار وسبعة صغار أما السبعة الكبار فهي : عيد البشارة ، وعيد الزيتونة ، والفصح وخميس الأربعين ، وعيد الخميس ، والميلاد ، والغطاس ، أما الصغار فهي : عيد الأربعين ، وخميس العهد ، وسبت النور ، وأحد الحدود ، والتجلي وعيد الصليب . وقد أفاض « القلقشندي » في الحديث عن هذه الأعياد (٤) . واحتفلت مصر الإسلامية بعيد الفطر وعيد النحر . وكان ثمة أعياد أخرى يمارسها المصريون جميعاً لم تكن دينية بقدر ما كانت قومية مثل وفاء النيل . ثم بدأت الأعياد القومية تتزايد فأصبح عيد الغطاس في ظل الدولة الإخشيدية من أعظم الاحتفالات التي اشترك في إحيائها المسلمون

---

(١) عني الخلفاء الراشدون منذ الفتح العربي لمصر باتخاذ كسوة من المنسوجات التي كانت تصنع بها فيذكر الأزرقي : إن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطي من بيت المال وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها وكذلك فعل عثمان من بعده فلما كان معاوية بن أبي سفيان كساها كسوتين كسوة عمر القباطي وكسوة ديباج فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى القباطي في آخر شهر رمضان .

راجع مصر في عصر الولاة . د . سيد كاشف : ص ١٦١ .

(٢) الشخصية المصرية . نعمات أحمد فؤاد .

(٣) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي . هـ . أيدرس بل ص ١٣٦ .

(٤) صبح الأعشى . جـ ٢ ص ٤١٥ وما بعدها : نسخة دار الكتب الخديوية . المطبعة الأميرية ١٩١٣ .

والأقباط ، وقد وصف « المسعودى » الذى زار مصر ليلة الغطاس فى عهد الإخشيديين سنة ٣٣٠ هـ فقال : « كان لهذه الليلة بمصر شأن عظيم عند أهلها وهى ليلة العاشر من كانون الثانى ترى الناس فيها فرحين يظهرون كل مأكل ومشرب ويخرجون بملابس الزينة .

وكان للدولة الفاطمية فضل كبير فى إخصاب العادات والتقاليد المصرية وتزويدها بعادات جديدة ، ففى عهدهم ، كان يبدو الشعب مبتهجاً بأعياده حيث كانت تقدم الموائد وتنظم الملاهى وتضاء الشوارع والحوانيت ويحمل الفقراء فى أيديهم الفوانيس مقابل إعطاء كل منهم درهماً كما تضاء المساجد بالمشاعل . وكانت الحلوى تكثر فى الأعياد فيبتهج الناس إلا فى يوم عاشوراء لأن الفاطميين اعتبروه يوم حزن وفيه يخرج المنشدون إلى الأزهر ويرددون الأناشيد المحزنة فى « رثاء الحسين بن على » .

الشخصية الثقافية :

تتميز شخصية مصر الثقافية بسمات أهمها ما يلى :

أولا : أنها بؤرة حضارية تجمعت عندها أشعة الفكر الإنسانى . منها ما شب وترعرع فى أحضان الطبيعة المصرية ، ومنها ما وفد إليها مع الوافدين من مختلف الأجناس .

ثانيا : أخذها – دائما – بوسائل اختيارها الثقافى : فلم ترفض الشخصية المصرية أى لون من ألوان المعرفة الإنسانية التى أتيح لها أن تتصل بها ، وإنما كانت تستخدم وسائلها الخاصة فى انتقاء ما يلائمها من هذه الثقافات ولعل أبرز مقاييس الاختيار :

(أ) الميل إلى التبسط

(ب) تغلب النزعة الفنية .

ثالثا : وبعد أن تختار ما تختار تصبغه بطابعها المصرى ، بل وتشكل حضارتها القديمة بطابع يتجلى فيه تأثير اختيارها الجديد .

البؤرة الحضارية :

عرفت مصر نوعين من الحضارات : حضارة ولدت ونمت فى أرضها ، وأخرى أتت إليها وامتزجت بالحضارات الوليدة .

وقد مرت حضارتها بطورين ، تولت فى الطور الأول زعامة الفكر ، وتحملت فى الطور

الثانى مسئولية الحفاظ على الميراث الحضارى الإسلامى خلال العصور الوسطى . فهى تبدو حاملة فى كفها اليمنى ريادة العالم القديم وفى ، اليسرى ميراث الفكر العربى الإسلامى بعد أن امتزج بحضارات مختلفة خلال القرنين الثانى والثالث للهجرة .

ففى تاريخ مصر القديمة تطالعنا كلمات عرفت أول ما عرف فى مصر فالكتابة والعمارة والحكمة ورسم الخرائط المساحية وغيرها عرفت للمرة الأولى فى مصر وفيها بدأ الانقلاب الرئيسى الثانى فى مجالات الحياة المادية للإنسان القديم وهو معرفة الزراعة بعد معرفته سر إيقاد النار ، كما حدث فيها التطور المعنوى الثانى لثقافات الشعوب القديمة وهو الكتابة بعد معرفة بدايات الفنون ، ونضجت فيها ثقافات وتشريعات متكاملة ، وعقائد أخروية واضحة وأسس للعلوم (١) .

ومن خلال محاولة استيطان الإغريق فى مصر تلتقى حضارتهم بالحضارة المصرية القديمة ، وتبزغ شمس الإسكندرية تسطع وتعلو لتصبح عروس عصرها ، وتقدم للوجود جديداً من الفكر والمعرفة .

وتتحدث المصادر التاريخية والحضارية عن روعة مكتبة الإسكندرية وما حوته من ذخائر الكتب التى كان من بينها الأصول الرسمية لمؤلفات « إيسنيلوس » و« سوفوكليس » و« يوريجيدس» كما حوت مكتبة الإسكندرية مؤلفات « هوميروس » وكان اهتمام الحكام البطالسة بهذه المكتبة اهتماماً بالغاً (٢) . ولا شك أنها أثرت فى الفكر المصرى ، وهو فكر نزاع إلى حب المعرفة (٣).

وشاهدت مصر فى عصريها البطلمى والرومانى ألواناً من فنون هذين الشعبين كالمسرحيات الكلاسيكية والكوميدية والمهرجانات الرياضية والرقص والغناء والموسيقى والألعاب البهلوانية وغيرها من ألوان الفنون الشعبية والرسمية .

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم جـ ١ د . عبد العزيز صالح . ص ١ .

(٢) مصر من الأسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، د . أيدرس . بل ص ٧٣ .

(٣) ظلت هذه المكتبة قائمة بالإسكندرية خلال العصرين اليونانى والرومانى ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن المسلمين فى بداية الفتح العربى أحرقوا هذه المكتبة لما فيها من علوم لا تتفق والإسلام . وواضح أن هذا الزعم طعن مباشر فى الإسلام وفى العقلية العربية ، وقد تصدى لتفنيد هذه المزاعم بعض المستشرقين والعرب .

راجع : مصر فى عصر الولاة . د. سيدة الكاشف . ص ١٨٤ .

ومع الشعاع الأول من فجر الإسلام فوق ربوع وادى النيل يعلو مسجد « عمرو بن العاص » أول جامعة إسلامية بمصر يلتقى فيه العلماء والفقهاء ويلجأ إليه الناس للاستفتاء ، ويفد إليه الطلاب ، وفيه يتخرج العلماء ينشرون دين الله لا فى مصر وحدها بل وفى أفريقيا والمغرب والأندلس . وقد ضمت الجماعات الأولى الوافدة مع الفتح العربى عدداً من الصحابة والتابعين أصبحوا نواة الثقافة الإسلامية بمصر وقد بدأوا بالدراسات الدينية من تعليم المسلمين قراءة القرآن وما يتصل به من تفسير أو بيان أسباب التنزيل .

ثم توافد العلماء المسلمون إلى مصر وأقاموا بها وأسسوا مدارس فى مختلف العلوم العربية والإسلامية . ومن هؤلاء « أبو محمد عبد الله بن هشام بن أيوب المغازى » راوى السيرة النبوية (١) . وسجل « ابن النديم فى الفهرست أسماء طائفة كبيرة من المصنفات فى علم الحديث التى تولاها العلماء بالجرح والتعديل . وقد أجمعوا على صحة ما دونه « على بن أبى طلحة المصرى » عن « ابن عباس » وفى ذلك يقول « ابن حنبل » بمصر صحيفة فى التفسير لابن عباس رواها ابن أبى طلحة . لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً (٢) . وذكر « ابن عبد الحكم » فى كتابه « فتوح مصر » أكثر من ثمانين اسما من الصحابة والتابعين الذين روى عنهم المصريون أحاديث الرسول (صلعم) وتحدث الكندى فى فضائل مصر – وكل من أخذ عنه من الكتاب – عن الحركات العلمية المتصلة منذ الفتح وما تبع ذلك من تأسيس المدارس العلمية واهتمام حكام مصر بتقديم الوسائل المساعدة فى نشر الثقافة العربية والإسلامية كتأسيس المدارس والمساجد وكان من أعظمها شأناً الجامع الأزهر ، ودوره فى تاريخ مصر الحضارى غير مجهول .

وسايرت حركة النهضة الفكرية والحضارية فى مصر الإسلامية – حركتان أساسيتان : كانت الأولى فى بغداد ، والثانية فى المغرب والأندلس . وأثمر التنافس بينهما نباتاً طيباً طمعت به الحضارة المصرية .

وحين نبحث فى غضون القرون الوسطى عن منابع الثقافة المصرية نجد أن أهمها يومئذ ثلاثة.

---

(١) البداية والنهاية ، أبو الفدا الحافظ بن كثير ، أخبار عام ٢١٨ هـ .

(٢) الاتقان للسيوطى . جـ ٢ ص ٨٨ .

أولاً : مدد من الشرق مركزه العراق والرحلة بينه وبين مصر كانت متصلة طوال العصور الوسطى . والعراق بلاد قريبة من فارس ، وقد غلبت على فارس النزعة الفلسفية ، ومن أجل ذلك نقرأ فى تراجم بعض العلماء قولهم : وقرأت المعقولات فى بلاد العجم وفى كتب التاريخ شواهد كثيرة تدل على نزوع هذه البلاد إلى الفلسفة .

ثانيا : مدد من الغرب والأندلس وهى بلاد غلبت عليها الرواية والحفظ والنقل . والغالب على هذا المدد أنه كان يأتى إلى مصر عن طريق الإسكندرية ، ومن أجل هذا سميت الإسكندرية « باب الغرب » .

ثالثاً : مدد من طبيعة البلاد المصرية نفسها وهى بلاد غلب عليها اصطناع الذوق فيما تأخذ من علوم المشارقة والمغاربة جميعاً . تلك هى بذور الشخصية المصرية العلمية فى القرون الوسطى (١) .

لقد تبادلت شخصية مصر الثقافية مع غيرها من مراكز الحضارة الإسلامية عملية الأخذ والعطاء ، وأسهمت هذه العمليات فى تكوين شخصيتها الحضارية وهى أقرب الجوانب تأثيراً فى شخصيتها الأدبية .

محك الاختيار :

تلاطمت فى لجة الحضارة المصرية أمواج ثقافات ، ونظرت مصر بعين بصيرة إلى هذا الخضم المتلاحق من المعارف الإنسانية لتحدد موقفها وتختار ما يلائمها ، يحدوها فى ذلك عاملان رئيسيان يتحركان دائما فى محور شخصيتها عموماً ، وفى الجانب الفكرى منها خصوصاً ، وهذان العاملان هما : الميل إلى التبسيط ، وتغليب النزعة الفنية على النزعة العقلانية .

ويبدو تأثير العامل الأول فى موقف مصر من الثقافات المستوردة فخلال العصرين اليونانى والرومانى تعرفت مصر على طائفة من الفلاسفة والمناطقة والسوفسطائيين والجدليين ،

---

(١) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول . د . عبد اللطيف حمزة ص ٢٣ .

وضمت مكتبة الإسكندرية أفكار هؤلاء فيما ضمته من كتب ، ووفد إلى مصر أفلاطون وغيره من الفلاسفة اليونانيين ، ولا ريب أن مصر تعرفت على هذا الفكر ، إن لم يكن خلال الاحتكاك المباشر به فى لغة نويه ، فمن خلال معرفتها باللغة العربية معرفة مكنتها من هضم جميع ما كتب بها .

وقد كانت ترجمة « أرسطاليس » معروفة للمصريين غير أن المسلمين فى مصر لم ترق لهم فلم يعتنقها إلا أفراد قلائل حتى إن « سيبويه المصرى » أحد المعتزلة كان يصيح ذات يوم ويقول : « الدار دار كفر ، حسبكم أنه ما بقى فى هذه البلدة العظيمة أحد يقول القرآن مخلوق ، إلا أنا وهذا الشيخ » « أبو عمران موسى بن رباح » فقام أبو عمران يعدو حافياً خوفاً على نفسه من بطش الناس ، لأنهم كانوا لا يحبون كثرة اختلاف الآراء فى أمور الدين ، لهذا لم ينتشر علم المنطق بين مسلمى مصر على نحو ما انتشر فى الأقطار الإسلامية الأخرى التى كثرت فيها المحاورات والمناظرات وتعددت فيها الفرق الإسلامية ، فاستعانوا بعلم المنطق فى جدلهم ومناظراتهم بخلاف المصريين الذين يميلون إلى الراحة من عناء التفكير العميق فلم تظهر عندهم نظريات فلسفية أو مسائل علمية معقدة (١)

فآراء الشيعة ومذهب الخوارج وتعاليم المعتزلة لم تجد قبولا عند المصريين بالرغم من أنه وجد بين المصريين من كان علوى الهوى ، وجاء دعاة الشيعة يدعون للأئمة الشيعيين ، ودخل الخوارج مصر مع عبد الرحمن بن جحدم والى مصر من قبل ابن الزبير سنة ٦٤ هـ .

ولكن المصريين عرفوا منذ قديم الزمان أن الآراء الجديدة تستهويهم فى أول الأمر ، ثم سرعان ما يعودون إلى أنفسهم فيطرحون من هذه الآراء الجديدة ما لا يتفق مع مزاجهم وتقاليدهم ، ويمصرون ما يتفق مع بيئتهم من هذه الآراء ، وهذا ما حدث بعد الإسلام .

فالمصريون قبلوا الدين الإسلامى لما فيه من توحيد وما فى تعاليمه من يسر وبساطة ، ولكن عندما بدأ أصحاب الفرق يعقدون ويفلسفون هذه التعاليم رفضها المصريون ولم يقبلوا أن يتحولوا عن التعاليم السمحة البسيطة التى تتفق مع البيئة المصرية ، وهى التعاليم التى حملها الصحابة والتابعون إلى مصر ، وربما كان هذا هو السبب فى أن مصر ظلت حصنا لأهل

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية د . محمد كامل حسين . ص . ٦٣ ، ٦٤ .

الجماعة والسنة طوال عصورها الإسلامية حتى فى العصر الفاطمى الذى عرف بشدة عدائه لأهل السنة والجماعة ، ومعنى هذا أن تاريخ مصر منذ أقدم العصور يثبت أن الآراء المتطرفة والتعاليم الدخيلة المعقدة والدعوات الأجنبية لا تجد قبولا من المصريين بل كثيراً ما سخر منها المصريون وتهكموا بها كما فعلوا مع تعاليم الشيعة الإسماعيلية فى العصر الفاطمى[1] .

وتأثير العامل الثانى وهو تغليب النزعة الفنية على النزعة العقلانية حدا بالشخصية المصرية إلى اختيار ميدانها الثقافى فأكثرت من إنتاج الفنون الجميلة والآداب وأبدعت فيهما وصبغتهما بطابعها المصرى ، والآثار الفرعونية والمسيحية والإسلامية ناطقة بذلك .

وربما كان إبداعها فى (العلوم البحتة) كالطب والهندسة ، والفلك وتفوقها فى هذه الميادين إبان العصور القديمة مرتبطاً بنزعة روحية أكثر منها نزعة إلى ممارسة البحوث العقلية والتجريبية . إن فكرة البعث والخلود وهى قيم روحية محضة كانت وراء كل تقدم فى فن البناء والتحنيط وغيرهما .

ولم يكن للجدل فى مصر سوى ظل خفيف ، ولم يكن جدلا قائما على الأدلة المنطقية ، بل كان يعتمد على الحاسة اللغوية أو الذوق المصرى ، حيث نرى المصريين يبدعون فنونا جديدة فى علم البديع كما سنوضحه فى تأثير الشخصية المصرية فى الأدبيين الفاطمى والأيوبى .

التمصير :

من خصائص مصر الحضارية تلوينها الحضارات التى أخذتها عن غيرها من الأمم والشعوب بلون خاص ، وتقوم مصر بهذه العملية على مرحلتين تبدأ فى الأولى باختيار ما يلائمها ثم تصبغه بطابعها . ويد التمصير لا تمتد إلى الحضارة الجديدة فحسب ، بل إنها تمزج حضارتها القديمة – فى تمصيرها – بالحضارة الجديدة فيبدو طابعها القديم فى ثوب جديد هو مزيج من تلك الحضارات ففن العمارة المصرية له طابعه الخاص منذ العصر الفرعونى ، وعندما اعتنقت مصر الديانة المسيحية انعكست مظاهر تلك الديانة على هذا الفن ، ولما احتضنت مصر الإسلام طالعنا فن العمارة المصرية الإسلامى بسمات جديدة متأثرا بالطابع الإسلامى وقد حدث ذلك فى مختلف الفنون ، ومن أبرزها فن الزخرفة الذى بدا فى

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية د . محمد كامل حسين ص ٩ ، ١٠

المنسوجات وصناعة الورق إذ أخذت هذه الفنون تعكس لنا الروح المصرية التى جمعت بين الطابع القديم والتأثيرات الجديدة ، فزخارف المنسوجات المصرية فى ظل الإسلام نراها مستمدة من وحى البيئة الطبيعية إلى حد بعيد ، وكانت من قبل تتخذ صور الحيوانات والأشخاص زخرفة لها . وفى العصر الفاطمي غلبت مظاهر الزخرفة الإسلامية على المنسوجات المصرية ومع ذلك لم تخل زخارفها من سمات تدل على شيء من علاقاتها بماضيها فى وادى النيل وكذلك الشأن بالنسبة لصناعات الخشب والخزف والمعادن والزجاج فإنها حملت مزيجاً من الخصائص الإسلامية والمسيحية والفرعونية وبذلك عكست مظاهر التمصير فى مختلف الفنون .

الباب الأول

بواكير الشخصية المصرية فى الأدب العربى

* مسيرة الأدب العربى فى مصر .
* ظهور بواكير الشخصية المصرية فى الشعر .
* ظهور بواكير الشخصية المصرية فى النثر .

الفصل الأول

مسيرة الأدب العربى بمصر

مصر واحدة من الأمم القليلة التى تخلت نهائيا عن لغاتها القومية قبل الإسلام لتحتضن اللغة العربية ، لا باعتبارها لغة الفاتح المنتصر ، فلقد غزاها الرومان من قبل ولم تصبح اللغة اللاتينية لغة المصريين ، ولا باعتبارها لغة الأدب والشعر والحكم والأمثال فالشخصية المصرية لا تجذبها هذه الأمور ولم تبدع فيها يوما من الأيام إبداعها فى مجالات أخرى . وإنما أقبلت مصر على اللغة العربية إقبالها على الإسلام ومحاولة فهمه ، ثم التعمق فيه تعمقا يلائم طبيعتها التى وضحت معالمها سلفا (١)

ولقد سار التعريب فى مصر وئيد الخطى ولكنه كان راسخا رسوخ الطود ينتقل من أطراف الصحارى ليتغلغل فى أعماق المدن والقرى عازما على ألا يبقى معه غريم أو منافس حتى إذا ما استوى على عوده ، وتمكنت جذوره من الارتواء ذاتيا من عروق النيل الممتدة فى باطن أرض مصر أينعت ثمارا مختلفة الألوان والمذاق .

ومصر فى موقفها من التعريب تختلف اختلافا جوهريا عن إيران والهند وتركيا كما تختلف بعض الاختلاف مع بلدان الشمال الأفريقى فلم يمض على تعريب كل من مصر وإيران سوى عدة قرون حتى طالعنا شاعر الوطنية الإيرانى « الفردوسى » بملحمتة « الشهنامة » منظومة باللغة الإيرانية الحديثة . وفى الوقت نفسه كان أقباط مصر يتخلون عن القبطية ويستبدلون بها العربية فى شئونهم اليومية بل والدينية أيضا . وقد شرع بعضهم فى كتابة تاريخ القبط وبعد أن كتب القديس « شنودة » مؤلفاته باللغة القبطية عمد إلى ترجمتها إلى اللغة العربية ليتسنى للأقباط قراءتها . وفى القرن الرابع الهجرى كان المثقف المصرى يفتخر بمعرفته اللغة القبطية . وأصبحت القبطية شبه غريبة فى موطنها الأصلى . فالمسعودى يلتقى

---

(١) أنظر هذا الكتاب ص ٥٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ص ٢١ .

فى مصر ببعض علمائها من القبط ويسألهم عن معنى كلمة « فرعون » فلم يخبره أحد (١) .
وهكذا ظلت القبطية تتقوقع أمام انتشار اللغة العربية حتى قصر استعمالها على الأديره (٢) .

وفى القرن العشرين وبعد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرنا على تعريب الشمال الأفريقى ما تزال قرى بأكملها فى منطقة بلاد « القبايل » تتحدث باللغة البربرية مع أن جميع أهلها مسلمون ومعظم رجالها يعرفون اللغة العربية أما نساؤها فقليل منهن من يعرفها . إن علاقة الشخصية المصرية باللسان العربى تنبىء عن بعض مقومات شخصيتها وأهمها تأثير البيئة الطبيعية والنزعة الدينية .

ولقد تناول الباحثون فيما تناولوه من دراسة مصر القديمة الحديث عن شخصيتها الأدبية وسجلوا لها أعمالا مختلفة منها الأساطير كأسطورة (إيزيس وتوابعها) ، و(بين هلاك البشرية وإنقاذها) ومنها القصص كقصة (سفرو والحكماء) ، و (نجاة الملاح) و (سنوحى) ومنها أدب النصائح التى كتبها (بتاح حتب) و(أمتحوبى) ، و(عنخ شاشنقى) ، ومنها الشعر الغنائى فى المديح والهجاء والأناشيد الدينية والتعليمية والغزل والغناء .

وقد اتصفت هذه الأعمال بصدقها فى التعبير عن الروح المصرية وتمثيلها لخصائص البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وتشابه بعض ملامحها مع غيرها من آداب الأمم القديمة ، فى وضوح التأثير الدينى ، وكثرة التكرار وصعوبة التفرقة بين الأسلوب الشعرى والأسلوب النثرى ، وتشابه بعض صورها مع غيرها فى التعبير عن الغرائز والعواطف الإنسانية (٣)

ومهما تكن قيمة هذه الأعمال فإنها لم تلعب دوراً هاماً فى تألق الشخصية المصرية بين الأمم القديمة ،، ولم يكن لها تأثير ذو قيمة فى الآداب العالمية مثلما كان لبعض الفنون الأخرى كفن العمارة المصرية القديمة وما يشير إليه من دلالات فكرية وعلمية واجتماعية . فأين شهرة ما أنتجته مصر من محاولات فى أدب الفروسية خلال الحكم الرومانى (٤) ، إذا قارناه بما أنتجه الشعراء الفوارس الجاهليون ؟ وما قيمة الأدب النسائى الذى سجلته مارية وصيفة ، أرمانوسة

---

(١) الأدب العربى فى مصر من الفتح الأسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى . د . محمود مصطفى ص ٣٠ .
(٢) تاريخ الشرق الأدنى القديم . د عبد العزيز صالح . ص ٣٢٥ .
راجع : القصص والحكم والتاملات فى أدب الفراعنة : جـ ١ سليم حسن . القاهرة ١٩١٥ م .،
(٣) مصر من الأسكندرية الأكبر حتى الفتح العربى . هـ . أيدرس بل . ص ٣٢ ، وما بعدها .
(٤) وحى القلم . مصطفى صادق الرافعى ص ١٩ وما بعدها . جـ ١ ط ٨ . بيروت .

التعبير عن مشاعر الأنوثة – أين قيمته وشهرته إذا قورن بآثار الشاعرة العربية الخنساء التى عاصرت الشاعرة المصرية ، وإن اختلفت البيئتان واللغتان ، ثم أين ما خلفته مصر القديمة من أدب له قيمته العالمية إذا ما قورن بما خلفته أمة عريقة كالأغريق التى عبرت عن شخصيتها الأدبية بأعمال خالدة كإلياذة « هوميروس » وغيرها ؟

حقا إن ما وصلنا من الأدب المصرى القديم قليل بالنسبة لما كان ينتظر من أمة عريقة بلغت شأوا بعيدا فى التطور ، ومع ذلك يبقى هذا القليل ضئيل القيمة والشهرة عند مقارنته بغيره من الفنون المصرية ، أو مقارنته بغيره من آداب بعض الأمم القديمة . وإن كان بعض الباحثين يؤكد أصالة هذا الأدب وصدقه فى تمثيل الروح المصرية (١) .

ويكتسى الأدب المصرى ثوباً جديداً بدخوله مرحلة التعريب ، شأنه فى ذلك شأن مختلف ألوان أنشطة الحياة المصرية ، واللغة العربية كما هو معروف عنها – لغة فصاحة وأدب وشعر ، وربما كانت تلك أهم مميزاتها ولا سيما فى الفترة التى بدأت عندها عملية تعريب مصر ، فلم تكن اللغة العربية فى تلك المرحلة لغة فنون وعلوم ، ولم يكن قد تحرك فيها اللسان الأجنبى فيفسد فصاحتها . ومع ذلك فإن الشخصية المصرية لم تنجذب إلى هذا الجانب الحضارى بقدر انجذابها إلى جوانب أخرى وبذلك ظل أدبها العربى أقل شأنا من أدب أمة أخرى مستعربة كالفرس مثلا ، وأقل شأناً من شخصيتها العلمية التى فاقت غيرها فى ميدان العلوم الدينية ، كالتفسير والقراءات والفقه والحديث وعلوم التاريخ والقصص ، والسير ، وأثمرت فيها ثمرات ما زالت شاهدة على تفوقها فى الوقت الذى لها مثل هذه الآثار فى الحياة الأدبية .

وقد مر الأدب العربى بمصر بأطوار عدة . لكن مسيرته فى عصوره كانت مختلفة تماماً عن مسيرة الأدب العربى فى غيرها من الأقطار الأخرى من حيث القوة والضعف ، وما يتبع ذلك من دلالة الأدب على الشخصية والتعبير عن متطلبات البيئة والعصر والإنسان . ولقد تأخر ظهور الأدب العربى بمصر تأخراً ملحوظاً إذا قورن بظهوره فى مصر من الأقطار الأخرى وذلك للأسباب التالية :

أولاً : لم يكن للبيئة المصرية سابق عهد بمعرفة اللغة العربية أو استخدامها قبل الفتح العربى وظلت فترة غير قصيرة عاجزة عن التعبير بهذه اللغة عن متطلباتها ، فضلا عن إنشائها

---

(١) سند باد مصرى : د . حسين فوزى ص ٢٨٦ .

أدباً يصور شخصيتها . ومصر من هذه الناحية تختلف عن الشام والعراق ، فقد كانت باديتاهما عربية اللسان قبل الإسلام مما أعانهما على الانطلاق اللغوى فى فترة مبكرة من الفتح العربى . ومعنى هذا أن بيئة مصر اللغوية لم تكن قد تهيأت بعد لإنتاج الأدب العربى إنتاجاً يعبر عن سماتها . وإزدهار الأدب فى جميع الامم وعلى مر العصور يتوقف على صلته بجمهوره ، فكلما وجد الأدب صداه فى البيئة التى ولد فيها نما وازدهر وكلما ابتعد جمهوره عنه انعزل واضمحل وفنى .

ثانياً : ركزت مصر اهتماماً ملحوظا على الجانب العلمى فى الثقافة الإسلامية ، منذ بداية تعريبها ، وقد أشرت إلى أن العلوم الدينية قريبة من طبع الشخصية المصرية ، ولذلك تكيفت معها وأبدعت فيها إبداعاً مبكراً . ومن ثم كان النثر العلمي أسبق ظهوراً فى البيئة المصرية من النثر الأدبي ومن الشعر أيضا . ولأمر ما ، كانت نهضة النثر العلمى فى مصر سابقة على غيرها من فنون القول فى النهضة العربية الحديثة ، بينما كانت نهضة النثر الأدبى هى السابقة على غيرها فى لبنان :

ثالثا : لم يتوفر لمصر نوع من الاستقلال الذاتى أو الاستقرار السياسى أثناء فترة الولاة الذين كانوا يتناوبون الحكم فترات وجيزة ، لم يتمكنوا من تأسيس بيئة أدبية كسائر البيئات التى تكونت فى ظل استقرار الأوضاع السياسية (١) . وإن كان نصيب الشخصية الوطنية قليلا ، فى انتاج هذه البيئات لارتباط الأدباء عادة بأشخاص معينين هم ذوو الجاه والسلطان فى الدولة ، لكن هذا الارتباط لا يعوق وضوح الشخصية الإقليمية فى إنتاجهم ، ولا يخفى دور تشجيع الحكام فى نمو الأدب وازدهاره خاصة « الشعر العربى ، وفى كل عصوره قبل العصر الحديث . ولكن هذه البيئات أخذت طريقها إلى التحول مع بداية الحكم الطولونى لمصر سنة ٢٥٤ هـ ، وجدت عوامل أخرى كانت وراء ظهور بواكير الشخصية المصرية فى الأدب العربى ، وأهم هذه العوامل :

١ – وضوح الشخصية السياسية على أثر استقلالها عن الخلافة العباسية على يد أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ ثم على أيدى الإخشيديين سنة ٣٢٣هـ .

---

(١) لم يستقر الولاة فى مصر فترات طويلة خاصة فى العصر العباسى فقد حدث أن تولى حكم البلاد المصرية ثلاثة ولاة فى عام واحد (٢١٩ هـ) وبلغ عدد اللذين تولوا مصر فى خلافة « هارون الرشيد » وحده نحو اثنين وعشرين واليا .

ولم تكن مصر وحدها هى الدولة التى استقلت عن الإمبراطورية العباسية ، فقد انفصلت دولة الأمويين فى الأندلس والبويهيين فى فارس ، والأدارسة والأغالبة فى المغرب . وتبع هذا الانفصال تنافس شديد بين حكام هذه الإمارات وحاولت كل دولة أن تحنو حذو بغداد فى ذيوع شهرتها وارتفاع مكانتها .

وكان الأدب بصورة عامة والشعر على وجه الخصوص أكبر وسائل الإعلان فى تلك العصور ، وأراد الطولونيون منافسة العباسيين ، فى الإغداق على الشعراء وتقريب العلماء ، وطمعوا فى أن يجعلوا من مدينة « القطائع » عاصمتهم بمصر مدينة يشيد بها التاريخ كما أشاد ببغداد فبذلوا العطاء وأكثروا من الهدايا ، وكونوا حولهم بلاطاً أدبياً أشبه ما يكون ببلاط العباسيين ، فأنتجت هذه الحياة فى مصر أيام الطولونيين شعراً كثيراً ، واجتمع فى مصر عدد كبير من الشعراء حتى بالغ القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى عددهم إذ نقل عنه المقريزى أنه قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون . قال فإذا كان أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ .

ومهما يكن من أمر عدد شعراء الطولونيين ، فقد صوروا جوانب من الحياة المصرية تلقى أضواء على الشخصية المصرية فى أدب هذه الفترة .

وربما فاق اهتمام الطولونيين بالنثر اهتمامهم بالشعر ، فأحمد بن طولون ، كما يقول القلقشندى : أول من أخذ فى ترتيب الملك وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ، ولما شمخ سلطانه وارتفع بها شأنه ، وأخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات (١) . وآثر ابن طولون أن يتخذ كتابه من المصريين ، وإن لم يبلغوا مبلغ غيرهم فى فن الكتابة وكانت فلسفته فى ذلك ، إن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له فى ذلك البلد ، أمور صالحة ، منها أن يكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك البلد ، فيعود مرفقه على فريق من أهله ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون فى خدمتى(٢) . وقد أدت فلسفة ابن طولون ومن سلك دربه إلى إتاحة الفرصة أمام

---

(١) صبح الأعشى جـ١ ص ٢٨ .

(٢) سيرة أحمد بن طولون ، لأبى عبد الله البلوى . تحقيق محمد كردعلى . ص ١٥ ، دمشق ١٣٥٨ هـ .

المصريين أن يمارسوا هذا الفن في أكبر مسارحه ، فأبدعوا فيه في وقت مبكر ، وظهر بعض الكتاب المصريين أيام الطولونيين من أمثال جعفر بن عبد الغفار .

٢ - ظهور جيل من المصريين تشرب الحياة المصرية وأتقن اللغة العربية ، في مدرسة الأدب التي أنشأها كبار شعراء العربية وأدبائها الوافدين إلى مصر الزائرين والمقيمين خلال القرنين الأول والثاني للهجرة ، كما كان لأحفاد كاتب العربية المعروف « عبد الحميد بن يحيى - كاتب مروان بن محمد آخر خليفة أموي - دور في تنشيط الكتابة الديوانية بمصر حيث استقروا بها . وبرز من بينهم كتاب من أمثال الحسن بن محمد أبي المهاجر واخوته ، علي ، وأبو القاسم ، وأبو عيسى وكلهم من نسل عبد الحميد الكاتب الذين نشأوا بمصر فتشربوا الحياة المصرية وعدوا منها »(١) .

٣ - وهناك عامل هام له أثره في ظهور الشخصية المصرية في الأدب العربي ، وهو أن ملامح البيئات الإقليمية أخذت طريقها إلى الظهور والتأثير في الشعر العربي بصورة عامة ، وإن اختلف وضوح تأثير بعض البيئات عن بعضها الآخر .

وفي القرن الرابع الهجري بلغت النهضة الإسلامية أوج عظمتها ، وأخذت مصر موضع الصدارة في العالم الإسلامي بما تهيأ لها من أسباب داخلية وخارجية ، إذ بدأت دولة الفواطم فتية في مصر واستطاعت أن تضم إليها بلدانا من الشرق والغرب ، وفي الوقت نفسه كانت هيبة الخلافة العباسية في بغداد تضعف شيئاً فشيئاً ، وظهر خطر الصليبيين يهدد المنطقة العربية بأسرها . وأخذت مصر بحكم الموقع والموضع والخصائص البشرية تتحمل شرف الريادة في الدفاع ، وتجمعت بكل طاقاتها خلف المصلحين من زعماء المسلمين . وكانت اللغة العربية في مصر قد استقرت لغة تعامل وتعبير عن متطلبات الحياة بمختلف شئونها وتجمعت عوامل أدت إلى نبوغ الأدباء المصريين ، فأخذوا دورهم في تصوير حياتهم عاكسين في إنتاجهم مؤثرات بيئتهم بما انطبع في أذهان كل منهم . وما كان لهم أن يتفقوا في نظرتهم نحو الأشياء ، وما كان للأحداث أن توزع آثارها بقدر واحد علي جميع الناس . ومع ذلك فهناك تيارات واتجاهات تجمع الشتيت حولها تقارباً أو تنافراً ، وتعكس لنا بذلك سمات الطابع القومي أو الشخصية بالمفهوم الجماعي .

---

(١) الوزراء والكتاب . لأبي عبدالله محمد الجهشياري ط ١ القاهرة ١٩٣٨ ص ٨٢ .

وإذا كان العصر الفاطمى هو العصر الذهبى للأدب العربى بمصر ، فإن عصر الأيوبيين كان امتداداً لهذا الازدهـــار أو العصـــر الفضى للأدب كما أطلق عليه المستشرق الإنجليزى (جب) GIBB .

وقد تشابكت عدة عوامل محلية وعالمية وانصهرت فى البيئة المصرية ، لتصبح أشعة تلقى أضواءها على الشخصية المصرية .

وأهم هذه العوامل :

أولا : تمييز الطابع المصـــرى :

مضت أربعة قرون قبل هذه المرحلة ، تصارعت فيها ظواهر وكائنات أسفرت عن وجود شعب عربى مصرى له أسلوبه فى حياته ، وله عادات وتقاليد ونظم ولغة استقرت عليها الحياة فى هذه البيئة بعد شوط طويل .

وهذه مصر فى القرن السادس الهجرى ، كما يصورها « أبو صلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى » وقد زارها فى أواخر العصر الفاطمى : « أخلاط من الناس مختلفة الأصناف بين قبط وروم وأكراد وديلم وحبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس . [1] جاءوا للتجارة أو الحج أو طلب العلم ، أو تولى المناصب ، أو الخدمة فى الجيش أو غير ذلك ، ولكنهم جميعا مصريون مصرتهم مصر بما لديها من إمكانيات سبق الحديث عنها ، وأصبح السابق من الوافدين قدوة للاحق فى التمصير . ويكفى أن أضرب لذلك مثالا عبرت فيه إرادة التمصير عن وجودها بصورة بينة ، وهو أن خلفاء مصر الفاطميين سموا بـ (المصريين) . وأصبح هذا الاسم مستعملاً ومعروفاً للدلالة على الخلفاء الفاطميين . فها هو « العماد الأصفهانى » يتحدث عن أحد الشعراء فيقول : وما أكمله لولا أنه من مداح المصرى » [2] .

ثانيا : قوة النفوذ السياسى :

أخذت قوة هذا النفوذ شكل تمدد جغرافى لحدود مصر السياسية سواء فى العصر الفاطمى أو الأيوبى ، فالقاهرة الفاطمية عاصمة لبلدان الشام والحجاز وبعض أجزاء الجزيرة العربية والشمال الإفريقى . ولئن تقلصت هذه الحدود فى أواخر الحكم الفاطمى وفقدت القاهرة

---

(١) الرسالة المصرية . لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى ، ص ٢٣ .

(٢) الخريدة ، ص ٥ .

سيطرتها على جزء من توابعها ، فلقد شمرت عن ساعديها الفتيتين مع احتفائها بالبطل الأيوبي ، وراحت تبسط يدها من جديد على بلدان انتزعتها من أيدى الصليبيين ، أو المسلمين المستضعفين ، وكتب العماد الأصفهاني رسالة على لسان « نور الدين » وبعثها إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله يخبره بإحياء حركة السنة ومواجهة الأعداء وامتداد سلطان مصر إلى بلاد النوبة وجزء من الشمال الأفريقي فيقول : « من جملة حسنات هذه الأيام الزهراء ماتسنى في هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الإسلامية في العصـــور الخالية وكذلك استولت عساكر مصر أيضا على برقة وحصونها وتحكموا في محكم معاقلها وحصونها حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب »(١) .

وادركت مصر أن مسيرة النضال نحو تحرير الأرض العربية من الصليبيين لن تكتمل إلا بسيطرتها على الشام ، فاتجهت نية صلاح الدين إلى ضمها ، وكانت ما تزال تحت أيدى الزنكيين الذين تربى صلاح الدين في كنفهم وأتى مصر موفداً من قبلهم ، فبعث إليه « ابن المقدم » رسالة يقبح له نيته في الاستيلاء على الشام ، فأجابه صلاح الدين على لسان القاضي الفاضل : « إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، وللبيت الأتابكي أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله وفرعه ، ودفع ضره وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة . وبالجملة إنا في واد ، والظانون بنا ظن السوء في واد ، ولنا مــن الصلاح مراد ولن يبعدنا عنه مراد ولا يقال من طلب الصلاح إنك قادح ، ولمن ألقى السلاح إنك جارح » (٢) .

ومضت مصر إلى غايتها وبسطت نفوذها على الشام لتوحد راية الإسلام في أشرف نضال وراح أبناء البيت الأيوبي يوسعون حدود مصر السياسية ، فهذا عمارة اليمني يحث صديقه وممدوحه (الملك المعتصم شمس الدولة) أخا صلاح الدين على السير إلى اليمن (٣) ليستولى عليها قائلا :

---

(١) كتاب الروضتين ، لأبي شامة ، جـ ١ ، ص ٥٤٧ .

(٢) كتاب الروضتين ، لأبي شامة ، جـ ١ ، ص ٥٩٧ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، جـ ١١ ، ص ٣٩٦ .

ضاقَ الصَّعيدُ على جيادك بعدَما — ضمنَتْ صعادُك فتحَ كلِّ صعيدِ
والغربُ واليمنُ القصيدةُ أهلُهُ — من خَوفِهم في قائمٍ وحصيدِ
والسَّيفُ يلمعُ في الخواطرِ برقُهُ — بالسيفِ من عدنٍ وأرضِ زبيدِ
فإلى مَتَى أيدي الكُماةِ معوقةٌ — عن نشرِ ألويةٍ ونشرِ بُنُودِ
ومعاطفُ الخيلِ الخفافِ إلى العِدى — تشكو خِفافَ أيدةٍ ولبودِ
أفلا رمَيْتَ بها الفَلاةَ مُجَرِّداً — عزماً تسدُّ به عِراضَ البيدِ (١)

وتم للشاعر عمارة اليمنى وممدوحه ما أراد . قال العماد ،

« توجه تور انشاه ، أكبر إخوة صلاح الدين ، إلى اليمن فملكها . وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمنى شاعر القصر ، وكان كثير المدح لتور انشاه ، فتجهز وسار إلى مكة ثم زبيد فملكها وقبض على الخارجى بها ، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلى ، وفتح حصن « تعز » وغيره من القلاع ، ففتح إقليما ومنح ملكاً عظيماً ، واقترع بكراً وأشيع ذكراً .. »

قلت : فمن جملة شعره فى ذلك قوله فى القصيدة التى أولها :

العلمُ مذْ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ — وشفرةُ السَّيفِ تستغني عن القَلَمِ
كم تترك البيضَ فى الأجفانِ ظامئةً — إلى الموارد فى الأعناقِ والقِمَمِ
أمامك الفتحُ من شامٍ ومن يمنٍ — فلا تردُّ رءوسَ الخيلِ باللجُمِ
فعمُّك الملكُ المنصورُ سوَّمَها — من الفراتِ إلى مصرٍ بلا سأمِ
فاخلِقْ لنفسكِ مُلكاً لا تضافُ به — إلى سواك ، وأورِ النارَ فى العلمِ (٢)

وهكذا ، فرضت شخصية مصر السياسية والحربية وجودها بين أشقائها المسلمين لتخوض قتالا تثبت فيه وجودها بين الأصدقاء والأعداء . وربما أعانها على بلوغها هذه المكانة السياسية ، ما أصاب الخلافة العباسية فى بغداد من ضعف جعلها مطمع الطامعين ، بعد أن استبد رجال القصر من السلاجقة الأتراك بالحكم ، وأخذت مكانة الخلفاء تزداد سوءاً ، ولم يعد

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٢١٣ .

(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٥٠٣ .

لهم من سلطة ترديد أسمائهم فى بعض المناسبات ، بينما كان الأمر كله بأيدى وزرائهم الأتراك .

ولقد مرت مصر فى أواخر العصر الفاطمى بمثل هذه الحالة ، حيث استبد بالحكم وزارؤهم منذ استنجد الخليفة المستنصر ببدر الجمالى ، واستدعاه من الشام لإخماد الثورة التى كانت بالقاهرة ، فلما فتك بالخصوم أشد الفتك استساغ هذا الأسلوب فى قمع الحريات ، فاستوزره الخليفة ، وما لبث الوزير أن استأثر بالحكم وحده دون الخليفة وسار الوزراء (الارمن) الذين استبدوا بالحكم فى أواخر العصر الفاطمى على هذا النمط وبلغت المأساة قمتها فى النزاع بين الوزيرين « شاور » و« ضرغام » .

ولم يقدر لمصر أن تمضى طويلا فى هذا الطريق ، كما سارت بغداد ، فسرعان ما جددت مصر شبابها بدماء جديدة تمثلت فى الحكم الأيوبى ، فاستردت قوة شخصيتها السياسية التى جذبت إليها فيما بعد مركز الخلافة العباسية من بغداد ونقلتها إلى القاهرة ، ثم تصدت لخطر المغول ، وردتهم على أعقابهم .

ثالثاً : حفاوة الحكم بالأدب :

قدم الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين من أتباع الائمة (مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل) ، والفاطميون يتبعون مذهب فرقة من الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام « إسماعيل بن جعفر الصادق » وخلاصة القول فى عقائدهم ، أن الولاية هى محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام ، وتمجيده أكثر من أى شىء آخر ، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشور وثوب وعقاب . يقومون بفرائض الدين ، ويحرمون ما يحرمه الله ولا يقولون بالتبطيل أو الإباحة ، ولم يعتقدوا التناسخ أو الحلول أو التلاشى ، غير أنهم قالوا بأدوار الأنبياء ، فلكل نبى دوره ، ويأتى النبى الذى بعده ينسخ شرع النبى قبله فلما جاء دور محمد وهو خاتم الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله ، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى ، وأن ما حدث فى أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله فى دور محمد ، وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث « لوصى محمد والأئمة بعده ، وأولوا ذلك تأويلا يتفق مع عقيدتهم هذه ، وتراه واضحاً فى أشعارهم ورسائل كتابهم » (١)

(١) فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٣٦ .

ولم يفرض الفاطميون هذه العقائد فرضا بقوة السيف ، وإنما استخدموا الدعاة والعلم في نشر مذهبهم ، وكان نصيب الأدب شعره ونثره في هذا الميدان كبيراً فاهتموا بهما ، فقد نقل المقريزى أنه كان للشعراء رواتب جارية من عشرين دينار إلى عشرة دنانير ، ويروى أيضا أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الرسم المطلق للمتصوفين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم ، ويحدثنا المقريزى في كلامه عن بركة الحبش أنه كان بها طاقات ، عليها صور الشعراء ، كل شاعر وبلده ، وعلى جانب كل طاقة من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها أبيات من شعر الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الأخر رف لطيف مذهب » وأن الخليفة الآمر بأحكام الله دخل هناك وقرأ الأشعار ثم أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يأخذ كل شاعر صرته بيده (١) .

وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعراً جديداً في مدح الأئمة ، ويحدثنا عمارة اليمنى أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر ، أخرجت له السيدة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار (٢) .

ويذكر المؤرخون أنه كان من بين الخلفاء الفاطميين من ينشد الشعر ، ومن شعر المنصور بالله يخاطب ابنه وولى عهده المعز لدين الله :

كتابى إليك من أقصى الغروبِ	وشوقى شديدٌ عريضٌ طويلْ
أجوبُ القِفارَ وأطوى الرِّمالَ	وأحملُ نفسى على كلِّ هَولْ
أريد بذاك رضاءَ الإلهِ	وإعزاز دولةِ آلِ الرَّسولْ
إلى أنْ برى السَّيرُ أجسامَنا	وكلَّ الركابُ وتاه الدليلْ
وما ضقْتُ ذرعاً ولكنَّنى	نهضتُ بقلبٍ صبورٍ حمولْ
وقدمَّنْ ذو العرشِ من فضلهِ	بفتحٍ مبينٍ وعزٍ جليلْ
وفى كلِّ يومٍ من اللهِ لى	عطاءٌ جديدٌ وصفحٌ جميلْ
فلله حمدٌ على ما قضى	وحسْبِىَ ربِّى ونعْمَ الوكيلْ (٣)

---

(١) خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ ، ٢٩٠ ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، للمقريزى القاهرة ، هـ ص ٣١٧ .
(٢) النكت المصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٣٤ .
(٣) النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى ، جـ ٤ ، ص ١٣٢١ .

ويقول أبو المحاسن عن (العزيز) إنه كانت له فضيلة وله شعر جيد ، وروى الثعالبى فى يتيمته قول العزيز ، وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المأتم عليه :

نحنُ بنو المصطفى ذوو محَنٍ ... يَجْرعُها فى الحياةِ كاظِمُنا

عجيبةٌ فى الدنيا محنَتنا ... أولُنا مُبْتلى وخاتمُنا

يَفرحُ هذا الورى بِعيدهُمُ ... طُراً ، وأعيادُنا مآتمُنا (١)

وشارك وزراء مصر الفاطمية فى ازدهار الشعر ، فكان الأفضل يجلس بدار الملك التى أنشأها فى مجلس العطايا ، وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس ، من كل لون اثنان ، وجعل فى سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار فى كل ظرف خمسة آلاف ، فمن هذه الظروف كان يغدق فى عطاياه على الشعراء الذين كانوا يقصدونه ، ولعل أشعر وزراء الفاطمية وأكثرهم تودداً إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح « طلائع بن رزيك » ، فقد جمع شعره فى مجلدين كبيرين ، وجمع شعر الشعراء فيه ، فكان شيئاً كبيراً ، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت ، ولم يبق منها إلا شذرات ، وكذلك كان الوزير الناصر العادل « رزيك بن الصالح » الذى وصفه عمارة اليمنى بقوله : « وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه ، فسوق الشعر قد ازدهرت فى عهد الوزراء كما كانت مزدهرة فى عهد الأئمة .

وقد عنى الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء ، وذلك لأن اتساع ملكهم وتشعب نواحى حياتهم وسلطانهم اضطرهم إلى أن يوجهوا همتهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة ، تتناسب مع غلوهم فى إظهار مجدهم ، ودعاية لهم عند شعوب العالم كله .

فهذا التشريف الذى جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة فى عصرهم ، وكان من أسباب كثرة إقبال الناس على التعليم وإجادة الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة فى الدواوين الكثيرة التى رتبها الفاطميون حتى يتسنى لهم تحقيق أطماعهم فى سيادة العالم الإسلامى ومباهاة الدول المناوئة لهم بعظمة دولتهم . وكان وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمى بمصر يختارون من رجال القلم الذين ترأسوا الدواوين قبل اختيارهم للوزارة ، « فجوهر الصقلى » كان كاتباً من كتابهم ، و« يعقوب بن كلس » والفلاحى والجرجائى

---

(١) (أ) يتيمة الدهر ، الثعالبى ، جـ ١ ، ص ١١٣ .

(ب) النجوم الزاهرة « لابن تغرى بردى » ، جـ ١ ، ص ١١٣

واليازورى وغيرهم ممن تولوا الوزارة ، كانوا كتاباً فى الدواوين ، أما فى العصرين الثانى من الحكم الفاطمى فكان الوزراء يختارون من رجال السيف ، وظل الكتاب يتمتعون بمثل مركزهم الرفيع ، فكان منهم جلساء الخليفة وحجابه ، ومنهم القضاة والدعاة وهذه كانت أرفع مناصب الدولة بعد الوزراء ، ومعنى هذا كله أن الفاطميين عنوا بالكتاب عناية خاصة لحاجتهم إليهم فى تسجيل كل دقيقة وعظيمة ، فخروج الخليفة إلى الصلاة أو فى الأعياد والمواسم ، وتعيين الوزراء والكتاب والقضاء والدعاة وغيرهم من أرباب الوظائف وحضور رسول من قبل دولة من الدول أو غير ذلك من الأعمال التى كانت تصدرها سجلات من الدواوين فيها من فن الكتابة صور رائعة تمثل العصر أصدق تمثيل (١) .

ويصور القلقشندى موقف الخليفة الفاطمى من كتاب ديوان الإنشاء وحالة هذا الديوان بقوله : « لما ولى الفاطميون الديار المصرية ، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره وشاع فى الآفاق ذكره ، وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ، ما بين مسلم وذمى فكتب للعزيز بالله بن المعز أبو المنصور بن سوردين النصرانى ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ، ومات فى أيامه ، فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر الهزكى .. وكتب للخليفة المستنصر القاضى ولى الدين خيران ، ثم تولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله من الوزارة ، وأبو السعيد العميرى وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن على ابن أبى أسامة الحلبى ، إلى أن توفى فى سنة اثنين وعشرين وخمسمائة ، فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرئاسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجد البصرى المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس ، وابن أبى الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق ابن الخلال أيام الحافظ ، وإلى آخر أيام العاضد ، القاضى الفاضل البيسانى ، ثم شرك للعاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محمود بن الأنصارى ، وكان فى أيامه القاضى المؤمن

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢١٠ وما بعدها .

كاسيبو ، ثم كتب القاضى بين يدى الموفق بن الخلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم (١).

وقد هيأ الفاطميون فى مصر بهذا الأسلوب مناخا أدبيا خصبا ، لم يجد الأيوبيون بدا من الحفاظ عليه ورعايته تمكيناً للخطة التى وضعوها لمحاربة المذهب الشيعى ، فكما لجأ الفاطميون إلى الأدب لبث تعاليم الشيعية لجأ الأيوبيون لنقض ما بناه خصومهم إلى الأسلوب ذاته ، وهكذا تعهدت الأدب المصرى دولتان قويتان تعاقبتا فى رعايته وإن اختلفت أهداف كل منهما عن الأخرى فى الاهتمام به ، ويروى عن بعض الحكام الأيوبيين تعلقهم بالأدب وتذوقهم للشعر ، وكان صلاح الدين كثيرا ما يستدعى بعض مقربيه ويطلب إليه أن يقرأ عليه فى ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان ابن منقذ الشاعر الشامى المعاصر من أفضل الدواوين لديه ، كذلك كان ابن منقذ نفسه ، فقد حظى بعطفه فى أواخر أيامه ، وكان الشاعر قد بلغ من العمر مرحلة الشيخوخة.

واشتهر « تاج الملوك بورى » أخو صلاح الدين الأصغر بشغفه بالأدب ، ومنادمة الأدباء حتى روى ابن خلكان أنه ترك ديوانا من الشعر ، ومنه قوله :

يا من ورد خدّيك بالمِسْك مُنقّط

بيْنَ أجفانك سلْطانٌ على ضَعْفى مُسلّطْ

قد تصبَّرْتُ وإنْ بَرَّحْ بىَ الشّوْقُ وأفْرَطْ

فلعلَّ الدّهرَ يوماً بالتّلاقى منْكَ يغلطْ

ومن شعره يهتف بحب مصر :

شربتُ من الفراتِ ونيلُ مصرَ ... أحبُّ إلىَّ من ماءِ الفُراتِ

وقلبى فى مصرَ مَنْ أصبو إليهِ ... ومنْ فى قُرْبه أبداً حياتى

فقلتُ وقد ذكرتُ زمانَ وصلٍ ... تمادىَ بعدَهُ روْحُ الحياة

أرى ما أشتهيهِ يفرُّ منّىَ ... وما لا أشتهيهِ إلىَّ ياتى (٢)

---

(١) صبح الأعشى ، جـ١ ، ص ١٠٣ .
(٢) مقدمة ديوان ابن سناء الملك وحياته وشعره ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٠ .

وقد قضى الملك الكامل العادل أربعين سنة فى حكم مصر ، دأب فيها على تشجيع الأدباء والعلماء ورويت عنه أخبار أعادت إلى الأذهان سيرة هارون الرشيد فقد كانت تبيت عنده فى القلعة فى كل ليلة جماعة أهل العلم ، فينصب لهم أسرة ينامون فيها بجانب سريره ليسامروه فى العلوم والآداب ، وقصده أرباب الفضائل ، ونوادره الأدبية أكثر من أن تحصى .

أما اهتمام الأيوبيين بالنثر فتعبر عنه هذه الكلمة التى قالها مؤسس الدولة الأيوبية عن القاضى الفاضل أمام ملأمن الناس : « لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى » (١) وقد ظل الفاضل بشخصيته وأسلوبه مثلا يحتذيه أدباء عصره حتى طالعنا عصره بمؤرخين يستخدمون الأدب الرفيع فى كتابتهم ، من أمثال : « ابن شداد » فى فتح بيت المقدس ، وعز الدين الأثير » فى حديثه عن مقتل الشهيد عماد الدين الزنكى وغيرهما من المؤرخين فى مواقف مختلفة .

يحدثنا القلقشندى عن ديوان الإنشاء المصرى زمن الدولة الأيوبية فيقول : « كان الفاضل رحمه الله قد كتب بين يدى الموفق بن خلال فى وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد ، آخر الخلفاء الفاطمين ، فلما استقل السلطان صلاح الدين بالملك ، فوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين ، فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبى بكر ، ثم مات . وكتب للكامل بن العادل القاضى أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرج إلى أن توفى فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلى مدة قليلة ، وتوالت الإنشاء فى الولاية إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيرا ، ثم صرفه وولى بعده الصاحب فخر الدين بن إبراهيم بن لقمان فبقى إلى انقراض الدولة الأيوبية . (٢) .

وينبغى أن أفرق بين موقف الفاطميين والأيوبين من الأدب العربى سواء فى إنتاجه أم التشجيع عليه ، فشعر الأئمة الفاطميين يدل على روح شاعرية صادقة وأصيلة كما نلمحه فى ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى وغيره ، ومشاركتهم تنبىء عن ذوق ، وتشجيعهم ينبعث من العناية بالأدب لنشر مذهبهم .

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٧٢ .

(٢) صبح الأعشى ، للقلقشندى ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

أما الحكام الأيوبيون فأقرب ما أصور به موقفهم من هذا الفن هو المجاراة لما كان يسود المجتمع ، فشارك فيه بعضهم أو معظمهم ، مجاراة لتقليد اجتماعي. ففي ديوان عمارة اليمني نلاحظ حديثه عن دعوات وجهت إليه لزيارة بعض حكام الأقاليم في العصر الأيوبي ، وهذا يشير إلى أن هؤلاء الحكام كانوا حريصين على نوال مديحه حرصهم على الشارات العسكرية أو الحربية ، ولم يكن دافعهم إلى ذلك التذوق الفني أو التشجيع الأدبي لذاته .

الحروب الصليبية :

ظهرت الحروب الصليبية على مسرح الأحداث في وقت كانت فيه الشام ومصر تموج بالفتنة والانقسامات ، ففي الشام إمارات منقسمة متحاربة ، وفي مصر خلفاء لا يملكون من الأمر شيئا استبد وزراؤهم بالحكم وتناحروا عليه ، وفي خضم هذه الفوضى تمكن الصليبيون من تثبيت أقدامهم على الشريط الساحلي للبحر الأبيض في بلاد الشام ، وأدركت المنطقة كلها هذا الخطر الداهم ، ولكن دون مقاومة حقيقية تردع ذلك العدوان ، حتى تأسست دولة الزنكيين ، وأخذ عماد الدين زنكي يوحد المنطقة الشمالية في مواجهة الصليبيين ، حيث ضم الموصل والجزيرة والشام والعراق سنة ٥٢٥ هـ ، وقاوم الصليبيين حتى استشهد غيلة فتابع ابنه نور الدين محمود جهوده في توحيد المنطقة فتم له ذلك سنة ٥٤٩ هـ (١) وشدد هجماته على الصليبيين وكان نور الدين يدرك أهمية مصر وضمها إلى سلطانه ، وأتيحت له الفرصة عندما لجأ إليه « شاور » مستنجدا ضد خصمه « ضرغام » ، فسير معه نور الدين حملة بقيادة أحد أمرائه « أسد الدين شيركوه » سنة ٥٥٩ هـ ، وتابع بعد ذلك حملاته . وقد حث العماد الأصفهاني ممدوحه نور الدين على المبادرة إلى ضم مصر والاستيلاء عليها قائلا:

وإنَّ مصراً لك تعنو بعدما ... لسيفك العضْبِ عنَّا صعيدُها

والمُلْكُ الغرّاء خالٍ بالُها ... عالٍ سناها ، بك حالٍ جيدُهَا

مفترَّةٌ ثغورها ، ممنوعةٌ ... ثغورها ، محفوظةٌ حدودُها

وإنْ بغى جالوتُها ضلالةً ... فأنتَ في إهلاكه داودُها (٢)

---

(١) الروضتين ، جـ١ ، ص ٥٩٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

ولم تكن عيون الصليبيين غافلة عما يدور حولها تجاه مصـــر ، لأنها كانت حريصة هى الأخرى على ضمها إلى ممالكها لتضمن ثبات قدميها فى المنطقة ، وقد عبر عمارة اليمنى عن هذا التطلع الذى لم يكن خافيا على المترصدين مجريات الأحداث السياسية بقوله :

يارَبٌّ إنّى أرى مصـــراً قد انتبـــهتْ   لها عيـــونُ الأعادى بعدَ رقدَتِـــها

فاجعـلْ بها ملّــةَ الإسلامِ باقيـــةً   واحرسْ عقودَ الهدىَ من حلِّ عقدتهـا

وهـبْ لـنا منك عوناً نستجيرُ بــــه   مـن فتنةٍ يتلظّى جمرُ وقْدتِــها (١)

وليس من الصدف التاريخية أن تبدأ حركة المد الصليبى فى الشام مع حركة الانكماش الإسلامى فى الأندلس ، فانتقلت جماعات من الأندلسيين إلى مصر التى قدر لها أن ترفع راية الجهاد وتقود النصر على الصليبيين مما جعلها قبلة العلماء والأدباء وصارت رمزاً ينبض بالثقة فى فترات اهتزت فيها ثقة المسلمين بقياداتهم وأوطانهم ، وبذلك اكتسبت مصر شخصية عالمية إسلامية تجمعت من حولها كل دواعى العزة والفخار .

وكانت الشام قسيمة مصر فى هذا الفخر ، ولكن التحام مواقع المسلمين فى الشام بالصليبيين جعل المقاتلين (المدنيين) بالقلم واللسان يتخذون من الحصون المصرية مواقعهم بعيدين عن خطر الغارات والمعارك ، وهذا كانت الصحراء الشرقية سبباً فى تواجد جماعة من العلماء والأدباء فى مصر خلال الحروب الصليبية .

وجعلت الحروب الصليبية من مصر مؤتمراً إسلامياً ينعقد كل عام ويحضره المسلمون من بلدان متفرقة من الهند وما جاورها ، والأندلس والمغرب ، حيث أغلقت الطرق البرية بين مصر والحجاز طوال الحروب الصليبية ، وأصبح لزاماً على الحجاج أن يسلكوا طريقاً أكثر أمناً ، فكانوا يتجهون إلى أعلى الصعيد فى مصر ، عند قوص ومنها يتجهون إلى ساحل البحر الأحمر حيث ميناء « عيذاب » ومن هناك يركبون السفن إلى الساحل الحجازى . وكان لهذا المؤتمر آثار سياسية واقتصادية وأدبية هامة على مصر .

رابعاً – انتشار البيئات العلمية والأدبية :

منذ اختط الفاطميون مدينة القاهرة حرصوا على أن تكون مدينتهم أعظم عواصم العالم ، فأقاموا بها دور العلم والمستشفيات ، وأقام بها أكابر العلماء والأطباء ولم يمض وقت

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٩٠ .

طويل حتى ازدهرت هذه المدينة ، وأصبحت منارة علمية وأدبية (١) ومن قبل إنشاء القاهرة كانت الإسكندرية منارة أخرى منذ أنشأها الإسكندر الأكبر (٢) .

وقد ضعفت الحياة الأدبية فيها مع بداية الفتح الإسلامي فترة من الزمان ولكنها لم تلبث طويلا حتى عادت إلى الازدهار من جديد ، خاصة في العصر الأيوبي . وكان من اثار تحويل الحجاج إلى صعيد مصر تكوين مراكز علمية وأدبية في بعض مدنه كأسيوط وقوص وأرمنت . وهكذا كانت البلاد المصرية تموج بحركات علمية وأدبية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب . ولست بصدد إحصاء دور العلم والأدباء الذين تواجدوا في مصر خلال هذه الفترة ، وإنما اكتفى بإبراز المعالم العلمية والأدبية التي تميز هذه الفترة متمثلة في مراكز علمية ثلاث : العاصمة – الإسكندرية – الصعيد .

بيئة العاصمة :

أسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة وأقام فيها الجامع الأزهر بأمر المعز لدين الله وتم بناؤه سنة ٣٦١ هـ وكان الهدف من تأسيسه إقامة الصلاة كالمساجد الإسلامية الأخرى التي وجدها الفاطميون في مصر عند دخولهم . ولكن الوزير « يعقوب بن كلس » أخذ في تحويله إلى مركز دعاية شيعي ، وأصبح الأزهر مدرسة لنشر المبادىء الشيعية إذ كان يدرس فيه الفقه الشيعي ، واصطبغت علومه بالصبغة الدينية . ولما أقام صلاح الدين دولته أبطل الخطبة من الجامع الأزهر وقضى على تدريس المذهب الشيعي ومع ذلك ظل الأزهر مدرسة تنشر مبادىء السنة إلى جوار مدارس أخرى أنشأها الأيوبيون (٣) .

كما أنشأ الحاكم بأمر الله بجوار القصر الغربي الصغير سنة ٣٩٥ هـ دار الحكمة التي احتوت قاعات للمطالعة والنسخ وتلقى العلوم والدرس وكان يشرف عليها داعي الدعاة ، وللنساء في هذه الحلقات مكان خاص ، وكان الهدف من إنشاء هذه الدار استيعاب الكتب والمطالعات والمحاضرات ، وتثقيف القضاة ، وتعليم الدعاة بعد أن ينالوا شطراً من دراستهم في الجامع الأزهري (٤)

---

(١) انظر مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ١ ، أحمد فكري .

(٢) راجع هذا البحث ، ص ٦٤ .

(٣) أ – الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية . د . أحمد بدوي ، ص ١٤ .

ب – القاهرة : تاريخها وآثارها ، عبد الرحمن زكي .

(٤) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيىء الحملة الفرنسية ، عبد اللطيف حمزة ، ص ٢٣ .

وقد نهضت هذه المؤسسة بالعلوم الفلسفية والعلمية فى مقابل نهضة الأزهر بالعلوم الدينية . كما احتوت خزائن القصر الفاطمى على مكتبة ضخمة ، وصفها المؤرخون بأنها أعظم دار للكتب فى عصرها ، وقد آل الكثير من كتبها إلى مكتبة القاضى الفاضل ، بعد بيعها فى العصر الأيوبى ، حيث ضمها إلى مدرسته ، وكانت منارة طوال العصر الأيوبى إلى جوار غيرها من المكتبات التى أنشأها الوزراء الفاطميون كمكتبة الوزير يعقوب بن كلس ومكتبة برجوان أستاذ الحاكم بأمر الله (١)

وأخذت المدارس طريقها إلى الظهور فى مصر منذ أواخر العصر الفاطمى وانتشرت خلال العصر الأيوبى ، ولم يكن نظام المدرسة معروفاً فى الشرق بأسره ، وينسب بعض المؤرخين نشأتها إلى الوزير « نظام الملك » ، وكان انتشارها أول الأمر فى بغداد ونيسابور والموصل والبصرة خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (٢).

والمدرسة بناء فى وسط صحن كبير مربع الشكل ، فى كل جانب من هذا المربع إيوان مقبب ويراعى فى بنائها أن تكون على سمت القبلة ، وبكل مدرسة محراب ، فأصبح من الصعب التفرقة بين المسجد والمدرسة .

وفى عهد الخليفة الفاطمى العاضد أنشأ وزيره صلاح الدين الأيوبى مدرسة الشافعية بجوار الجامع العتيق (٣) ومدرسة المالكية التى عرفت باسم دار الغزل ، وبعد موت العاضد أنشأ صلاح الدين عدة مدارس قال عنها السيوطى فيما رواه عن ابن خلكان أنه قال : « لما ملك صلاح الدين الأيوبى الديار المصرية لم يكن بها شىء من المدارس فبنى صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعى ، وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسينى وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين « خانقاه » ، وجعل دار عباس الوزير العبدى مدرسة للحنفية ، عرفت بالسيوفية ، وبنى بمصر مدرسة أخرى للمالكية وهى المعروفة بالقمحية (٤) .

---

(١) مقدمة ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمى ، تحقيق محمد سعد الأعظمى ، ص ٤٩ .

(٢) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيىء الحملة الفرنسية ، عبد اللطيف حمزة ، ص ٢٤ ، ، سيرة القاهرة (مترجم) ، ص ١٦٢ .

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، جـ ٦ ص ٥٥ ، الخطط للمقريزى ، جـ ٢ ص ١٣٣ .

(٤) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ .

كما شارك أمراء البيت الأيوبى وبعض نسائهم فى تأسيس مدارس أخرى كالمدرسة الكاملية التى أنشأها الكامل بن محمد بن الملك العادل أبى بكر أيوب سنة ٦٢١ هـ ، وتسمى دار الحديث ، والمدرسة الصالحية التى أسسها نجم الدين أيوب سنة ٦٣٦ هـ والمدرسة الفاضلية التى أسسها القاضى الفاضل سنة ٦٨٠ هـ ومدرسة الأحناف التى بنتها السيدة « عاشوراء » زوجة الأمير « أيازكوج » أحد أمراء صلاح الدين ، وقد تبرعت بدارها وأقامت عليها مدرستها (١)

بيئة الإسكندرية :

لم تكن الإسكندرية أقل حظاً من القاهرة فى ازدهار الحياة الفكرية والأدبية ، وكان لموقعها أمام بلدان البحر المتوسط . وكونها مفتاح مصر الغربى إلى الشمال الإفريقى والأندلسى ، وحضاراتها القديمة ، وبعدها النسبى عن عاصمة الخلافة الفاطمية أثر فى أن يأوى إليها كثير من علماء السنة ويمارسون نشاطهم فيها . وقد تألق نجم الإسكندرية فى العصر الأيوبى أكثر من العصر الفاطمى ، وذلك لأن القاهرة وهى العاصمة الفاطمية كانت حديثة النشأة فسلطت عليها الأضواء ولأن الإسكندرية قريبة من الأندلس . وقد شهد العصر الأيوبى توافداً أكثر من العصر الفاطمى ، ولأن الإسكندرية لم تكن مركزاً شيعياً لا فى العصر الفاطمى ولا فى العصر الأيوبى ، فتكاثر فيها السنيون » .

تزدحم المراجع العربية بقوائم رجال العلم والأدب والشعر الذين أقاموا بالإسكندرية وأسسوا فيها نهضة علمية وأدبية . وبذلك كثرت فيها دور العلم والمساجد وأتاها الطلاب والأساتذة . ومن أشهر مساجدها ومدارسها ، جامع العطارين الذى عمره بدر الجمالى سنة ٥٤٧ هـ . ومدرسة الطرطوشى التى بنتها زوجة الأمام الطرطوشى لتدريس الفقه المالكى سنة ٥١٥ هـ ، والمدرسة العادلية ، وهى المدرسة السلفية التى بناها للشافعية العادل بن السلار سنة ٥٤٣ هـ (٢) وقام بالتدريس فيها الحافظ السلفى ، وفيها سمع صلاح الدين الأيوبى درساً

(١) خطط المقريزى ، جـ ٤ ، ص ٢٠٩ .

(٢) كان ابن السلار شافعيا وشغل الوزارة للخليفة الظافر وأنشأ فى الإسكندرية مدرسة سنية فى العصر الفاطمى لأنه كان حاكمها ولأنها بعيدة عن مركز الدعوة بالقاهرة . انظر : الفاطميون فى مصر د . حسن إبراهيم ، ص ٢٩٦ ، والحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، د . أحمد بدوى ص ٣١ .

فى الحديث سنة ٥٧٢ هـ والمدرسة الصلاحية التى أسسها صلاح الدين سنة ٥٧٧ هـ على ضريح أخيه تور انشاه ، وكانت القراءة فيها متصلة وطلب العلم دائما ليلاً ونهاراً ، وعرفت الإسكندرية النظام الجامعى بمعناه الحديث فى تلك الفترة حيث كانت بها دار المغاربة تستقبل الوافدين ويقيم بها الطلاب وتقدم لهم الخدمات العلمية والطبية تحت إشراف المسئولين . كما كان بالمدينة عدد كبير من المساجد والرباطات والخانقات التى يأوى إليها المتصوفة ، ومن أشهرها رباط الأمير الهكارى(١) .

بيئة الصعيد :

كانت الأنشطة الثقافية موزعة بين أرجاء وادى النيل خلال العصرين الفاطمى والأيوبى وأخذت مناطق مختلفة فى الصعيد دورها فى الظهور وعلى مسرح الحركة الفكرية والنشاط الأدبى فى مصر ، ويتألق نجم مدينة قوص التى وصفها ابن جبير بقوله : « هذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر ، الوارد من الحجاج والتجار اليمنين والهندسيين وتجار أرض الحبشة لأنها محضر الجمع ومحط الرجال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وإليها انفلاتهم فى صدورهم من الحج (٢) .

كما نشطت الحياة الأدبية بمدينة أسيوط وهى المدينة العريقة ذات التاريخ الحضارى القديم التى خرج منها (أفلوطين) صاحب الفلسفة الأفلوطينية الحديثة المشهورة بالإسكندرية وكان أفلوطين قد انتقل إليها وأسس مدرسة بها قبل الفتح الإسلامى .

وفى مصر الفاطمية أخذت أسيوط حظها فى الشهرة فأنشأ بها الفائز الفاطمى مدرسة عرفت بالمدرسة الفائزية جمعت طائفة من كبار العلماء الذين قاموا بالتدريس فيها كالعالم المغربى الجليل « نجم الدين المغربى » و« الفتح بن موسى بن حماد » المتوفى بها سنة ٦٢٣ هـ وغيرهما .

---

(١) راجع تفاصيل حضارة الاسكندرية ودور العلم بها فى كتاب الحافظ السلفى ، محمد زيتون ، ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) الطالع السعيد ، للأدفوى ، هامش ص ١٣

واشتهرت أسرة « مماتى » فى مدينة أسيوط وهى أسرة قبطية ظهر فيها طائفة من الشعراء » كالمهذب بن مماتى » الذى تولى ديوان الجيش أواخر العصر الأيوبى ، وابنه « الأسعد ابن مماتى » كان شاعراً من كبار شعراء مصر الأيوبية واتصل بالقاضى الفاضل وتولى بعض المناصب الهامة فى مصر (١)

وقد عدد الأدفوى فى كتابه الطالع السعيد أسماء طائفة من علمائه وأدبائه الذين أسهموا فى بناء الحياة الأدبية فى مصر خلال مرحلة النضج (٢) .

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ١٦٤ .

(٢) انظر « الطالع السعيد » ، ص ٥ ، وما بعدها .

الفصل الثانى

ظهور بواكير الشخصية المصرية فى الشعر

ميلاد الشعر العربى بمصر :

كان ظهور الشعر العربى بمصر ومشاركة المصريين فيه أسبق من ظهور النثر الفنى ؛ فبينما تألق نجم بعض الشعراء المصريين فى القرن الثانى الهجرى لم يعرف لمصر كاتب مشهور.

وقد عرفت مصر الشعر العربى أول ما عرفته على أيدى بعض الشعراء الذين وفدوا مع القبائل التى استقرت بمصر عقب الفتح الإسلامى وقد عبروا فى أشعارهم عن الحياة السياسية التى عاشتها مصر فى القرن الأول الهجرى . ومن ذلك أن « عبد الرحمن بن جحدم » والى مصر من قبل ابن الزبير ، فلما أن بويع « مروان بن الحكم » سنة ٦٤ من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبير ، فسير جيشاً عليه « زهير بن قيس العلوى » إلى « أيلة » ليمنع عبد العزيز من المسير ، وسار مروان أيضا إلى مصر ، وهزم الجيش المصرى ، وتقدمت جيوش المروانيين ، ففى هذه الحروب قال بعض عرب مصر شعراً . ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النذر اليسير . ومن ذلك ما قاله « زرعة بن سعد بن أبى زمزمة الحشنى ، يمدح ابن جحدم :

وما الجِدُّ إلا مثلُ جدِّ ابنِ جحدمٍ ... وما العَزْمُ إلا عَزْمُهُ يومَ خندقْ

ثلاثون ألفاً هم أثاروا ترابهُ ... وحدوه فى شهرٍ حديث مصدقْ (١)

واستمرت الحروب التى كانت بين الزبيريين والأمويين فى مصر طويلاً وكانت هذه الحروب تعرف بأيام الخندق أو « التراويح » (٢) لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوبا ، يخرج هؤلاء ثم يرجعون ويخرج غيرهم ، وقتل من المصريين عدد كثير لاسيما من « المعافر » . وفى هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانياً:

---

(١) فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد كامل حسين . ص ١٢٩ .

(٢) الحياة الفكرية والأدبية بمصر . د . محمد كامل حسين . ص ٨٨ ، ١٩٠ .

ألا هــلْ أتــاهـا علــى نأيـها نبــاءُ التَّراويــح والخنـْـذَقِ
بلغنــا بفيـلق يغشــى الظـّـرابَ بعيــد السّمُــوُّ لمــنْ يرتقــى
وسَــدت معافــرُ أفْــقَ البــلادِ بمرْعِــدِ جيــش لهــا مُبْــرقِ
ونــادَى الكُمــاةُ : ألا فابــرُزُوا فحتّــامَ حتّــى ولا نلتقــى (١)

كما عبروا عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية التى عاشتها تلك القبائل فى مصر بما فيها من نزاع وتفاخر ، ومن ذلك ما قيل من الشعر فى القصة المعروفة بقصة « جناح الزعفران » وهى قصة تشبه - تماماً - قصة داحس والغبراء التى كانت فى الجاهلية . وفخر الحضارمة بتولى أحد رجالها « لهيعة بن عيسى الحضرمى » منصب القضاء بمصر سنة ١٩٩ هـ فقال أحد شعراء قبيلته :

لقــدْ وَلِىَ القضاء بكــلِّ أرضٍ مــن الغُــرِّ الحضــارمَة الكــرَام
رجــالٌ ليــس مثلهُــمْ رجــالٌ من الصيدِ الحجا جحِ الضخّامِ (٢)

وقال يزيد بن مقسم الصدفى :

يــا حضْرَ مَوتَ هنيئاً ما خُصِصت به مَــن الحكومةِ بينَ العُجْمِ والعَــرَبِ
فــى الجاهليةِ والإسلامِ يعرفــه أهل الروايةِ والتفتيشِ والطّــلبَ (٣)

وإذا كان لهؤلاء الشعراء الوافدين سبق التغنى فى سماء مصر بالشعر العربى ، فإن معظم شعراء العرب أتوها زائرين منشدين ومعلمين ومسجلين طرفا من أخبارها وأحداثها ، وواصفين معالمها وآثارها ومن هؤلاء الشعراء :

١ - عبيد الله بن قيس الرقيات :

وقد زار مصر فى إمارة عبد العزيز بن مروان سنة ٦٥ - ٨٦ هـ ومدحه . وتغنى بجمال مدينة حلوان تلك المدينة التى أنشأها عبد العزيز إبان ولايته على مصر ومما قاله الشاعر فى وصفها

(١) فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد كامل حسين . ص ١٣١ .
(٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة لأبى عمر يوسف الكندى . تحقيق « رفن كست » بيروت ٨ ، ١٩ م . الحجاجة جمع حجاجح . وجحاجح جمع جحجاج وهو السيد الرفيع القدر .
(٣) فى أدب مصر الاسلامى . د . محمد كامل حسين . ص . ١٦١ .

سقياً لحلوان ذى الكروم وما ... صنّف من تينه ومن عنبه
نخلٌ مواقيرٌ بالفناء من (البُر ... نى) غلبٌ تهتز فى شربه (*)
أسودٌ سكانهُ الحمَامُ فما ... تنفكُّ غربانه على رُطَبِهْ (١)

٢ – وجميل بن معمر : شاعر الغزل الذى قدر له أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بمصر سنة ٨٢٠ هـ . وأنشد عند احتضاره :

بكَرَ النَّعىُّ وما كنّى بجميلِ ... مثوى بمصرَ ثواءَ غير قفولِ
قومى بثينةُ فاندبى بعويلِ ... وابكى خليلكِ قبلَ كلِّ خليلِ (٢)

٣ – و« كثير عزة » : الذى تردد على مصر مراراً ومدح الأمير عبد العزيز بن مروان وفيها رثى حبيبته :

أقول ونضوى واقفٌ عندَ رأسها ... عليكِ سلامُ اللهِ والعينُ تسفحُ
فهذا فراقُ الحقِّ لا أنْ تزيرنى ... بلادَكِ فتلاءُ الذراعينِ صيدحُ
وقد كنتُ أبكى من فراقكِ حيةً ... وأنتِ لعمرى اليومْ أنأى وانزحُ (٣)

٤ – ونصيب بن رباح : الذى اتصل بعبد العزيز بن مروان ، وكان كثير التردد على مصر وسجل فى شعره بعض مظاهر الحياة المصرية من خلال مراثيه لعبد العزيز بن مروان ، الذى توفى سنة ٨٦ هـ ، وكان مرض الطاعون قد تفشى فى مصر فلجأ الأمير إلى قرية من قرى صعيد مصر تسمى « سكر » فراراً من هذا المرض ، ولكن « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروجٍ مشيدة » ، فعاجلته المنية فى هذه القرية ، ورثاه الشاعر مسجلا هذه الحادثة :

أصبْتُ يومَ الصعيدِ فى سكرٍ ... مُصيبةً ليس لى بها قِبَلُ

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٥٥٨ .

(٢) خطط المقريزى : جـ ١ ط ١ منشورات مكتبة العرفان . لبنان ص ٣٦٨ .

(*) البرنى : نوع من التمر . غالب : ملتفة .

(٣) الأغانى جـ ١ ، ص ١٣٩ . كانت وفاة الشاعر سنة ١٨٠ هـ ، انظر حسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ ص ٥٥٨

بالله أنسى مصيبتى أبداً ... ما أسمعتنى حنينها الإبلُ
لو يعلمُ النَّعشُ ما عليه من ... العرفِ ولا الحاملون ما حملوا
حتى أجنُّوه فى ضريحِهمْ ... حينَ انتهى من خليلكَ الأملُ

٥ – « أبو نواس » : الذى مدح الخصيب . والى مصر ثم انقلب عليه فهجاه ، وقد استمد صوره الفنية من ملامح البيئة المصرية ، فتراه فى مدحه يمزج بين النيل وفيضانه وعطاء الممدوح وإغداقه .

أنتَ الخصيبُ * وهذه مصرُ ... فتدفَّقا فكلاكما بحرُ
لا تقعُدا بى عنْ مدى أملى ... شيئاً فما لكما به عُذْرُ
ويحقُّ لى إذْ صِرْتُ بينكما ... ألاّ يحلَّ بساحتى فقرُ
النيل يُنْعِشُ ماؤه مِصْرا ... ونداكَ يُنْعِشُ أهلَه الغمرُ (١)

وقد أقام « أبو نواس » عاما كاملا بمصر سنة ١٦٠ هـ يشارك فى أحداثها بشعره ويضيف إلى خصائص فنه عنصرا جديدا من وحى البيئة المصرية ، فهو يتحدث عن النيل ، ويشير إلى قصة موسى وفرعون فى أكثر من موضع حيث يقول :

منحتُكم يا أهلَ مصرَ نصيحتى ... ألاَ فخذُوا من ناصح بنصيبِ
ولا تثبوا وثبَ السَّفاةِ فتركبوا ... على حدِّ حامى الظَّهر غيرِ ركوبِ
فإن يكُ باقٍ إفكُ فرعونَ فيكُم ... فإنَّ عصا موسى بكفِّ خصيبِ
رماكُمْ أميرُ المؤمنينَ بحيَّةٍ ... أكولٍ لحيَّاتِ البلادِ شروبِ

وتسابق أدباء مصر وشعراؤها إلى مصاحبة أبى نواس وكتابة شعره وكان بينهم شاعر أراد أن يعلى شأنه بهجاء أبى نواس فقال :

ألاَقُلْ للنُّواسِ الـ ... ضَعيفِ الحالِ والقدْرِ
خبرْنا منك أحوالا ... فلمْ تحمدْك فى الخبرِ

(*) الخصيب بن عبد الحميد العجمى ثم الموادى . ويرجح الدكتور محمد كامل حسين أنه كان أميراً على الخراج بمصر سنة ١٨٩ هـ . انظر : فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد حسين ، ص ١٧٧ ، ١٨٩ .

(١) ديوان أبى نواس ص ٨١ ط الحلبى . القاهرة . ١٣٢٢ هـ .

وما إنْ ذعْتَ بالمنظرْ ولكنْ ذعْتَ بالذُكرِ

وكان هذا الشاعر قبيحا فقال فيه النواسى :

بما أهجُوكَ لا أدرى لسانى فيكَ لا يجرى

إذا فكرت فى هجوِك أبقيتُ على شعرى (١)

٦ - و « دعبل بن على الخزاعى الذى وفد على والى مصر » المطلب ابن عبد الله الخزاعى « فأكرمه وعينه حاكما على أحد الأقاليم ، فمكث الشاعر أياماً به ، ولعله لم يرض بما ناله ، فغضب ، فاضطر الوالى إلى عزله . وسجل « دعبل » بعض أحداث مصر ، فعندما عزل المطلب من ولاية مصر ، لم يقبل أن يسلمها لمن خلفه ، فتحاربا ، فانهزم المطلب واضطر إلى الفرار إلى مكة . فقال دعبل :

فكيفَ رأيْتَ سُيُوفَ الحريشِ ووقعةَ مولَى بنى ضبةٌ

أحجُتك أسيافُهُم كارِهاً وما لَكَ فى الحجِّ من رغْبةَ (٢)

٧ - وقد شارك « أبو تمام » أثناء مقامه بمصر فى تسجيل بعض الوقائع من ذلك ما قاله الشاعر « لعبد الله بن الطاهر » حين قدم مصر وهزم عبيد الله بن السرى سنة ٢٢١ هـ :

لِعَمْرى لقَد كانتْ بمصرَ وقيعةٌ أقامتْ على قصْد الهُدى كلَّ مائلِ

على الخنْدقِ الأقصى وما كان حولَهُ وما قدْ يَليهِ من فضاءٍ وساحلِ (٣)

٨ - أبو الطيب المتنبى :

وكانت وفادته عامرة بالأحداث ، لأن طموحه لم يكن موضع رضا ، فحقد عليه الشاعر المصرى أبو القاسم بن أبى العفير الأنصارى » . وعاب المتنبى على هذا الشاعر قوله :

نظر المحب إلى الحبيب غرام .

---

(١) المرجع السابق . ص ٩٣ .

(٢) كتاب الولاة ، وكتاب القضاة لأبى عمر محمد بن يوسف الكندى ، بيروت ، ١٩٠٨ . ص ١٦١
يريد « بمولى بنى ضبة » (السرى بن الحكم) الوالى الذى جاء خلفا للمطلب سنة ٢٠٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

فقال المتنبى : « إن العرب لا تقول إليه غرام ، وإنما تقول له .

فقال الأنصارى : حروف الخفض ينوب بعضها عن بعض ، وكان هذا الحوار فى مجلس « كافور » وعرَّض الشاعر المصرى بالمتنبى فى قصيدة جاء فيها :

تعـرَّضَ لـى بمـقـتٍ حاسـدٌ ... أبدَى الملامَ وكيفَ يرضى الحاسـدُ

مـا زال ينْشـدُ قائـماً حتـى إذا ... أنشـدتُ عارضـنى لأنِّـى قاعدُ

ولـىَّ ولا أنـا شاكـرٌ لسؤالـه ... فيه ولا هو للإجابةِ حامـدُ (١)

ولنا أنْ نتصور الأثر الذى يحدثه قول المتنبى فى كافور الأخشيدى :

نامتْ نواطيرُ مصر عـن ثعالبـها ... فقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقيـدُ

العبدُ ليس لحـرٍ صالحٍ بـأخٍ ... لـو أنـه فـى ثيـابِ الحرِّ مولـودُ

لا تشـترِ العـبدَ إلا والعصا معـهُ ... إن العبـيدَ لأنجـاسٌ مناكيـدُ

ولا توهَّمْـتُ أنَّ النَّـاسَ قد فُقِـدوا ... وأنَّ مثـلَ أبى البيضـاءِ موجـودُ

وسواء أكان المتنبى على حق فى هجائه أم متجنيا ، فإننا نتخيل أن أجيالا من المصريين تغنت بهذه الأبيات المحكمة النسج ، القوية فى معناها ومؤداها ، خاصة إذا أدركنا أن الشخصية المصرية ساخطة على حاكمها غير مجاهرة فى خصومتها - كما وضحت ذلك سلفا - فلا شك أن مئات الأفراد كانت تتشدق بهذه الأبيات ، تشفيا من حاكمها « كافور » أو غيره وما كان تحريم كافور أو أمثاله على المصريين أن يتبادلوا هذه الأبيات إلا مدعاة لانتشارها .

ومع أن المتنبى لا يمكن أن نعتبره شاعراً مصرياً ، ولكنه بوعى الفنان المقتدر أحس بالروح المصرية ، وعرف شيئاً من مميزات شخصيتها وما أحسب المتنبى كتب أبياته فى كافور إرضاءً لنزعة السخط فحسب وإنما غنى للشخصية المصرية غناء الفنان الذى يعرف ما يطرب جمهوره ليحقق الإيذاء ، وليمجد ذاته أولا بذيوع شهرته .. وهذه الكناية اللطيفة التى أطلقها المتنبى على كافور حين دعاه « بأبى البيضاء » وهى صفة لكافور الأسود كناية مصرية صميمة ، تسرى فى آذان المصريين كأعذب موسيقى تسحر الألباب وتثير السخرية الفكهة .

---

(١) الأدب المصرى الإسلامى ، د . محمد كامل حسين . ص ٢٤٤ .

٩ – وتردد عليها الشاعر « كشاجم » ، وذكر فى أشعاره طرفاً من حياة اللهو التى أخذت فى الظهور منذ عصر الولاة فمما يروى أنه كان لبعض الولاة ولع بالمجون وشرب الخمر ، كالوالى « قرة بن شريك » الذى هدم الجامع الكبير العتيق بالفسطاط ، وأعاد بناءه فكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا « قرة » بالخمور والزمور والطبول فيشرب فى المسجد طول الليل ، ويقول : لنا بالليل ولهم النهار

قال السيوطى عنه : « كان قرة ظلوماً عسوفاً يدعو بالخمر والملاهى فى جامع عمرو » (١)

وكانت لمصر مجالس تشبه مجالس أبى نواس فى بغداد ، من أشهرها مجلس سعيد المعروف بقاضى البقر شاعر الأخشيد ، ويروى أن خمارويه بن أحمد بن طولون ، بنى له غرفة فوق دير القصير ، وجعلها مرتاداً للهوه ومتعه وملتقى لأصحابه من السمار وجلاس الكأس ، وقد أصبحت الأديرة مكاناً لهذه المتع ، وأشهرها دير القصير بمصر الذى يحدثنا عنه كشاجم فى قوله .

سلامٌ على ديْرِ القُصَيْرِ وسجنِهِ فجنَّاتُ حلوانٍ إلى النَّخْلاتِ
منازل كانتْ لى بهنَّ مآربٌ وكانتْ مواخيرى ومنتزهاتى
هنالك تصفو لى مشاربُ لذَّتى وتصحب أيَّام السُّرور حياتى (٢)

وكان « كشاجم » دائم الحنين إلى الحياة الماجنة فى مصر بما فيها من شباب صعاليك وغلمان مخنثين :

لقد كانَ شوقى إلى مصر يؤرقنى فاليَوْم عدت وعادتْ مِصْرُ لى داراً
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحباً طوراً وطوراً أرجى السيرُ أطواراً
أما الشبابُ فقد صاحبتَ شرَّتَهُمْ وقد قضيتُ لباناتٍ وأوْطارا
من شادنٍ من بنىْ الأقباط يعقدُ ما بين الكثيبِ وبين الخصْرِ زنَّارا (٣)

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ١ ص ٥٨٧ .

(٢) خطط المقريزى ج١ ٤ ص ٤١١ ط القاهرة ، ١٣٢٦ .

(٣) المرجع السابق .

ومع نهاية القرن الثانى للهجرة أخذ شعراء مصر دورهم إلى جوار كبار الشعراء العرب فى التعبير عن بعض جوانب الشخصية المصرية . ومن أبرز هؤلاء الشعراء :

١ - « سعيد بن عفير » ، وهو أنصارى الأصل ولكنه ولد بمصر سنة ١٤٦ هـ ، وعاش أحداثها ، وسجل فى شعره شطراً من حياتها السياسية ، إبان الثورة التى شنها أهل الحوف على والى مصر « موسى بن مصعب الخشعمى » سنة ١٦٣ هـ ، عندما اشتط فى جمع الضرائب ، فثاروا عليه وقتلوه ، ووصف الشاعر ثورتهم وامتدح صنيعهم فى قوله :

ألمْ ترهُمْ ألموتَ بموسى سيوفُهمْ ... وكانتْ سيوفٌ لا تدين لمترفِ

فما برحتْ به تعودُ وتبْتدى ... إلى أن تروَّى من حمامٍ مُذَئَّفِ

فأصبحَ من مصر وما كان قدْ حوَى ... بمصرَ من الدُّنيا سليباً بنفنفِ

ولكن أهلَ الحوفِ لله فيهم ... نخائرُ إنْ لا ينفد الدهرُ تُعْرَفِ (١)

٢ - و« عامر بن سعيد » ، المعروف بالمعلى الطائى ، الذى ذكر بعض أشعاره « أبو تمام » فى مختاراته المعروفة « بالحماسة » ومنها هذه الأبيات :

لولا بُنَيَّاتٌ كزغْبِ القطا ... رُدَدْنَ من بعضٍ إلى بعضِ

لكان لى مضْطربٌ واسعٌ ... فى الأرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرضِ

وإنَّما أولادُنا بيْننا ... أكبادُنا تمشى على الأرضِ (٢)

وقد سجل هذا الشاعر جانباً من شخصية مصر السياسية فى شعره ، صور فيه الصراع على ولاية مصر ، بين « سليمان بن غالب » الذى تولى أمرها سنة ٢٠١ هـ ، وغريمه « السرى بن الحكم » ، وهو الصراع الذى انتهى بانتصار سليمان ، وإلقاء القبض على السرى وسجنه فى مدينة أخميم بصعيد مصر وفى هذه الأحداث يقول المعلى :

---

(١) الولاة للكندى ، ص ١٢٧ .

(٢) (أ) الحماسة ، لأبى تمام ط ١ ، القاهرة ، ١٩١٦ م ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(ب) المغرب فى حل المغرب ، لابن سعيد ، جـ ١ ص ١٠١ ط جامعة فؤاد الأول مصر .

إذا شنَّ فـى أرضِ سليمـانُ غـارةً | أثارَ بها نقعـاً كثيـرَ المصـائبِ
ألم ترَ مصْراً كيف داوى سقيمَـها | علـى حيـن دانـتْ للعدوِّ المناصـبِ
حماها ولولا ما تقـلَّدَ أصبحـتْ | حبيساً على حكْمِ القنا والمقانبِ (١)

٣ - و « يحيى الخولانى » : الذى شارك فى تصوير بعض جوانب شخصية مصر الاجتماعية عندما هجا أقباط مصر ، ومن أعانهم فى حادثة « الحراس » وسببها أن قوماً من القبط ، اتخذوا لأنفسهم نسباً عربيا مزوراً ، فجاءوا بشهود مرتشين وادعو أنهم من بنى حوتكة من قبيلة قضاعة وحكم لهم القاضى العمرى بذلك النسب العربى، فثار عرب مصر وكان ، من بين الشهود أحمد بن حوى العذرى فهجاه الشاعر الخولانى ، كما هجا القبط والقاضى فى قوله :

يا ليْـتَ أمَّ حـوًى لم تَلِـدْ ذكـراً | أو ليْـتَ أن حـوِيًّاً كـان ذا خـرس
كسا (قضاعةَ) عاراً فى شهادتـه | للـه در حـوًى شـاهدِ الحـرَسِ
شهادةٌ رجـعت لـو أنَّـها قُبِـلتْ | لألحق الزور منها العيرَ بالـفرسِ (٢)

وقال أيضاً :

ومن أعجبِ الأشياءِ أنَّ عصـابـةً | منَ القبطِ فينا أصبحوا قد تعرَّبـوا
وقالوا أبونا (حَـوْتكُ) ، وأبوهـم | مـنَ القِبْطِ علْجٌ حبْلُهُ متـذبذبُ
وجاءوا بأجلافٍ منْ الحوف فادَّعوا | بأنَّهـم منهُمْ سفاهاً وأجـلبوا
ألا لعَن الرَّحمنُ مـن كـان راضـياً | بهم رغماً ما دامت الشَّمسُ تغربُ (٣)

مظاهر الشخصية المصرية وآثارها فى فنون الشعر :

نلمح فى بواكير الشعر المصرى بعض الشخصية المصرية (السياسية والاجتماعية والطبيعية) ، كما نلاحظ آثارها فى بعض فنون الشعر وأغراضه .

---

(١) الولاة الكندى ص ١٦٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٩ .
(٣) الولاة ، للكندى ، ص ٣٩٩ .

١ – الشعر السياسى :

لعل أسبق الأغراض تعبيراً عن الشخصية المصرية هو الشعر السياسى الذى تابع تسجيل الأحداث والفتن التى عاشتها مصر من زمن الولاة ولاسيما الولاة العباسيون .

من ذلك ما حدث سنة ٢٠٧ هـ ، عندما ، أرسل الخليفة المأمون خالد بن يزيد الشيبانى والياً على مصر فامتنع ابن السرى من تسليمها وحاربه ، فانضم ابن الجروى إلى جيش خالد ، استمر القتال مدة طويلة فمل الجيشان الحرب ، وحدث أن ارتفع النيل فى هذا الوقت ، فسار خالد إلى الحوف ، فلما رأى الجروى ذلك أراد أن يخرج خالد بن يزيد من ملكه فمكر به حتى أنزل « نهيا » وهناك تركه ابن الجروى فى جهد وصفه المعلى بقوله :

سلا خالدٌ لما انجلى عنه شكه ... وأسلمه فى عدوة البحر خاذلُهْ

فزالت أمانيه غداة سما لنا ... بعارض جيش يمطر الموت وابله (١)

فلما انكشف النيل سار ابن السرى إلى خالد وحاربه وأسره، وفى ذلك قال المعلى :

ألا لا أرى خيْلاً أضرُّ له الوغى ... وأجبنَ فى الهيجاءِ من خيل خالدِ

وقُوّاده أشرارُ كلُّ قبيلةٍ ... تمالوا على إسلامه فى الشدائدِ

فما أسروا منه جباناً معضدا ... ولكن أبا شبليْنِ عبْلَ السّوَاعدِ (٢)

ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن ، قسم مصر بين ابن السرى وابن الجروى ، فولى كل واحد منهما ما فى يديه ، فأقبل ابن الجروى على جمع الخراج ، فقاومه قوم من أهل الحوف فكتبوا إلى ابن السرى يستعدونه على ابن الجروى ، فتقابل الجيشان فى « بلقينة » واستمر القتال طويلا ، حتى اضطر ابن الجرو ى إلى أن يفر إلى دمياط ، ثم عاد ابن الجروى مرة أخرى سنة ٢١٠ هـ ، فملك تنيس ودمياط ، وهزم جيش ابن السرى ولم تهدأ هذه الفتن حتى دخل عبد الله بن طاهر مصر سنة ٢١١ هـ (٣) . وأخذها من ابن السرى ، كما خضع له ابن الجروى .

---

(١) الولاة ، للكندى ، ص ٣٩٩ .

(٢) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين د . ص ١٢٥ ، ٢٦ .

(٣) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين . ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

وتستمر هذه الفتن ، وإن خفت حدتها في عصر الطولونيين ، فالشاعر « القاسم بن يحيى المريمى » يحدثنا عن خروج خمارويه سنة ٢٧٢ هـ لقتال ابن كنداج ومطاردة ابن خمارويه لهذا الثائر بقوله :

أتانـــا أبو الجيش الأمير بيمْـــنه ... فشرَّدَ عنَّا الجورَ وافتقَرَ العـــسْرُ

فـإنْ يكُ أرضُ الرَّقتَين بـه اكتسـتْ ... ضياءً وإشراقاً لقد أظلمت مصـــرُ

ولما رأى الجيشَ ابنُ كـنداج مقبلا ... أرتْهُ المنايا الحمرَ أعلامُهُ الحمرُ (١)

٢ - رثاء الدول :

أبدع المصريون في هذا الغرض ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أحداث السياسية التي عانى منها الشعراء واكتووا بنارها عن كثب ، فالدولة الطولونية - التي سبق القول بأنها هيأت للشعراء مكانة مرموقة وعيشة راضية - لم تعمر طويلا ، إذ انتزع العباسيون من جديد إمارة مصر من الطولونيين . وفي سنة ٢٩٣ هـ أمر القائد العباسي المنتصر بهدم الميدان الذي أنشأه ابن طولون فراح الشعراء المصريون يندبون هذه الدولة ويبكون على ما عفى من آثارها فقال الشاعر محمد بن طشويه :

مَــنْ لمْ يرَ الهدمَ للميْـدانِ لـم يـرَهُ ... تباركَ اللـــهُ مـــا أعلاه وأقـــدرهُ

كمْ كان يأوى إلـــيه فـــي مقاصـــره ... أحوى أغنُّ غضيض الطرْف أحـوره

كمْ كانَ فيه لهم من مشـــربٍ غــدقٍ ... فعبَّ طرْفُ الرَّدى فيه فكــدَّره (٢)

وقال سعيد القاص يبكي دولة الطولونيين :

جرى دمعه ما بين سـحْرٍ إلـى نَـحْرِ ... ولم يجرِ حتى أسلمتْهُ يدُ الصـَّبْرِ

تتابُعُ أحــداثٍ يضيِّــعْنَ صـبْرَه ... وغدرٌ من الأيَّام والدَّهْـــرُ ذو غـــدرِ

طوى زينة الدنيا ومصـــباحَ أهلِهَـــا ... بفقْدِ بني طولون والأنْجُــمِ الزُّهْــرِ

---

(١) روى السيوطى أن الوزير أبا القاسم المغربى ذكر أن البطيخ العبد لاوى الذى بمصر منسوب إلى عبد الله ابن طاهر هذا ، قال ابن خلكان : إما لأنه كان يستطيبه ، أو لأنه أول من زرعه بها - حسن المحاضرة جـ١ ص٥٩٣ .

(٢) خطط المقريزى . جـ ١ ط بيروت . ص ١٠٨ ، وكتاب الولاة للكندى ص ٢٦٣ .

ثم أخذ الشاعر يسجل أعمال ابن طولون ويشيد بمنشآته فى مصر :

وكان أبـو العـبـاس أحمـدُ ماجِداً ... جميلَ المحيَّا لا يبيتُ علـى وِتْـرِ
بنى مسجـداً فيـه يـروقُ بـنـاؤه ... ويهدى به فى الليل إن ضلَّ من يسْرى
مآثرُ لا تبلى وإن بـاد رَبُّـهـا ... ومجدٌ يـؤدى وارثيه إلى الفـخرْ
فمن يبك شيئاً ضاعَ من بعد أهـلـه ... لفقدهم فليبك حـزناً على مصر (٢)

- الوصف

بدأت ملامح الشخصية المصرية تظهر فى فن الوصف وأصبحت أعمال الطولونيين وآثارهم موضوعات لعديد من القصائد ، من ذلك ما قاله الشاعر سعيد القاص .

يـدلُّ على فضْلِ ابنِ طولون همَّـةٌ ... محلِّقـةٌ بينَ السِّماكـيْنِ والغـفرِ
فإن كنت تبغى شاهـداً ذا عدالـةٍ ... يخبِّرُ عنـه بالجـلىِّ مـن الأمـرِ
فبالجـبل الغـربى خطة يـشكر ... له مسجد يغنى عن المنطق الهـذْرِ
بنـاه بآجـرٍ وسـاجٍ وعرعـر ... وبالمرمرِ المسْنون والجصِّ والصـخْرِ
فسيحُ الرحابِ يحسرُ الطرفُ دونَـهُ ... رقيق النسيم طيِّبُ العـرفِ والنـشرِ
وتـنُّور فرعون الـذى فـوقَ قـلة ... على شاهقٍ عالٍ على جبلٍ وعـرِ
وعينُ معينِ الشُّربِ عيـنٌ زكـيَّةٌ ... وغير أجـاجٍ للـرواةِ وللطـهرِ
كأنَّ وفـودَ النـيلِ فـى جنباتِهـا ... تروح وتغدو بين مـدٍّ إلـى جـزرِ
ولا تنـس مارِسْتَـانه واتِّـساعه ... وتوسـعة الأرزاق للحول والشـهرِ
فللميِّتِ المقـبورِ حسـنُ جـهازِه ... وللحىِّ رفقٌ فى عـلاجٍ وفى جبر (١)

وفضلا عما تشير إليه هذه الأبيات مع غيرها فى شتى الأغراض بمستواها الفنى - عن التعبير الصادق عن ظهور البواكير الأولى الدالة على شخصية مصر ، فإنها تقدم لنا وصفاً لبعض ملامح البيئة المصرية وتصويراً لفن العمارة المصرية ، وتستخدم صوراً منتزعة من البيئة المصرية .

---

(١) كتاب الولاة للكندى ص ٢٥٣ .
(٢) المرجع السابق . ص ٢٥٤ .

ولعل الشاعر استوحى معنى البيت الأخير من الموروث فى البيئة المصرية حيث قدم الموتى على الأحياء ومعروف أن المصريين يبالغون فى تقديس موتاهم مبالغة شديدة .

وكما صور الشعر وصف الآثار ، فإنه صور جانبا آخر من البيئة الطبيعية التى توضح خصائص الشخصية المصرية : فالشاعر «صالح بن موسى» يصف البركة بقوله :

أوَ مـــا تـــرى حُـسْنَ الرِّيا ... ض وما اكْتسيـــنَ مـــن الزَّهـرْ

وجـــهُ الرَّبيـــعِ وحـــبَّذا ... وجـــهُ الربيـــع إذا ظهـــرْ

الوشْـــيُّ ينـــشر والمـــلا ... حِـــفُ والمـــطارِفُ والحـــبرْ

هـــذا البنفســـج فـــى الحـــدا ... د بغيـــر حـــزن قـــدْ ظهـــر

وأتـــى البُهـــارُ بصُـــفرةٍ ... فلـــكُلُّ حُـسْنٍ قـدْ بَهَـــرْ (١)

كما سجل فن الوصف بعض الأحداث الطبيعية التى وقعت فى تلك الفترة. من ذلك مارواه السيوطى أن زلزالا وقع بمصر أيام كافور الإخشيدى، فأنشد محمد بن القاسم بن عاصم قصيدة منها :

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليا ... نجل العلا وسليل السادة الصلحا

مازلزلت مصر من سوء يرادبها ... لكنها رقصت من عدله فرحا(٢)

وفى أيام أحمد بن طولون تساقطت النجوم فراعه ذلك، وأخذ يسأل العلماء والمنجمين فما أجابوه بشىء، ودخل عليه الجمل الشاعر وهم فى هذا الحديث فأنشده،

قـــالوا تســـاقَطَتْ النُّجـــو ... مُ لحـــادثٍ فـــظٌّ عســـيرْ

فأجيـــبتُ عـــندَ مقالـــهم ... بجـــوابِ مُحـــتَنِكٍ خبـــيرْ

هـــذى النُّجـــومُ السَّـــاقطا ... تُ نجـــومُ أعـــداءِ الأمـــيرْ (٣)

٤ - المجون :

شهدت بداية الحكم الطولونى لمصر مرحلة استقرار نسبى صحبتها موجة من الثراء، ومع الثراء ينتشر اللهو والمجون، والشعراء سباقون إلى الانغماس فى هذه الحياة عملا وقولا،

(١) المرجع السابق ص ٢٧٧ .
(٢) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين ، ص ٢٣٧
(٣) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٠ .

وربما شجعهم على ذلك أن بعض ملوك هذا العصر شاركهم طرفاً من حياة المتع واللهو، فأحمد ابن طولون - مع ما عرف عنه من تدين - كان ميالا إلى الشراب والطرب والمسامرة. وروى بعض المؤرخين عن ابنه خمارويه أنه كان مسرفاً فى الشراب، وسبق القول أنه أقام غرفة فوق دير القصير، كان يتردد عليها مع رفاقه طلاب اللهو، وكان بهيكل الدير صورة جميلة للسيدة العذراء يحلو للشاربين تناول كئوسهم مع إدامة النظر إليها :

كم شربْنا على التصاوير فيه ... بصغارٍ محثوثةٍ وكبارِ
صورةٌ من مصوّرٍ فيه ظلّتْ ... فتنةً للقلوبِ والأبصارِ
لا وحُسْنِ العينينِ والشفةِ اللّمياءِ فيها وخدُّها الجلنارى
لاتخلّفْتُ عن مزارى ديرا ... هى فيه، ولا نأى بى مزارى
فسقى اللّهُ حُلوانَ فالنَّجدَ ... فديرَ القُصَيْرِ صوبَ العشارِ
كم تنبّهْتُ من لذاذةِ نومى ... بنعيرِ الرُّهبانِ فى الأسْحَارِ
والنواقيسُ صائحاتٌ تنادى : ... حىّ يا نائماً على الابتكارِ (١)

وتطالعنا أشعار تلك المرحلة بأسماء الأديرة التى كانت مقصد المتع واللذات بمصر كدير القصير، ودير مار حنا، ودير نهيا وغيرها. يخبرنا الشاعر الأخشيدى أبو هريرة بن أبى عاصم، عن حياته بدير القصير :

كمْ لى بديْرِ القُصَيْرِ من قَصْفٍ ... مع كلِّ ذى صبوةٍ وذى ظَرْفِ
لهوتُ فيه بشادنٍ غَنِجٍ ... يَقْصُرُ عنه بدائعُ الوصْفِ (٢)

ويقول :

إنَّ ديْرَ القُصَيْرِ هاجَ ادّكارى ... لهوَ أيامِنا الحسانِ القصارِ
وكأنّى إذْ زرْتُهُ بعدَ هجرٍ ... لم يكُنْ من منازلى وديارى
إذْ صعودى على الجيادِ إليه ... وانحدارى فى المنشآتِ الجوارى

---

(١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . لابن فضل الله العمرى ص ٣٦٣ ، جـ ١ . ط القاهرة ، ١٩٢٤ .

(٢) خطط المقريزى جـ ٤ مصر ، ١٣٢٦ هـ . ص ٤٩٠ . وقد ذكر الثعالبى اسمه مضبوطا بالشكل فى يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٦١

منزلاً لستُ محصياً ما بقلبي — ولنفسي فيه من الأوطارِ

منزلا من علوّه كسماءٍ — والمصابيحُ حولَه كالدَّراري (١)

ويعرض لنا الشاعر ابن البصري جانباً آخر من حياة هذه الأديرة التي أقيمت بعيدا عن ازدحام السكان وأعين الناس، فأصبحت مقصد طلاب المتع والتنزه في الخلاء وهواة الصيد إلى جانب متعة الشراب أو الجنس.

أديرَ « نهيا » (٢) ماذكرتُك ساعة — إلا تذكَّرْتُ الشبابَ بمفرَقي

والدَّهرُ غضٌّ والزمانُ مُساعدٌ — ومقامُنا ومبيتُنا بالجوْسقِ

ياديرَ « نهيا » إنْ ذُكرتَ فإنّني — أسعى إليك على الخيولِ السُّبَّقِ

وإذا سُئِلْتَ عن الطُّيورِ وصيْدِها — وجنوسِها فاصدقْ وإن لم تصدقِ

كمْ قدْ صبوتُ بغرَّتي في شِرّتي — وقطعتُ أوقاتي برمي البندقِ

وخلعتُ في طلبِ المجونِ حبايلي — حتىً نُسِبْتُ إلى فعالِ الأخْرَقِ (٣)

وتعكس لنا بعض أشعار الأديرة خفة الروح المصرية التي نلمحها في أبيات ابن البصري:

أتنشطُ للشُّرْبِ ياسيِّدي — فيومُك هذا دَقيقُ الدروزْ

فعندي لكَ اليومَ مشْويَّتان — سرقتهُما من دجاجِ العجوزْ

أتنشطُ عندي على نبقتين — على لوْزتينِ ، على قَطرِ ميزْ

ونقصدُ "نهيا" وديرا لها — به ضنبتُ الوردِ والمرِ محوزْ

ونشرب فيها برطلٍ وجامٍ — وطاسٍ وكأسٍ وكوبٍ وكوزْ

فعنديَ خِشْفٌ رخيمُ الدلالِ — نشا في النَّعيم ولِبْسِ الخزوزْ (٤)

---

(١) الديارات . لأبي الحسن على بن محمد الشابشتي . ورقة ١٢٩ – ١٣١ .

(٢) دير نهيا : كان بالقرب من الجيزة وقال عنه ابن الفضل الله العمري أنه أطيب مواقعها هواء وهو عامر برهبانه وسكانه وله في النيل منظر عجيب . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار حـ ١ ص ٣٦٢

(٣) الديارات . لأبي الحسن على بن محمد الشابشتي . ورقة ١٢٩ – ١٣١

(٤) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري . حـ ١ . ص ٣٦٢ . مطبعة دار الكتب المصرية ؛ القاهرة ، ١٩٢٤ .

ولقد أوحت الأديرة إلى روادها من الشعراء صوراً بديعة من ألوان التعبير، امتزج فيها وصف الشعور بالبيئة الطبيعية، فالشاعر محمد بن عباس البصرى يستلهم أبياته الآتية من وقفة فى دير مارحنا (١) . وهى تعكس مايعانيه من حرقة الجوى ولوعة الشوق، وقد عكس هذه المشاعر على الورود التى رآها فى ذلك الدير، كما تبدو فى نظرة الورد إلى أترابه، وبما فى أجفان النرجس من دموع تتقاطر :

ياحاملَ الكأسِ أدرْها واسقِنى	قد ذعر الشوقُ فؤادى فانذعرْ
أما ترى البركةَ ماأحسنَها	إذْ تداعى الطيرُ فيها فصفرْ
وأبيضُ النرجسِ فى أجفانه	دمعُ النَّدى لولا التَّشاجى لقطرْ
دعنى فما أهلكُ إلا بالجوى	ماعيشةُ العاشقِ إلاَّ فى كدرْ (٢)

ويستوحى ابن أبى عاصم المصرى من "دير طمويه" (*) هذه الصورة المعبرة عن جمال الطبيعة المصرية، واستمتاع الشعراء بملذات الحياة فى الأديرة المنتشرة فى ربوع وادى النيل.

واشربْ "بطموية" من صهباءَ صافيةٍ	تُزرِى بخمرِ قرى هيت وعاناتِ
على رياض من النُّوَّار زاهرةٍ	تجرى الجداولُ فيها بين جناتِ
كأنَّ نبتَ الشَّقيقِ العصفرىِّ لها	كاساتُ خمرٍ بدتْ فى إثر كاساتِ
كأنَّ نرجسَها من حُسْنِها حَدَقٌ	فى خِفْيةٍ يتناجَى بالإشاراتِ
كأنَّما النِّيلُ فى مرِّ النَّسيم به	مستلئمٌ فى دروعٍ سابريَّاتِ
منازلٌ كنتُ مفتونا بها شغفا	وكنَّ قدماً مواخيرى وحاناتى
اذ لا أزال مُلِحًّا بالصَّبوحِ على	ضربِ النَّواقيس صبًّا بالدِّياراتِ

---

(١) دير مارحنا : كان على شاطىء بركة الحبش وبقربه بئر توت تعرف ببى نجاتى عليها جميزة يجتمع عندها الناس ويشربون . وقد ضبطه فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار – جـ ١ – ص ٣٦١ . (مريحنا) .

(٢) يتيمة الدهر . للإمام أبى منصور عبدالملك الثعالبى . ص ٣٧٩ . جـ ١ . ط ١ ١٩٣٤ .

(*) طمويه : بفتح الطاء وسكون الميم وفتح الواو وياء ساكنة . قريتان بمصر إحداهما فى كورة المر ناحية والأخرى بالجيزة . قال الشابشتى وطمويه فى الغرب بإزاء حلوان ، والدير راكب البحر حوله الكروم والبساتين والنخيل والشجر، وله فى النيل منظر حسن وهو أحد متنزهات مصر ومواضع لهوها المشهورة . خطط المقريزى . جـ ٤ ص ٤١٤ ط مصر ، ١٣٢٦ هـ

وقد سجل الأدب المصرى الذى أوحت به هذه الأديرة بعض المعتقدات الدينية التى كانت تسود بين النصارى، فمما يرويه المقريزى أن النصارى يزعمون وجود نار بدير القصير من النار التى كانت ببيت المقدس، يغدون منها فى كل عيشة وهى بيضاء ضعيفة الحر لاتحرق، ثم تقوى إذا أوقدمنها السراج (١) . وقد أشار ابن عامر إلى هذه الظاهرة فى الأبيات التالية :

ياراهب الدير ماذا الضوء والنور ... لقد أضاء بما فى ديرك الطورُ

هل حلت الشمس فيه دون أبرجها ... أو غيب البدر فيه وهو مستورُ

فقال ما حله شمس ولاقمر ... لكن تقرب فيه اليوم قوريرُ (٢)

ولقد لعب فن المجون دوره فى الأدب العربى، وظهر فى صور مختلفة منها الدعوة إلى التمتع باللذات ومنها التفاخر بالمعاصى، ومنها التعريض بالدين، فأى لون منها تستجيب له طبيعة الشخصية المصرية ويناسب خصائصها والشخصية المصرية - كما سبق - محبة للتدين متمسكة بالموروث من التقاليد، وفى الوقت نفسه، محبة للحياة بما فيها من لهو ومتع، فلاغرابة أن يمثل اللهو والمجون جانباً فى أدبها، أما السخرية من الدين أو التهكم به، فهو أمر غريب على المصرين. ومع ذلك نراها فى أبيات (سعيد بن فاخر) أحد شعراء ؟ الأخشيد والمعروف "بقاضى البقر" حين يقول :

حى على الكأس فى الصباح ... مطرحاً نصحَ كل لاح

وانتهبِ العيشَ ماتأتَّى ... فأنت منه على جناح

وأجرنى من عقول قوم ... عموا عن الشرب والملاح

يارب دعنى بلا صلاح ... يارب ذرنى بلا فلاح

يدى مدى الدهر فوق ردف ... وراحتى تحت كأس راح (٣)

فالشاعر لا يكتفى بالدعوة إلى الشراب، ولا بنصحه لنا بتناولها قبل فوات العمر، وإنما يتمادى فى مجونه إلى مخاطبة الإله لا تائباً ولا مستغفرا، بل مستهترا ماجناً متحدياً، وهذه الروح بعيدة عن طبيعة الشخصية المصرية، ويبدو أن عصبة أبى نواس وأمثاله من مجان بغداد فتنوا بمذهبهم الشعرى الجديد بعض الشعراء المصريين.

(١ ، ٢) خطط المقريزى . جـ ١ ص ١٢ .

(٣) المغرب فى حلى المغرب . لابن سعيد ص ٢٧٢ جـ ١ ط . جامعة فؤاد الأول . مصر ١٩٥٣ م .

ولم يكن "قاضى البقر" وحده فريدا فى هذه السخرية، فالشاعر أبو هريرة أحمد بن أبى العصام من شعراء الدولة الإخشيدية يسير فى هذا الاتجاه، بل كان أشد تهكما وسخرية بدينه من زميله، فها هو يصف مجلس الشراب بقوله :

مجـــــلسٌ لايـــــرى الإلـــــهُ بـــــه غـــير مُصَـلٍّ بلا وضـوءٍ وطُـــهْرِ

سُـــــجَّدٌ للكـــــؤوسِ مـــن دونِ تســـبيحٍ سـوى نغمةٍ لعـــودٍ وزمْرِ

أنا أشـــــهَى الأنــامِ فـــى مـــثلِ ذا المجـــلسِ لامجـلسٌ نهـــىٍ وأمرٍ(١)

وهذا الاتجاه تفسره لنا نزعة التقليد التى انتهجها شعراء مصر، وساروا عليها، فلاشك فى أنهم حاولوا أن يترسموا خطى كبار الشعراء ومن بينهم أبو نواس الذى زار مصر وتأثر به أدباؤها :

٥ – الغـــزل :

عندما أخذت بواكير الشخصية المصرية تتجلى فى الأدب كان فن الغزل فى الشعر العربى قد مر بأطور تميزت عندها الثلاثة ألوان : الغزل الحسى، والغزل العفيف، والغزل بالغلمان .

وكانت غلبة لون من ألوان الغزل فى عصر من العصور أو بيئة من البيئات تعبيراً صادقا عما ساد فيها من قيم سياسية أو اجتماعية، وأصبح بذلك مرآة للشخصية تبدو من خلاله السمات الفنية أو الروح العامة التى غلبت على الأدب.

وقد شهدت هذه المرحلة نماذج من فن الغزل المصرى منها ما وصف فيه ابن طباطبا علاقته بمحبوبته التى تعيره بالنوم ولو كان محبا حقيقة لرافق السهاد ولكنه يدافع عن نومه، لأنه يرجو أن يسعد من خلاله باللقاء

عـــيَّرتنى بالنـــومِ جَــورا وظُــلما قـــلتُ : زدتِ الفـــؤاد همًّـا وغمًّا

لـــم أنـــمْ لـــذة، ولانمــــــتُ إلا طمعـــا فـــى خـــيالك أن يلـــما(٢)

ووقف جعفر بن حذار الشاعر المصرى وكاتب ابن طولون يحاكى شعراء بغداد فى

---

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد حـ ١ ط جامعة فؤاد الأول مصر ، ١٩٥٣ ص ٢٧٣

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى حـ ص ٣٧

وصف القيان، وقد أعجبته قينة وأثارته بمفاتن جسمها وجمال وجهها وعذوبة صوتها فقال :

جـــادتْ بوجـــهٍ كأنّـــه قـــمرٌ ... عـــلى قـــوامٍ كـــأنّه غُصُـــنُ

ترنـــو بعـــينينِ من ليـــانهما ... مـــن وســـنٍ فى جفونها وسَـــنُ

غـــنّتْ فـــلم يبـــقَ فـــىَّ جـارحةٌ ... إلّا تمـــنّت لوأنّـــــها أذُنٌ (١)

ويقـــول :

كـــم بيـــن نـــادى وبـــين لـــا ... وبـــين بـــون إلـــى ذمـــا

مـــن رشـــأٍ أبيـــضِ التراقـــى ... أغْـــيَدَ ذى غُـــنّةٍ أجـــمّا

وطَـــفْلةٍ رخْـــصةِ المـــرائى ... ليســـتْ تُجـــلى ولا تُســـمّى

إلا وســـلّكُ مـــن اللآلـــى ... تُعْجِـــزُ من يُخْـــرِجُ المعـــمّى

صغْـــرَى وكـــبْرَى إلـى ثـــلاث ... وأرض بـــرم وأرض رمـــا

مـــن طـفلـــة بضّـــةٍ لعـــوبٍ ... تلقـــاك بالحُسْـــنِ مُسْـــتَتِماً

منهـــن ريـــا وكـــيف ريـــا ... ريـــا إذا لاقـــتِ المشـــما

لوشـــمّها طـــائرُ بـــدوٍ ... لخـــرّفى التـــرب أولَهَمّـــا(٢)

وإذا تأملنا هذه النماذج من فن الغزل رأيناها عاجزة عن تصوير الشخصية المصرية، فهى لاتعبر عن الروح المصرية التى عرفت بتدليلها المرأة وتكريمها تكريما أثار اهتمام دراسى تاريخها منذ أقدم العصور، ولا ينتزع صوره أو تشبيهاته من البيئة المصرية، ولايصف العلاقة بين الرجل المصرى والمرأة المصرية سواء من الناحية الحسية أو المعنوية.

وقد خلت أفكارهم من الجديد الذى يمكن نسبته إلى البيئة المصرية بل جاء فى بعض معانيـــها فتور إذا قورنت بالمعانى التى رددها من قبل بعض الشعراء الكبار . فقول ابن طباطبا :

لـــم أنـــم لـــذة ولا نمـــت إلا ... طمعـــا فى خـــيالكم أن يلـــما

مسبوق بقول المجنون :

وأنى لأســـتغشى ومابـــى نعســـة ... لعـــل خـــيالا منـك يلقى خـــياليا

---

(١) معجم الأدباء لياقوت مسلسلة الموسوعات العربية القاهرة تحقيق وزارة المعارف جـ ص ٣٨٥

(٢) العقد الفريد ، لابن عبد ربه . جـ ٣ ص ١٢٦ .

ولعل البيت الثانى أصدق فى تصوير حالة المحب المستغرق فالمجنون لم ينم وإنما استغشى، وفى النوم راحة البلداء، وفى الاستغشاء هزة المرض، ورعشة المحمومين والمجنون ينفى النعاس لأن فيه اختياراً، والاستغشاء فيه غلبه، والمحب الصادق مغلوب على أمره أكثر منه مختارا ينام كيف ومتى يشاء، والمجنون يرجو أن يلتقى بخيال ليلاه، وابن طباطبا يطمع أن يلم خيال حبيبته به، وفرق بين الرجاء والطمع وبين إلمام الخيال، وتعانق الخيال بالخيال فى سبحات حالمة.

ولعل "ابن حذار" فى أبياته التى وصف بها قينته كان مقلدا لهذه النزعة الجديدة التى ظهرت فى العصر العباسى من وصف القيان، بعد أن أصبحت تجارتهن منتشرة فى العصر العباسى، وساعد الثراء على انتشارها.

وأكاد أحس ترديده المعانى التى قالها ابن الرومى فى وصف المغنية (وحيد) ، وأبيات (جعفر بن حذار) السابقة متكلفة سقيمة لاتمت إلى خفة الروح المصرية بصلة، ويؤيدنى تقديم ابن عبد ربه لهذه القصيدة بقوله : وقد يأتى من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعراء منفرد فى غرائبه (١) .

٦- المديـــح :

لم ينل غرض من أغراض الشعر العربى اهتماما مثل مانالة غرض المديح، فقد كان هدف الحكام والسلاطين، ومصدر أرزاق الشعراء ، ومن ثم فإن معظمهم طرق باب المدح كل على قدر جهده وإمكانياته، وربما كان اهتمامهم بهذا الفن على حساب غيره من الفنون الأخرى، ونظرا لارتباطه بالسلطة الحاكمة فإنه سجل كثيرا من الأحداث التى تدور فى هذا المحيط وخاصة الأحداث السياسية.

ومن جهة أخرى، فإن هذا الفن عبر عن بعض الخصائص الإقليمية فى عصر من العصور حيث أشاد بالقيم الفاضلة ومدح بها، كما وصف القيم الرذيلة ونفاها عن الممدوح، فإذا لاحظنا أن هذه القيم كانت مختلفة باختلاف العصر والبيئة أدركنا مدى تصوير هذا الغرض لبعض سمات الشخصية.

---

(١) المرجع السابق

وعلى ضوء ماتقدم نستطيع أن نتأمل الشخصية المصرية فى فن المديح خلال هذه المرحلة فالشاعر (منصف بن خليل المعازلى) يرسم فى مدائحه لابن طولون خريطة لحدود مصر السياسية الممتدة إلى برقة والشام والحجاز فى قوله :

ياغُرَّةَ الدنيا الذى أفعالُه	غُرَرٌ بها كل الورى تتعلَّقُ
أنت الأميرُ على الشآم وثغرها	والرَّقتين وماحواه المشرقُ
وإليك مصرُ وبرقةٌ وحجازُهَا	كلٌّ إليك فؤادُه متشوِّقُ (١)

وقد عكس هذا الفن بعض القيم الى اعتزت بها الشخصية المصرية ومن أهمها القيم الدينية (فقعدان بن عمر) يمدح ابن طولون قائلا :

حاطَ الخلافةَ والدنيا خليفتُنا	بصارمٍ من سُيُوفِ اللهِ صَمْصَامِ
ياأيُّها الناسُ هُبُّوا ناصرين له	مع الأميرِ بدُهْمِ الخَيْلِ فى اللامِ
ليستْ صلاةُ مصلِّيكم بجائزةٍ	ولا الصِّيامُ بمقبولٍ لصيَّامِ
حتى يرى السَّيِّدُ الميْمونُ ذَبكُمُ	عن الإمام بأطرافِ القنا الدامى(٢)

ومهما تكن قيمة الشعر فى هذه المرحلة المبكرة فإنه يعد باكورة الأدب العربى الذى اتخذ لنفسه عدة مسالك عبر خلالها عن ميلاد الشخصية المصرية فى الأدب العربى، فسجل كثيرا من الأحداث السياسية الاجتماعية التى وقعت فى هذه الفترة، ونأى عن استخدام الأساليب الشعرية التى سادت فى العصر الجاهلى والأموى، واستوحى بعض صوره وأفكاره من البيئة الطبيعية والاجتماعية فى مصر.

والحق أن أدب هذه المرحلة لم يصور البيئة المصرية تصويرا كاملا فقد نجد أسماء بعض الأماكن المصرية، واسم مصر نفسها، ولكنه لايتجاوز سرد الأسماء، وأما النيل فكان وحيه ضعيفا إلى الأدباء على الرغم من قوته وسحره وخيراته ووضوح آثاره واختلاف أحواله على مدى العام .. ويتساءل الدكتور عبد الرازق حميده عن السر فى عدم تعلق الأدب العربى المحض بالآثار والعجائب التى كانت معروفة بمصر والتى تحدثت عنها كتب التاريخ، وروى المسعودى

---

(١) الولاة للكندى ص ٢٣٨

(٢) الولاة للكندى ص ٣٢٧ .

كثيرا من أخبارها ؟ ولماذا لم يقف عندها شعراء العرب باكين الأطلال والدمن ؟ وما عذر الطولونيين ومن بعدهم في إهمال أدب الآثار القديمة ؟ بعد أن رأوا ما ظهر منها وكشفوا كثيرا مما بطن، وكان عندهم المثال الذي يسيرون على طريقته وهو سينية البحتري في وصف إيوان كسرى وغيرها ؟

ويجيب على ذاك بقوله :

إن الأدب العربي المحض كان أسير التقاليد فلم يتجه إلى وصف الآثار القديمة مع كثرة ما رأى العرب منها في مصر والعراق والشام والأندلس، ولم يشغل الأدباء أنفسهم بوصفها أو الاتعاظ بها، ولم يتركوا شيئا من الأدب حولها إلا نادرا ثم إن وقوف العرب على الأطلال والدمن كان وقوفا تثيره ذكريات الأحباب وماضي الشباب، وبلى الأطلال وارتحال أهل الديار.

أما هنا فالآثار ألغاز وطلاسم لايفهمون أسرارها، ولاتثير عواطفهم عند رؤيتها، ولايتصل تاريخهم بها لأنهم غرباء وفدوا عليها للمديح وما وراءه من عطاء، بل إن بعضهم كان يعد قصائده قبل أن يراها.[1]

حقا إنهم وقفوا على بعض الآثار التي شهدوا عزها وذلها ورأوا عظمتها وفعل الأيام بها، وظهر ذلك في رثاء "ابن نافع" للدار المذهبة التي كانت لآل عبد العزيز بن مروان. وما مر من رثاء دولة الطولونيين وآثارهم، ولكن وقوفهم على تلك الآثار كان شبيها بالوقوف على الأطلال فكان ما أصابها داعيا إلى بكائهم والدهشة لما كانت تحويه من سحر وعبقرية وشبه ذلك.

---

(١) الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين : د . عبدالرازق حميدة ص ٢٧٥ .

الفصل الثالث

ظهور بواكير الشخصية المصرية فى النثر

ميلاد النثر العربى بمصر :

عرفت مصر النثر مقترنا بالإسلام، ومع انتشاره فى البيئة المصرية انتشرت العلوم الدينية، وما يتصل بها من دراسات منطوقة أو مدونة بأسلوب نثرى، ومنذ أصبحت مصر إمارة إسلامية وبها ديوان البريد، ولبعض أمرائها كتاب ينشئون لهم الكتب [1] . وكان بمصر بعض الخطباء البلغاء أمثال عمرو بن العاص، وقيس بن سعد بن عبادة وعتبة بن أبى سفيان وغيرهم. وظهر فى مصر عقب الفتح الإسلامى لون من القصص الدينى متصلا بتفسير القرآن وسيرة الرسول (ص). وأول من قص بمصر هو "سليم بن عتر التجيبى"، الذى تولى القضاء بمصر فترة طويلة، واتخذ من مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط مركزاً لنشاطه منذ عام ٣٩ هـ [2] . ومع ذلك فإننا لا نلتقى ببواكير الشخصية المصرية فى النثر العربى إلا بعد أن نطوى قرنين ونصف قرن من تاريخ مصر الإسلامى. فالنثر العربى الذى استخدمته الدواوين الرسمية والذى استخدمه العلماء المسلمون طوال القرنين الأول والثانى الهجرة فى مصر لم يكن نثرا فنيا .. وإنما عرفت مصر هذا اللون من النثر فى عصر الطولونيين على يد الكاتب المعروف "ابن عبد كان". ولم ينصهر موروث مصر من الفن القصص فى بوتقة النثر العربى، فالأدب المصرى قبل الإسلام غنى بالقصة، غذته روافد الحضارات الفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية والمسيحية، ومع ذلك لم يقبل العرب على هذا الفن.

ويبدو أن موضوع هذه القصص لم يشد انتباههم إليها، وبعضها لم يجد طريقه إليهم، كالقصص الفرعونية المدونة بالهير وغليفية والديموطيقية إذ لم يكن هناك من يقرؤها، وبعض القصص المصرية كان مستقرا فى المقابر وعلى جدران المعابد بلغاتها الفرعونية القديمة، وبعضها الآخر كان فى أذهان المصريين وعلى أفواههم، لكن المسلمين عجزوا عن معرفة المكتوب وأهملوا شأن المتناقل شفاهة.

---

(١) خطط المقريزى جـ ط بولاق ، ص ٢٦٦ .

(٢) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين . د . عبدالرازق حميدة ص ٥٤ .

ومن القصص المصرى قبل الإسلام ماكان مدونا بلغات معروفة كالقصص القبطى المكتوب باليونانية أو الرومانية، ولكن قراء هذه القصص لم يكونوا عربيا، ومن كان يعرف هذه اللغات من العرب على قلتهم كان يقرأ لنفسه لايترجمه. وكان العرب يعتزون بأدبهم، فلم يكونوا بحاجة إلى ذلك الأدب الذى لايلائم أمزجتهم، خاصة وأن فى بعضه رائحة الوثنية أما القصص الشعبية التى كانت شائعة عند عامة الشعب فكان طريقها إلى الأدب العربى أن تترجم وتحكى فى ندوات أو أسمار ولعل شيئا من ذلك قد حدث، ولكن الأدب العربى نفسه فى مصر لم يلق كثيرا من اهتمام الرواة إلا فى ظروف خاصة ولم تكن لتلك القصة قيمة أدبية تجعل رواة الأدب يحرصون على تدوينها فى عصور التدوين. كما لم يهتم العرب كثيرا بهذه القصص فى أى بلد من البلدان التى فتحوها، لا فى فارس ولا الروم ولا المغرب ولا الأندلس، حتى إذا نبغ من أبناء تلك الأمم من يجيد العربية، ويهتم بأدب قومه كابن المقفع وسهل بن هارون عنوا بترجمة قصصهم وأساطيرهم وتاريخ بلادهم (١) .

وظل فن القصص المصرى واقفا عند حدود الوعظ الدينى، وما قد يتخلله من أهداف سياسية حتى طالعنا العصر الطولونى بمحاولات قصصية ضمنها الكاتب "أحمد بن يوسف بن إبراهيم" المشهور بابن الداية كتابه "المكافأة"، وقد تخير قصصه من أمم وعصور وبيئات مختلفة، واشتملت على أخبار السادة والعامة وصورت بعض ملامح عصرها.

ومنذ العصر الطولونى – أيضا – أخذ المصريون يمارسون فن السير الذى يعتمد على رواية حوادث وقعت لصاحب السيرة لإبراز شخصيته أو جوانب منها .. وهو فن مصرى عرفته مصر منذ عهد الفراعنة، وظهر فى العهد القبطى مسجلا فيما تركه البطارقة من سير الآباء والقديسين السابقين. وظهر هذا الفن واضحا فى مصر الإسلامية، فكتب (ابن الداية) سيرة أحمد بن طولون، وسيرة ابنه أبى الجيوش، وكتب (ابن زولاق) سيرة كافور الأخشيدى وسيرة سيويه المصرى وغيرهما.

---

(١) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين . د . عبدالرازق إبراهيم حميدة ص ٧٢ .

مظاهر الشخصية المصرية وآثارها فى فنون النثر

١- الرسائل :

صورت الرسائل الديوانية بعض الجوانب السياسية فى الشخصية المصرية، من ذلك :

ثورة العباس على أبيه أحمد بن طولون (١) ، فقد انتهز العباس فرصة خروج أبيه من مصر مع جيشه إلى بلاد الشام فثار عليه، ولما علم بقدوم أبيه خرج مع أعوانه إلى (برقة)، وحاول ابن طولون أن يستميل ابنه فكتب إليه كتاب الأمان، وبعث إليه وفدا يدعوه إلى الرجوع ويلاطفه، وكاد الوفد ينجح فى مهمته ولكن بعض أعوان العباس زينوا له التمرد. وكتب العباس إلى أبيه من إنشاء ابن حذار رسالة جاء فيها :

"إلى الأمير أبى العباس أحمد بن طولون، مولى أمير المؤمنين، من عبد الله مولى الله المتمسك بمناجى طاعة الله، المنحرف عن زيغ ظلم المعصية إلى وضوح سر البصيرة، القابل من الله موعظته، والعامل بما أمر به، إذ يقول جل ثناؤه : "ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين"، وقوله عز وجل: "ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه".

سلام على الأمير، وعلى من استرجع وادكر، وفكر وازدجر، فأنا أحمد إلى الأمير الله لا إله الا هو، العاطف بى إلى أرفع سنن الهداية، والعادل بى عن ظلم سفه الجهالة، وأسأله صلاة تامة يخص بها وليه وخيرته من صفوته ورسوله صلى الله عليه وسلم. أما بعد، وفق الله الأمير لحال رشده، وجنبه مقابح أمره، وسخرله الخلق عن غامض ذكره، فإن كتاب الأمير ورد عن الحائد منه عن سبيل العظة والتذكير إلى سبيل التهديد والتحذير، فبعد وقرب وأنس وهدد، وجمع وفرع، يبذل من نفسه باليسير فيها ويدعو إلى الصلة ويحدث غيرها، ويعرض من ماله للأنفس ويصير من خطابه الأنزر، ويعدد من واجب حقه ولازم مفترضه ما اعترف به مصدقا لمن اعترف بالطاعة محققا ... إلخ (١) ".

وقد أثارت هذه الرسالة أحمد بن طولون فكتب إليه الرسالة التالية من إنشاء كاتبه (ابن عبد كان) :

(١) انتهت هذه الثورة بفشلها سنة ٢٦٨ هـ وبسببها قتل الكاتب ابن حذار .

(٢) سيرة أحمد بن طولون . تأليف أبى محمد عبدالله محمد المدينى البلوى . تحقيق محمد كردعلى . دمشق ، ١٣٥٨ هـ ، ص ٢٥٦

"من أحمد بن طولون، مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنفسه العاصي لربه، المسلم بذنبه، المفسد لكسبه، العادي لطوره، الجاهل لقدره، الناكص على عقبه، المركوس في فتنته، المنحوس من حظ دنياه وآخرته. سلام على كل منيب مستجيب، تائب من قريب، قبل الأخذ بالكظم، وحلول الفوت والندم. وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل، والطول الجليل، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه، مجتهد فى دعائه. أن يصلى على محمد المصطفى، وأمينه المرتضى ورسوله المجتبى صلى الله عليه وسلم (أما بعد) فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها، وستعلم -- هبلتك الهوابل - أيها الأحمق الجاهل، الذى ثنى على الغى عطفه : واغتر بضجاج المواكب خلفه - أى موردة هلكة بإذن الله توردت، إذ على الله جل وعز تمردت وشردت، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا "قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون "وإنا كنا نقربك إلينا، وننسبك إلى بيوتنا، طمعا فى إنابتك، وتأميلاً لفيئتك، فلما طال فى الغى انهماكك وفى غمرة الجهل ارتباكك، ولم نر الوعظة تلين كيدك، ولا التذكير يقيم أودك، لم تكن لهذه النسبة أهلا، ولا لإضافتك إلينا موضعا ومحلا.

وليت شعرى على من تهول بالجنود، وتمخرق بذكر الجيوش، ومن هؤلاء المسخرون لك، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك دون رزق ترزقهم إياه، ولا عطاء تدره عليهم. فقد علمت - إن كان لك تمييز، أو عندك تحصيل -- كيف كانت حالك فى الوقعة التى كانت بناحية طرابلس، وكيف خذلك أولياؤك والمرتزقة معك حتى هربت، فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك، ولا رزق لهم على يدك ؟ فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانك، فانهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لايجدونه عندك، وإنهم لأحرى بخذلك. والميل إلينا دونك. ولوكانوا جميعا معك، ومقيمين على نصرتك، لرجونا أن يمكننا الله منك ومنهم، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم، ويجرينا من عادته فى النصر وعزاز الأمر على مالم يزل يتفضل علينا بأمثاله، ويتطول بأشباهه" (١) .

وكما سجلت رسائل هذه الفترة طرفا من الفتن الداخلية فإنها أعطتنا صورة عن العلاقات الخارجية التى كانت موجودة بين ملك الروم ومحمد بن طغج الأخشيدى، فقد بعث

(١) صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٠ ومابعدها ، وسيرة ابن طولون ، ص ٢٩٠ ومابعدها

الأخشيدي على لسان كاتبه محمد إبراهيم بن عبد الله النجيرمي إلى أرمانوس ملك الروم رسالة يقول فيها :

"من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين إلى أرمانوس، عظيم الروم ومن يليه : سلام بقدر ما أنتم له مستحقون، فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، (أما بعد) فقد ترجم لنا كتابك، الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة، وما نمى عنا إليك، وصح عن شيمنا فيها لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وماوصلت به هذا القول من ذكر الفداء، والتوصل إلى تخليص الأسرى، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه. فأما ما أطنبت فيه من فضيلة "الرحمة"، فمن سديد القول الذي يليق بذوي الفضل والنبل، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون، وإليه راغبون، وعليه باعثون، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون، وبه متواصون وعاملون، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور، وجوامع المصالح بمنه وقدرته. وأما مانسبت إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة، فإننا نرغب إلى الله جل وعلا الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة، ووهبها لأوليائه، ثم أثابهم عليها، أن يوفقنا لها : ويجعلنا من أهلها، ييسرنا للاجتهاد فيها والاعتصام من زيغ الهوى عنها، ووعورة القسوة بها، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته، وموجبات مرضاته، حتى نكون أهلا لما وصفتنا به، وأحق حقا بما دعوتنا إليه، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى فإنا فقراء إلى رحمته، وحق لما أنزله الله بحيث أنزلنا وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا، بمولانا أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – أن يبتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك، وتوفيقه وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" (١) .

وقد تميزت رسائل هذه المرحلة بخصائص أهمها :

(أ) – بدء الرسالة بالدعاء غالبا : وهي على أنماط منها الدعاء بطول البقاء وما في معناه، كالدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة، ومنها الدعاء بكبت العدو، وغير ذلك من الأمور وقد صدر (ابن عبد كان) إحدى مكاتباته بهذا الدعاء.

---

(١) صبح الأعشى حـ ٨ ص ١٦٠ وما بعدها

"أطال الله بقاءك ففي إطالته حياة الأنام، وأنس الأيام والليالي، وأدام الله عزك ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي. وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق، ونزلت منزلة الاستيجاب ووقفت على من لاتكون الآلاء مكانه، ولاتنكر الفواصل محله" (١) .

ويقرر الدكتور محمد حسين أن هذه الطريقة لم تكن معروفة من قبل في النثر العربي، وإنما وجد نظيرها إبان القرن الثالث الهجري عند الكتاب العراقيين.

(ب) – المبالغة في العناية بالأسلوب. وقد وضح هذا الاتجاه في الكتابة المصرية منذ العصر الطولوني واستمر في ازدياد طوال العصور اللاحقة، ويعلل الدكتور محمد كامل حسين هذه النزعة في الأسلوب بتأثر الأدب المصري بالأدب اليوناني ويذكر أن مصر كانت يونانية قبل الإسلام وانتشر بها الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية، ولاشك أن هذه الدراسات تركت أثرا في العقلية المصرية دام عدة قرون فاستقر في البيئة المصرية، مع أننا لانجد من بين المصريين من اهتم بكتب الفلسفة اليونانية كما اهتم غيرهم، وأيضا لم يقبل المصريون على الفلسفة اليونانية في مصر الإسلامية إقبال غيرهم عليها . ويشير إلى تشابه طريقة الكتابة المصرية والعراقية ممثلتين في مدرستي (ابن عبد كان) و"الجاحظ". وأن (ابن عبد كان) كان يقسم رسائله إلى أجزاء وفصول ويميل إلى الإطناب الذي لا يبلغ حد الملل والثقل . ويقحم الدعاء حشوا معترضا في كلامه ويتوجه إلى المخاطب بصيغة الفرد دائما ويزين جمله القصيرة بالسجع غالبا (١) .

ويبدو لي أن طريقة الكتابة المصرية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري بأسلوب عربي يحاكي في قوته أسلوب الكتابة العربية في الأقطار الأخرى بل وفي عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها ليس أثرا مباشرا من آثار الثقافة اليونانية كما ذهب الدكتور محمد كامل حسين، وإنما امتداد لتأثر الحياة الأدبية في مصر بالثقافة العربية الوافدة من الحجاز والشام وبغداد، وإذا كانت هناك آثار لأية ثقافة أجنبية في اللغة العربية فإن مصر قد تلقتها في إطار الحضارة العربية الوافدة.

ولم تنشأ الكتابة الديوانية في مصر نشأة تدريجية كالشعر مثلا. ولو كان تأثير الثقافة اليونانية في الأدب العربي قد تم في البيئة المصرية لظهر أثره تدريجيا مبتدئا بالتعرف على

---

(١) في الأدب المصري الإسلامي د محمد كامل حسين ص ١٠١

(٢) في الأدب المصري الإسلامي د . محمد كامل حسين ص ٩٥

هذه الآراء ثم نقلها إلى اللغة العربية. وبعد ذلك يأخذ التأثير صورا بسيطة حتى تتضح ملامحه فيما بعد كما حدث مثلا فى العصر الحديث عندما أخذت فنون أدبية أجنبية دورها بين صفوف أدبنا العربى كالقصة والمسرحية وغيرها .

وإن أسلوب مدرسة "ابن عبد كان" المصرية أقرب – فى نظرى – إلى خصائص مدرسة عبد الحميد الكاتب، وليس إلى خصائص أسلوب الجاحظ، فقد نلاحظ على الثلاثة احتفاءهم بعنصر التطويل والتقسيم ولكن الإطالة عند الجاحظ كثيرا ما تخرج به عن موضوعه الأصلى، ويطيل إطالات قد يشعر هو نفسه بذلك فيعتذر عنه وفى كتاب "الحيوان" صور مختلفة لهذه الظاهرة.

أما عبد الحميد الكاتب، وابن عبد كان فكانت إطالتهما مرتبطة بالموضوع، ومن ناحية أخرى فإن صلة عبد الحميد الكاتب وأحفاده بالبيئة الأدبية المصرية أوثق من صلة الجاحظ بها، فقد سبق القول بإسهام بعض أحفاد "عبد الحميد الكاتب" فى تنمية الحياة الأدبية فى مصر بعد مقتل عبد الحميد بها واستقرار أسرته فيها [١] .

إن الشخصية المصرية تعبر عن أصالتها الثقافية بعدة وسائل من بينها عنصر الاختيار والتمصير وقد مارست مصر هذا العمل منذ بداية احتكاكها بالأدب العربى.

وأرى أن الدافع الذى جعل الدكتور محمد كامل حسين يرد خصائص الكتابة الفنية فى مصر إلى التأثير اليونانى الذى ساد فى البيئة العلمية المصرية منذ عصر البطالسة هو حرصه على إثبات أصالة الشخصية المصرية فى أدبها وأن مميزاته نبت أصيل من وحى البيئة ومؤثراتها الثقافية. ولعل حرصه على إثبات هذه الفكرة دفعه إلى المقارنة بين خصائص الكتابة المصرية والكتابة العراقية خاصة وأنه قد وجد تشابها مابين سمات كل منهما واستثنى تأثير الثقافة الفارسية فى أسلوب الكتابة العربية، مع أن كثيرا من الدارسين يشيرون إلى تأثير هذه الثقافة الأخيرة فى الأدب العربى، بل يجعلونها أساسا فى تطوير أسلوب الكتابة الديوانية التى ظهر بها عبد الحميد الكاتب وإن كان الأستاذ أنيس المقدسى

---

(١) راجع هذا الكتاب ص ٧١ .

يخالف هذا القول، ويرى أن تطور أسلوب عبد الحميد الكاتب تطور طبيعي للكتابة العربية في هذه المرحلة من تاريخها (١) .

وقد نسب دارسو النثر العربي إلى القاضي الفاضل ومن سار على نهجه مدرسة متميزة في الكتابة الديوانية، وعدوها مرحلة جديدة من مراحل تطور أسلوب الكتابة العربية ولكن الدكتور محمد كامل حسين، والدكتور شوقي ضيف يذهبان إلى أن هذه الطريقة التي نسبها كثير من القدامى والمحدثين إلى القاضي الفاضل، ليست جديدة كل الجدة على الكتابة المصرية، بل إن أصولها ممتدة إلى البراعم الأولى من الكتابة المصرية في النثر العربي، فالقاضي الفاضل لم يأت بجديد يستحق به أن تنسب إليه مدرسة أو يقام له مذهب ، ولم يكن في كتابته إلا تلميذا وفيا للمدرسة .. التي نشأ فيها على أيدي كبار كتاب العصر الفاطمي، ولم يكن هؤلاء سوى محاكين للمدرسة الأولى التي أبدعها في مصر "ابن عبد كان" مع شيء من التطوير لم يخرجها عن أهم خصائصها، وجوهر سماتها التي بها ميزها الناقدون عن غيرها من المدارس (٢) .

٢- القصص :

من خلال المجموعة القصصية في كتاب المكافأة نلتقي ببعض ملامح الشخصية المصرية وخاصة الجوانب الاجتماعية والنفسية.

فقد صورت إحدى القصص حالة الغلاء واضطراب الرعية بسبب أزمة وقعت في زمن أحمد بن طولون، وأنه ركب، وتقدم لمعاقبة القماحين وازدحمت النظارة من السطوح عليه.

ونرى فيها صورا من عادات الناس وأخلاقهم، وكاهتمام قابلة أولاد خمارويه بحلوى العيد من أجل صبيانها، وذهابها إلى أختها كي تقترض منها مالاً تشتري به هذه الحلوى وفيما يلي تتجلى الشخصية المصرية من خلال هذا الفن القصصي :

وقال ابن الداية : حدثني أحمد بن سقلاب قال : كان بمصر رجل من الفقهاء مشهور الاسم وله حلقة عظيمة بالجامع. فبينما هو في صدرها إذ وافى علان بن المغيرة، فلما رآه مقبلا نحوه قام إليه على رجليه ثم خطا إليه حتى لقيه فأكبرت الجماعة قيام شيخ مثله إلى حدث مثل

---

(١) راجع تطور أساليب النثر العربي . أنيس المقدسي . ١٤٨ ومابعدها لبنان ، ١٩٦٨ م

(٢) راجع : (أ) الفن ومذاهبه في النثر العربي . د . شوقي ضيف .

(ب) أدب مصر الإسلامية عصر الولاة د . محمد كامل حسين . ص ١١٥ وما بعدها .

علان، وتحفيه به وعرض نفسه عليه، وإنه لم يدع شيئا يفعله تابع بمتبوع إلا بذله، وأسررنا الموجدة عليه. فلما قام علان قال لجماعتنا ما أعلمنى بما أضمرتم ولكننى أريكم عذرى فيما خرجت إليه :

كانت عندى ألف دينار وديعة لرجل بالمغرب، وقد طال مقامها، وطالب زوج ابنتى بإدخال امرأته عليه فجلست أمها بحضرتى. فقالت لى : ماالذى تراه فيما قد ألح فيه هذا الرجل ؟ فقلت لها : نستعمل فيه التجوز فقالت لى : لنا حساد نخاف شماتتهم، ولابد أن تعيننى على هذا التجمل. فقلت : إن كان ماتريدين فى قدرتى لم أبخل به عليكم. قالت : هو فى قدرتك. قلت : ماهو ؟ قالت : تمكننى من هذه الوديعة ونحتاط فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنه فى أى وقت أردناه، وندخل هذه الصبية على زوجها فإن جاء صاحب الوديعة بعنا مااشتريناه، ولم نضع فيه إلا مايسهل غرمه. قلت : هذا قبيح عند الله وعند خلقه.

فلم تزل تلح بى، وتحتال على حتى أجبتها. فجهزت ابنتها بجميع المال، وأدخلتها على زوجها. فلم يمض بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافى صاحب الوديعة يطلبها. فقلت لها : ماتفعلين ؟ فقالت : امض فاحمل المتاع وبعه، فمضت إلى ابنتها ورجعت إلى فقالت : لاتشغل نفسك بهذا المتاع، فقد حلف زوجها بطلاقها أنه لايخرج منه شىء عن منزله.

فسقط فى يدى ورأيت الفضيحة فى الدارين متصدية لى. فوضع إفطارى بين يدى فلم أطعم واعترانى ماخفت منه على عقلى، وبت ليلة مابت مثلها، وأنا أتبين سهولة ذلك على زوجتى فى جنب ما أحرزته لبنتها. ثم انتهيت قبل الفجر بمنازل، فصحت بالغلام : أسرج لى. فقام وأسرج وقال : ياسيدى أين تمضى ؟ فقلت : ليس لك الاعتراض على. وركبت وسرت بطوع عنانى فلم يزل بغلى يسير حتى دخلت زقاق "علان بن المغيرة". فوقفت على باب داره وصاح الغلام بالبواب وعرفه بموضعى فسمعت حركة فى داره، ثم فتح الباب وأذن لى بالدخول عليه فوجدت بين يديه شمعة وهو يكتب جوابات كتب وكلائه. فلما رآنى قام إلى، وقال لمن حضره من الغلمان : تنحوا. وأقبل على فقال : والله لو بعثت إلى لسرت إليك ولم أجشمك السعى إلى، فاشرح لى أمرك. فغلبتنى العبرة، وحالت بينى وبين الكلام. فمازال يسكننى حتى قصصت له إنفاق الوديعة، وهو مغموم بأمرى من ثم قال : فكم هذه الوديعة ؟ فقلت : ألف دينار. فضحك وقال : فرجت والله عنى ! ماتوسمت أنى أملكها، فكان الغم يقع بها ! فأما وهى فى القدرة فما

أسهلها علي، وأخفها لدى ؟ ثم قال لغلامه : جئني بتلك الصرار التي وردت علينا من المغرب في هذا الشهر، فجاء بأربع صرار، فنظر فيما عليها وجمعه، وقال : هذه ألف وخمسمائة دينار، ألف للوديعة وخمسمائة يصلح بها مابينك وبين من عندك. ثم قال لي : متى أشكر إفرادك إياي، بعد الله عز وجل ذكره، بتأميلي في حادثة حدثت عليك، فأعانني الله على مكافأتك؟

وأضاف إلى من خفرني إلى منزلي.

فقالت الجماعة : قد سمعنا عذرك وعلينا عهد الله إن لقيناه أبدا إلا قياما " (١) .

ونلمح من خلال القصة السابقة بعض السمات المعبرة عن الشخصية فبطل القصة كما صوره القاص رقيق الطبع مجيب لنداء زوجته، حريص على رضاها، وبهذه الروح يتسم الرجل المصري في علاقته مع زوجته والبطل وزوجته حريصان على بناء الأسرة، والكيان الأسرى مقدس في نظر الشخصية المصرية، والبطل رجل قوى العواطف تجيبه دموعه عندما أخذ يصورلصاحبه الموقف الحرج الذى وقع فيه.

ويسبغ المؤلف هذه الروح العاطفية على الشاب (علان بن المغيرة) الذى قصده الشيخ ليستدين منه، فقد تأثر بدموع الشيخ، وانطلق بسخاء يغدق على الشيخ من ماله وعواطفه، ليفرج كربته ويثلج صدره.

والموقف الذى اتخذه البطل بعد أن أخبرته زوجته برفض زوج ابنتها موقف مصرى، فلم ينكر وديعة صاحبه، ولم يعلنا حربا على زوج ابنته، ولكنه وضع الحل السلمى الذى يتمسك بكل الروابط والعلاقات الإنسانية، وهو مصرى أصيل.

أ ـ الخطابـة :

عندما بدأت مصر دورها في المشاركة الأدبية منذ عصر أحمد بن طولون كان سوق الخطابة العربية قد أوشك أن ينفض، إذ احتلت الكتابة مكان الصدارة في الاستعمال، وأصبحت الخطب تعد كتابة ثم تلقى . يقول "ابن عبد كان" : لقد أمرني أحمد بن طولون يوما بإنشاء كتاب يقرأ على المنبر فأنشأته : ودفعته إلى محبوب بن رجاء ليقرأه، وفي رسالة ابن طولون إلى ابنه العباس تهديد من الأب إلى ابنه بأن يرسل إلى الأقطار التي يحكمها كتبا تقرأ على المنابر

---

(١) كتاب المكافأة ص ٣٢ .

فيها لعن العباس والبراءة منه ينقلها آخر عن أول، وتخلد في بطون الصحف وتحملها الركبان، ويتحدث بها في الآفاق (١) .

وعرف النثر العربي منذ الجاهلية أدب الوصايا، ولمصر الفرعونية آثار عديدة في هذا الفن، بل إن جل أدبها الفرعوني أدب وعظ وحكم وتربية ووصايا، وكان من المتوقع أن يتطلع المصريون إلى بعث هذا الفن ونشره.

وكان بمصر الإسلامية أدب وصايا غايته التوجيه والإرشاد، والحث على كسب المحامد أو التبصير بحسن السياسة أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق (٢)

فإذا استعرضنا هذه الوصايا وجدناها تدور في محيط ضيق لا يتجاوز الخلفاء أو الأمراء أو الولاة. ومع ذلك فقد نجد إشارات قليلة تنبيء عن فهم بعض الحكام في مصر لبعض الجوانب السياسية في الشخصية المصرية فأحمد بن طولون ينصح ابنه "أبا الجيوش خمارويه" بقوله :

"وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك إلا لين الجانب والأمن من المخاوف، ولم أكن أمنعهم لين جانبي بخلاً عليهم، ولكن آثرتك على نفسي، بمنعي لهم لين جانبي، ولأمن مخالفتي، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم، ويبادروا إلى طاعتك، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك في صغير أمرك وكبيره (٣) .

---

(١) الأدب العربي في مصر من الفتح إلى زمن الفاطميين ، د . عبدالرازق حميدة ، ص ٤٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .
(٣) سيرة أحمد بن طولون البلوي ، ص ٢٣٩ .

الباب الثانى

ملامح الشخصية المصرية

في الأدبين الفاطمى والأيوبى

* مناظر البيئة الطبيعية .
* صور الحياة السياسية .
* مشاهد البيئة الاجتماعية .

الفصل الأول

مناظر البيئة الطبيعية

يمثل أدب الطبيعة المصرية شطراً من شخصيتها فى الأدب العربى ، وأدب الطبيعة المصرية – كما أقدمه هنا – يعبر عن الكيان المادى للبيئة المصرية فى مقابل الكيان البشرى – ، وما يرتبط به ارتباطا مباشراً من نظم سياسية أو ظواهر اجتماعية ، وإن كان الفصل الحاسم بين الكيان المادى والكيان البشرى أمراً متعذراً ، فالإنسان ابن الطبيعة وهو بما منحه الله من قدرات خلاقة يؤثر فيها بشكل من الأشكال . وأدب الكيان المادى لا يقف عند تصوير طبيعة مصر الجغرافية ، بل يمتد إلى مظاهر العمران المختلفة مما سبق وجوده العصرين الفاطمى والأيوبى ، أو ما وجد فى أثنائهما . ومن ثم فإننى سوف أعرض صور هذه البيئة من خلال جوانب ثلاث :

١ – البيئة الجغرافية ٢ – الآثار القديمة . ٣ – المنشآت المستحدثة

البيئة الجغرافية

.للبيئة الجغرافية فى أدب هذه المرحلة مظهران ، كانت فى أحدهما غرضا مستقلا أو غير مستقل ، وفى ثانيهما عنصرا من عناصر البناء الفنى فى الشعر أو النثر ، وسأرجىء الحديث عن المظهر الثانى ، لأننى سأعرضه فى موضع قادم ، وأكتفى هنا بتقديم المشاهد العامة لبيئة مصر الطبيعية من خلال الأدبين الفاطمى والأيوبى .

١ – النيل :

كان النيل ومازال من أهم موضوعات الأدب المصرى ، قلما يخلو منه عمل كاتب أو شاعر سواء من أبنائه الذين نشأوا بين أحضانه ، أو ضيوفه الوافدين من شتى الأقطار وكان النيل موضوعا جغرافياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ، وجمالياً ، والأدب وعاء ذلك أجمع .

وقد أثار فيضان النيل اهتمام الدارسين ، ولكنهم لم يدركوا بوضوح تفسير هذه الظاهرة فى تلك المرحلة التى تتحدث عن أدبها ، وكان بعضهم يرى أن سبب زيادة النيل هبوب ريح يسمى (الملثن) . وفى ذلك يقول الشاعر :

اشفعْ فللشافعِ أعلى يدٍ عندي وأسنى من يدِ المحسنِ
والنِّيلُ ذو فَضْلٍ ولكنَّه الشكر في ذلك للملثنِ (١)

وإن لم يدرك رجال تلك العصور - بصورة قاطعة - سر فيضان النيل فإنهم تعودوا فيضانه في وقت معلوم من الحول ، ويروى أبو الصلت عن المصريين أنهم يقولون : « إذا دخل أبيب كان للماء دبيب » وعند ابتدائه في التزايد تتغير جميع كيفياته (لونه أو طعمه أو رائحته) وتفسد فتصير كالحال الذى وصفه بها تميم بن المعز لدين الله الفاطمى :

أمَا ترى الرَّعْدَ بكَى فاشْتكىَ والبرقُ قد أوْمَضَ فاسْتضْحكا
فاشربْ على غيم كصبغِ الدُّجى أضْحكَ وجهَ الأرضِ لمَّا بكى
وقدْ حكى العودُ أنينَ الهوى لكنَّه جودٌ فيما حكى
وانظرْ لماءِ النيِّلِ في مدّه كأنَّما صندلٌ أو مسكا (٢)

وعبر أدب هذه المرحلة عن أثار النيل الاقتصادية والاجتماعية ، ففى زيادته الخصب والخير ، وفى نقصانه أو طوفانه الهلاك والتشرد والدمار ، ولذلك كان النيل كما يقول القاضى الفاضل : « مرجوا مخشيا ، فهو يكسو الفضاء ثواباً فضياً ، ويدلى من الأرض ماءه سراجا من النور مضيا ، ويتدافع تياره واقفاً فى صدر الجدب بيد الخصب ويرضع أمهات خلجه المزارع فيأتى أبناؤها بالعصف والأب . وقد امتدت أصابعه ، وتكسرت بالموج أضالعه ، ولا يعرف الآن قاطع سواه ، ولا من يرجى ويخاف إلا إياه » (٣)

ووقف الشعراء أمام النيل يرصدون حركاته وسكناته ، مركزين داخل مجراه ومحلقين بأبصارهم فيما يحيط بحوافه ، متحدثين عنه من بعيد ، ومعبرين عن أحاسيسهم وقد توسطوه فى الفلك أو الزوارق . فهذا الشاعر « تميم بن المعز لدين الله » يتأمل تراقص الأمواج فى النيل : وهى تتمايل بأعطافها كتمايل الراقصات . :

نظرتُ إلى النِّيل في مدّه بموجٍ يزيدُ ولا ينقصُ
كأنَّ معاطفَ أمواجه معاطفُ جاريةٍ ترقُصُ (٤)

(١) خطط المقريزى ، جـ ، ط دار إحياء العلوم ، بيروت ، ص ١٠٥ .
(٢) الرسالة المصرية ، لأبى الصلت ، تحقيق د عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٨ .
(٣) حسن المحاضرة : السيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٦٣ .
(٤) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، تحقيق حسن الأعظمى ، ص ٢٥٥ .

(ويمد ظافر الحداد) بصره إلى جانبى النهر يتأمل الجسر الذى رسمته أمواج النيل ، وقد استمدت تكسرها وتثنيها من الرياح السكرى التى دفعت الأمواج فشكلت مسار الجسر الذى رسمته أمواج النيل ، وقد استمدت تكسرها وتثنيها من الرياح السكرى التى دفعت الأمواج فشكلت مسار الجسر :

والنيلُ مثلُ عمامةٍ ... شرب محشّاة بأخضرْ
والجسرُ فيها كالطّرا ... زِ وموجُه رقمٌ مصوّرْ
تفريكه مادرجته ... له الرِّياحُ من التسكُّرْ (١)

ثم يتابع الشاعر بنظره سريان النيل حتى إذا بلغ مجراه رأس جزيرة الروضة انحنى عن يمينها ويسارها ، فتبدو الجزيرة الخضراء تلوح بمناظرها الجميلة تأخذ الأبصار :

للّه يومٌ أنالَه النيلُ ... لحسنه جملةٌ وتفصيلُ
فى منظرٍ مشرفٍ على خضرٍ ... كأنّه فى الظلامِ قنديلُ
تُبدى لنا جانباً جزيرتهُ ... أشياً بها للعينِ تأميلُ
ورقمه جسرُه ، وتفريكهُ المو ... جُ وفى نكته للخليج تجميلُ (٢)

ويتأمل « ابن قلاقس السكندرى » منظر النيل وقت الأصيل ويصف لنا ما رآه فى هذه الصورة :

والنّيلُ تحتَ ثيابِ الأصيلِ ... لُجينٌ توشَّحَ بالعسْجدِ
يحاكى إذا درجتْه الصَّبا ... برادةَ تبرٍ على مبردِ (٣)

فإذا مر وقت الأصيل ، وقاربت الشمس والغروب ، راح الشاعر يسجل هذه الصورة التى كونها من النيل والشمس والشفق والهلال :

انظرْ إلى الشَّمسْ فوقَ النيل غاربةً ... واعجَبْ لما بعدها من حُمْرة الشَّفقِ
غابت وأبدتْ شعاعاً منه يخلُفُها ... كأنّما احترقتْ فى الماءِ بالغرقِ
والهلالُ وقدْ وافى لينقذها ... فى إثْرها زورق قد صيغَ من ورقِ (٤)

---

(١) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٣) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ٣٣٢ .

(٤) الأبيات « لابن قلاقس » ، أنظر فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٢٩٧ ، الأدب فى العصر الأيوبى : د . محمد زغلول سلام ، ص ٣٣٢ .

وينقل لنا « أبو الصلت » صورة لتلاطم أمواج النيل على شطآنه وقد هبت ريح الصبا فأهاجت كلاهما على الآخر :

وللّهِ مجرى النِّيل فيها إذا الصَّبا أرَتْنا به فى سيرها عسكرا مجْرا
فشطٌ يهُزُّ السَّمْهريَّةَ ذُبَّلا ونهرٌ يهزُّ البيضَ هنديَّةً بُترا
إذْ مدَّ حاكى الورد غصناً ، وإنْ صفا حكى ماؤه لوناً ، ولم يعدُه شبراً (١)

أما « ابن الساعاتى » فقد ركب النهر ووصف السفينة ، وهى تضرب بمجاديفها الأمواج :

ولمّا توسَّطنا على النِّيل غدوةً ظننتُ وقلتُ اليومَ باللّهوِ جَذلانَ
عشاريه إنسانا له الماءُ مقلةٌ وليس لها إلا المجاديفُ أجفانا (٢)

وإذا كان الساعاتى يظن أنه ملأ يومه باللهو فى رحلة نيلية ، فإن تميم بن المعز يشعر بسرعة مرور الوقت فى مثل هذه الرحلة ، وكل لذة قصيرة العمر :

يومٌ لنا بالنيّل مُختَصَرٌ ولكُلّ يومِ مَسرَّةٍ قِصَرُ
والسُّفْنُ تصعدُ كالخيولِ بنا فى موجهِ والماءُ ينْحَدرُ
فكأنّما أمواجه عكَنٌ وكأنّما داراتُه سُررُ (٣)

ولكن « الجمال أبا الحسين الجزار » يهزه الخوف من طيران الفلك ويدرك أن الهلاك قريب ، فالفلك تحوم حول المنايا ولا صديق ثمة إلا الماء :

كنتُ فى كلةٍ تطيرُ بقلعٍ وهى طوْراً على المنايا تحومُ
أنظرُ الموْجَ حولَها فأخالُ الـ ـجيمَ (تا) لخيفتى وهى جيمُ
لم أجدْ لى فيها صديقاً حميماً غير أنّى بالماءِ فيها حميمُ
شتَّتوا قلعَها مراراً على الرِّيحِ ولاشكَّ أنّه مظلومُ (٤)

---

(١) الرسالة المصرية ، « لأبى الصلت » ، ص ١٨ .
(٢) المغرب فى حلى المغرب « لابن سعيد » جـ ١ ، ط القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٦٨ . والشاعر فى هذه الأبيات يصف زورقاً خرج به فى النيل ، مشبهاً له بإنسان العين والنيل حوله بالمقلة ، والمجاديف بالرموش .
(٣) ديوان تميم المعز لدين الله ، ص ٢٤١ . * عكن : جمع عكنة وهى ما تطوى وتثنى من لحم البطن سمناً وعباله .
(٤) المغرب فى حلى المغرب ، « لابن سعيد » ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ .

٢ – البرك :

ومن النيل اندفعت الخلجان ، وتكونت البرك . واخضرت الحدائق والبساتين وأثمرت الزروع ، وأينعت الثمار ، وأنبتت من كل زوج بهيج وتفنن الأدب المصرى فى عرض صور معبرة عن مظاهر الطبيعة المصرية فى هذه المرحلة

فبركة الفيل (١) مستديرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم كما يراها « ابن سعيد المغربى » ويدعونا إلى الاستمتاع معه بمشاهدتها .

انظرْ إلى بركةِ الفيلِ التى اكتنفتْ ... بها المناظرُ كالأهداب بالبصَرِ

فكأنَّما هى والأبصارُ ترمقُها ... كواكبٌ قد أداروها على القمرِ

ويطيل « ابن سعيد » تأمله فى جمالها وقد قابلتها الشمس بالغدو فيقول :

انظرْ إلى بركةِ الفيلِ التى نحرتْ ... لها الغزالةُ نحراً من مطالعِها

وظلَّ طرفك مجنوناً ببهجتها ... تهيم وجدا وحباً فى بدائعِها (٢)

« وبركة الحبش » تبدو وقت انحسار النيل ثرية المباهج كما صورها أبو الصلت أمية ، وقد زارها فى صحبة من الرفاق :

« فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس فى خلع البدور ، ونجوم فى الصفاء تدور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال فى ذلك بعضنا :

للّهِ يومى ببِرْكةِ الحبَشِ (٣) ... والأفقُ بينَ الضِّياءِ والغَبَشِ

والنِّيل تَحْتَ الرِّياحِ مُضْطَرِبٌ ... كصارمٍ فى يمينِ مُرتَعِشِ

وقدْ نسجتْها يدُ الرَّبيعِ لنا ... فنحنُ من نسجِها على فُرُشِ

---

(١) ، (٢) بركة الفيل : من منتزهات مصر ، تقع فى أرض الطبالة وكان من عادة سلاطين مصر أن يركبوا إليها بالليل ، وحولها المناظر المسرجة التى تكون منظراً عجيباً انظر : الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ١٨٥ وكتاب القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ، ص ٩٣ .

(٣) بركة الحبش تقع جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم وكانت تطلق على حوض من الأراضى الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه السنوى وكانت تشمل من الأرض مساحة قدرها ١٥٠ فدان ، انظر كتاب القاهرة : تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ، هامش صفحة ٤ .

ونحن في روضة مفوقة ... دُبّج بالنور عِطفُها ووُشِي

فعاطني الراح إنّ تاركها ... من سَوْرة الهمّ غيرُ مُنْتَعِشِ (١)

ويتأمل الشاعر المصرى « ظافر الحداد » بركة الحبش من خلال وقفته أمام النيل فيراها مقدرة الحدود ، تجمعت فى باطنها المياه ، وأحاطت بها الخضرة ، كأنها عمامة احتضنتها الخضرة والتحفت ثوباً مقورا :

تأمّلتُ نهرَ النّيل طولاً وخلفَه ... من البركة الغنّاء شكلٌ مَقدّرُ

فكانَ وقد لاحتْ بشطّيْهِ خُضْرةٌ ... وكانتْ وفيها الماءُ باقٍ مُوَفَّرُ

عمامةُ شربٍ فى جواشنِ خُضْرةٍ ... أُضيفَ إليها طيْلسانٌ مُقَوَّرُ(٢)

وعندما تشرق شمس مصر الساطعة ، وترسل أشعتها على صفحة البركة المفعمة بالماء فإنها تتغامزها وتغازلها ، والريح تداعب الموج فى هدوء تارة وفى عنف تارة أخرى وحول البركة الغناء امتدت البسط السندسية :

انْظُرْ إلى البركةِ الغنّاءِ مفعمةً ... بالماءِ والشمسُ من حسنٍ تُغامِزُها

والرّيحُ تلعبُ فى أمواجِها جذلا ... فما تُسالِمُها إلا تبارزُها

والنبتُ قدْ حفّها من كل ناحيةٍ ... بكلِّ غصنٍ أنيقٍ فهو حائزُها

كأنّها بُسُطٌ بيضٌ إذا برزتْ ... للعيْنِ مخْضَرّةٍ منها فراوزُها (٣)

ويطل على بركة الحبش من أحد جوانبها مرتفع من الأرض يثرى بأوصافه أدب الطبيعة المصرية يحكي « ابن زولاق » أن أمير مصر « موسى بن عيسى » كان واقفاً بالميدان عند بركة الحبش ، فالتفت يميناً وشمالا وقال لمن معه من الجند : أترون ما أرى؟ قالوا : وما يرى الأمير ؟

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ٣١٣ ، الرسالة المصرية ، « لأبى الصلت » ص ٢١١ ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء المغرب الدار التونسية للنشر ، تحقيق « محمد العروسى » ، ص ٢٣٠ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٩٠ .

(٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله ، ص ٢٤٢ .

فقال : أرى ميدان أزهار ، وحيطان نخل وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، وجبانة أموات ، ونهرا عجاجا وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرابط خيل ، وساحل بحر ، وقانص وحش ، وصائد سمك ، وملامح سفينة ، وحادى إبل ، ومقابر ، ورملا وسهلا وجبلا ، فهذه سبعة وعشرين مسيرها فى أقل من ميل واحد (١) ولهذا قال « أبو الصلت » أمية بن عبد العزيز يصف الرصد (٢) الذى بظاهر مصر :

يا نزهة الرَّصد المصرِّى قدْ جمعتْ ... من كلَّ شىءٍ حَلاَ فى جانب الوادى
فذا غديرٌ وذا روْضٌ وذا جبلٌ ... فالضبُّ والنونُ والملاَّح والحادى (٣)

٣ - الخليج :

والنيل صانع الخلجان ، وللخليج المصرى (٤) نصيب فى أدب الطبيعة المصرية ، اختلف باختلاف أذواق وتعبير الرائين « فالأسعد بن مماتى » يسره سكون الماء فوق الخليج وقد غدا مصقولا كحد السيف ، وفيه السابحات الماهرات تغصن فيه كما تفرق النجوم فى المجرة :

خليج كالحسامِ لهُ صقالٌ ... ولكنْ فيه للرائى مَسرةٌ
رأيتُ به الملاَّحَ تجيدُ عوماً ... كأنَّهمُ نجومٌ فى المجرَّة (٥)

---

(١) حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٣٣١ .

(٢) الرصد مكان مرتفع يطل من الجهة القبلية على بركة الحبش ، ومن الشرق سهل يتوصل إليه من القرافة ، وكان يقال له قديماً الجرف ، وعرف بالرصد لأن أمير الجيوش بدر الجمالى أقام فوقه كرة لرصد الكواكب ، واشتهر هذا المكان بنقاء هوائه وطيبه . وذكره بعض الشعراء فى قوله :

ياليلة عاش سرورى بها ... ومات من يحسدنا بالكمد
وبت بالمعشوق فى المشتهى ... وبات من يرقبنا بالرصد

انظر المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

(٣) نهاية الأرب للنويرى ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ .

(٤) هو ذاك النهر الذى يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة فيصل ما بين شمالى الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة ، وكان يركب إليه السلطان فى كل عام عندما يبلغ النيل أقصى ارتفاعه ما بين شهرى سبتمبر واكتوبر ، وانظر القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ، ص ٩٤ .

(٥) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى ، جـ ١ ، ص ١٠١ .

إذا كان « ابن مماتي » ينظر إلى جمال الخليج الذى بهر سروره ، فإن الشاعر « شمس الدين » ينظر إلى ما يسديه الخليج لمصر من كسب وما يقدمه لها من خير عميم .

لله در الخليج إنّ له ... لفضلاً لا نزال نشكره

حسبك منه بأنّ عادته ... يجبر من لا يزال يكسره (١)

وقد سار « أبو الصلت » والخليج ، وسجل انطباعاته فى هذه المشاهدة :

« دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمار به فيما يلى القاهرة ، ورأيت فيه العجائب ، وربما وقع فيه القتل بسبب السكر ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين بالليل منظرفتان » . ويقدم لنا أبو الصلت نصائحه قائلا :

لا تركبنّ فى خليج مصرَ ... إلاّ إذا أسْدلَ الظلامْ

فقدْ علمتَ الذى عليه ... من عالم كلّهم طغامْ

يا سيّدى لا تسْر إليه ... إلاّ إذا هوّم الظلامْ

والليلُ سِتْرٌ على التصابى ... عليه من فضْله لثامْ (٢)

٤ - جزيرة الروضة : (٣)

ولجزيرة الروضة المصرية تاريخ أدبى سجلته أقلام عربية مختلفة على مر العصور فالشاعر الوصاف « ظافر الحداد » يدعونا إلى سماع بدائع وصفه وتشبيهه فيها :

أنظرْ إلى الرّوْضة الغرّاء والنّيل ... واسمعْ بدائعَ تشبيهى وتمثيلى

وانظرْ إلى البحْر مجموعاً ومفترقاً ... هناك أشبه شىءٍ بالسّراويلِ

والرّيحُ تطويه أحياناً وتنشرُه ... نسيمُها بين تفريكٍ وتعديلِ (٤)

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٦٠ .

(٢) القاهرة ، تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ص ٣٤ .

(٣) قال المقريزى : تطلق الروضة فى زماننا على الجزيرة التى بين مصر والجيزة وعرفت فى أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ، عرفت الروضة منذ زمن الأفضل بن بدر الجمالى ٤٩٠ هـ ، وكانت منتزهاً ملكياً وسكناً للناس إلى أن أنشأ بها نجم الدين أيوب سنة ٦٣٧ هـ قلعة الروضة وأسكنها مماليكه ، وهدمها عز الدين أيبك عندما أراد تعمير المدرسة المنصورية ثم عمرها بيبرس وأسكنها مماليكه . خطط المقريزى .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .

ويقف « الأسعد بن مماتى » أمام الجزيرة يخاطبها أكثر من مرة ، فطوراً يصف مفاتن جمالها ، ويرجو لها دوام الحياة العامرة باللذات :

جزيــرة مصــرٍ لاعدتْــك مســرّةٌ ... ولازالـتِ اللّــذاتُ فـيك اتصــالُها

فكْم فيكِ من شمْسٍ على غُصنِ بانةٍ ... يُميتُ ويُحيِى هجرُهــا ووصــالُهــا

مغانيكِ فوق النيلِ أضحــتْ هوادجــاً ... ومختلفــاتُ الموْجِ فيها جمالهـــا

ومــنْ أعجـب الأشـياءِ أنـك جنّــةٌ ... ترِفُ على أهل الضّلالِ ظلالُــها (١)

وطوراً آخر يصفها بعلو القدر وسمو المكانة ، ويسجل زيارة السلطان الكامل الأيوبى لها واهتزازها فرحاً بالزائر ، فتمايلت أغصانها ، ورق نسيمها ، وترقرقت مياه جداولها وغردت طيورها :

جزيرة مصـر أنـتِ أشـرفُ موْضــعٍ ... على الأرْض لما حلّ فيك محمّدُ

وفـيكِ عــلا الـبحران لكــن كـفُّ ذا ... على النّاس أنْدَى بالعطاءِ وأجودُ

وأصبحتِ الأغصــانُ مــن فـرحٍ بـه ... تَمَـايلُ ، والأطـيارُ فـيك تُغرّدُ

يـــرقُّ نــسيمٌ حيــنَ ســارَ وجـدولٌ ... ويشدو هَزّارٌ حينَ يرقصُ أملَدُ (٢)

ومن بعيد يقف الشاعر « أبو الفتوح بن قادوس الدمياطى » ليطل على الجزيرة فيراها وقد تفرقت منازلها المضيئة كأن النجوم جلت فيها ، وفى كل موضع بها حدقة عين تغازل العاشقين فى مراتع اللهو والغزل :

أرى ســــرحَ الجزيــرةِ مــنْ بـعيدٍ ... كأحداقٍ تُغَـازِلُ فـــى المغــازِلِ (٣)

وطالما أذهبت الجزيرة أحزان المغتربين ، وأبهجت نفوس الناظرين ، يتحدث عنها أبو الصلت فيقول : وقد تفرجت كثيراً فى طرق هذه الجزيرة ، فقطعت بها عشيات مذهّبات لا تزال لأحزان الغربة مذْهبات ، وكنت أبيت بعض الليالى « فى الفسطاط » على ساحلها فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل ، وركبت مرة فى النيل أيام الزيادة ، وصعدنا إلى جهة الصعيد ، ثم

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ، ص ٣٧٦ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٢٨٤ .

انحدرنا واستقبلنا الجزيرة وأبراجها تتلألأ ، والنيل قد انقسم عنها فقلت :

تأمَّلْ لحسْنِ الصالحيَّةِ إذْ بدتْ ... مناظرها مثل النُّجوم تلالا

وللقلعةِ الغَرّاء كالبدْرِ طالعاً ... يفرّجُ صدرُ الماء عنه هلالا

ووافى إليها الماء من بعد غيبةٍ ... كما زارَ مشغوفاً يروم وصالا

وعانقها من فرطِ شوقٍ لحسنها ... فمدَّ يميناً نحوها وشمالا (١)

وكشفت شخصية مصر عن وجه طبيعتها السندسي في كثرة ما ردده شعراؤها من أوصاف الرياض الزاهية الألوان ، الزاخرة بحركة الحياة ، فالشاعر « ناصر الدين الحسن بن شاور » يصف لنا آثار النسيم على الأغصان والجداول في إحدى الرياض :

وروضةٍ تُوسوسَ الغصنُ بها ... لما هزا فيها النَّسيم الشَّمألُ

قدْ جُنَّ في أرجائها جدولها ... فهو على وجه الثرى مسلسلُ (٢)

و« تميم ابن المعز » يجول بنظره في روضة خضراء تفتقت فيها أكمام النرجس ، فبرزت ولم تنظر ، وانتشرت شقائق النعمان تنثر حمرتها في ربوع الروضة وقد أسفرت عن وجهها تلوح فخورة بجمالها حيناً وتستحي حيناً آخر :

بسطٌ تخالفَ صبغُها ونسيجها ... ما بين أصفرَ كالعقيقِ وأخضرِ

يجمعنَ حسنَ المنظر الزَّاهي الذي ... راقَ العيونَ إلى كريمِ المخبرِ

فكأنَّ نرجسَها عيونٌ أبرزتْ ... أجفانها لكنَّها لم تنظرِ

وشقائقٍ كستِ الرُّبا من نسجها ... حللاً كتضريج الخدودِ الأحمرِ

متبرِّجاتٍ ناعماتٍ أكملتْ ... خفرَ الذَّليل ونخوة المتكبِّرِ

وغلائلٍ زُرْقٍ نُشِرْنَ كأنَّها ... آثارُ تجميش الصدور النُّضَّرِ (٣)

٥ – البساتين والزهور :

البيئة المصرية غنية بمصادر الحياة ، فماؤها وفير وتربتها خصبة ، فلابد وأن تنتشر

---

(١) المرجع السابق ، ٣٨٥ .

(٢) المغرب في حل المغرب ، ابن سعيد ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ ، جـ ١ ، جامعة فؤاد الأول ١٩٦٣ ، تحقيق د . شوقي ضيف . وهزا : ساد .

(٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، ص ٢٠١ .

الخضرة فى كل مكان يصل إليه الماء ، وأن تكثر الحدائق والبساتين :

لمصرَ فضلٌ باهرٌ لعيشها الرَّغدِ النَّضِرْ
فى كلِّ سفحٍ يلتقى ماءُ الحياةِ والخَضِرْ (١)

وقد افتتن الشعراء بوصف البساتين والحدائق والزهور ، فابن سناء الملك ينقل لنا إعجابه ببستان أهداه له والده شبهه بالجنة ، ولو ملكه آدم بعد خروجه منها ، لم يحزن ولم يصبه كمد بل لو طمع الكافر أن ينال مثله يوم القيامة لآمن بالله .

وأخذ ابن سناء يصور لنا مظاهر الجمال فى بستانه ، ففى وسطه نهر جميل يحكى ساعة الأصيل ، ونسيمه رقيق ، والزهر فوق الأشجار قلائد فى جياد مسومات ، وما أروع النغم الشجى ينبعث من طيورها التى تذكرنا بصوت (معبد) المطرب المشهور :

جنةٌ مُلكٍ حين ملكتُها شككت فى أننى لمْ أُخلَدِ
لو حلَّها آدم من بعدما أُخرِجَ لم يحزَنْ ولمْ يكمَدِ
أو طمع الكافر فى مثلها فى الحشر لم يكفُرْ ولم يجْحَدِ
يحكى أصيل الجو فى نهرها سحالة العسْجدِ فى المبرد
وزهرها يحكى بأشجارها قلائدَ تعلو على خُرَّدِ
فكم على الأغصان من منشد بلْ كمْ على الأغصان منْ مَعْبَدِ
لاسيَّما مُذ رُمتها مقعداً مامثلها فى الخُلد من مقعد (٢)

ويجلس الشاعر مرة (ببستان الجليس) وتهيج ذكرياته التى تناساها من قبل ، ولكنه يهيم فى البستان يقبل الطل ويلثم الزهر وكأنه ينال من لمى المحبوب وثغره ، وقد أثار بعمله هذا وجهات نظر الآخرين ما بين عازل وعاذر :

جلستُ ببستانِ الجليس وداره فهيَّجَ لى معنا تناسيتُه ذكرا
أقبِّلُ ذاك الطلَّ أحسَبُه اللمى وألثم ذاك الزَّهر أحسَبُه الثَّغرا
وكمْ لائمٍ لى فى الذى قد فعلته وكمْ قائل : دعه لعلَّ له عُذراً (٣)

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .
(٢) ، (٣) ابن سناء الملك حياته وشعره ، جـ ١ ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، ص ١٠٦ .

ومن أشجار الزينة المعروفة بمصر شجر الكبر ، وهى شجرة عالية تلفها الأزهار البيضاء التى يشبهها الشاعر المصرى (ظافر الحداد) بمنسوجات البيئة المصرية وهو نوع من القماش عرف بالقباطى ، وفى أطراف هذا الزهر لون حمرة خفيف الاحمرار كأنه بقايا الخضاب :

كُبّارةٌ لاحَ بهـا زهْرٌ عجيبُ الخَلْقِ
كأنّه لمّا بـدا فـى شكْلِهِ المنمّقِ
بيضُ القباطىّ أودعتْ أنصافُ قِشْرِ الفستقِ
منوطةٌ أجوافُه بشعرٍ شيبٍ يقَّقِ
كـأنْ فـى أطرافه أثـرَ خضابٍ قـدْ بقى
يشبه ما أثاره شحْطُ النّوى فى مفرقى (١)

ويشبه (ظافر الحداد) الأقحوانة بثغر الفاتنة التى تبتسم تيها وخيلاء وقد شابهها فى عدد من الصفات :

والأقحوانة تحكى ثغرَ غانيةٍ تبسمتْ فيه من عُجْبٍ ومن عَجَبِ
فى القدّ والبرد والرّيق الشهىّ
وطيبِ الرّيحِ واللون والتّلفيج والشّنبِ (٢)

ويصف (القاضى الفاضل) زهر (النارنج) قائلا :

نديمىَّ هيا قد قضى النّجم نحبَه وهبَّ نسيمٌ ناعمٌ يوقظُ الفجرا
وقدْ أزهرَ النّارنجُ أزرارَ فضّةٍ
تـزرّ على الأشجارِ أوراقَها الخضرا (٣)

أما البهاء زهير فإنه يحدثنا عن بستانه الذى كانت له فيه ذكريات ومآرب ، يتلهف عليها بعد فواته فكم مرة خرج إليه مبكرا وكانت السحب قد بكرت إلى البستان أيضاً وأخذت قطرات الماء تنسكب ويعم الكون سكون فيصبح منظراً رائعا . أما الطل فقد فتق أكمام الأزهار فغمرت المكان بطيب الرائحة : وبدت الثمار فى أشجارها بديعة المنظر ، لها فى سحرها فنون :

---

(١) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، د . حسين نصار ص ١١٥ .
(٢) حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ٤٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٨ .

لله بستاني ومَا	قضَّيتُ فيه من المآربْ
لهفي على زمني به	والعيشُ مُخْضرُّ الجوانبْ
ولكمْ بكرتُ له وقدْ	بكرتْ له أيدي السحائبْ
فيروقني والجوُّ منه	ساكن ، والقطرُ ساكبْ
والطلُّ في أغصانه	يحكي عقوداً في ترائبْ
وتفتَّحتْ أزهارُه	فتأرجحتْ من كل جانبْ
وبدا على دوحاته	ثمر كأذْناب الثعالبْ
وكأنَّما أصالُه	ذهبٌ على الأوراقِ ذائبْ
فهناك كمْ ذهبيَّةٍ	لي في الولوعِ بها مذاهبْ (١)

ونالت الزراعة المصرية حظاً وافرا من تصوير أدبائها وشعرائها فظافر الحداد » يصور القمح في سنابله :

كأنَّ سنابلَ حبُّ الحصيدِ	وقد شارفتْ حين إبَّانِها
كبائسُ مضفورةٌ رُبعَّت	وأرْخِيَ فاضِلُ خيطانها (٢)

ويبدع أحد الشعراء المصريين في تجسيد جمال الطبيعة المصرية من خلال عدة مشاهد جمعت الماء المتدفق والرياض المخضرة والزهر البهيج مختلف الأشكال والألوان :

والعيشُ مخضرٌّ الجنابِ أنيقةٌ	ولأوجُهِ اللذّاتِ فيه بُروزُ
والماءُ يبدو في الخليج كأنَّه	أيْمٌ (٣) لسرعةِ سيرِه محفوزُ
والرَّوض في حُللِ النَّباتِ كأنَّما	فُرِشتْ عليه ديابجٌ وخزوزُ
والزَّهر يوهم ناظريه بأنَّه	ظهرت به فوق الرِّياض كنوزُ
فأقاحه ورقٌ وساقطُ طلِّه	درٌّ ونورُ بهارِه إبريزُ (٤)

وكانت « الجزيرة » غنية بمنتزهاتها ، ووفرة ثمارها وتعدد أزهارها ، وقد زارها « تميم ابن المعز لدين الله الفاطمي » . ومن هناك صور لنا تلك المشاهد:

(١) البهاء زهير ، د . عبد الفتاح شلبي ، ص ٩٨ ، شرح ديوان بهاء الدين زهير إبراهيم جزيني ، ١٩ ، ٢٠ .
(٢) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ١٢٤ .
(٣) الإيم : الحية .
(٤) الخريدة للعماد الأصفهاني . جـ ٢ ، ص ١٣ .

يا يوماً أسعفَنا بكلِّ سرورِ ... طيباً فنلنا منه كلَّ حبُورِ

في جنةٍ قد ذُلِّلت ثمراتُها ... وتسربلتْ بغلائلٍ من نورِ

وجرى النَّسيمُ على ثمار غصونها ... فتضوَّعتْ بالمسْكِ والكافورِ

ينسابُ في الأكنافِ منها جَدْولٌ ... كالنَّصل أو كالحيَّةِ المذعورِ

ما بينَ أُترُجٍّ يلوح كأنَّه ... كبرى الثدى الصفر فوق صدورِ

وكأنَّ نرجسَه إذا استقبلتَهُ ... يرنو بأجفانِ العيونِ الحورِ

وكأنَّما النارنجُ في أغصانِه ... أُكَرٌ تروَّتْ من دم اليعفورِ(١)

وكأنَّما نشر الربيع ملاحفاً ... فيها مريَّشةٌ من المنثورِ

وكأنَّ سوْسنَها خدودٌ قد بدتْ ... للثم فيها زُرقةُ التأثيرِ (٢)

والطبيعة المصرية غنية بأشجارها ونخيلها وطيورها ، فالنخيل سامقة فى كبد السماء تدلت من رءوسها الثمار كأنها الجوارى الهيف أتت للرى :

والنخل كالهيفِ الحسان تزيَّنت ... فلبسنَ من أثمارهن قلائدا

فإذا ما ارتوت سكرت من خمره ، وتراقصت أغصانها مغتبطة فى نشوتها :

وترقصُ فى جوانبه غصونٌ ... كرقص الغيدِ مادَ بها الشَّراب

وتشدو بينها الأطيار شدواً ... رخيما للقلوب به انجذاب (٣)

ويتحدث الشعر المصرى عن السواقى التى انتشرت فى البيئة الزراعية المصرية ، يقول « البهاء زهير » :

عَلاَ حسُّ النواعيرِ ... وأصواتُ الشحاريرِ

وقدْ طابَ لنا وقْتٌ ... صفا من غيرِ تكديرِ(٤)

---

(١) اليعفور : ولد البقر الوحشى

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، ٤ ص ٢٥٩ .

(٣) ظافر الحداد ، د. حسين نصار ، ص ٩٧ .

(٤) بهاء زهير ، عبد الفتاح شلبى ، ص ١٠٠ ، شرح ديوان بهاء الدين زهير ص ١١٠ .

٦ - المناخ :

الصفاء والوضوح صفتان نلمسهما من خلال الأدب المصرى فى حديثه عن البيئة المصرية ، فالشمس مشرقة تتخلل الأرائك كثيفة الأغصان فتشبه سيفاً لامعاً فى يد إنسان ترتعش :

والشمس من بين الأرائك قد حكت   سيفاً صقيلا فى يد رعشاء (١)

وشمس مصر متوهجة بالضياء غنية بالحرارة فإذا ما انعكست فى وقت الغدو على صفحة الماء بدت وكأنها الجوشن المذهب ، كما يراها الشاعر « وكيع التنيسى » :

غديــــرٌ يُــدرِّجُ أمواجَــــه   هبــوبُ الشـمال ومـرُّ الصـبا

إذا الـشّمسُ مـن فوقِـه أشرقـتْ   توهمتــه جَوْشنـا مذهـــبا (٢)

وسماء الليل صافية تتألق فيها النجوم حتى إذا لا حت تباشير الضياء سرى فى جو صاف . يقول « ابن النبيه » :

واللّيلُ تجرى الـدَّرارى فى مجرَّتـه   كالرَّوْض تطفو علـى نـهر أزاهـرهُ

وكوكبُ الصُّـبحْ نجّـابٌ علـى يـده   مخـلقٌ تمـلأ الدنيـا بشـائرُه (٣)

ولما كان النهار حاراً والليل معتدلا صافياً كان لليل سحره الخاص وهذا « ظافر الحداد » يتحدث طويلا عن الليل ويصور نجومه وهلاله ،

كأنَّ نجــومَ الليــلِ لمــا تبلَّجــتْ   توقّــد جمــرٌ فــى ســوادِ رمــادِ

حكـى فـوقَ ممتدَّ المجـرَّة شكلـها   قواقــعَ تطـفو فـوقَ لُجَّـة وادِ

وقــدْ سبحتْ فيــه الثريــا كأنَّـها   بنيقةٌ (٤) وشـى فى قميـص حـدادِ

ولاحـتْ بنو نعشٍ كتنقيط كاتـبٍ   بيـسراه للتعــليم هــيئة صـادِ

إلــى أنْ بـدا وجـهُ الصَّبـاح كأنّــه   رداءُ عروسٍ فيه صبغُ جســادِ (٥)

---

(١) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٢) الرسالة المصرية « لأبى الصلت » ص ٢٢ .

(٣) ديوان « ابن النبيه » ، ص ٩٢ .

(٤) بنيقة : رقعة تزاد فى نحو القميص لتزيينه .

(٥) « ظافر الحداد » شاعر من العصر الفاطمى ، د . حسين نصار : ص ١١٩ .

وعلى الرغم من ذلك ، فالنهار ليس شديد الحرارة فى كل الفصول ، بل إن الشمس نفسها تستحب فى كثير من الأوقات .

والشمس فى مشرقها تجتلى   فى حُلَل الأشجار فِى الأحمرِ
كأنها نارٌ وقدْ أُضْرِمَتْ   من خلفِ ستر خلْقٍ أخضرِ(١)

ونسيم مصر عليل :

ما مثل مصر فى زمان ربيعهِا   لصفاء ماءٍ واعتلال نسيم(٢)

ولا يصح النسيم إلا إذا اعتل كما يقول أحد الشعراء :

كلُ يصحُ إذا تصح حياته   إلا النّسيمُ يصحُّ ساعةَ يمرضُ(٣)

ولكن هذا الجو الصحو قد يتبدل ، ولا سيما فى أقصى الشمال ، حيث يسود مناخ البحر المتوسط ، فتتكاثر السحب ، وتدوى الرعود ، وتعصف البروق ، ثم تتشابك هذه القوى الطبيعية فى معركة كالتى حدثنا عنها « ابن قلاقس السكندرى » فى قوله

كأنما الرّعدُ والسُّحابُ وقدْ   حَلاً سويا والبَرْقُ قد لاحا
ثلاثةٌ من عدوِّهم نفروا   وقد غدا نحوَهم وقدْ رَاحا
فسلُّ ذا سيفَه ، وبكى هـ   ذا ، وهذا من خيفةٍ صاحا (٤)

٧ – الصحراء :

عاش المصريون حول الضفاف التى كونها النيل واشتغلوا بالزراعة ومشتقاتها ، وقامت حضارتهم وفنونهم وآدابهم على أساس هذه البيئة فلم يحدثنا شعراؤهم أو أدباؤهم عن الصحراء ولم يستوحوها فى أعمالهم الأدبية وذلك لأن صحراء مصر خالية من الحياة أو تكاد ، ولم يكن هناك ما يضطر المصرى إلى ترك الحياة الهادئة الناعمة على شاطىء نيله ليقاتل الوحوش ويطارد المجرمين ويشقى فى الصحارى التى طالما أوحت لغيرهم من الشعراء كثيراً من الموضوعات والصور الأدبية ، وقد نجد فى الأدب المصرى حديثاً علن الرمل ، وهو – على

---

(١) المرجع السابق

(٢) ، (٣) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٠٠ .

الأرجح – لا يعنى موضعا وإنما يشير إلى أن المصريين اتخذوا من رمال الإسكندرية منتدى لسمرهم :

ألا هلْ إلى بردِ الأصائلِ بالحِمَى ... على الرَّملِ فى ظلِّ الأراك إيابُ ؟
ليالى يُزهينى لذيذُ حديثِكم ... وألفاظُه مهما استعذْت عِذابُ (١)

ومسرحاً للهموم :

وفى عذبات الرَّمل دونَ مرْقلةٍ ... مسارحُ نسعى بينها ومراتعُ
رياض إذا هبَّ النسيم خلالها ... سعى وهو واهى الخطوفيهنَّ طالعُ » (٢)

الآثار القديمة والعجائب المصرية

تحدثت كتب التراث العربى ، كما تحدث الرحالة العرب والأجانب الذين شاهدوا مصر فى العصور الوسطى عن الأعاجيب التى جذبت أنظارهم وشدت انتباههم فى أرض وادى النيل ، وأدلى أدباء هذه المرحلة بدلوهم فيما رأوه ، عاكسين بذلك بعض الأفكار التى سادت مجتمعاتهم حول هذه الأعاجيب .

فالقاضى الفاضل يصف الهرمين بأنهما فرقدا الأرض ، وكلُّ شىء يخشى عليه من الدهر إلا الهرمين ، فإنه يخشى على الدهر منهما (٣)

ويحس « عمارة اليمنى » عظمة البنيان وتفرده فى بديع صنعه الشامخ الذى يتحدى عوادى الزمن ، ويشعر بما يثيره فى نفسه من إعجاب ، ولكنه يقف حائرا متسائلا عن السر الذى يخفيه ذلك البناء الضخم :

خليلىَّ ما تحتَ السَّماءِ بنيَّةٌ ... تماثلُ فى إتقانها هرمَىْ مُصرِ
بناء يخافُ الدَّهرُ منه ، وكلُّ ما ... على ظاهر الدنيا يخافُ من الدهرِ
تنزَّه طرفى فى بديعِ بنائها ... ولم يتنزَّه فى المرادِ بها فكرى(٤)

---

(١) ، (٢) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ص ١٠١ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ١ : ص ٧٩ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ١ ، ص ٨٠ .

وعمارة ومعاصروه لم يهتدوا بصورة قاطعة إلى حقيقة الأهرام ، وتكاثرت وتضاربت الأقوال حول أسباب بنائها ، فمن قائل إنها هياكل الكواكب ، أو قبور ، أو مستودع أموال أو ملجأ طوفان (١) .

وسجل « ابن الأثير » وصفه للأهرام ارتفاعا وسعة وإعجابا ، فقال : « من عجائب الآثار مالا يضبطها العيان ، فضلا عن الأخبار من ذلك الهرمان اللذان هرم الدهر وهما لا يهرمان ، قد اختص كل منهما بعظم البناء وسعة الفناء ، وبلغ من الارتفاع غاية لا يبلغها الطير على بعد تحليقه ، ولا يدركها الطرف على مده تحديقه ، فإذا أضرم برأسه قبس ظنه المتأمل نجماً ، إذا استدار عليه قوس السماء كان له سهما (٢) .

وقد طاف « أبو الصلت » فى صحبة من رفاقه حولها وكثر تعجبهم من روعتها وأخذوا يتعاطون القول : فقال بعضهم :

بعيشكِ هلْ أبصرتَ أعجبَ منظراً ... على طول ما أبصرتَ من هرمَيْ مصرِ
أنافا عِنانا للسماءِ وأشرقَا ... على الجوِّ إشراقَ السِّماكِ أو النسرِ
وقد وافيا نشزاً من الأرض عالياً ... كأنَّهما نهدانِ قاما على صدرِ (٣)

أما « ابن الساعاتى » فقد عدها من أكبر الأعاجيب ، ووصفها بالخلود ، ولم يشأ أن يقف طويلا باحثا عن أسرار صنعها ، أو يعذب نفسه فى التساؤل عنها ، إن كان ثمة من يجيب ، ولكنه راح يتلمس فى وقوفها الشامخ ، عبرة وموعظة ، فقد أحس فى وقتها بالتبلد الذى كونه الأسف على مر السنين وتوالى الأحقاب :

ومن العجائبِ ، والعجائبُ جمَّةٌ ... دقتْ على الإكثارِ والإسهابِ
هرمان قد هرِمَ الزَّمانُ وأدبرتْ ... أيَّامُه ، وتزيد حسنَ شبابِ
لله أىُّ بنيَّةٍ أزليَّةٍ ... تبغى السماءَ بأطولِ الأسبابِ
وكأنَّما وقفتْ وقوفَ تبلُّدٍ ... أسفا على الأيَّام والأحقابِ
كتمتْ على الأسماعِ فصلَ خطابِها ... وغدتْ تُشيرُ به إلى الألبابِ (٤)

(١) مسالك الأبصار ، لابن فضل الله العمرى ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .
(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ١ ، ص ٨٣ .
(٣) أ - الرسالة المصرية لأبى الصلت ، ص ٢٧ . ب - الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٢٣١ .
(٤) حسن المحاضرة ، للسيوطى : جـ ١ : ص ٨١ .

ويبدو أن الشاعر « ظافر الحداد » كان مهتما بالظلال فى تصويره معالم الطبيعة المصرية ، فهو لا يكتفى بتسليط الأضواء على ما يصفه فحسب ، بل ينشر أشعة مصابيحه الكاشفة ليبرز الأبعاد المختلفة المحيطة بما يصفه ، فيصنع من ذلك صورة لها إطار .

فها هو يتأمل الهرمين وبينهما أبو الهول كالرقيب يحول بين المحبين ، ويشترك فى الموقف بعض مظاهر البيئة الطبيعية فالنيل يفيض دموعاً أسفاً لبعد الهرمين العاشقين والريح تصرخ باكية حزناً ، حتى سجن يوسف وقف على البعد كئيباً حزيناً :

تأمَّل هيئةَ الهرمين وانظر	وبينهما أبو الهول العجيبُ
كعمَّاريتيْن على رحيلٍ	لمحبوبين بينهما رقيبُ
وماء النيل بينهما دموعٌ	وصوتُ الرِّيح عندهما نحيبُ
ودونهما المقطَّم وهو يحكى	رِكابَ الرَّكبِ أبركها اللُّغوبُ
وظاهرُ سجنِ يوسف مثلُ صبٍّ	تخلَّف وهو محزونٌ كئيبٌ (١)

ومن أعاجيب مصر التى تحدث عنها أدباء هذه المرحلة « عمود السوارى » (٢) الذى ذكره أحد الشعراء وقد ضاق ذرعا بالإسكندرية ، فوصف أهلها بالبخل :

نزيل الإسكندرية ليس يُقْرى	سوى بالماءِ أو عُمُدِ السَّوارى
وإن تطلب هنالك حرفَ خبزٍ	فلم يوجدْ لذاك الحرفِ قارى(٣)

ولقد أثار عمود السوارى وغيره من الأعمدة القائمة بالإسكندرية إعجاب زوارها ، ولم يدرك عامة الناس أنها بقايا معابد ومدارس يونانية ورومانية ، فدفعهم هذا إلى إحاطتها بالقصص التى تحاول أن تبرر إقامتها ، بل حدا كثيراً من الناس إلى أن يظنوا أنها إرم ذات العماد ، التى ذكرها القرآن فى سورة الفجر . قال ابن جبير الذى زار الإسكندرية فى سنة ٥٧٨ هـ : « وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام شيئاً كثيراً علواً واتساعاً وحسنا مالا يتخيل

---

(١) بدائع البدائه ، « لابن ظافر » ، ص ١٣٦ ، الرسالة المصرية ، لأبى الصلت هامش ص ٢٧ .

(٢) قال السيوطى : رأيت هذا العمود لما دخلت الإسكندرية ، وقاعدته ثمانية وثمانون شبراً ، ومن المتواتر عن أهل الإسكندرية أن من حاذاه عن قرب وغمض عينيه ثم قصده لا يصيبه بل يميل ، وذكروا أنه لم تحصل إصابته لأحد قط ، وقد جربت ذلك مراراً فلم أقدر أن أصيبه . حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

بالوهم ، حتى إنك تلقى فى بعض الممرات سوارى يغص الجو بها صعوداً لا يدرى ما معناها ، ولا لم كان أصل وضعها » .

« وكانت هذه البقاع من أجمل الأماكن بالإسكندرية ، إذ اجتمع فيها البعد عن المدينة وسحر الماضى ، وجمال الحاضر فلا عجب أن تصير موضع نزهة أهل الإسكندرية يخرجون إليها فى مواسمهم ، ويقيمون بها ، ويعقدون مجالس السمر :

سقى اللهُ السَّوارى بالسَّوارى ودُرَّتْ فى مذاهبِها الذهابُ
فكمْ عيدٍ بها أهدى وأدّى حبيباً كان أبعدَه اجتنابُ (١)

وشجرة العباسى التى قال عنها القاضى الفاضل :

« ومن العجائب شجرة العباسى فى دندار من صعيد مصر ، وهى شجرة متوسطة ، وأوراقها قصيرة منبسطة ، فإذا قال الإنسان : يا شجرة العباس جال الناس ، تجتمع أوراقها وتحترق لوقتها » (٢) :

والبرابى المتعددة التى قال عنها « أبو الصلت » إن فيها من الإحكام وجودة الشكل وحسن التصوير ما يدل على أن عمارها ذوو عقول راجحة ، وأنه كانت لهم بالحكمة عناية بالغة لا سيما بصناعة الهندسة والنجوم . وقد عدد من هذه البرابى : بربا أخميم ، وبربا سمنود ، وبربا دندرا(٣)

المنشآت العمرانية

يروى لنا أدب العمران المصرى قصة الحضارة المصرية الإسلامية العربية التى شهدتها مرحلة وضوح الشخصية المصرية فى أدبها العربى فى مختلف الآثار العمرانية بما فيها من إنشاء المدن وإقامة الأسوار ، وتشييد القصور ، ومرافق الحياة العامة وبناء دور العبادة والعلم . فقد اقترن كل عمل من هذه الأعمال بعظيم فى الدولة كان مقصد الشعراء والمادحين فتحدثوا عن أعماله من خلال مديحهم ، وربما اتخذ شانئوه وصف هذه الآثار والحديث عنها تكأة لهجائه

---

(١) ظافر الحداد شاعر من العصر الفاطمى ، د . حسين نصار ، ص ٩٢ .

(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٣) انظر الرسالة المصرية ، لأبى الصلت ، ص ٢٩ .

كما رأينا موقف الشاعر « ابن داود » مع أحمد بن طولون ومنشآته فى مصر ، وساهم الأدباء الوافدون - الذين استرعى انتباههم ما فى مصر من أبنية مختلفة - فى تسجيل طرف من أخبارهم ووصفوا هذه الآثار فمدينة القاهرة عامرة منذ ولادتها بالمباهج والمسرات ، مكتظة بسكناها مزدحمة بالمارة فى طرقاتها الضيقة :

يقولـــون سافِـرْ إلـى القاهـرة   وما لى بهــا راحـــةٌ ظاهــرة

زحـــامٌ وضـــيق وقــربٌ ومــا   تثيرُ به أرجــــلُ السّائــرة (١)

لكن ضواحيها هادئة جمعت مسرات كثيرة ، ففى ناحية « الطبالة » أرض القرط التى يقول عنها الشاعر :

سقى اللهُ أرضاً كلّما زرتُ أرضَـــها   كساها وحلاّهــا بزينتِـه القُــرْطُ

تجلّت عروســاً والميــاهُ عقودُهـــا   وفى كلِّ قُطرٍ من جوانبِـها قرطٌ(٢)

ويطيل أحد أدباء الشام فى وصف مباهج مصر والقاهرة ، فيقول عن البرك المنتشرة فى ضواحى القاهرة : « وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه وطيبها عبير عنبرها فضمخها بكفه ... وكم من بط على شط ، وقطقط منقط ، وأين حلاوة عرائس نخلاتها ، وطلاوة أوانس قاماتها بمشابهتها فى صفاتها ، وغرائس فسيلاتها (٣) » .

ويطوف بالضواحى « الشاعر أحمد بن رسم اسفهلار » طوافا سريعاً يحييها قائلا :

حَيِّ الديـــارَ بشاطئـى مقْياسِـها   فالمقسَمُ الفيّاحُ بيْن دِهاسِهــا

فالروضتين وقـد تضـوّع عطرُهـــا   أرج البنفسج فى غضـــارةِ آسِها

فمنازلُ العيــن المنـيفةِ أصبـحتْ   يغنى سناها عن ســنا نبراســها

فخليجُـــــها لذّاتـُــه مطلوبـــةٌ   تسمو محاسـنُه عـــلا بأناسِــها

حافاتُـــــه محفوفــةٌ بمـــنازلٍ   نزلـتْ بها الآرامُ دون كِناسِـها(٤)

---

(١) القاهرة : تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى وقائل هذين البيتين ابن سعيد المغربى عندما ألح عليه بعض أصدقائه فى الرجوع إلى مصر مرة ثانية .

(٢) خطط المقريزى ، ص ١٨٤ .

(٣) ، (٤) خطط المقريزى ، جـ ٣ ، ص ١٨٩ - ١٦١ .

وقد أحاط بالقاهرة المعزية سور عظيم فتحت فيه الأبواب من بينها باب زويلة (١) الذى يقول فيه الشاعر :

يا صاحِ لو أبصرتَ بابَ زويلةٍ لعلمتَ قدرَ محلِّه بُنيانا
بابٌ تأزَّر بالمجرةِ وارتدى الشِّعْرى ولاثَ برأسِه كيوانا
لو أنَّ فرعونا بناه لم يُرِدْ صرحاً ولا أوصى به هامانا (٢)

وتكبر القاهرة المعزية ويمتد العمران بها حتى يلتحم بمصر ، ويرى حكامها ضرورة إنشاء سور عظيم يضم البلدين ، وينهض بذلك العمل « بهاء الدين قراقوش » أحد أمراء صلاح الدين ، وينشط فيه على قدم وساق(٣) . ويرسل القاضى الفاضل إلى صلاح الدين رسالة يطمئنه على مسيرة العمل قائلا :« والله يحيى الموتى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رواقه ، فهما عقيلة ما كان معصمهما بغير سوار ، ولا حضرهما ليجلى بلا منطقة نضار (٤) .

وللقصور المصرية شرفات تطل منها على الأدب العربى . فالقصر الكبير (٥) أبهى مكان فى القاهرة المعزية يتأمله القاضى الفاضل بعد زوال دولة الفاطميين قائلا :

صاحبُ هذا القصرِ كم قُبِّلتْ ساحتُه أمسِ وكمْ عُظِّما
وقدرةُ القادرِ فى هدمِه أعظمُ منها فى بناء السَّما

وقد حوى القصر قاعات وخزانات منها قاعة الذهب (٦) ، وخزانة البنود (٧) التى قضى بها الشاعر القاضى المهذب بن الزبير أياما حبيسا ، ومنها أخذ

---

(١) روى المقريزى فى خططه عن ابن عبد الظاهر أن باب زويلة بناه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله الفاطمى سنة ٤٨٥ هـ ، وتممه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر . الخطط ، تجـ ٢ ، ص ٢٠٧

(٢) الكامل فى التاريخ « لابن الأثير » جـ ١ ، ص ٤٣٦ . والسلوك للمقريزى ، جـ ١ ، ص ٩٠ .

(٣) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٤) القصر الكبير ، أمر ببنائه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ ، وفى الجهة الشرقية من القاهرة وفيه سكن الخلفاء الفاطميون ، ثم سكن بيته الأمراء الأيوبيون ، وخرب أولا بأول ،، خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ ، .

(٥) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٦) أحاط الفاطميون هذه القاعة بمظاهر الفخامة ففرشوها بالحرير وزينوها بالذهب ووضعوا فى صدرها ستائر على عرش الخليفة المحجوب تستره إذا استوى على العرش والتأم المجلس فترفع تلك الستور ، الفاطميون فى مصر ، د . حسن إبراهيم ص ٣٦٩ .

(٧) خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ، بناها الخليفة الفاطمى لاعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله وأصابها حريق سنة ٤٦١ هـ ، ثم تحولت محبساً ، خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ ، كنوز الفاطميين فى مصر ، د . زكى محمد حسن ص ٤٥

يرسل اعتذارياته ويبعث رجاءه وشكواه وتضرعه إلى الكامل بن شاور ، واصفاً ظلام المكان وكآبته :

أيا صاحبىْ سجنِ الخزانةِ خلّيا من الصبح ما يبدو سناه لناظرى

فواللهِ ما أدرى أطرفى ساهرٌ على طولِ هذا الليل أم غيرُ ساهرِ

وما لىَ منْ أشكو إليه أذاكما سوى ملكُ الدُّنيا شجاعُ بنُ شاورِ

ويضج الشاعر من ظلمة الخزانة ويتساءل : هل سيرى النور مرة أخرى أم أنه افتقده بلا أمل فى الرجوع ؟ ، ولكنه يتجلد فلا ييأس من رحمة الله ، ويستعطف ممدوحه :

أيا صاحِبَىْ سجنِ الخزانةِ خلّيا نَسيمَ الصَّبا يُرسلُ إلى كبدى نفْحا

وقُولا لضوْءِ الصبح هل أنت عائدٌ إلى نظرى أم لا أرى بعدَها صُبْحا

ولا تيأسا من رحمةِ اللهِ أن أرى سريعاً بفضلِ الكاملِ العَفوَ والصَّفْحا

أما قصر اللؤلؤة (١) فقد تجاذبته أطراف الكلمة الموقعة كما تجاذبته أيدى السلطة الحاكمة المتغيرة ، فقد كان قصراً للفاطميين ، ثم حل به الأيوبيون وسكنه نجم الدين والد صلاح الدين الأيوبى . فراح أحد شعرائهم يتحدث عن ذلك القصر مادحا الأيوبيين :

يا مالكَ الأرضِ لا أرضى لها طرفا منها وما كانَ فيه لم يكنْ طرفا

قد عجّلَ اللهُ هذى الدار تسكُنُها وقد أعدَّ لكَ الجنَّاتِ والغُرَفا

تشرَّفتْ بكَ عمّنْ كان يسكُنُها فالبسْ بها العزَّ ولتلبسْ بك الشرفا

كانوا بها صدفاً والدَّارُ لؤلؤةٌ وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

---

(١) قصر اللؤلؤة : أحد مبانى الفاطميين ويسمى منظرة اللؤلؤة ، وموقعه على الخليج ويشرف على البستان الكافورى من الشرق ، ويطل على الخليج والبساتين التى على نهر النيل ، من الغرب ، وقد بناه المعز لدين الله ولما ولى برجوان الصقلى الوزارة سنة ٣٩٦ هـ سكن فيه إلى أن قتل . وفى سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بهدمه ونهبه وبيع ما فيه ، ثم أعيد بناؤه فيما بعد . وقد أقام بهذا القصر والد صلاح الدين بعد وفاة العاضد لدين آخر الفاطميين سنة ١١٧٠ م ، وعندما سكنه نجم الدين وقف الشاعر الأحدب بن أبى حصينة يتحدث عن هذا القصر ومن سكنوه .

انظر القاهرة ، تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ، ص ٣٦ ، كتاب السلوك ، للمقريزى ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .

ولم يرضَ عمارة اليمنى عن موقف هذا الشاعر ، فانبرى للرد عليه متخذا من القصور محور حديثه ، وبث أفكاره والتعبير عن موقفه:

أثمتَ يا مَنْ هجا الساداتِ والخُلَفا	وقلتَ ما قلتَه فى ثلْبِهم سَخَفَا
جعلتهم صدفاً حلوا بلؤلؤة	والعُرْفُ ما زال سُكْنَى اللؤلؤِ الصدفا
وإنما هى دارٌ حلَّ جوهرهم	فيها وشفٌ فأسْناها الذى وصفا
فقال لؤلؤة عجباً ببهجتها	وكونها حوتِ الأشرافَ والشرفا
فهى بسكَّانِها الآياتِ إذْ سكنوا	فيها ومن قبلِها قد أُسكِنُوا الصُّحفا
والجوهرُ الفردُ نورٌ ليس يعرِفَه	من البريَّةِ إلا كلُّ من عرفا
فالكلبُ يا كلبُ أسنى منك معرفةً	لأنَّ فيه حفاظاً دائماً ووفا (١)

وتفتح لنا صور الأدب المصرى أبواب ودهاليز هذه القصور لنرى فيها حدائق وعمد وتماثيل وبسط . قال « أبو الصلت » أمية الأندلسى « يصف قصراً بناه على بن تميم بن المعز بمصر :

للهِ مجلسُك المُنيفُ قِبابُه	بموطَّدٍ فوْقَ السِّماكِ مؤسَّسِ
مُوفٍ على حُبُكِ المجرَّةِ تلتقى	فيه الجوارى بالجوارى الخُنَّسِ
تتقابلُ الأنوارُ فى جنباتِه	فاللَّيل فيه كالنَّهارِ المشمسِ
عطفتْ حناياه دُوَيْنَ سمائِه	عطفَ الأهلَّةِ والحواجبِ والقِسِى
واستشرفتْ عمدُ الرُّخام وطوهرتْ	بأجلَّ من زهْرِ الرَّبيعِ وأنفَس
فهواؤه من كلِّ قدٍّ أهيفٍ	وقرارُه من كلِّ خدٍّ أملسِ
فلكٌ تحيَّر فيه كلُّ مُنَجِّمٍ	وأقرَّ بالتَّقصيرِ كلُّ مهندسِ
فبدا للحظِ العينِ أحسنَ منظراً	وغدا لطيبِ العيشِ خيرَ معرسِ (٢)

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٢٩٣ .

(٢) الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٢٤٧ ، مقدمة ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمى ص ٣٢ . وانظر نموذجاً آخر فى نهاية الأرب للنويرى ، جـ ١ ، ص ٤٠٧ ، ٤١١ .

ويحدثنا عمارة اليمنى عما كان فى دار أحد الأمراء من رخام وحدائق وفسيلات :

فمن الرُّخام مسيَّراً ومسهماً ومنمنما ومُدَرْهما ومدنّراً
فيها حدائقُ لم تجدْها ديمةٌ أبداً ولا نبتتْ على وجهِ الثرى
وبها زرافاتٌ كأنَّ رقابها فى الطولِ ألوية تؤم العسكرا
نوبيةُ المنشى تُريك من المها روقا ومن بزْلِ المهارى مشفراً
جُبلتْ على الإقعاء من إعجابها فتخالها للتِّيهِ تمشى القهقرى (١)

ومن ملامح بيئة مصر الطبيعة التى تناولها الأدب فى هذه المرحلة وصف مدارسها ومدنها . فعندما أنشئت المدرسة الصالحية راح أبو الحسين الجزار يهنىء الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلا :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ومن يتغالى فى الثواب وفى البنا (٢)

وقد دفن نجم الدين أيوب بمدرسته بالجناح الذى كان مخصصاً لتدريس الفقه المالكى فرثاه أحد الشعراء قائلا :

بنيتَ لأربابِ العلوم مدارساً لتنجوَ بها من هول يوم المهالكِ
وضاقتْ عليك الأرضُ لم تلقَ منزلا تحلُّ به إلا إلى جنبِ مَالكِ(٣)

وفى عصره تعرض المشهد الحسينى لحريق ولم يكن الصالح نجم الدين حاضراً فخرج نائبه الأمير جمال الدين بن يعمور ليشرف على إطفاء الحريق بنفسه . فقال أحد الشعراء :

قالوا تعصَّب للحَسَين ولم يزَلْ بالنفس للهول المخوفِ مُعرِّضا
حتى انضوى ضوء الحريق وأصبح المسودُّ من تلك المخاوف أبيضا
أرضى الإلهَ بما أتى فكأنَّه بين الأنام بفعله موسى الرضى(٤)

---

(١) ديوان عمارة ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) ، (٣) حسن المحاضرة للسيوطى ، ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) خطط المقريزى ، ٢ ، ص ٢٨ . قال ابن عبد الظاهر أن طلائع بن رزيك قصد نقل الرأس للشريف « رأس الحسين من عسقلان عندما خاف عليها من الفرنجة ، وبنى جامعة خارج باب زويلة ليدفنه به ويفوز بهذا الفخار ، فغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا : لا يكون إلا عندنا ، فعمدوا إلى هذا المكان ، وبنوه له ونقلوا الرخام إليه وذلك فى خلافة الفائز على يد طلائع سنة ٥٤٠ هـ خطط المقريزى جـ ٣ ص ٢٨٤ .

وقد أسس أحد ولاة مدينة قوص مدرسة للحديث [1] ، وحبس لها وقفا معلوما تحدث عنها الشيخ « أحمد بن هبة الله بن موسى الشافعي » في إحدى خطبه فقال : « الحمد لله أسعد جد من جد في إحياء سننه ، وأصعد من كان سابقا في مضمرات التقرب إليه مستنافي سننه .. »
أما بعد فإن الأبنية كمائم تتفتح عن زهرها ، وغمائم تتوضح عن مطرها ، وأصداف تفتخر بدورها ، وضمائر تسفر البصائر والأبصار عن مضمرها ، ونواطق بحسن الآثار وإن كانت صوامت ، ومهارق تسطر فيها أخبار أهلها المنفصلة وإن كانت ثوابت ، وأجلها وأحلاها ذكراً ، وأسماها وأسناها قدراً وأولها وأولاها مسرى ، وأنفحها وأفيحها طيبا ونشراً ، وأربحها وأرحبها فناء وأفسحها وأفصحها ثناء ، دارٌ دارَ فضل حديثها وحديث فضلها ، وسار بفخرها وعزها المثل السائر حتى عز وجود مثلها وشاكلت مهابط وحي الله المحجوبة بأهل شرفها وشرف أهلها ، فأسست على تقوى من الله ورضوان فجانبتها الشوائب ، وعدتها ، ونثرت في وكيرتها جواهر الكتاب والسنة فجلّتْهَا لما حلّتْهَا وكستها العزائم السابقة والهمم الشائقة حلل المحاسن والحسنات وما وكستها ، فأصبحت بحمد الله كعبة تنتابها وفود الاستفادة زيادة وعكوفا ، وجنة تبعد عن أعين المتأملين شأوا وتدنو من أفواه المؤملين قطوفا ، وفلكا بما جللته من الأنوار الزواهر ، وتاجا بما كللته من جواهر النفائس ونفائس الجواهر ، ومعلما للعلم قضت السعادة من الأزل ببنائه ، وعلما تتزين به الطلبة جادت به يد الدهر على أبنائه ، ألا وهي (هذه) المدرسة الشريفة موقعها ، الشريقة مطالعها ، الكريمة منازعها ، العميمة منافعها » [2]

وانطلق أدباء الطبيعة المصرية يتجولون في مختلف أرجائها ، ناقلين مشاهد من أقصى الشمال وأخرى من أقصى الجنوب .

« فالشاعر أبو الحسين الجزار » يصور لنا الإسكندرية بموقعها وآثارها وقصورها وأسوارها وما يعكسه في نفوسنا جمالها الساحر البديع :

---

(١) هي المدرسة التي أنشأها سابق الدين والي قوص ، وجعل عليها الشيخ الإمام أبا الفتح محمد بن علي القشيري ، المتوفى حوالي سنة ٧٢٠ هـ : انظر الطالع السعيد للأدفوي ص ٦٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ : ١٤٠ .

أرى الإسكندرية ذاتَ حُسنٍ بديعٍ ما عَلَيْه من مزيدِ
هى الثغرُ الذى يبدى ابتساماً لتقبيل العُفاة من الوفودِ
وكم قصربها أضحى كحصنٍ منيع لا كزربٍ من جريدِ
يرصُّ فصوصَه بانيه رصَّا يفصِّله على نظْم العقودِ
لها سُورٌ إذا لاقى الأعادى يقابلهم بوجهٍ من حديدِ
أحاط بسورها بحرٌ أجاجٌ ومنهلُ أهلها عذبُ الورود (١)

وقديماً أقام الشاعر العربى الكبير « دعبل الخزاعى » فى مدينة أسوان واليا من قبل المطلب الخزاعى سنة ١٩٨ هـ ، وقال فيها :

وإنْ إمرءا أمستْ مساقط رأسه بأسوان لم يترك له الحزم معلما
حللتُ محلاً يقصّر الطرف دونه ويعجز عنه الطَّيف أن يتجسَّما (٢)

ويفصل أحد شعراء الصعيد ملامح هذا الجمال الذى قصر طرف « دعبل » عن وصفه فيقول :

أسوانُ فى الأرضِ نصفُ دائرةٍ الخيرُ فيها والشُّرْقدْ جُمعا
فى جبلِ الفُتحِ منعةٌ وعلا لمن بأعلاه فى الدُّجا خضعا
ونزُّه الطرف فى جنادلِها ففيه سر لمن رأى ووَعى
هديرها يُذْهِبُ السقام وما بها من الماء يرفع الوجعا
وحسنُها لا أراك مبدعه يروق الأبدان حيثُ مالمعا (٣)

وقضى « ابن الساعاتى » فترة فى مدينة أسيوط وأعجب بصفاء جوها وجمال طبيعتها فوصفها بقوله :

للّهِ يومٌ فى سَيوط وليلةٍ صرفُ الزَّمانِ بمثلِها لا يغلَطُ
بتنا وعمرُ اللَّيل فى غلوائِه وله بنورِ البدْرِ فرعٌ أشمطُ

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، لابن سعيد المراكشى ، جـ١ ، ص ٣١٢ .

(٢) الولاة والقضاة للكندى ، ص ١٥٢ .

(٣) الطالع السعيد ، للأدفوى ، ص ٣٣ .

والطَّلُّ فى تلك الغصون كلؤلؤٍ نظمٌ يصافحُه النَّسيمُ فيسقُطُ

والطيرُ يقرأ والغديرُ صحيفةٌ والرِّيحُ تكتبُ والغمامةُ تنقُطُ (١)

ويستطيع دارس الأدب المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبى أن يجمع قائمة واضحة لأسماء المدن المصرية المعروفة فى تلك العصور ، حيث رددها الشعراء والكتاب فى عديد من المناسبات .

وقد سجل كثير من الشعراء والأدباء الذين زاروا مصر فى هذه الفترة بعض أسماء المدن ، ولا سيما التى مروا بها أو أقاموا فيها ، وفى آثار أبى أمية بن عبد العزيز وابن سعيد المغربى ، وعمارة اليمنى ، والعماد الأصفهانى نماذج كثيرة لهذه الظاهرة .

(١) الطالع السعيد ، للأدفوى ، هامش ٦٩ .

الفصل الثانى

صور الحياة السياسية

يتميز أدب السياسة المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبى بثرائه كما وكيفا، وصدقه فى التعبير عن شخصية مصر السياسية، فقد سجل بدقة وتفصيل كثيرا من الأحداث السياسية على الصعيدين الخارجى والداخلى، واستمد ثراءه وغذاءه من عناصر حيوية متعددة، فهذه المرحلة عامرة بالأحداث الضخام، ولأدبائها دور فى التاريخ زاخر بالحركة والحياة، فقد كان منهم الوزراء وأصفياء الحكام، ومن ثم أتيح لهم أن يشاهدوا كل مايدور على مسرح الحياة من حولهم ويسجلوه فى أدبهم. فجاء أدبا خصبا فى دلالته على الشخصية المصرية بحيث يمكننا أن نرى من خلاله قصص الصراع الداخلى فى ساحات القصور وبين دهاليزها والمعارك الخارجية فى ميادين القتال المتفرقة فى الصحارى أو المدن أو السواحل.

وتتعدد الجبهات الخارجية التى واجهتها مصر فى هذه الآونة فقد أدى اتساع سلطانها فى مستهل الحكم الفاطمى إلى إثارة الأحقاد ضدها وزاد من حدته أن حكامها رفعوا شعار الشيعة ينتقصون به أطراف الممتلكات السنية التابعة للخلفاء العباسيين وأتباعهم السنيين، ومع ذلك فقد كانت شخصية مصر العسكرية قادرة على ردع هذا التجمع يوم أن كان خلفاؤها الفاطميون أقوياء ولكن اتساع الأطراف أصبح عبئاً ثقيلا على كاهل مصر، بعد أن ضعفت قوة الخلفاء الفاطميين وسقطت هيبتهم فى أعين الوزراء المتصارعين فتطاول عليها الأعداء وراحوا ينتقصون من أطرافها، فبعد أن كون الصليبيون إمارتهم الأولى فى "أنطاكية" اتجهوا صوب القدس وانتزعوه من سلطان مصر وتستشعر دولة الزنكيين الفتية فى الشام مصاب مصر، وتدرك أهمية موقعها وثراء موضعها وتخشى أن يسيل عليها لعاب الصليبيين ويمتلكوها فتستقر أقدامهم فى المنطقة بأسرها. وتتاح « لنور الدين » فرصة التدخل فى شئون مصر الداخلية بلجوء "شاور" إليه ليساعده فى الوصول إلى الوزارة.

وعندما انتهت هذه المهزلة وجمع صلاح الدين وحدتها الداخلية كان الخطر الخارجى قد استفحل أمره فأخذت مصر تواجه ذلك الخطر حتى كسرت حدته وأنهكت قوته على يد صلاح

الدين، وفى الوقت نفسه واجهت مصر الصلاحية مؤامرات داخلية وثورات متفرقة فى القاهرة والصعيد كفتنة "مؤتمن الخلافة" وواقعة السودان ومؤامرة عمارة ورفاقه، لكنها فتن ومؤامرات هينة أمام القوة التى تتمتع بها الحكومة المصرية آن ذاك وبعد انحسار هذه الموجة من الفتن الداخلية استطاعت مصر أن تكسر حدة الصراع الخارجي.

وقد مهد لكثير من الأحداث وتنبأ بوقوعها وشارك فى صنعها أدب هذه المرحلة وعلى هذا يمكن تحديد مسرح الأدب السياسى فى مصر خلال هذه الفترة فى المجالين الخارجي والداخلى بالأبعاد التالية :

١- الصراع الوزارى .

٢- الاحتكاك المذهبى (بين الشيعة والسنة).

٣- العدوان الصليبى.

الصراع الوزارى

تعرضت مصر لأزمة اقتصادية حادة أخذت تتصاعد عاما بعد عام حتى أكل الإنسان لحم أخيه حيا، فلا غرو أن تعم الفوضى، وأن تستشرى الفتن والاضطرابات الداخلية التى بلغت أوج حدتها سنة ٤٦٤ هـ (١). وقد وصفها "ابن منجب الصير فى" بقوله : "أما العزائم فقد وهت، وأسباب الفساد قد بلغت الغاية وانتهت، والمراقبة قد نزرت وقلت، والمهابة قد تلاشت واضمحلت"(٢).

ولم يجد الخليفة المستنصر بداً من الاستعانة بوزير حازم يقبض على زمام الأمور، ويدير حركة الحكم فاستقدم من الشام "بدر الجمالى" الذى أخذ الناس بالقسوة والعنف، ودانت له مقاليد الحكم، وأصبح للوزارة فى عصره سلطة وهيبة جعلها أمل الطامحين، من ثم بدأ الصراع حولها وبدأ أبطال هذه المسرحيات يهاجمون الوزير فنجح بعضهم وتولى مكانه، وأخفق آخرون ولقوا حتفهم. وقد مثل دور البطولة -فى الغالب- جماعة من الذين شاركوا فى إدارة بعض الولايات أو المناصب فى مصر، فإذا ماسنحت الفرصة لأحدهم انقض بجنوده على الوزير واحتل منصبه." وكانت عادة المصريين (الخلفاء الفاطميين) إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب وعجز صاحبُ المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه، فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان، وماكانوا يرون المكاشفة، وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال (٣).

بين الوزيرين : عباس وابن السلار :

الصراع حول الحكم جبلة إنسانية لكنه بدا مرضا سياسيا ينهش فى كيان مصر منذ استبد "أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح" بالوزارة وقتل الوزير السابق "ابن سلار" وكان

---

(١) راجع الأزمة المستنصرية فى :

أ - الكامل لابن الأثير .

ب - حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، د . راشد البراوى : طبعة أولى سنة ١٩٤٨ ، ص ٨١٨ وما بعدها .

(٢) الإشارة إلى من نال الوزارى ، أبو القاسم على بن منجب الصيرفى : ص ، ٥٠ .

(٣) كتاب الروضتين ، لأبى شامة . جزء ١ ص ٢٣١ .

"عباس" من رجاله، لكنه تآمر عليه وقتله عند مدينة "بلبيس" ثم عاد عباس ليمثل دور الأتراك السلاجقة مع الخلفاء العباسيين فى قتلهم وسحلهم، واتخذ مسرحه القصر الفاطمى بالقاهرة فدبر مقتل الخليفة الظافر خارج القصر سنة ٥٤٩ هـ. ثم قتل أخويه يوسف وجبريل بتهمة إخفائهما الخليفة وقتله، وجعل على كرسى الخلافة طفلا من أبناء الظافر (١).

وكانت عيون الأدب ترصد هذه الحركات وتستنكرها "فابن أبى أسعد" يفضح صنع عباس قائلا :

وأنفقَ مــن أنعامِهم فــى هلاكِــهم وأظهرَ مـا قـــدْ كان عنــه يُنَافِــقُ

ومــدَّ يـداً هــم طوَّلُوهَــا إليــهم وحلت بأهلِ القصرِ منـــه البوائــقُ

سقى ربَّه كأسَ المنايا، وما انقضــى لــه الشهرُ إلا وهو للكــأسِ ذائقُ (٢)

عباس وطلائع بن رزيك :

ويتألم الشعراء لهذا الحدث أسفا يذهب النوم عن العيون لما حل فى ساحات القصر :

فلو عاينت عيناك بالقصـرِ يومَــهم ومصرَعَهُم لم تكتـــحل برقـــاد (٣)

ولا يكفى الألم والأسف بل لابد من المشاركة فى صنع الأحداث وتشكيلها، فيتجه الشعر إلى مخاطبة من يتوسم فيهم المقدرة على الأخذ بالثأر.

وكانت أسرة "بنى رزيك" وعلى رأسها الصالح طلائع قادرة على الانتقام، فخاطبها الشعراء وصوروا لها فداحة الأمر وحثوها على الثأر من عباس وتخليص البلاد من قسوته.

فأين بنو رزيــك عنــها ونصرُهـــم وما لـــهم مـــن منـــعهِ وذيــادِ

فمزِّق جمــوعَ المارقـــين، فإنَّهـــا بقايـــا زروعٍ آذنـــت بحصـــادِ (٤)

---

(١) الفاطميون فى مصر ، د . حسن إبراهيم حسن ، ص ٢٩٦ .

(٢) كتاب الروضتين ، جزء ١ : ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦١ والبيت من قصيدة طويلة بعث بها القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب إلى الصالح طلائع بن رزيك ، وكان الصالح والياً على قوص وما جاورها من بلاد الصعيد الأعلى . انظر النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ، جـ ٦ ص ٢٩١ .

(٤) الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .

وينتصر الشعر في تحقيق أمانيه ويستجيب "طلائع" لندائه ويهاجم عباسا فيفر من وجهه ضاربا في صحراء سيناء حيث تتلقاه منيته، وكان "الشريف القاضي سناء الملك أبو البركات" والد الشاعر "هبة الله بن سناء الملك "معاصرا تلك الأحداث وقدم لنا صورة لفرار عباس وقتله . فقال مخاطبا "ابن رزيك" :

لئن كنتَ قد نجَّيت عباس من ظبا	فرنجةٍ لمَّا لم يجِد عنك مستعفى
وأنقَذته من أسره وهو ذاهلٌ	يردُّ عن الأهوالِ في المأزقِ الطرفا
فقدْ سقتَه إذ فرَّ منك إلى مدى	تمدُّ مداه نحو مقلته الحتفا
وما فرَّ من وقع الأسنةِ صاغرا	وحدك إلا حَين لم يَر مستخفى
وملَّ الطَّعانَ المرُّ للملكِ الذى	يراه حبيبا عندما يهب الألفا (١)

ويتولى "طلائع بن رزيك" الوزارة المصرية، ويتهلل وجه الشعر ويرى الجليس الصالح أن وزارة عباس كانت نجسة، وكانت رداء مستعارا . ولابد أن ترد العارية يوما من الأيام وأن الوزارة في يديه كامرأة حسناء مع رجل غير كفء، فلابد أن يشير عليه ذوو الرأى والمشورة بطلاقها .

أعدتَ إلى جسمِ الوزارةِ رُوحَها	وما كان يُرجَى بعثُها ونشورُها
أقامتْ زماناً عندَ غيرِك طامثا	فهذا الأوانُ قُرْؤُها وطهورها
من العدلِ أن يحيا بها مستحقُّها	ويخلعُها مردودة مستعيرُها
إذا ملَك الحسناءَ مَن ليسَ كُفئَها	أشارَ عليهِ بالطلاقِ مشيرُها (٢)

ونجح "ابن رزيك" واستطاع بقوة السيف أن يقهر عباس في أوج جبروته وطغيانه :

لكُم بني رزيك، لازال ظلُّكم	مواطنُ، سكبُ الموتِ فيها مواطرُ
سللتم على عباس بيضَ صوارمٍ	قهرتُم بها سلطانَه وهو قاهرُ (٣)

---

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ .

(٣) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ .

وقد واجه الصالح أطماع الخارجين وصدهم عن بلوغ غايتهم، ففى الاسكندرية ثار (طرخان) وتقدم بجيوشه فأرسل الصالح لقتاله غلامه "وردا" وأخاه "شمس الخلافة" والتقيا بطرخان عند مدينة البحيرة فبددا شمله وفرقا جيشه مابين قتيل وأسير :

لقد طمحتْ بطرخان أمانٍ ... لــه ولمثلِهِ فيها بَـوَارُ
وحاول خطةً فيها شماسٌ ... على أمثاله وبها نفارُ
هل الحسبُ الفتيُّ بمستقلٍّ ... إذا ما غرَّه الحسبُ النضارُ
أتتك بخائنٍ قدماه سعياً ... كما يسعى إلى الأسدِ الحمارُ
وشانَ قرينَه لمَّا أتاه ... كما قدْ شان أسرته قدارُ (١)

وكما فشل طرخان فى ثورته على بنى رزيك فشل بهرام الغزى، فقد ثار بهرام وتوجه يريد الصعيد، فأدركه العسكر، وقتل أخوه وجماعة من الغز.

وقد وصف عمارة هذه الحادثة وصور انتصار بنى رزيك على بهرام وقومه :

لمَّا تمرَّد بهرامٌ وأسرتُه ... جهلاً وراموا قِراعَ النبعِ بالغربِ
صدعتْ بالناصرِ المحيى زجاجتهم ... وللزجاجةِ صدعٌ غير منشعبِ
أسرى إليهم ولو أسرى إلى الفلك الأعلى ... لخافت قلوبُ الأنجمِ الشُّهبِ
فى ليلةٍ قدحتْ زُرْقُ النصال بها ... ناراً تشبُّ بأطرافِ القنا الأشبِ
ظنوا الشجاعةَ تنجيهم فقارعهم ... أبو شجاعٍ قريعُ المجدِ والحسبِ (٢)

مقتل "الصالح طلائع بن رزيك" وتولية ابنه الوزارة :

وتدور الدائرة على الصالح كما دارت على غيره من وزراء العصر ولم يمنعه من ذلك مصاهرة الخليفة العاضد، بل كانت هذه المصاهرة مثار حقد نساء القصر، وتولت عمة العاضد (٣) تدبير المؤامرات ضد الوزير طلائع حتى تتخلص من نفوذه فأحكمت حيلتها ودفعت

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .
(٢) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٦٥ .
(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، جـ ١١ ، ص ٣٧٤

الأموال لجماعة من السودان، قاموا بتنفيذ الخطة. فبينما الصالح يغادر القصر في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٥٦ هـ بعد اجتماعه بالخليفة فوجىء بجماعة تخرج عليه من مخابئها في دهليز القصر وتعاورته سيوفها فتعثر في أذياله وضربه أحدهم بالسيف في رقبته ضربة مؤثرة توفي على إثرها بعد ساعات (١).

وقد روى عمارة اليمني مشهدا من هذه الوقائع في حديثه عن "محمد بن شمس الخلافة" الذي كان مع "الصالح" ساعة اغتياله :

"وكان في الوفاء لبني رزيك نصيري الموالاة والعقيدة وحضر مع الصالح يوم قاعة الذهب فقاتل عنه أشد القتال ولم يزل يضرب بسيفه حتى انقطع من وسطه نصفين فلما لم يبق معه سيف ألقى بنفسه على الصالح وهو طريح في دهليز السرداب ووقاه بنفسه فلم تزل السيوف تنحره حتى قام الصالح وتكاثر الناس وذكرته في قصيدة رثيت بها الصالح يوم نقل تابوته إلى القرافة منها :

أوفَى أبو حسنٍ بعهدِك عندَما	خَذلتْ يمينٌ أختَها ويسارُ
لاتسألا إلاَّ مضاربَ سيفِه	فلقدْ تزيدُ وتنقصُ الأخبارُ
حتى إذا انقطَع الحسامُ بكفِّه	وانفلَّ منه مضربٌ وغرارُ
ألقى عليك وقايةً لك نفسَه	لما انْتَحتْك صوارمٌ وشفارُ
إن لم يذق كأس الردى فبقلبِه	من خَمْرِها أسفاً عليكَ خمارُ
هي وقفةٌ رُزِق المكرَّمُ حمدَها	وعلى رجالٍ لؤمُها والعارُ(٢)

وكأن عمارة اليمني كان يتنبأ بموت الصالح ومآل الوزارة إلى ابنه "رزيك"، حينما أنشده قبل وفاة والده بثلاثة أيام :

أبوكَ الذي تسطُو الليالي بحدِّه	وأنت يمينٌ إن سَطا وشمالُ
لرتبتِه العظمى وإنْ طالَ عمرُه	إليك مصيرٌ واجبٌ ومآلُ (٣)

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ . ص ٣١١ .
(٢) ديوان عمارة اليمني ، ص ١٤٥ .
(٣) عمارة اليمني ، ص ٤٩ .

وقبل أن يلفظ الصالح أنفاسه الأخيرة أوصى بالوزارة من بعده لولده "رزيك" ومضى عمارة اليمنى يهنىء رزيك بمنصب الوزارة ويقارن بين عهدين : عهد كان فيه عباس وابنه يملكان أمرها والمجد نافر منهما، وعهد تولى الصالح أمرها ثم أورثها ولده رزيك من بعده وكلاهما آية فى الفضل والصلاح، فاستبدلت الوزارة عصر الصلاح بعصر الفجور.

الصالحُ الهادِي لـه والـدٌ	لقد تساوى النجْرُ والنَّاجرُ
تبـاركَ المعـطِي لكـمْ هـذِه	الرتبةَ فهـوَ الملكُ القـادرُ
رداؤُهـا فَوقَكُـمُ لائـقٌ	وهـو علـى غيرِكـم نافـرُ
قـدْ كـانَ عبـاسٌ بـها وابنُه	والمجـدُ فـيها مُـكْرَهٌ صاغـرُ
ولـمْ يـزل فوقهـما سترُهـا	مُرْخَـى إلـى أنْ قُتِـلَ الظَّافـرُ
فأصبحتْ أسـتارُه عنهـما	مكشوفـةً إذْ غـضب الساتـرُ
تعوَّضـتْ عـن فاجـرٍ صالحـاً	لايستوى الصالـحُ والفاجـرُ (١)

بين الوزيرين رزيك وشاور :

وكما اعتلى الصالح منصب الوزارة على جثث القتلى ودعها وهو يتخبط فى دمائه، فلا بد أن يستمر هذا النهر المتدفق من الدماء يحوط بركب الوزارة. فقد جد "رزيك" فى طلب ثأر أبيه من المدبرين والمنفذين، وإن كان عمارة شاعرهم لايرى تكافؤا بين الجناية والقصاص ويصب لعناته على القاتلين ويتهمهم بالحمق والجهل ويبشرهم سوء العاقبة :

غضبَ الإلهُ علـى رجـالٍ أقدمُـوا	جـهلاً علـيه وآخريـن أشـاروا
لاتعجبـنْ لقـدارِ ناقـةِ صالـحٍ	فلكـلِّ عـصرٍ صالـحٌ وقـدارُ
أحللـتَ دارَ كرامـةٍ لا تنقضـى	أبـداً وحـلَّ بقاتليـك بـوارُ
وقع القِصاصُ بهم وليسوا مقنعا	يرضى، وأيـن مـن السَّماء غـبارُ
ضاقتْ بهم سعةُ الفِجـاجِ وربمَّـا	نامَ الولـىُّ ولا ينـامُ الثـارُ (٢)

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٤٥ .

(٢) عمارة اليمنى ٥ ص ٦٤ (الديوان)

ولكن أمير الجيوش شاور "يثور على "رزيك" ويتقدم بجيوشه نحو الغربية ويخرج "رزيك" للقائه وتدور الدائرة عليه ويتولى الوزارة "شاور" من بعده. وقد شاهد عمارة اليمنى رأس "رزيك" فى الوزارة، وحدثنا عما رأى : "دخلت قاعة السر من دار الوزارة وفيها طى بن شاور وضرغام وجماعة من الأمراء مثل عز الزمان ومرتفع الظهير ورأس رزيك بن الصالح بين أيديهم فى طست فما هو إلا أن لمحته عيني ورددت كمى على وجهى ورجعت على عقبى وما ملأت عينى من صورة الرأس ومامن هؤلاء الجماعة الذين كان الرأس بين أيديهم إلا من مات قتيلا وقطعت رأسه عن جسده، فأمر طى من ردنى. فقلت : والله ما أدخل حتى تغيب الرأس عن عينى. فرفع الطست وقال لى ضرغام لم رجعت ؟ .. لو ظفر رزيك بأمير الجيوش أو بنا ما أبقى علينا.

قلت : لاخير كفى شيء يؤول الأمر بصاحبه من الدست إلى الطست، ثم خرجت وقلت :

أعــزز عَـلىَّ أبـا شـجاعٍ أنْ أرى ... ذاك الجَـبين مضـرجًا بدمـائه

ماقـلَّبتُه سـوى رجـالٌ قـلَّبوا ... أيديهـم من قـبلُ فى نعمـائِه (٢)

ونرى الشعراء يصورون مقتل "رزيك" وتولى "شاور" الوزارة بصور مختلفة لاشك أنها ترجع إلى قوة أو ضعف علاقاتهم الشخصية بالوزراء. فعمارة اليمنى يرثى بنى رزيك ويهنىء "شاورا" معتذرا له عن الوفاء لهم :

وماقصَـدتُ بتعظيمى سـواك سـوى ... تعظـيم شـأنك فاعـذُرنى ولا تلُـمِ

ولو شـكرتُ ليـاليهم محـافظـةً ... لعهـدِها لم يكنْ بالعـهدِ من قـدمِ

ولـو فتحـتُ فمى يومـاً بذمِّـهمُ ... لم يرضَ فضـلـك إلا أنْ يُسـدَّ فمى

واللــهُ يأمرُ بالإحسـانِ عـارفةً ... منه وينهى عن الفحشاءِ فى الكلم (٣)

ولكن الشاعر "ابن النحاس" يطالب بالقضاء على من بقى من "بنى رزيك" وعدم قبول عذرهم جزاء وفاقا لما فعلوه مع غيرهم أيام سطوتهم وملكهم :

هـم أسـروا كمال الدين صُـبحا ... فهـاهم فى يديـه اليومَ أسـرى

(١) عمارة اليمنى ٥ ص ٦٤ (الديوان) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٣) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٧٠ .

فـــإنْ جــــاءوك واعـــتذروا بعـــذرٍ ‌ ‌ ‌ فلاتقـــبلْ من الطـــّاغين عذرا (١)

بين شاور وضرغام :

وعلى الرغم مما كان يتمتع به "شاور" من الدهاء والحيلة فإن لعنة الوزارة لا محالة تصيبه، فقد ثار "ضرغام" نائب الباب وفرّشاور محاولا أن يتحدى لعنتها، وأفلح فى تحديه حينا من الدهر، عندما لجأ إلى الشام سنة ٥٥٨ هـ وطلب من سلطانها أن يعينه فى الوصول إلى منصب الوزارة. وعهد له بتقديم معونات وتسهيلات فى مصر من شأنها أن تشد عضد "نور الدين" ضد أعدائه الصليبيين فأرسل معه جيشا بقيادة "أسد الدين شيركوه" مكنه من الوزارة. وفرّ ضرغام متخفيا. ولكن أحد الجنود تعرف عليه وقطع رأسه وأرسل بها إلى "أسد الدين شيركوه" ثم طافوا برأسه. وكان عمارة يسكن شط الخليج بالقاهرة وشاهد رأس "ضرغام" فوصف لعنة الوزارة على أصحابها مرتجلا :

أرى حـسَنكَ الوزارةِ صـــارَ سـيفاً ‌ ‌ ‌ يحـــدّ بحــــدهِ صــيدَ الرِّقـــابِ
كــــأنّك رائــــدُ البلـــــوى، وإلا ‌ ‌ ‌ بشــيرٌ بالمنــيّـــةِ والمصـــــابِ (٢)

وعاد "شاور ليعتلي عرشها من جديد بعد غيبة دامت تسعة أشهر بالتمام أطلق عليها الشاعر "عمارة اليمنى" (مدة الحمل) وراح من جديد يهنىء "شاور" وأبناءه بانتصارهم وعودتهم إلى الحكم ملحا على الحقيقة المرة ، وهى أن الوزارة فى ذلك العصر كانت مقبرة الوزراء، وأن أحدا لم تبتسم له بعد تنكرها غير "شاور" وأهله.

فى مــدّةِ الحـــملِ أدركتُم جنابَهـــمُ ‌ ‌ ‌ عـــلى عُـــلاكم بأخـــذِ الملكِ والثـــارِ
إن الـــوزارة لو خـلّيتَها رجـــــعتْ ‌ ‌ ‌ إليـــك طائعــــة من غـــيرِ إجـــبارِ
وماعــلمْنا وزيـــراً قـــبلَ دولتكـــم ‌ ‌ ‌ ردّت له وجــه عُرفٍ بعد إنكـــارِ (١)

وغصت أيام شاور بالفتن والثورات، فلم يواجه عداء ضرغام وحده، أو تطلعات القوى الخارجية فحسب، بل قامت ضده ثورة عارمة شنها "يحيى بن الخياط" الذى لاذ بالصعيد. وكان

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٣٣ .

"ابن الخياط" من رجال الدولة الفاطمية منذ زمن الصالح بن رزيك. ويذهب صاحب الروضتين إلى القول : بأن "ابن الخياط" ساعد الفرنجة فى القدوم إلى مصر قبيل حملة شيركوه الثالثة سنة ٥٦٤ هـ، نكاية فى شاور وانتقاما منه. (٢)

وقد أفاض عمارة فى وصف المعارك التى دارت وسجلت انتصار شاور على خصمه فى العديد من المعارك التى شهدتها بلاد الصعيد فى "اشنا، ودهروط" وغيرهما، كما أشاد ببطولة شجاع بن شاور الذى قاد هذه المعارك :

جلبتَ إليه عُصْبة كاملية ... بأمثالهم تُبْنى المعالى وتُهدَمُ
صَدَمْتَ بها يحيىَ وقدْ كاد أمره ... وتدبيرُه الثانى يتمُّ ويُبْرَمُ
ولم يقدمِ الفسطاطَ إلاّ وعزمُه ... يؤخِّرُ رجلاً خوفُه ويقدّمُ
وماجهلتْ أيامُ إشنا وطنبذ ... وساحلِ دهروط بأنَّك ضَيْغمُ
وقفتَ بِها تحمى فوارسَك التى ... كُفيتَ أذاهم حين دافعتَ عنهم
وأبقيتَ فيها ياشجاعُ بنُ شاورٍ ... طرازاً على كم الشجاعة يُرْقَمُ (٣)

وإذا كان أدب هذه الفترة صور لعنة الوزارة على أصحابها وأفاض فى ذلك كثيرا، فإنه لم يصور لعنتها على مصر والمصريين الذين دفعوا ثمن تلك المهاترات، وأصابتهم نكبات فى الأموال والأنفس والثمرات. يؤكد هذه الحقيقة ماذكره "أبو شامة" من أن "شاور" تعهد للفرنج بدفع ألف دينار مصرية عن كل مرحلة يقطعونها من عسقلان إلى فاقوس لمساعدته فى استقراره بمنصب الوزارة وقد دفع لهم سبعة وعشرين ألف دينار(٤) . وما كان أحوج مصر إلى كل درهم من هذه الأموال تشد به أزرها فى مواجهة الزحف الصليبى ومقاومة الأزمات الاقتصادية.

ويصف عمارة اليمنى مقدار مادفعه "شاور" من الأموال فى سبيل وصوله واستقراره بالوزارة فيخاطبه قائلا :

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ص ٢٥٧ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٨٩ .
(٣) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
(٤) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٢١ .

أبلـيتَ فيها بما سـيَّرتَ من عـددٍ ... ومـن عـديدٍ الى الأعـداءِ ينثـالُ

لـولا بيـوتٌ من الأموالِ جُدْتَ بها ... عـلى عسـاكرِها لم يستقِم حالُ (١)

وطبيعي أن تنهك الصراعات قوة الجيش المصرى ويقف شاور عاجزا عن حماية مصر من أعدائها. ولعل عمارة يفسر ذلك العجز بقوله :

وما مضَـى بِكَ يـومٌ لـيس فيه على ... أيـامِ ضـرغام تدبيرٌ وأعـمالُ (٢)

وقد اشتط شاور فى استخدام العنف، فعندما عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، وكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه فى قاعدة البستان من دار الوزارة ثم يسحب القتلى خارج الدار.

وقد كتب عمارة قصيدة فى ذلك المعنى ناشد فيها "شاور" أن يضع السيف وأن يلجأ إلى العفو والتسامح :

ألا إنَّ حـدَّ السَّـيفِ لمْ يُبْقِ خاطـراً ... مـن النَّـاسِ إلا حـائراً يتـردَّدُ

ذعرَت الورى حتى لقد خـاف مصلحٌ ... على نفسـه أضـعافَ ماخافَ مفسدُ

فاغمِدْ شـفارَ المشـرفيِّ وعُـدْ بنـا ... إلى عـادةِ الإحسـانِ وهى التغـمُّدُ

فـإنَّ بروق المـاضياتِ وصـوتَها ... رواعـدُ منـهنَّ الفرائـصُ ترعـدُ

وإنَّ صليـلَ السَّيفِ أفحـشُ نغـمةٍ ... تظـلُّ تغـنى فى الطـلى وتغرِّدُ

تجـاوز وإلاَّ فالمقطـمُ خـيفةً ... يذوبُ ومـاءُ النِّيـلِ لاشك يَجْمدُ (٣)

وفى موقف أخر يصور عمارة ضراوة القتال الذى دار بين الخصمين "شاور" وضرغام " ومن ساندهما :

وتَنُوفـةٍ بالجـيش ضـاقَ مجـالُها ... فـالذِّئبُ فـيها والقـنا لا يعـسلُ

---

(١) ديوان عمارة اليمنى

(٢) المرجع ، السابق ص ٣١٩

(٣) ديوان عمارة ، ص ٨٧ .

غـــادرتَ يـومَ عـداك فـيها أيوْمـــا ... وتركـــــتهم والليـــلُ فيـــها ألـــيلُ
ورميتـهم بالجُــرْدِ وهـــى أجـــادلُ ... منقضّـــةٌ مـــن فوقِـهم أو جَـندلُ
وتوهـــموا لمـعَ الحـــديدِ ولونَـه ... روضـــاً بوارقُـــه تجـودُ وتهطـــلُ
فـإذا اخضـرار الروض درعٌ سـابلٌ ... والغصـــنُ رمـــحٌ والمهنَّدُ جـدولٌ (١)

مقتل شاور وتولية أسد الدين شيركوه :

ولكن الأحداث تتوالى لتؤذن بقدوم مرحلة جديدة تقف عندها مهازل هذا الصراع والتمزق الداخلى. فقد ظل "شاور" يحاور ويناور حتى انتهى به المطاف قتيلا بأيدى الأيوبيين بعد أن قدم "أسد الدين شيركوه" وبعث إليه الخليفة الفاطمى بخلع الوزارة إثر مقتل شاور. وراح العماد يهنىء مصر بصفحة جديدة.

هنيئـــاً لمصـــرَ حَوْزَ يوسفُ ملْكَـــها ... بأمـــرٍ من الرّحـــمن قد كان مُوقـوتا
وما كـــان فيـــها قتلُ يوسف شـــاورا ... يمـــاثل إلاَّ قـــتلَ داودَ جـــالوتا
وقـــلتُ لقلبى : أبشـــرْ اليومَ بالمنَى ... فقد نلت ما أمَّلت، بل حُزْتَ ماشيتا (٢)

موقف الشعب المصرى من الصراع الوزارى :

وقد يطرح سؤال نفسه من خلال هذه الأحداث : لماذا لم يقم الشعب المصرى بثورة تضع حدا لهذه المهازل التى تدور على أرضه ويكتوى بنارها ؟

ونعود إلى ماحللنا به شخصية مصر السياسية فيما سبق لنجد إجابة لهذا السؤال :

إن الاستقرار والهدوء هما أساس الحياة المصرية، وما حل بمصر من نكبة اقتصادية ومجاعة فادحة فى عصر المستنصر ليس له سبب غير اختلال الأوضاع الداخلية كما قرر ذلك الدكتور راشد البراوى فى كتابه "حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين".

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢١.

(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٥٥ .

ومن جهة أخرى لم تعتبر مصر هؤلاء الوزراء المتصارعين أجانب عنها تماما فهم مصريون قدموا إليها فى الأصل متمصرين يعملون فى خدمتها وإن كانوا من أجناس غير مصرية لكنهم تمصروا كغيرهم من الأجناس المختلفة، فتقبلت مصر تصارعهم على مضض وكره كما يقبل أى شعب من شعوب عالمنا المعاصر حركات الانقلاب التى تحدث فى كثير من البلاد على كره واستنكار . وقد تذرع هؤلاء الوزراء بحب مصر وحرصهم على ضبط أمورها وأكد شعراؤهم هذه المعانى فى مديحهم فكيف تثور مصر على من يزعمون حب الخير لها ولو كان ذلك ادعاء منهم ؟ .. إن وجه التحدى غير سافر فى هذه المشاحنات، والشخصية المصرية وئيدة الخطى فى ثوراتها ما لم تمس الإهانة جوهر عقائدها وأصيل موروثها لأنها غير نزاعة إلى التمرد والثورات، وقد كان المتخاصمون مسلمين أو هكذا كانوا يعرفون، فعلى من تثور مصر الإسلامية وهى تواجه خطرا صليبيا يطرق الأبواب ويحتاج الى جمع الشتات ورأب الصدع ؟

ومن هنا وقف الشعب المصرى موقفا أقرب إلى السلبية، وقد نجح فى موقفه فإن الأحداث قد أتت بالقائد الذى التفت مصر حوله وقامت بثوراتها الحقيقة لتبطش بالغول الصليبى الذى أرهب المنطقة سنوات طوال، وهذا ما ستكشف عنه طبيعة الثورة المصرية إبان الحروب الصليبية.

الاحتكاك المذهبى بين الشيعة والسنة

طبيعة الاحتكاك :

أوثر وصف التحول المذهبى فى مصر بالاحتكاك، وإن كان يحلو لبعض أدباء تلك العصور أن يصوره صراعا مريرا، كما يفسرون دوافع التحول التى مرت بها مصر وماترتب عليه من آثار بنزعة عصبية مذهبية أو عنصرية.

فالعماد الأصفهانى، وهو سنى متعصب يفسر تدخل نور الدين فى شئون مصر بدوافع العصبية المذهبية فهو يخاطب شيركوه قائلا :

أنتَ مَنْ نازلَ الدَّعيِّين في مَصر لنصر الإمامِ في بغداد
وبلاد الإسلام أنقذتَها أنت من الشركِ أيَّما إنقاذ (١)

فهل كانت أطماع "نور الدين" في مصر أطماعا مذهبية كما يذهب العماد ؟ وإذا كان "نور الدين" وجنده وقادتهم من بني أيوب ينطلقون من دافع العصبية المذهبية فهل رحبت بهم مصر وعلى رأسها الخليفة الشيعي العاضد لهذا الغرض ؟

ومن منطلق العنصرية – أيضا – يستقبل الشاعر العرقلة "أسد الدين شيركوه" عند عودته إلى الشام بعد حملته الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ ليثيرها عصبية ذات طابع شعوبي يفضل فيها الجنس التركي على الجنس العربي.

أقولُ والأتراكُ قدْ أزمعتْ مصرَ إلى حَرْبِ الأعاريبِ
ربِّ ، كما ملَّكْتَها يوسفَ الصِّديق من أولادِ يعقوبِ
يملكها في عصرنا يوسُفُ الصادقُ من أولادِ أيوبِ
من لَمْ يزلْ ضرَّابَ هامِ العدا حقاً وضرَّاب العراقيبِ (٢)

لم يهتد هذا الشاعران إلى حقيقة الموقف، بل عكسا ما في نفسيهما من روح العصبية في المذهب أو الجنس، ربما عن إيمان ذاتي بها، أو تقليد للموروث من التراث الأدبي المنحدر من عصور الأزدهار والذي مثلت فيه الشعوبية دوراً كبيراً، وربما عن تأثير البيئة التي شبا وترعرعا فيها فكلاهما لم يكن شاعراً مصرياً، ولم يكن العماد قد اتصل بعد بالبيئة المصرية اتصالا يمكنه من فهمها ومعرفة شخصيتها. ولانجد هذا التعصب واضحا لدى أدباء مصر الذين امتزجوا بأهلها وتمصروا فيها. فعمارة اليمني وهو الشاعر المقرب للفاطميين لم يكن شيعيا

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٨٤ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ .

وماضره ذلك من أن ينال حظه فى ظل سلطانهم (١)

والقاضى الفاضل الذى كتب للفاطميين والأيوبيين لم يكن شديد التحمس فى شعره أو نثره لنزعة مذهبية أو عصبية كالتى أثارها العماد أو غيره.

وقبل أن يبدأ تدخل "نور الدين" فى شئون مصر، وقفت كل من مصر الشيعية والشام عدوها الصليبى بل راحت مصر الشيعية تستحث الشام على خوض المعارك المشتركة فالوزير الشاعر الفاطمى "طلائع بن رزيك" يزف البشرى إلى مؤيد الدولة "أسامة بن منقذ" بانتصار الغزاة المصريين ويستحث جنود "نور الدين" أن يغيروا على العدو حتى تستطيع القوتان معا تحطيم شوكته.

سارتْ سرايَانَا لقصدِ الشّام تعتسفُ الرِّمالا
هذا، وفى تلِّ العجا ل ملأنَ بالقتلى التلالا
إذا مرَّ "مُرَّى" ليس يلوى نحو رفقته اشتغالا
فلو أنَّ نورَ الدينِ يجعلُ فِعْلنَا فيهِم مثالا
ويسيِّرُ الأجنادَ جهراً، كى ينازلَهم نزالا
ووفى لنا، ولأهلِ دولتهِ، بما قدْ كان قالا
لرأيتَ للإفرنجِ طرا فى معاقِلها اعتقالا
وتجهَّزوا للسَّيْرِ نحوَ الغربِ، أو قصدوا الشمالا
وإذا أبى إلا اطراً حا للنصيحةِ واعتزالا
عُدْنا بتسليمِ الأمو رِ لحكمِ خالقِنا تعالى (٢)

---

(١) يحكى عمارة اليمنى عن موقف تعرض له حين سمع بمحضر الوزير الصالح طلائع بن رزيك بعض الجالسين يخوضون فى ذكر السلف فاعتزل مجلسهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وقال للصالح لولا أبوبكر وعمر لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم وإنه ما من مسلم إلا ومحبته واجبة عليه ثم قرأ : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاَّ من سفه نفسه » فضحك الصالح » انظر النكت العصرية . عمارة اليمنى ص ٤٥ .

(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

فيجيبه أسامة شاكرا ومطمئنا، وداعيا إلى مزيد من التعاون مع "نور الدين" الذى صمم على حماية بلاد الشام ومنازلة أعدائها الصليبيين :

يا أشرفَ الوزراءِ أخلاقاً، وأكرمَهم فعالا	
نَبَّهتَ عبْدا طالما	نبهْتَه قدرا وحالا
وعتبتَه ، فأنلته	فخراً، وحمداً ، لن ينالا
فاسْلم لنا حتَّى يُرى	لك فى بنى الدُّنيا مثالا
واشْدُدْ يَديْك بِوُدِّ "نو	رِ الدين" والْقِ به الرجالا (١)

وتوالت كتابات طلائع بن رزيك إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، يستحثه على قتال المشركين ويؤكد على مواصلة القتال ورفض صلح الأعداء :

وقد كاتبوا فى الصُّلحِ، لكنْ جوابهم	بحضرتنا ماتكتبُ الخطُّ لا الخَطُّ
سطور خيولٍ لاتغبُّ ديارُهم	لها بالمواضى والقنا الشكلُ والنقطُ
فقولوا لنورِ الدين : ليس لخائف ال	جراحاتِ إلا الكىُّ فى الطبِّ والبطُّ
وحسْمُ أصولِ الداءِ أوْلَى بعاقلٍ	لبيبٍ إذا استولى على المدنف الخلطُ (٢)

لقد كان التعاون الشيعى السنى واضحا فى موقف مصر من العدو الصليبى المشترك ولكن التاريخ كما يلاحظ الدكتور محمد كامل حسين - أغفل هذه الناحية (٣). وفى أدب المراسلات الذى عرضت طرفا منه مايؤيد ذلك الرأى ويدعمه.

حملات شيركوه على مصر :

ولما أخذ الاحتكاك السنى الشيعى صورة تدخل فى شئون مصر كشف عن حقيقة الشخصية المصرية وموقفها من هذا الاحتكاك. فحملة "أسد الدين شيركوه" الأولى كانت استجابة لطلب الوزير المصرى المخلوع الذى لم يتخذ من إغراء "نور الدين" بتحويل مصر سنية سبيلا إلى تحقيق مطلبه، وإنما ذكره بالخطر الداهم الذى يترصد مصر المسلمة، وما يمكن أن

---

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩٨ .
(٣) راجع فكرة الدكتور محمد كامل حسين مفصلة فى كتابه « فى أدب مصر الفاطمية » ص ٢٦٤ .

يجلبه سوء أحوالها الداخلية من عواقب سيئة. ومن هذه الزاوية أعد جنوده وسيرها إلى مصر، وما كان أحوجه إليها يشن بها غارات على الحصون الصليبية المتاخمة لكنه اعتبر هذه الحملة جزءا من قتال الصليبيين لا من قتال الشيعة أو المصريين. وما دار من مراسلات بين أسد الدين شيركوه والوزير المصرى شاور يؤيد ذلك (١) .

وعندما تحرك شيركوه وجنوده للمرة الثانية إلى مصر كانت تحركه دوافع نصرة المسلمين بامتلاك مصر والأخذ بيدها .

بِمُلْكِ مصرَ ونصْرِ المؤمنين غدا ... تحظى النفوسُ بتأنيسٍ وتطييبِ

ويستقرُّ بمصر يوسفٌ وبه ... تقرُّ بَعد التنائى عَيْنُ يعقوبِ

ويلتقى يوسفُ فيها بإخوته ... واللهُ يجمعُهم من غيرِ تثريبِ (٢)

ولما وصل "شيركوه" إلى مصر وخيم بالجيزة لقى مساندة من المصريين وانضم الى جنده قوم يقال لهم الأشراف الجعفريون والصلحيون والقرشيون لالنصرة السنيين على الشيعيين بل للدفاع عن مصر والمسلمين. ولقد كان هذا الإحساس ماثلا أمام "شيركوه" كما تبديه رسالة بعث بها إلى "شاور" يقول فيها : أنا أحلف لك بالله الذى لا إله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أننى أقيم ببلاد مصر ولا أغاود إليها أبدا، ولا أمكن أحدا من التعرض لها ومن عارضك فيها كنت معك إلبا عليه، وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط : وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيه الفرصة التى قد أمكنت : والغنيمة التى كتبت، فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته، وما أظن أن يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبدا" (٣)

ومرة أخرى يتعاون الشعب السكندرى مع جند شيركوه معبرا عن الطابع الإسلامى لا المذهبى أو التعصب العقائدى، فعندما استنجد "شيركوه" بأهل الإسكندرية قاموا معه وأمروا عليهم "نجم الدين بن المصال" ولما سار شيركوه إلى الصعيد قدموا له معونات مالية كبيرة.

---

(١) كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٤٢٣ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٩٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

ووقفت الإسكندرية صلبة مع صلاح الدين ولم يخرج منها حتى استحلف شاور ألا يتعرض لأحد من أهلها بسوء. ومع ذلك فإن العماد الأصفهاني يفصل أحداث هذه الحملة في أكثر من قصيدة، ولم يشر إلى تعاون المصريين مع شيركوه. بل كان يردد دائما نغمة انتصار السنية، وانهزام الشيعية ويبشر بزوالها من مصر .

فهو يخاطب "شيركوه" بقوله :

من دم الغادرين غادرتَ بالأمس صعيدَ الصعيد وهو غديرُ

ولكلٍّ مما تطاولتْ فيهم أملٌ قاصرٌ وعمرٌ قصيرُ

لاذ بالنيل شاورٌ مثلُ فرعو نَ، فذلَّ اللاجي وعزَّ العبورُ

شارك المشركين بغياً، وقدْ ما شاركتها قريظةُ والنضيرُ

والذى يدّعى الإمامة بالقا هرة ارتاع أنه مقهورُ

وحميت الإسكندرية عنهم ورحّى حربهم عليهم تدورُ

حاصروها وما الذى بان من ذَبِّك عنها وحفظها محصورُ

ولكم عودةٌ إلى مصر النصر على ذكرها تمرُّ العصورُ

فاستردوا حقَّ الإمامة ممن خان فيها فإنه مستعيرُ (١)

وقد جاء "شيركوه" ومعه "صلاح الدين" للمرة الثالثة إلى مصر سنة ٥٦٤ هـ بعد استصراخ القصر الفاطمي ونداء الوزير المصرى وضجر الناس كافة من سوء مايعانون فالصليبيون على أبواب القاهرة ولهم فيها حامية عسكرية، والخليفة عاجز عن ردع أى خطر على البلاد. وتطلعت مصر إلى مسلمى الشام متجاوزة عن كل الفوارق المتعلقة بالمذهب الدينى أو العرق الجنسى وعن كل ما ينم على الروح الشعوبية، واستقبلت "شيركوه" فرحة مستبشرة يقول العماد الأصفهانى : "عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعا وإرغاما له وإطماعا، ووصل بكتبه إلى "نور الدين" مستصرخا مستنصرا، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبرا، وسير

---

(١) كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

الكتب مسودة بمدادها . كاسية لباس حدادها ، في طيها نوائب مجزوزة، وعصائب محروزة أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر. وأرسله تباعا ، وأردف بها نجابين سراعا ، وأقام منتظرا ، ودام متجبرا ، وعامل الفرنجة بالمطال ينقدهم في كل حين مالا ، ويطلب منهم إمهالا . ومازال يعطيهم ويستمهلهم حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى (١) .

وكانت جموع الصليبيين قد دخلت مدينة "بلبيس" وقتلت وأسرت، ولما قاربت مصر أمر "شاور" بإحراقها وظلت النار بها أربعة وخمسين يوما مشتعلة، ولئن حال حريق مصر دون استيلاء الصليبيين عليها ، فإنهم أخذوا يرقبون جنود الشام، ولكن حيطتهم باءت بالبوار إذ وصل شيركوه عن طريق آخر غير طريق الساحل الذى راقبوه. وفى ذلك يقول عمارة اليمنى مخاطبا شيركوه وجنوده :

أخذْتُم على الإفرنج كلَّ ثنيةٍ ... وقلتم لأيدي الخيل مرِّى على "مرى"
لئن نصبوا فى البرِّ جِسْراً فإنكم ... عبرتمُ ببحرٍ من حديدٍ على الجسْرِ (٢)

قال العماد : ودخل أسد الدين الإيوان، وخلع عليه ولقى الإحسان.

وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد، وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة، والحلاوات والميرة فقال صلاح الدين : هذا أمر يطول ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل، وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، ولا سيما إذا راوغ وغادر. واعترضه صلاح الدين فى الأمراء النورية وهو راكب على عادته فى هيبته الوزيرية، فبغته وشحته، وقبضه وأثبته، ووكل به فى خيمة ضربها له، وحاول إمهاله. فجاء من القصر من يطلب رأسه، ويعجل من العمر يأسه. وجاء الرسول بعد الرسول، وأبوا أن يرجعوا إلا بنجح السول. فحمَّ حمامه وحمل إلى القصر هامه (٣) .

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ، ص ٣٩٢ .
(٢) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٨٠ .
(٣) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ .

وبعد مقتل "شاور" بعث الخليفة الفاطمى بخلعة الوزارة إلى شيركوه فلبسها وقصد دار الوزارة وأرسل إليه الخليفة هذا المنشور :

"من عبد الله ووليه أبى العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، وولى الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، أبى الحارث شيركوه العاضدى، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته، وأعلى كلمته.. سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما .

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أو ضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة. واتخذه للفوز سبيلا، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . (١)

وزارة صلاح الدين :

ولم يمض على وزارة أسد الدين شيركوه أكثر من شهرين وخمسة أيام حتى عاجلته المنية. ولما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم. فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأى والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وما زاده الملك ترفعا وما أفاده إلا تأصلا فى السماح وتفرعا ، وضم من أمر المملكة ما كان منشورا وهو بالمثال الكريم الفاضلى الذى هو السحر الحلال والعذب الزلال". "ففى ذلك المنشور:" والجهاد أنت رضيع دره، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك، وفى ظلمات قساطله تجلى محاسنك، وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك فشمر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرا من الظبا ، واحلل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبا ، وأسل الوهاد بدم العدا ، وارفع برءوسهم الربا حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخورا لأيامك، وشهودا لك يوم مقامك" (٢) .

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٩ .

وبعث إليه العماد من الشام مهنئا :

فتحتَ مصرَ وأرجــو أنْ تَصيرَ بهــا   ميسّرا فتحَ بيتِ القـدسِ عن كَـثَبِ

من شــرِّ "شاور" انقـذتَ العبادَ فـكم   وكـم قضيتَ لحزبِ اللـهِ من أربِ (١)

نهاية الحكم الفاطمى :

ومنذ الأيام الأولى لوزارة شيركوه وأنظار حكام الشام وشعرائهم متجهة إلى تبديل نظام الحكم فى مصر. فها هو ذا العماد يكتب إلى شيركوه من الشام :

رُدَّ الخلافـــةَ عبَّاسيةً، ودعِ الـــدَّ   عـــىَّ فيــها يصــادفْ شرَّ منقلبِ

لاتقطعــنْ ذنبَ الأفعــى وترســـلُه   فالحزمُ عندي قطعُ الرَّأسِ كالذنبِ (٢)

ولكن الموت لايمهل شيركوه فيقوم بالعبء صلاح الدين حتى ينجزه فى أول المحرم سنة ٥٦٧ هـ، ولم ينتطح فيها عنزان كما يقول ابن الأثير (٣)

ويرسل القاضى الفاضل إلى الخليفة العباسى يخبره بإعادة الخطبة للدولة العباسية بمصر. حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من لله فى سخطه رضا، وجعل وجه لابس الســواد مبيضا، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمــم، ودوخت عليه الأمم، وشــفى الصدور، وجاء بالحــق إلى من غره بالله الغرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبــور (٤) .

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٣ .

(٢) كتاب الروضتين، جـ ١ ، ص ٤٠٤ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير، جـ ١١ ، ٣٦٩ .

(٤) كتاب الروضتين جـ ١ ص ٦٢٤ .

وحدة الشام ومصر :

وتتطلع أنظار مصر الأيوبية إلى وحدة الشام معها لتتمكن من القضاء على الصليبيين ويرسل القاضى الفاضل إلى الخليفة العباسى يخبره بأهداف تطلع الحكم فى مصر إلى توحيد صفوف المسلمين فيقول :

"توافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب والفرنج قد بنوا قلاعا يتحيفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم، وعوقبوا وصودروا، والمماليك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور، وجعلوا القيام لا للقعود فى المجلس المحضور، قد مدوا الأيدى والأعين والسيوف. وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا، ويجعلهم لظهره سندا. وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم فى قلعه، نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وصلحنا ما فى الشام من عقائد معتلة، وأمور مختلفة وآراء فاسدة وأمراء متحاسدة، وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه. فإنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء فى خدمته، وهم عاملون بظلمه" (١) .

ويعدُّ صلاح الدين عدته ليضم بلاد الشام ويتحقق له ذلك ويقطع الخطبة للملك الصالح بن نور الدين، ويبعث إلى الخليفة العباسى يطلب إليه توقيعا شرعيا بحكم البلاد. وأنشأ القاضى الفاضل هذه الرسالة ووجهها إلى الخليفة العباسى ببغداد :

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ : ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

كان أول أمرنا أنا كنا فى الشام نفتح الفتوحات مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكره نحن وولدنا وعمنا... وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء التدبير ومما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير... فسمت هممنا دون همم ملوك الأرض إلى أن نستفتح مقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها، فسرنا إليها بعساكر ضخمة، وجموع جمة... كان فى تقدير الله سبحانه أنا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن.... وكان باليمن ماعلم من ابن مهدى الضال وله آثار فى الإسلام، وثأر طالبه النبى عليه الصلاة والسلام لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل مالا تقر عليه نفس، فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه والحمد لله.. وبالجملة فالشام لاينتظم أمره بمن فيه، وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لايمل الشر حتى يملوا، وقرناً لايزال يحرم السيف حتى يحلوا، وإذا سدد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مسلم تحت برده، واستنقذنا أسيرا من المسجد الذى أسرى الله إليه بعبده.

هذا ما لاح طلبه على قدر الزمان والأنفس تطلب على مقدار الإحسان ، فإن فى استنهاض نيات الخدام بالإنعام ما يعود على الدولة منافعة ، وتتكأ الأعداء مواقعه وتبعث العزائم من موت منامها، وتنفض البصائر غبار ظلامها، والله تعالى ينجد إرادتنا فى الخدمة بمضاعفة الاقتدار، ومساعدة الأقدار إن شاء الله تعالى" (١).

(١) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الشيال، القاهرة : دار القلم، الجزء الثالث، ص ٢٩١ وما بعدها.

يأيُّـها الملكُ العزيـزُ فضـلـه لقـد غـدّوتَ بالعُـلا مليّـا

كفـى أميـرُ المؤمنـين شرفـا أنَّـك أصبحتَ لـه وليّـا

طارحكَ الودُّ علـى شحـطِ النّوى فكنـتَ ذاك الصـادقَ الوفيـا

أولاك مـن لباسـهِ زخرفـةً لم يولُهـا قبلَـك آدميـا

ناسبتَ الـرّوضَ سنـا وبهـجةً حتى حكتَه رونقـا وزيّـا (١)

وهكذا تصبح مصر عاصمة لإمبراطورية واسعة وقد تبدل نظام الحكم فيها من شيعى إلى سنى.

فتنة مؤتمن الخلافة وثورة السودان :

أحس المنتفعون بالسلطة فى ظل الخلافة الفاطمية مرارة التغيير ومضرته، فحاولوا أن يستعيدوا سالف مجدهم فى ظل الدولة البائدة. وكانت فتنة السودان أول الفتن التى واجهها صلاح الدين الأيوبى. وكان هؤلاء (السودان) كما يصفهم القاضى الفاضل :

"يزيد عددهم عن مائة ألف رجل كلهم أغنام أعجام، إن هم إلا كالأنعام، لايعرفون ربا إلا ساكن قصره، ولاقبلة إلا مايتوجهون إليه من ركنه (٢)".

وقد عاصر العماد الأصفهانى هذه الواقعة وصورها لنا فى قوله : كان بالقصر خصى يدعى بمؤتمن الخلافة، متحكم فى القصر فدبر مؤامرة مع بعض رجاله وكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلا من التركمان عبر البئر البيضاء فرأى مع إنسان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشى فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال : دلونى على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودى من الرهط فلما حضروه ليسألوه، ويعاقبوه على خطه ويقابلوه : نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل فى عصمة إسلامه، ثم اعترف بما خباه وشيده من الأمر وبناه وإن الأمر به مؤتمن

(١) كتاب الروضتين، جـ ١ : ص ٦٣٩ ، ٦٤٠.

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ ٣ ، ص ٢٩٢ .

الخلافة، وإنه برىء من هذه الآفة. واستشعر الخصى القصى، وخشى أن تسبقه على شق العصا العصى، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مغضب وعنه مغض، لايأمر فيه ببسط ولاقبض، إلى أن استرسل واستبسل، فظن أن مانسله من الشر العقيم فصل. وكان له قصر يقرب قليوب، فخلا فيه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فانهض إليه صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع ماجاء به لباسه.

ويتابع العماد حديثه عن هذه الواقعة فيقول : ولما قتل غار السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفا. وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه، واستباحوه واستحلوه فحسبوا أن كل بيضاء شحمة، وأن كل سواد فحمة . فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجاء، ومقدمهم الأمير أبو الهيجاء، واتصلت الحرب بين القصرين وأطاحت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشريومين، حتى أحس الأساحم بالحين وكلما لجئوا إلى محلة أحرقوها عليهم، وحووا ماحواليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفى عن منازلهم العزيزة، فما خلص السودان بعدها من الشدة ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا وإنما وقفوا وأخذوا وقتلوا تقتيلا (١).

مؤامرة عمارة وأصحابه :

اجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة، المتشددة المتصلبة وتوازروا فيما بينهم خيفة وخفية، واعتقدوا أمنية، عادت بالعقبى عليهم منية وعينوا الخليفة والوزير وأحكموا الرأى والتدبير وبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمنى الشاعر عقيدهم ودعا للدعوة قريبهم وبعيدهم. وكانوا قد أودعوا سرهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضاعه، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم، وماسولوه من مرادهم. ثم أمر السلطان بإحضار مقدميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب جماعة

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ٤٥٠

منهم بين القصرين منهم عمارة، وأفنى بعد ذلك من بقى منهم، ومات بموتهم الخبر عنهم (١).

قال أبو شامة : "وبلغنى أن عمارة لما مروا به ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقيل ليس إليه طريق. فقال :

عبدُ الرحيمِ قدْ احتجبْ   إنَّ الخلاصَ هوَ العجبْ (٢)

ثورة الكنز :

فى أول سنة ٥٧٠ هـ قام المعروف بالكنز فى الصعيد. وجمع من كان فى البلاد من السودان والعبيد، وعدا ودعا القريب والبعيد. وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين أبى الهيجاء السمين، ففتك به وبمن هناك من المقطعين ففارت حمية أخيه وثارت للثأر وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدة من أمرائه ورجاله وجاءوا إلى مدينة طود فاحتمت عليهم، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت وأتى السيف على أهلها، وباعت بعد عزها بذلها. ثم قصد الكنز وهو فى طغيانه وعدوانه وسوئه وسودانه، فسفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارتقب دماء سوده، وهجم غابه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز. وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز. وارتدع المارقون فما رقوا بعد سلم نفاق، والله لناصرى دينه ناصر وواق"(٣).

---

(١) ، (٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٥٦٠، ٥٦٩ راجع تفاصيل هذه الفتن فى السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٥٣ . ٥٤ والنكت العصرية ص ٣٩٦.

(٣) كتاب الروضتين، جـ ١، ص ٦٠١، راجع تفاصيل ثورة الكنز فى : الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ١١، ص ٤١٤، السلوك المقريزى، جـ ١ ص ٥٧.

العدوان الصليبي(١)

يصور أدب المعارك الصليبية البعد الثالث في شخصية مصر السياسية ولئن بدأت هذه المعارك خارج الحدود المصرية. لكنها سرعان ما انتقلت إليها، وانتقصت من أطرافها باحتلال بيت القدس سنة ٤٩٢هـ الذى أسس فيه الصليبيون مملكتهم الأولى فى أنطاكية سنة ٤٩١ هـ - ١١٩٨م. وكانت القدس فى حمى السلطة المصرية.

ومن خلال تصوير الأدب العربي لهذا الجانب من جوانب الشخصية المصرية تبدو معالمها واضحة في طبيعتها النضالية، وأسلوب مقاومتها، ومفهوم القومية فى الطابع المصرى ودور البيئة الطبيعية كأداة حربية فى أيدى المصريين، ومدى الترابط الاجتماعي فى البيئة المصرية لاسيما أثناء الشدائد والحروب وقوة الاقتصاد المصرى فى تحمل الإنفاق العسكرى الطويل الأمد، وعديد من الملامح والسمات تلوح من خلال تطور المعارك وتصوير الأدب العربي لها .

الطبيعة الحربية

لم يمثل المصريون عنصرا فعالاً فى الجيوش النظامية التى حاربت الصليبيين إذ اعتمد تنظيم الجيش الفاطمى - غالبا- على الجند المرتزقة وارتبط تنظيمه فى العصر الأيوبى بنظام الإقطاع الذى أشرت إليه سلفا(٢) ومن هنا لم يشارك المصريون مشاركة إيجابية فى المعارك التى دارت خارج مصر، وإن ساهم بعضهم فيها كمتطوعين للجهاد. وغالبا ما كانت تسند إليهم أعمال ثانوية فى خدمة الجيش، وهذا ماعكسه الأدب فى نتائج المعارك الصليبية الأولى التى انتقل فيها جيش مصر الى الشام ليدافع عن بيت القدس ويوقف الزحف الصليبى المتقدم إلى مصر. وحاولت القيادة المصرية متمثلة فى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أن تتجنب الحرب وتسلك طريق المفاوضات السلمية، وهيهات أن يستجيب التخطيط الصليبى لهذا الأسلوب العاجز، فلم يجد "الأفضل" بدا من خوض القتال ورجع بفلوله المتقهقرة الى مصر. ويأتى دور الأدباء

---

(١) Croisade La Grand Encypédie, Page 441, p, 13,

(٢) راجع هذا الكتاب ص ٨٤ ، كتاب السلوك للمقريزى ، ص ٢٨١ .

المصريين فى تخفيف الصدمة والاستبشار بالنصر القريب فالمعارك جولات والعود أحمد :

العَودُ أحمدُ والأيّام ضامنةٌ عُقْبَى النجاحِ ووعدُ اللهِ ينتَظرُ
وربّما ساءتِ الأقدارُ ثم جرتْ بما يَسُرُّك ساعاتٌ لها أخرُ(1)

ويفلح الأدب فى شحذ العزائم المصرية بالقدر الذى أعانتها ظروفها الداخلية على ذلك، وتعود إلى ميدان القتال فى جيوش نظامية وتحارب خارج التراب المصرى فتنتصر حينا وتهزم أحيانا كما حدث فى موقعتى قيسارية والرملة سنة ١١٠١م، وموقعتى جبيل وعكا سنة ١١٠٤م وموقعة طرابلس سنة ١١٠٩م وموقعتى بيروت وصيدا سنة ١١١٠م(2).

ويتلمس الأدباء بوادر النصر العسكرى فيجعلون منها ترانيم يستقبلون بها الجيش العائد منتصرا حتى يصابر، ويعد العدة لمعركة فاصلة. فهذا الشاعر "شرف الدولة جبر الإسكندرى" يهنىء الوزير "طلائع بن رزيك" بنصر حققه على الصليبيين :

أطفا ابنُ رُزّيك لهيبَ ضِرامه والبيضُ تخطبُ فى الرُّءوس فتُسمعُ
وكتائبٌ للشِّركِ كنتَ إزاءها متعرِّضاً فانفضَّ ذاك المجمعُ
ولكم صرعتَ من الفرنجِ سُمَيْدعا بلقائه لك قيل : أنتَ سُمَيْدَعُ(3)

ويتهلل وجه الشعر المصرى بمقتل البرنس "أرناط" وحمل هامته على رمح من رماح المسلمين فى إحدى الحملات التى قادتها مصر سنة ٥٥٣ هـ.

قُتِلَ البرنسُ ومن عَسَاه أعانه لمّا عتا فى البَغْىِ والعُدوانِ(4)
وأرى البريّةَ حينَ عادَ برأسهِ مرَّ الجَنى يبدو على المُرّانِ

---

(1) خريدة القصر وجريدة العصر "قسم شعراء المغرب" للعماد الأصفهانى، تحقيق محمد المرزوقى وآخرين، تونس، ١٩٦٦ م.

(2) الجيش المصرى فى العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة، د. عبد الرحمن زكى، ص ٤٦، القاهرة ١٩٧٠.

(3) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢.

(4) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

وتعجبوا مـن زرقـةٍ فـى طرفِـه ... وكأنَّ فوقَ الرُّمحْ نِصـلاً ثانـى(١)

والزحف الصليبى يقترب من مصر ليحتل العريش وتنطلق الشوانى المصرية لتغير على أسطول الفرنج فى غزة والعريش وتحقق بعض الانتصار :

وثَلَّتَ فى يومِ العريـشِ عُروشَـهم ... بشبا ضرابٍ صادقٍ وطعـانِ

ألجأتَهم للبحـرِ لمـا أنْ جـرى ... منه ومن دمِهم معاً بحْـرانِ

ولقدْ أتى الأسطولُ حين غزا بما ... لمْ يأتِ فى حينٍ من الأحيـانِ

أحبِبْ إلىَّ بها شوانى أصبَحتْ ... من فتكِها ولها العداةُ شوانى(٢)

حملة الفرنج على دمياط سنة ٥٦٥ هـ

وحتى ذلك الحين لم تنصهر الشخصية المصرية فى بوتقة القتال لتبين عن خصائصها القتالية، ويتاح لها ذلك من خلال الحملات الصليبية التى نزلت بأرض مصر والتحمت بالقوى الشعبية المصرية التى صالت وجالت وأسفرت عن وجهها الحقيقى. وقد بدأت الحملات بنزول الفرنج على مدينة دمياط سنة ٥٦٥ هـ، واحتكت بالمقاومة المصرية، وكانت مقاومة صلبة، وجاء الفرنج فى عدد كثير، وعدة كثيفة لكنها ارتدت على أعقابها مدحورة :

ولما أتـوا . دمـياطَ كالبحـرِ طامـيا ... وليسَ له منْ كثرةِ القومِ ساحـلُ

يزيدُ عن الإحصـاءِ والعـدِّ جمعُـهم ... ألوفُ ألوفٍ خيلُـهم والرَّواجِـلُ

رأوا دُونهـم أسْدا ، بأيديهـم القـنا ... وبيضٌ رقاقٌ أحكمَتْها الصياقلُ

وداروا بها فـى البحرِ من كلِّ جانـبٍ ... ومنْ دُونِها سدٌّ من الموْتِ حائـلُ

رجا الكلبُ، ملك الرُّوم إذْ ذاك فتحَـها ... فخاف، فـأمُّ الملـكِ والرومِ هابلُ

فعادُوا على الأعقابِ منـها هزيمـةً ... كأنهم – ذلا – نعـامٌ جوافِـلُ(٣)

---

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ص ٢٦٩.

(٣) كتاب الروضتين، جـ ١ ، ص ٤٦١.

ويزف عمارة اليمنى تهانيه لمصر والمصريين بجلاء الصليبيين عن دمياط ويشكر أنعم ربه على هذا النصر، ويشيد بفضل أيوب حكام البلاد :

مَنْ شاكرٌ : واللهُ أعظمُ شاكرٍ ... ما كان من نُعْمى بنى أيوبِ

جلبوا إلى دمياطَ عند حصارِهم ... عزُّ القوىّ وذلَّةَ المغلوبِ

وجلَوْا عن الإسلامِ فيها كربةً ... لو لم يُجْلُوها أتتْ بكروبِ(١)

ويخاطب العماد الأصفهانى صلاح الدين مشيدا بدوره فى رعاية دمياط واصفا ماحلَّ بالفرنج من الحسرة والندم على قدومهم إليها فمطرانها أمطره صلاح الدين وابلامن العذاب، وأسقفها تهدمت على رأسه السقوف، وتكسرت الصلبان ونكست الأعلام :

وحُطْتَ دمياطَ إذْ أحاط بها ... من برُجُوم البلاءِ يقْذُفها

لاقتْ غواةُ الفرنجِ خيبتَها ... فزادَ منْ حسرةٍ تأسُّفُها

فر "فريدٌ" يها" وأزعجَها ... نداءُ "داويـُّها" تلهُفُها

يمطرُ مطرانُها العذابَ كما ... يَرْدَى بهدّ السقوف أسقُفُها

تكسرُ صلبانها وتنكّسُها ... لنصم أصلابِها وتقصِفُها(٢)

حملة الصليبيين على الإسكندرية سنة ٥٦٩ هـ :

وأدرك الصليبيون الخطر الذى يتهددهم فى استقرار شئون مصر الداخلية، فقد ذاقت ويلاتهم والإحن الداخلية تمزقهم، أما وقد لاحت بشائر الاستقرار بدخول الناصر صلاح الدين مصر وتوليه منصب وزارتها، فعادوا إلى مهاجمة مصر من جديد، يختبرون مواقع أخرى غير دمياط التى هزموا فيها من قبل، واختاروا الإسكندرية ميدانا لتجربتهم الجديدة وحاولوا اقتحامها سنة ٥٦٩ هـ وصدتهم المقاومة الشعبية. ثم أفلحوا فى الرسو على البر وأنزلوا عددا

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٦٠ .

(٢) الخريدة، جـ ١، ص ١١، ١٢.

ضخما من الرجال والعتاد، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية ماراعهم ودام القتال يومين، وفى اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب، وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها هذا النصر المؤزر تصنعه أيدى المقاومة المصرية وما أعنفها عندما يغزوها الدخيل، ولما وصل صلاح الدين بعساكره كانت جموع المصريين قد أجهزت على العدو وكفى الله المسلمين شرهم وحاق بالكافرين مكرهم(١).

ويسجل القاضى الفاضل فى إحدى رسائله أنباء هذه الحملة، ويحلل الدوافع التى جعلت مدبرها صاحب صقلية يفكر فيها والنهاية التى آلت إليها حملته، فيقول :

"ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية هذا، وكان حين علم أن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط، فغلبا وهزما وكسرا، وأراد أن يظهر قوته المستقلة بمفردها، وعزمته القائمة بمجردها فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه : فإنه إلى الآن منذ خمس سنين يكثر عدته، ويجتلب مقاتلته إلى أن وصل منها فى السنة الحالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخطب هائل، وما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله، ماهو إقليم بل أقاليم نقله، وجيش مااحتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله ولو ذهبنا نصف ماذهب فيه من ذهب، وما أخذمنه من سلاح وخيل وعدد ومجانيق، ومن أسر منه من خيالة كبار ومقدمين ذوى أقدار وملوك يقاطعون بالجمال التى لها مقدار، وكيف أخذه وهو فى العدد الأكثر بالعدد الأقل من رجالنا، وكيف نصر الله مع الأصعب من قتاله بالأسهل من قتالنا، لعلم أن عناية الله بالإسلام تغنيه عن السلاح، وكفاية الله لهذا الدين تكفيه مؤنة الكفاح(٢).

حملة الصليبيين الثانية على دمياط سنة ٦١٥ هـ :

ويبدو أن الصليبيين لم يتحققوا بعد من طبيعة القتال المصرية، وفى الوقت نفسه أدركوا جيدا خطر وثبة مصر الداخلية ، ومايمكن أن تؤثره فى مجرى الأحداث السياسية والعسكرية

---

(١) الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير، جـ ١١ ، ص ١١ ، ٢١٤.

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جمال الدين بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال جـ ٣، ص ٢٩٦

فاستماتوا فى الوصول إليها وتحطيمها قبل أن تقضى عليهم مهما كان الثمن غاليا وقد ذاقوا مرارة الهزيمة التى حلت بهم بعد نكبتهم فى "حطين" وماتلاها من انتصارات إسلامية متلاحقة. فجاءوا إلى دمياط من جديد سنة ٦١٥ هـ يدفعهم الثأر القديم ويغريهم الجمع الحاشد من الرجال والعدة وحاصروا دمياط وضيقوا الحصار ومنعوا الأقوات وهنا تجلت الروح المصرية فى نضالها. لقد قاومت دمياط مقاومة عنيفة ولم تمكن الصليبيين من دخولها برغم حصارها الشديد، وكانت تبعث بنداءاتها الفتية إلى حكام مصر وكان على رأسها الملك الكامل الأيوبى تحثه النجدة والأخذ بالثأر، وتحمله المسئولية الكاملة فى حماية الإسلام الذى لايقبل له عذرا فى الإهمال أو التقصير :

يامَالِكى دُمْيـاطَ ثَغْـرَ هُدِّمـت	شُرُفاتُه كادتْ تجثُّ أصـولُه
وسؤالُه فى أن تجيـبَ دعـاءه	دينُ الإلهِ وخلـقُـه ورسولُـه
فالعُذر فى نصـرِ الإلـهِ ودينـه	ماسـاغ عندَ المسلمـين قبولُه
والثـغْر ناظـرُه إلـيك محـدِّقٌ	ما إنْ يملُّ من الدُّموعِ همولُه
ولئن قعـدتَ عنْ القـيامِ بنصـرِه	جفَّتْ نضارتُـه وبـانَ ذبـولُه
ووهتْ قوى القرآنِ فيه ورفعـتْ	صلبانُـه وتُلِى بـه إنجـيلُه
وعلا صدى الناقوسِ فى أرجائِه	وخفى على سمعِ الورى تهليلُه
هذا وحقِّك وصفُ صورةِ حـالِه	حقاً وجملَتُه وذا تفصيـلُه(١)

ويعود الملك الكامل إلى المقاومة الشعبية يلبى بها استصراخ المقاومين من داخل الحصار ويأمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد(٢). والعدو مازال يشدد حصاره حتى أنهك قوة المعتصمين فتسلق سورها واحتلها فى شعبان سنة ٦١٦ هـ ووضع السيف فى من بقى من المسلمين وندب السلطان الناس وفرقهم فى الأرض فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون المسلمين

---

(١) السلوك للمقريزى، جـ ١، ص ١٩٩.

(٢) المرجع السابق جـ ١، ص ٢٠٠.

لإنقاذ مصر من أيدى الفرنج. وقد عقد الفرنج العزم على المضى لاحتلال القاهرة ومصر، وتشتد الأزمة فالمدد الصليبى يتوافد وكأن الصليبيين صمموا فى هذه المرة أن يقتصوا لأنفسهم وينهكوا مصدر القوة الإسلامية الكامن فى مصر ولاسيما وقد بدأ الهجوم التترى يتوغل فى بلاد المسلمين فى المشرق، فبينما الصليبيون يضيقون الحصار على دمياط سنة ٦١٧ هـ استولى التتار على سمر قند وملكوا الرى وهمزان وقزوين وفرغانة وخوارزم وخراسان ومرو ونيسابور وهراة وغزنة(١).

ويثور الشاعر "ابن النبيه المصرى" ويصب غضبه على ملوك الإسلام ويتهمهم بالتخاذل فى نجدة المقاومة المصرية الباسلة التى تجرعت مرارة الجلد والصمود فى حرب الصليبيين :

يامـلـوكَ الإسـلامِ عنهـم قعدتُـم ... كقعـــودِ الكــفّارِ فى يوم بدرِ

وجيوشُ الفرنجِ فـى ثغـرِ دميـا ... طَ يساقونهـم بكأسِ مُـرِّ(٢)

وينقضى عامان والحصار مستمر والإمدادات تتواصل ويحتشد العامة من الشعب المصرى والملك الكامل يستنجد بإخوته، والأمراء الأيوبيون من بلاد الشام يتوافدون عليهم وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر(٣).

وتبرز هذه الأزمة العنيفة أهمية الموقع المصرى ودور بيئتها الجغرافية فى تشكيل الحياة السياسية ومن بينها المعارك وطبيعة المصرى فى مقاومته وعناده من خلال المفاوضات التى دارت بين ملوك بنى أيوب والفرنج إذ رضى الأمراء الأيوبيون أن يتخلوا عن جميع ما أخذه صلاح الدين بسيفه من بلاد الساحل ماخلا الكرك والشوبك للصليبيين فى مقابل خروجهم من مصر(٤). إدراكًا من الأيوبين بالخطر الذى سوف يحيط بهم جميعا لو تم للصليبيين ملك مصر، ولهذا الأمر نفسه رفض الصليبيون ذلك العرض وبدا لهم ملك مصر أمرا يسيرا.

---

(١) السلوك للمقريزى، جـ ١، ص ٢٠٥.
(٢) ديوان ابن النبيه المصرى . تحقيق عمر محمد الأسعد، ص ٣٣٥، الطبعة الأولى دمشق، دار الفكر ١٩٦٨م.
(٣) راجع تفاصيل هذه الحملة فى كتاب مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك د. سعيد عبد الفتاح عاشور بيروت ١٩٧٢، ص ١١٢ ومابعدها.
(٤) الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ـ ١٢، ص ٣٢٨، ط بيروت ١٩٦٦ م.

ويقاتل الشعب المصرى ويظل مثابرا أكثر من ثلاثة أعوام فى معارك الاستنزاف ولاييأس من النصر، ويرسل الله جنوده طوفانا مع تدفق فيضان النيل. حينما تعبر جماعة من المسلمين بحر المحلة إلى الأرض التى عليها معسكر الفرنج ويفتحون مكان عظيما فى النيل فلم يشعر الفرنج إلا والأرض تسيخ من حولهم وحوصروا بين أرض أصابها الغرق وجموع حاشدة من المسلمين تعاورت نبالهم جنود الصليبيين فآثروا الفرار دون طمع فى شبر من مصر أو الشام. وراح الشعر يتغنى بهذا النصر "فشرف الدين بن عنين" يبعث بهذه التهنئة :

سلُوا صهواتِ الخيلِ يومَ الوَغى عنَّا — إذا جُهلتْ آياتُنا والقَنا اللدْنا

غداةَ التقينا دونَ دمياط جحْفلاً — من الرُّوم لايُحْصَى يقيناً ولا ظنَّا

قدْ اجتمعُوا رأياً وديناً وهمَّةً — وعزماً وإنْ كانُوا قدْ اخْتَلفُوا سنَّا

تداعُوا بأنصارِ الصليبِ وأقبلتْ — جموعٌ كأنَّ الموجَ كانَ لهُم سفْنا

وأطمعهم فينا غرورٌ فأرقلوا — إلينا سراعا بالجْهاد وأرقلنا

سقيناهم كأسا نفتْ عنهُم الكرى — وكيف ينامُ اللّيلَ مَنْ عُدِمَ الأمنا

سرَى نحوَ دمياط بكلِ سَمَيدعٍ — إمامٌ يرى حُسْنَ الثَّنا المغنم الأسنى(١)

ويحس « ابن النبيه المصرى » بحلاوة النصر وكان بالأمس غاضبا ساخطا منكرا تقاعس ملوك الإسلام . ولكنه عاد يترنم بلذة الانتصار :

يايَومَ دمياط ما أبقيتَ من شرفٍ — لمن تقدَّم إلا أنتَ هادِمُهُ

عذراءَ نادتْ على بعدٍ فأنقذها — ملكٌ غيورٌ مصُونَاتٌ كرائمُهُ

ودونَ دمياطِ بحرٌ حالَ بينهما — من الظبى ليس ينجو منه عائمُه

صاحوا الأمانَ فلاسيفٌ نضْته يد — منهم ولاحملتْ طرفا قوائمُه

ذلوا لملكٍ أعزُّ اللهُ صاحبَه — موسى سليمانُه والسيفُ خاتمُه

---

(١) السلوك للمقريزى ، جـ ١ ، ٢١١ .

وسلّموهـــا وردّوا أهلَـها ومضـــوا والثغر من فـــرحٍ يفترّ باسمـــه

كأنّهم أبصرُوا ما قدْ مضَـــى زمنا كمـــا يرى مزعَج الأحلامِ نائـمُه

طَهُرتْ محرابُها العالـــي ومنبـرها من رجسِهم بعدَما ارتجّتْ قوائمُه

وقمتَ تكـسُّر تمـــثال المسيحِ بـــه بالرُّغـــمِ من هو باللاهـوت لائمُه

أشبـهت جدَّك إبراهيـــمَ واتَّفقتْ على عزائمِك العليا عزائمـــه(١)

حملة الصليبيين الثالثة على دمياط سنة ٦٤٧ هـ : (*)

وبالرغم مما حل بالصليبيين من هزائم متكررة فى دمياط فما زال أملهم يتجدد لأن الصيد سمين والغاية شديدة الحساسية. فما هى إلا سنوات قليلة مضت على هزيمتهم فى دمياط سنة ٦١٨ هـ حتى عادوا إليها من جديد للمرة الثالثة سنة ٦٤٧ هـ بجموع عظيمة يقودها لويس التاسع ملك فرنسا فقد انضم إليهم فرنج الساحل كله وبعث ملك الفرنج إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب كتابا يتهدده فيه ويطلب إليه التسليم ويقول فيه :

"أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأثر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار. وقد أبديت لك مافيه الكفاية، بذلت النصح الى النهاية، فلو حلفت لى بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمعة طاعة للصلبان ماردنى ذلك عن الوصول إليك وقتالك فى أعز البقاع عليك. فإن كانت البلاد لى فيا هدية حصلت فى يدى، وان كانت البلاد لك والغلبة على، بيدك العليا ممتدة الى. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء.

فلما وصل الكتاب إلى السلطان كان رده :

(*) انظر تفاصيل هذه الحملة وآثارها فى الأدب، أدب الحروب الصليبية.
د. عبد اللطيف حمزة، ص ١٤٨ وما بعدها القاهرة ١٩٤٩.

(١) ديوان "ابن النبيه المصرى" ص ٤٥٦ .

"أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن إلا جددناه ولابغى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تذل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك. فهنالك تسىء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون". فإذا قرأت كتابى هذا، فكن فيه على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه"، وكن على آخر سورة « ص » ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين :"كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين". وإلى قول الحكماء : إن الباغى له مصرع. وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام منى إليك(١).

ونزلت الفرنج فى البر الغربى لدمياط وكان بها الجيش النظامى فناوش الأعداء يوما ثم ترك الميدان واتجه الى البر الشرقى وفيه مدينة دمياط، ولما شاهد الناس فرار العسكر تركوها واتجهوا صوب بلدان الدلتا فدخل الأعداء دمياط سالمين، وقد فزع شعبها وهاج على وجهه مغادرا أرضه ودياره. وكان بدمياط مجموعة من الفرسان هربت مع الهاربين فأعدمهم السلطان جزاءً وفاقا لما اقترفوه فى حق المواطنين، وكان قد استفتى فى شأنهم العلماء فأفتوا بقتلهم. وتقدم السلطان بعسكره نحو المنصورة وتوافدت عليه جموع المجاهدين من عوام الناس وبدأ الشعب المصرى يمارس تجربة حرب الاستنزاف فوق أرضه مستخدما كل وسائل البيئة الطبيعية (*) فى قتاله(٢).

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب طمعت الفرنج فى التقدم لاحتلال البلاد ولكن أزقة المنصورة كانت مقبرة عظيمة لهم، فقد حاربهم المصريون جيشا وشعبا من حارة إلى حارة ومن دار إلى دار. والتجأ الملك "ريدا فرنس" - وعدة من أكابر قومه - إلى تل المنية وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى، ونزلوا على أمانه وأخذوا إلى المنصورة، فقيد

---

(١) ، (٢) كتاب السلوك للمقريزى، جـ ١ ، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٦ .

* استخدم المصريون حيلهم الفكهة فى المعارك، فكان أحدهم ينزل إلى النيل وقد أخفى رأسه فى بطيخه وأخذ يسبح، فظنه أحد الأعداء بطيخة حقيقية واقترب منها ليأخذها، فاقتنصه المصرى ورجع به إلى عسكر المسلمين.

(٣) كتاب السلوك للمقريزى، جـ ١ ، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٦ .

الملك بقيد من حديد، واعتقل فى دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان - كاتب ديوان الإنشاء - ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى[٣]. ثم أفرج عن الأسرى بعد دفعهم الدية ورحلوا عن مصر يودعهم الصاحب جمال الدين بن مطروح بقوله :

قـل للفرنسيسَ إذا جئتـَـه	مقـالَ نُصْح من قـؤولٍ فَصيحْ
آجـَرك اللـهُ علـى ماجـرى	مـن قتلِ عُباد يسـوعِ المسيحْ
أتيتَ مصـراً تبتغى مُلكـها	تحسبُ أنَّ الزَّمرَ ياطبلُ ريحْ
فساقـَك الحينُ إلـى أدهـمٍ	ضـاقَ بِه عن ناظرَيك الفسيحْ
وكـلُّ أصحابِـك أوْدَعْتَهـم	بحسـنِ تدبيرِك بطنَ الضَّريحْ
سبعونَ ألـفاً لايُرى منهـم	إلا قتـيلٌ أو أسـيرٌ جريحْ
ألهـَمك اللـهُ إلـى مثلـها	لعلَّ عيسى منْكُم يستَريحْ
إنْ لَمْ يكُن البـابُ بـذا راضـياً	فـربُ غش قَدْ أتَى من نصـيحْ
فاتخـذوه كاهـناً إنـَّه	أنصحُ منْ شقٍ لكمْ أوْ سطيحْ
وقـلْ لهُـم إنْ أزْمعَـوا عـودةً	لأخـذِ ثارٍ أو لفـعلٍ قبيحْ
دارُ ابـن لقـمانَ علـى حالِهـا	والقيدُ باقٍ والطواشى صَبيحْ[١]

وقد بعث توران شاه رسالة من مصر إلى الأمير جمال الدين بن يغمو يصور هذه الحملة ويبشر بنصر المسلمين قائلا :

"الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها". نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة، بما مَنَّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين . فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا : لاتيأسوا من روح الله. ولما كان يوم الإثنين مستهل السنة المباركة تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا

---

(١) كتاب السلوك ، للمقريزى ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء ترك الأعداء خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين. ومازال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل وحل بهم الخزى والويل. وقتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى بنفسه فى اللجج وأما الأسرى فحدث عن البحر ولاحرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان، فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته"(١).

واتفق أن الفرنسيس بعد خلاصه من أيدى المصريين عزم على الرحيل إلى تونس فهدده أحمد بن إسماعيل الزيات قائلا :

يافرنسيسُ هذه أختُ مصرَ ... فتأهبْ لما إليه تصيرُ

لكَ فيها دارُ ابنِ لقمانَ قبراً ... وطواشيك منكر ونكيرُ(٢)

التبعات الاقتصادية والدينية :

عبرت الشخصية المصرية عن بعض خصائصها من خلال المعارك الصليبية فى ظاهرة التماسك الاقتصادى الذى ينبع من سمتين : أولاهما ثراء البيئة الطبيعية، وثانيهما تلاحم الشعب وترابط الجبهة الداخلية. وقد تمكنت بهاتين الطاقتين أن تقف درعا تكسرت عليه أمواج الحملات الصليبية لا فى مصر فحسب بل وفى الشام أيضا، فطالما أمدته مصر بالمال وأنواع الثياب المصرية والجياد العربية(٣). وناشدته أن يحذو حذوها فى قتال الأعداء. "فالصالح طلائع بن رزيك" يحث "أسامة بن منقذ" على الجهاد ويقول :

تأمَّلْ فكم شرطٍ شرطتُ عليهم ... قديماً، وكمْ غدرٍ به نُقِضَ الشَّرطُ

---

(١) ، (٢) كتاب السلوك ، للمقريزى ، جـ ١ ، ص ٤٥٦ ، ٣٥٧، ٣٦٥.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٤) كتاب الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٠٢ .

وشمّر فإنّا قدْ أعنّا بكلِ مــــا   سألتَ، وجَهّزْنا الجيوشَ ولم يبطوا(١)

وكما قدمت مصر معونتها الاقتصادية لجيوش نور الدين، فإن المعركة الفاصلة التى قادها صلاح الدين فى حطين تحملت مصر أعباءها بتقديم العتاد والمؤونة وكانت جيوش صلاح الدين تهاجم من الشام لقربها وتأتيها الميرة من بلد النيل الخصيب.

يصور العماد الأصفهانى تتابع المدد المصرى بقوله :

"جاءت كالفتح بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا وأفواج تزاحم أفواجا تدب على البحر عقاربها وتجف كقطع الليل سحائبها والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها وضرغام غايتها وهمامها فطفق يكسر ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه (٢).

ويقول المقريزى : "خرج لؤلؤ على الأسطول من مصر والتقى مع السلطان على القريتين وعاد إلى الكرك فنازلاها، وضايق (السلطان) أهلها ثم رحل عنها ونازل طبرية، فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفا بأرض عكا، رفعوا صليب الصلبوت. فافتتح السلطان، (طبرية) عنوة وغاظ ذلك الفرنج وتجمعوا، فسار إليهم السلطان، وكانت موقعة حطين التى نصر الله فيها دينه، وانهزم الفرنج بعد عدة وقائع وأخذ المسلمون صليب الصلبوت، وأسروا صاحب الكرك والشوبك، وعدة ملوك أخرين، وقتل وأسر من سائر الفرنج مالا يعد كثرة (٣)

وراح الشاعر المصرى "محمد بن أسعد النشابة" يعبر عن فرحة مصر بهذا النصر :

أتُرى مناماً ما بِعيـنى أبْصِـرُ   القدسُ يُفْتَــحُ والفرنجــةُ تُكْســرُ

وقمامةٌ قُمّتْ مَن الرجسِ الـذى   بزوالِــهِ وزوالُــــها يتطــيّرُ

ومليكُهم فى القَيدِ مصفـودٌ ولـم   يَر قبــلَ ذاك لهـم مليـكٌ يؤســرُ

قدْ جاءَ نصرُ اللهِ والفـتحُ الـذى   وَعدَ الرسولُ فسبّحوا و استـغفروا

---

(١) كتاب الروضتين جـ ١ ص ٣٠٣ .

(٢) أدب الدول المتتابعة من عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك. د. عمر موسى باشا، لبنان، ١٩٦٧ .

(٣) كتاب السلوك المقريزى، جـ ١ ، ص ٩٣.

فَتَح الشأم وطهَّر القدسَ الذى هو فى القيامةِ للأنام المحشرُ

من كان هذا فتحُه لمحمدٍ ماذا يقالُ له وماذا يُذكرُ ؟ (١)

وقد تحملت مصر تبعات الذود عن المقدسات الإسلامية لا فى مصر وحدها ولا فى القدس بل وفى مكة والمدينة ، فقد أدى فشل الصليبيين إلى استفزازهم شعور المسلمين فنزلوا بقطع من أسطولهم على الشواطىء الحجازية سنة ٥٧٨ هـ، وركبوا جادين السير إلى بلوغ مدينة الرسول (ص) (٢) ولم يكن بينهم وبينها سوى مسيرة يوم واحد حتى لحقت بهم قوة مصرية يقودها الحاجب لؤلؤ، الذى ركب السبيلين براً وبحراً، وامتطى السابقين مركبا وظهرا، وخطا فأوسع الخطو، وغزا فأنجح الغزو، وحبذا العنان الذى فى هذه الغزوة أطلق، والمال الذى فى هذه الكرة أنفق.

وهؤلاء الأسارى، فقد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، ولو جرى فى ذلك سبب – والعياذ بالله – لضاقت الأعذار الى الله والخلق وانطلقت بالمذبة فى الغرب والشرق(٣).

---

(١) كتاب الروضتين، لأبى شامة ج ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) راجع تفاصيل هذه الواقعة فى كتاب "السلوك" للمقريزى ، جـ ١ ، ص ٧٨.

(٣) مفرج الكروب، فى أخبار بنى أيوب، جـ ٣ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣.

الفصل الثالث

مشاهد البيئة الاجتماعية

الشخصية قوة معنوية تتجسد فى عمليات التفاعل التى تتم فى وسط اجتماعى، متخذة صورة علاقة أو مظهر من المظاهر الاجتماعية المختلفة. وتستمد هذه المظاهر كيانها من عنصرين هامين هما :

١- التراث المادى والنفسى والاجتماعى.

٢- ماتضفيه أحداث العصر من آثار فى النواحى السياسية والاقتصادية والعمرانية والتقاليد والعادات وغيرها مما يشكل ملامح البيئة فى مختلف نواحيها.

والأدب الاجتماعى يعبر عن الواقع من خلال المشاهد الكائنة فى عصره أو ماينبغى أن يكون، وفى الوقت نفسه يكشف - من خلال ذلك عن الصفات النفسية الكامنة وراء السلوك الجماعى من مظاهر أو علاقات، لأن السلوك الإنسانى لم يكن بمعزل يوما ما عن الدوافع المثيرة والمحركة له من مفاهيم وقيم وأحاسيس.

ومهما يكن من تسلط النزعة الفردية فى سلوكها فإنها تنشأ فى وسط اجتماعى يطبعها بطابعه، وما كان لها أن تحيا لو لم يحتضنها ذلك المجتمع، فهو الذى يربيها وينميها ويعطيها الصبغة الشرعية للحياة فيه.

وقد يختلف الأفراد بل والطوائف الاجتماعية فى إطار المجتمع الواحد اختلافا سلوكيا يعبر عن نزعاتها المتعددة وأمزجتها المتباينة، وقد تتناقض فيما بينها تناقضا شديدا ولكنها فى مجموعها عنوان لمؤثرات عصر من العصور، وصفة لشخصية مجتمع من المجتمعات وقد تكون جميعها صادقة فى اتجاهاتها صدقا يعبر عن اختلاف التأثير الذى تحدثه عوامل البيئة وأحداث العصر على فريق من الناس دون فريق آخر. وسنرى مصداقا لهذه الحقيقة من خلال دراستنا لأبعاد الشخصية الاجتماعية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى، فبينما يغرق فريق من

الناس فى العبادة والزهد والتصوف يغرق فريق آخر فى الملذات والتهالك على المتع والشهوات، وكلا الاتجاهين نتاج طبيعى لأحوال الناس فى تلك المرحلة.

وسأطوف فى هذا الجانب من الكتاب بعدة مشاهد من البيئة الاجتماعية من خلال تصوير الأدبين الفاطمى والأيوبى، لنتعرف على الجوانب التالية من جوانب الشخصية المصرية :

١- تكوين المجتمع المصرى (عناصره البشرية، وطوائفه الدينية).

٢- العلاقات الأسرية

٣- مظاهر الحياة العامة.

٤- الأعياد الوطنية والدينية.

٥- مظاهر اللهو والمجون.

٦- مظاهر الزهد والتصوف.

تكوين المجتمع المصرى

العناصر البشرية :

أشرت فيما سبق الى الحقيقة القائلة بأن البيئة المصرية بيئة جذب لاطرد وبيئة هضم وائتلاف لا بيئة تفرقة واختلاف، واستعرضت طوائف من العناصر البشرية التى حلت بالساحة المصرية منذ قديم الزمان، كما أشرت إلى انطباعات الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين - حول هذه الظاهرة الاجتماعية - من أمثال ابن بطوطة، وابن جبير، وناصر خسرو، وابن فضل الله العمرى، وأبو الصلت أمية الأندلسى، ومن خلال النصوص الأدبية لهذه الفترة يمكننا التعرف على العناصر التالية :

القبط :

مع بداية الحكم الفاطمى أخذت طائفة الأقباط فى مصر مكانة اجتماعية متميزة عما كانت عليه من قبل، فإذا كان بعض الأقباط فى القرن الأول الهجرى حاول أن يلحق نفسه بنسب عربى حتى يتخلص من مظاهر الاضطهاد أو الانتقاص الاجتماعى، كما شهدت بذلك، (قصة الحرس) السالفة الذكر(١). فإن الأقباط – فى ظل الحكم الفاطمى والأيوبى – قد وصلوا إلى مناصب فى الحكم وشاركوا فى إدارة شئون البلاد المصرية : ففى عهد العزيز بالله الفاطمى زاد بلاط الخليفة فى إكرام النصارى، لانه كان للعزيز أصهار مسيحيون منهم "أرستس" خال السيدة ابنة العزيز بالله، وقد عين "بطريكا" على بيت المقدس، كما عين أخوه "أرمانيوس" مطرانا على القاهرة ومصر، وكان لهما تقدير ومودة عند العزيز جعلت بعض الشعراء يعرض بهذه الحالة فيقول :

تنصَّرْ، فالتَّنصُّرُ دينُ حقٍ   عليه زمانُنا هذا يدلُّ

وقلْ بثلاثةٍ عزُّوا وجلُّوا   وعطلْ ماسواهم فهو عطلُ

فيعقوبُ الوزيرُ أبٌ ، وهذا العزيزُ ابنٌ ، وروحُ القدسِ فضلُ(٢)

ولا أدل على تمتع طائفة الأقباط بحريتهم الكاملة من اعتناق بعضهم الإسلام فى ظل المكانة الاجتماعية الممتازة التى عاشوا فيها خلال القرن السادس الهجرى. "فالخطير بن مماتى" – وهو من أسرة عريقة من أقباط أسيوط شاركت فى إدارة الحكم فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى، وكانت تتمتع بمكانة عالية – يعلن دخوله الإسلام سنة ٥٧٦ هـ. ويهنئه الشاعر (ابن الذباغ) بهذه المناسبة.

فَقُلْ لعواذلى مَهْلاً فقلبى   له شُغْلٌ به عن كلِّ شُغْلِ

وقُلْ للدهر دعْك من امتهانى   فبالشيخِ الخطيرِ علقْتُ حبلى

فللإسلام منه محلُّ فخرٍ   يزينُ من مفاخره بأهلِ(٣)

---

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٢٣

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جـ ١ ، آدم متز (مترجم)، ص ٩٥.

(٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨.

ولم يجد أحد شعراء ذلك العصر عيبا فى انقطاعه لمديح بعض النصارى الذين كان لهم نصيب من السلطة والحكم، كما فعل الشاعر أبو طاهر إسماعيل المعروف (بابن مكنسة) حين خص بمدائحه (أبامليح) وكان أحد عمال الوزير الفاطمى بدر الجمالى وعندما مات أبو مليح رثاه (ابن منكسة) بقوله :

طُوِيَتْ سماءُ المكرمـــاتِ وكُوِّرتْ شمـــسُ المديـــحِ

ماذا أرجّى فــى حيــا تى بعدَ مــوتِ أبى مليـــحِ

ماكانَ بالنُّكسِ الدنـــى ـــن الرّجالِ ولا الشّحيحِ(١)

حقا لقد طالب حكام المسلمين أن يرتدى النصارى مايميزهم من الزى كربط الزنانير على خصورهم، وتعليق الصلبان على صدورهم، ومع ذلك لم يلتزم أقباط مصر بذلك دائما ومهما يكن من أمر فقد استوحى (ابن النبيه) خصائص هذا الزى وبعض شعائر النصارى فى تصويره الكأس التى يهيم بها :

إذا دقَّ ناقوسُـها بالبـــزالِ وشـدَّتْ على الخصرِ زنّارَهـا

عبدتُ الصليـــبَ لراووقـــها ووافقتُ فى القولِ خمّارَها(٢)

ومادام للأقباط فى مصر الفاطمية والأيوبية حرية فى شتى مظاهر الحياة وأنشطتها فلاريب أن يتغزل الشاعر الخطير فى غلام قبطى :

يظلمنى العاذلون فى رشـا إنْ قيل كالشمس كانَ مظلوما

مُذْ حلَّ رسمُ الصليب فى يدِه حلَّ بقلبى هَواهُ مرسومـــا(٣)

الغــرب :

اختلفت مظاهر العصبية العربية فى مصر اختلافا واضحا عما كانت عليه فى الأقطار الأخرى ومن المعروف أن هذه العصبية بلغت أوج حدتها فى العصر العباسى الثانى وتجلت أكثر

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٥ .
(٢) ديوان ابن النبيه المصرى، تحقيق عمر محمد الأسعد ص ٣٥٢ .
(٣) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١١٥.

ماتجلت على ألسنة الشعراء بالمشرق وفى أقلام الكتاب بالمغرب.

يقول أستاذنا الدكتور (محمد نبيه حجاب) : ففى بلاد الأندلس كانت رسائل ابن غرسية، ومن تصدى للرد عليه صفحة أليمة من هذا الصراع العنيف الذى دار بين العرب والعجم، وفى المشرق كان الشعراء الأعاجم يرسلونها صيحة مدوية تقرع الآذان وتتيه فخرا بالأصول والفروع فقد كان منهم من يسمو بقومه على البشر ويزاحم بهم النجوم(١).

أما فى مصر فقد أخذت شكلا آخر منذ بداية الحكم الفاطمى تتميز بالهدوء وعدم الحدة وكان من الممكن أن تأخذ الطابع العنيف، لكن الفاطميين لم يرغبوا فى إثارتها عصبية عربية حتى لايحدوا من شرعية حكمهم ويقصروها على الجنس العربى فحسب، فقد نسب الفاطميون أنفسهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص)، وأرادوا أن يسبغوا على حكمهم طابعا عالمياً لاقوميا، طابعا إسلاميا لاعربيا، حتى لايثيروا بذلك عداء غير العرب من المسلمين.

وربما كانت نزعة التسامح العامة فى مصر الفاطمية سببا من الأسباب التى دفعت حكام مصر الفاطمية إلى عدم إثارة النعرة العربية كما أثارها غيرهم فى أقطار إسلامية أخرى(٢).

ومن هنا أخذت الطائفة العربية تعبر عن وجودها فى مصر من خلال مظهرين فى الأدب هما :

الأول : مدح الخلفاء الفاطميين بنسبهم العربى متمثلا فى فاطمة الزهراء ومن خلال هذا المدح يبثون ماشاء الله من المبادىء الشيعية. كما ذهب إلى ذلك عمارة اليمنى فى مديحه الخليفة العاضد حين جعل من طاعته والولاء له دينا مفروضا على كل مسلم :

ولاؤك دينٌ فـى الرِّقـابِ ودَيـنٌ	وودُّك حصنٌ فى المعادِ حصينٌ
وحـبُّك مفروضٌ على كلِّ مسلمٍ	يقولُ بحبِّ المصْطَفَى ويَدِينُ(٣)

وكما فعل تميم بن المعز لدين الله الفاطمى حين مدح الخليفة العزيز بالله بنسبه إلى

(١) مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى، د. محمد نبيه حجاب، ص ١٢.

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، آدم متز (مترجم).

(٣) ديوان عمارة اليمنى، ص ٣٦٢ .

"مضر" جد الرسول الأعلى، وخلع عليه من صفات الحاكم فى نظر الشيعة العديد من الصفات، فالممدوح ليس كغيره من الملوك لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هى روح قدسية حلت فى جسم كثيف ترابى، وإن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل الذى سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والإسماعيلية - وبما أن العقل هو أول ماخلق الله فهو سابق لخلق الهيولى، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله إليه سبحانه فكذلك الإمام الذى هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة، وهو الذى يتصل بالله تعالى، لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى وأن الإمام آية الله من نسل محمد.

ما أنْتَ دونَ ملوكِ العالمينَ سوىً	روحٌ من القدسِ فى جسمٍ من البشرِ
نورٌ لطيفٌ تناهى فيكَ جوهرُه	تناهياً جازَ حَدَ الشَّمسِ والقمرِ
معنًى من العلَّةِ الأولى التى سبقتْ	خَلْقَ الهيولى وبسطَ الأرضِ والمدرِ
فأنْتَ باللهِ دونَ الخلقِ متصلٌ	وأنتَ للهِ فيهِمْ خيرُ مؤتمرِ
وأنْتَ آيتهُ منْ نسلِ مرسلِه	وأنت خيرتُه الغراءُ من مضرِ(١)

وهكذا يستمر الأمير فى استغلال العقائد الإسماعيلية فى مدح شقيقه العزيز بالله بحيث لانستطيع فهم أشعاره دون التوسل إلى ذلك بتطبيق المثل والمثول ويقول :

فَيَابْنَ الوصىِّ ويابْنَ البتولِ	ويابْن نبىِّ الهُدى المصطفى
ويابْنَ المشاعرِ والمرْوَتينِ	ويابنَ الحطيمِ ويابن الصَّفا

فهو يصف الإمام بمعان باطنية، فمناسك الحج فى التأويل الباطنى هى محمد (ص) وبما أن الوصى والأئمة يقومون مقام النبى بعد موته فهم يوصفون بصفاته(٢).

الثانى : الغزل بوصف مفاتن المرأة العربية، وقد اتخذ هذا الغزل مظاهر مختلفة فظافر الحداد يستجير بقومه من فتنة العيون العربية فهى وإن بدت ضعيفة لكنها فتاكة تحمل الموت

---

(١) ديوان تميم ، ص ٢٢٤.
(٢) فى أدب مصر الفاطمية ، د. محمد كامل حسين ، ١٧٨.

الموت الزؤام بين هدبيها :

هــي أســباب وتُدْعـى حـدقاً | يالقـومي من عُـيون العـربْ
فاتّــق الأضْعَــفَ منهــا فلـقدْ | نقضــتْ عاداتــها في الحسـبْ
واحْــذر الأضْــعف من أجْفـانها | فالمنــايا بَين تـلك الهُــدبْ (١)

وعندما تفتنه امرأة قبطية بجمالها يرى أن هذا ظلم من الهوى فكيف تأسر القبطية وهى فى نظره العنصر الأقل فى المجتمع – قلوب العرب، وينعى باللائمة على الهوى :

أمَا والهَوى لوْ أنَّ أحكــامَه قسْــطُ | لما اجْـتَرأتْ أنْ تمْـلكَ العربَ القبطُ (٢)

الأرمـــن :

فى عام ١٠٧٤م تولى بدر الجمـالى عدة مناصب هامة فى مصر، فقد عينه الخليفة المستنصـر الفـاطمى قائدا عامـا للجند، ووزير السيف والقلم، ورئيس القضـاة وداعى الدعـاة واستعان به فى استقرار الأمن واستتباب النظام الذى اختل فى مصر بسبب الأزمة الاقتصادية المعروفة. فاستخدم الوزير كل وسائل العنف، ونجح فى إخضـاع السودان والعرب. وفتك بكثير من الأتراك وكان هذا الوزير من أصل أرمنى (٣) وطبيعى أن يستعين بجنود من بنى جنسه، وأن تتكون جـاليات أرمنية بمصر، أشـار إليها القـاضى الفـاضل فى إحدى رسـائله إلى الخليفة العباسى مصورا حالة البلاد المصرية عند استيلاء الأيوبيين عليها.

"وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية كانت لهم شوكة وشكة وحـمـية وحمـة، ولهم حواش لقصرهم من بين داع تلطف فى الضـلال مداخله، وتصـيب العقول مـخاتله، ومن بين كتاب أقلامـهم تفعل أفعال الأسل، وخدام يجمعون إلى سواد الوجه سواد النحل (٤) .

---

(١) ظافر الحداد ، د حسين نصار ، ص ١٤٢ .
(٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٠ .
(٣) سيرة القاهرة ، (مترجم) ، ص ١٤٢
(٤) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٣ ص ٢٩٢

ولعل واحدة من هذه الطائفة تلك المرأة التى حدثنا عنها البهاء زهير ولم يفهم من كلامها شيئا، ويبدو أنها كانت تجاوره فى نزل أو أنها كانت ربة هذا النزل . ولكنه لم يستعذب لغتها ولم يفهمها، وراح ينعى لغته العربية :

تُكلمُنى بالأرمنيـــةِ جــــارتى	أيا جَارَتِى، ما الأرمنيةُ مِنْ طبْعِــى
وياجــــارتى لمْ آتِ بيتَــك رغــبةً	ولا أنتِ مــنْ يُرجَــى لضــرٍ ولانفْـــعِ
دعانِى إليك اللّيلُ والأيْنُ والسُّــرَى	فصادفتُ أمراً ضاق من حمله وسْعِي
كلامُك والــدولابُ والطبْلُ والرَّحَـــى	فلمْ أدرِ مــا أشْـكُوه منْ ذَلكِ الجـمْعِ
كلامُــك فـــيه وحــدُه لى كفايــةٌ	كأنَّ صخــوراً منه تقـذِفُ فى ســمْعي
لك اللّـــهُ ما لاقــيتِ ياعــــربيتى	وماذا الذى عوِّضتِ بالبـانِ والجــزعِ
ســأدعُو على الجـردِ الجيادِ، لأنَّهـا	سرتْ فأتتْ بى وادياغيرَ ذِى زرعِ (١) .

التـــرك :

أعانت أوضاع السياسة الداخلية فى مصر أواخر الحكم الفاطمى وقيام الحروب الصليبية العنصر التركى فى احتلال الصدارة بين العناصر الجنسية فى المجتمع. وكانت الانتصارات الحربية التى أحرزها هذا العنصر ضد الصليبيين مسرحا للأدباء، "فابن المجاور" يصف الترك بأنهم جنود الله لا يخشون المكاره، يقدمون على الموت بشجاعة، لاينظرون إليه من طرف خفى :

جــاءَتْ جـنودُ اللـــهِ تطـلُب ثأرَهـا	وصـــدُورُها عـــمَّا قـليلٍ تَشْـتَفِى
هــمْ فتيـةُ الأتراكِ كـل مجَفْجَـفٍ	يغشــىَ الكريمـةَ فـوقَ كلِّ مجـفجف
قـومٌ يخــوضونَ الحِمامَ شجــاعةً	لاينظرُون إليـه من طـرفٍ خَـفى (٢)

ويستقبل أحد الشعراء صلاح الدين الأيوبى مهنئا بانتصاراته على الصليبيين فى مدينة غزة، فيشير إلى عنصرية الجيش الأيوبى، ويعرض بالروم والأقباط.

(١) شرح ديوان بهاء الدين زهير ، ص ١٤٩ .

(٢) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ، محمد سيد كيلانى ، ص ٢٢١ .

فتىً مذ غزا بالخيل والرجل غزةً نأى عنّ نواحيها الرّضا ودنا السخطُ

رَمَاها بأسدٍ مالهنّ مرابضٌ ولا أجمٌ إلا الذى تنبتُ الخطُّ

وعاث ضواحيها ضحى بكتائبٍ من الترك لانوب طغامٌ ولاقبطُ (١)

كما يعرض البهاء زهير بالعرب فى مديحه أحد ملوك الأيوبيين فيصفه بالكرم وأن كرمه لايعادله كرم حاتم الطائى وكعب بن زهير، ولاينبغى أن يقارن كرمه بالعرب الصعاليك بل إن عبيد ممدوحه تتيه فخرا على كسرى وتفضله :

دعُوا ذكرَ كعبٍ فى السَّماحِ وحَاتمٍ

فليسَ بُعَيْدَ اليومِ ذاكَ التسمُّحُ

وليس صعاليكُ العريبِ كيوسفَ

تعالوا بُنَاةُ الحقِ والحقُّ أوضحُ

فما يوسفُ يقرى بنابٍ مُسِنَّةٍ

ولا العرقُ مفصودٌ ولا الشاةُ تُذْبَحُ

ولكنَّ سُلْطانى أقلُّ عبيدهِ يتيهُ على كِسْرَى الملوكِ ويرجحُ (٢)

وسلك بعض الشعراء فى إبراز العصبية التركية مسلك الغزل كالذى رأيناه عند ظافر فى تفضيل المرأة العربية، فابن النبيه يبدى إعجابه بالمرأة التركية، وبالغلمان الأتراك ولايقف عند وصفهما بالجمال أو إظهار إعجابه فحسب، بل يعرض بالجمال العربى وينفيه.

اللهُ أكبرُ ليسَ الحُسْنُ فى العَرَبِ كَمْ تحتَ كمةِ ذا التركىِّ من عَجَبِ

صُبْحُ الجبين بليْلِ الشَّعرِ منْعَقدٌ والخدُّ يجمعُ بين الماءِ واللَّهَبِ (٣)

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

(٢) شرح ديوان « بهاء الدين زهير » ، ص ٦٣ .

(٣) ديوان ابن النبيه المصرى ، ص ٢٣٤ ، ٤٠٤ .

ويمضي ابن النبيه في تفضيله الجنس التركي على غيره فيمن يحب ويهوى فيصفه بلين العطف وقسوة القلب، وسهولة الخداع، وصعوبة المراس :

من بني الترك لين العطف قاسي القلب سهل الخداع صعب المراس (١)

ثم يصف ملامح العينين، وقد تميزت بالضيق، والضيق علامة البخل، فإذا جاد كان كريما فياض العطاء :

ضيق العين وهو من صفة البخل فان جـــاد كان ضـــد القياس (٢)

ويذهب ابن النبيه في تفضيل الجنس التركي إلى الرجوع به إلى الأصل اليافثي، ولعله أراد أن يثيرها عصبية بين العروق الجنسية السامية واليافثية كالتي رأيناها في العصر الحديث لدى بعض المستشرقين الذين بالغوا في تفضيل الجنس الآري على الجنس السامي : يقول ابن النبيه :

مَـــولاي وجْـــهك جـــنَّـــةٌ   ورضـــا بك المعْسُـــولُ كـــوثرْ
يفـــــترُّ مســـكُ خـــتامِـه   عن مُســـكرٍ عطـــرٍ وسُـــكّرْ
من نســـلِ يافثٍ نافـــثٌ   وســـنانُ يســـهرني ويسْحرْ (٣)

ويحذرنا الشاعر من فتنة الجمال التركي، فمعشوقه غزال في الرقة والعذوبة ولكنه يفتك فتك الأسود :

إيّـــاك والأتـــراكُ إنّ لبعضـــهم   أشخـــاصَ غزلانٍ وفـــعْلَ أسُـــودِ (٤)

وقد دفعه هذا الإعجاب إلى التحدي فعندما تعلق قلبه بحب البدوي أخذ يفتخر بجماله على الأتراك وغيرهم فيقول :

قـلبي عـــلى الترك بهـــذا البـــدويّ يفْتَخِـــر (٥)

ويبدو أن الشاعر قد ضاق ذرعا بفعل بعض الجنود الأتراك فأخذ يصفهم بتلك الصفات المزرية :

---

(١) ، (٢) ديوان ابن النبيه المصري ، ص ٢٣٤ ، ٤٠٤ .
(٣) ديوان ابن النبيه المصري ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، ص ٢٦٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤٢ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

صـــنفٌ من الترك والخُـدام قدْ بلغَا ... باقـــبح الفعـــل فينا غايةَ الأمـــلِ

فســـعدُ هذا بماقــدْ قدَّ من دُبـــرٍ ... فــيه وهـــذا بما قُد قُد من قــبلِ (١)

الطوائف الدينية :

إن من يطالع أدب مـصـر إبان الحروب الصليـبـيـة يجد الإلحـاح على فكرة العـالمـيـة الإسلامـية مطلبـا نادى به الأدباء ، الشيـعى منهم والسنى، ومداح العرب والأتراك وأصـفـيـاء الفـاطمـيين والأيوبيين، فـجـمـيـعـهم تلاقوا حـول فكرة واحدة هى نـصـرة الإسـلام وحـمـاية بلاد المسلمين.

وهذا ابن سناء الملك يعبر عن التـحـام العناصـر البـشـرية فى نصرة الإسـلام ويهنىء صلاح الدين الأيوبى بانضمام حلب إلى مصر فيقول :

بدولَـــةِ الـــتُرك عزَّت مـــلَّةُ العـــربِ ... وبابنِ أيــــوبِ ذلتْ بيعـــةُ الصُـــلُبِ

وفـــى زمـــانِ ابنِ أيوبَ غــدتْ حــلــبٌ ... من أرضِ مصرَ و صارتْ مصرُ من حلبِ

ولابن أيــــــوبَ دانتْ كــلُّ مملكـــةٍ ... بالصَّفحِ والصلحِ أوْ بالحَـرْبِ والحَـربِ

مظـــفَّرُ النـــصرِ منعوتٌ بهمَّـــتهِ ... إلى العزايـم مـدلولٌ عـــلى الغـــلبِ

والدَّهْرُ بالقَـــدرِ المحـــتومِ يخـــدُمُهُ ... والأرضُ بالخَـــلْقِ والأفـــلاكُ بالشُّـــهُبِ

ويجْتلى الخَـــلقَ من راياتــــه أبـــداً ... مبيـــضَّةُ النَّصـــرِ من مصفرَّةِ العـذبِ

إنَّ العوَاصِــمَ كـــانتْ أىُّ عاصمـــةٍ ... معصومـــةُ بتعاليهــا عن الرُّتَبِ (٢)

وقد أشرت إلى تسامح المسلمين مع الأقليات الدينية الأخرى وخاصة أصـحاب الشرائع السماوية (٣) . وإلى بلوغـهم مناصب عليا فى الدولة، وإلى انقطاع الشـعراء لمديحهم، ولم يظهر فى الأدب المصرى مايدل عن صراع أصحاب الديانات السماوية فى مصر، وإنما ظهر نوع من التعريض بالنصارى وكانت الحروب الصليبية هى المحك الذى أبرز هذا التيار فى الأدب.

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٩ .

(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٨٧ .

(٣) راجع تفاصيل هذه العلاقة ، ووضع اليهود والنصارى فى الدولة الأيوبية ، كتاب الحضارة الإسلامية ، آدم متز (مترجم) ، ص ٥٧ وما بعدها .

قال الشاعر "الجوينى" يبعث بهذه التهنئة من مصر إلى صلاح الدين بعد استيلائه على القدس ويعرض بالمسيحية :

لوْ أنَّ ذا الفتحَ فى عصرِ النبى لقدْ تنزَّلتْ فيه آياتٌ وقرآنُ
ياقُبْحَ أوجهِ عبادِ الصليبِ وقد غدا يبرقِعُها شؤمٌ وخذلانُ
خزنت عند إلهِ العرش سائرُما ملكته وملوكُ الأرضِ خزان (١)

ويقول شاعر آخر :

قد أنصفَ التَّوحيدَ من تثليثِهم وأقام فى الإنْجيل حدُّ المصْحَفِ (٢)

ويتهكم ابن مطروح من الملك "لويس التاسع" أثر هزيمته فى المنصورة وحبسه فى دار "ابن لقمان" فيدعو له بالأجر، لأنه كان سببا فى قتل عباد المسيح :

آجرك اللهُ على ماجرَى من قتلِ عُبَّادِ يسوعِ المسيح

وقد تجلت هذه الظاهرة بوضوح فى أشعار البوصيرى "ولاسيما مدائحه للرسول (ص) إذ كان دائم التعريض بالنصارى وعقيدتهم. يقول فى قصيدة البردة.

دَعْ ما ادَّعتهُ النَّصارى فِى نبيِّهِم واحْكُمْ بِماشِئْتَ مدحاً فيه واحْتَكِمِ

وإذا كانت الطائفة المسيحية قد عاشت فى وئام مع المسلمين فى مصر وشاركت فى الدفاع عن أرضها ضد الصليبيين الذين أعلنوها حربا دينية، وهى فى الحقيقة حرب استعمارية فإن المصريين لم يتقبلوا الطائفة اليهودية وفى هذه الأبيات يعبر أحد الشعراء عن رأيه فى الجالية اليهودية :

يايَهُودَ الزمانِ أنْتم حميرٌ وتُيُوسٌ بِكُمْ تقاسُ التيوسُ
حين أضْحَى "شمويل" فيكم رَئِيساً وبقدرِ المرءوسِ يأتِى الرئيسُ
هو ثورٌ وربُّه كان عجلاً من قديمٍ وصهرُهُ جاموسُ (٣)

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ١٩٦
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .
(٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ .

العلاقات الأسرية

سئل أحد الجاهليين عن سر تسميتهم أبناءهم بأسماء خشنة مثل صخر وحرب ومرار وتسميتهم عبيدهم بأسماء رقيقة مثل بلال ورباح فأجاب : "إنما نسمي عبيدنا لأنفسنا ونسمي أبناءنا لأعدائنا". وكان هذا الجاهلي صادقاً كل الصدق في تمثيل ما تعكسه العلاقات الاجتماعية على النظام الأسرى، وهو صادق أيضا فى تصوير العلاقة بين الطبيعة وسلوك أهلها، ومايسود بينهم من قيم اجتماعية، فالصحراء المخيفة بوحوشها ولصوصها وجدبها وعنفها تحتاج الى الخشونة حتى فى الأسماء التى يطلقها سكانها على أبنائهم يرهبون بها عدوهم ويستمدون منها الأمن لأنفسهم. ومن هنا اعتز الجاهلى بقبيلته وتحدث عن مختلف العلاقات القائمة بين أفرادها. ويمكننا أن نتابع صور هذه العلاقات من خلال العرض الذى قدمه أستاذنا الدكتور "أحمد الحوفى" فى كتابه "المرأة فى الأدب الجاهلى".

وإذا ماتتبعنا الأدب المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبى فإننا لانجد فيه حديثا واضحا عن العلاقات الأسرية. مع أن الأسرة المصرية معروفة بتماسكها الشديد، فلعل سبب ذلك أن العلاقة الأسرية تختلف عن العلاقة القبلية، فانتماء المصرى إلى المجتمع كوحدة متكاملة لم يدفعه إلى البحث فى العلاقات الجزئية التى اهتم بها غيره ممن يعيشون فى ظل النظام القبلى ليواجهوا بوحدتهم القبلية قوة أخرى مضادة فى المجتمع نفسه.

ولقد أحس المصرى بانتمائه القوى إلى المجتمع، والتصاقه الشديد بالأسرة، فلم يعد هناك حاجة تدفعه إلى العمل على تنمية العلاقة بين أفراد الأسرة الصغيرة، وبذلك لم يقدم لنا الأدب المصرى فى تلك الفترة ماينم عن وضع المرأة فى الأسرة أما أو بنتاً أو زوجة أو قريبة، كما لم يحدثنا عن العلاقات القائمة بين أبناء العمومة أو الأقربين من الأرحام والعصب كالتى حدثنا عنها الأدب الجاهلى مثلا. ولعل سبب ذلك أيضاً : أنه لم تكن هناك انقسامات داخل الأسرة المصرية حتى يندفع الشعراء إلى العمل على رأب الصدع ولم يكن هناك ظلم واقع على المرأة حتى ينبرى المصلحون للدفاع عن حقوقها بإبراز قدرها وتبيان خدماتها للمجتمع. وإنما كانت هناك عواطف رقيقة نحو البنوة وعلاقة ظرف ومحبة واشتهاء نحو النساء. وهذا ماتلاحظه

من خلال استعراض الأدب المصرى الذى يتحدث عن العلاقة الأسرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى.

الأبنـــاء :

لم يقدم لنا الأدب المصرى صورة كاملة عن البنوة، وإنما أشار إلى بعض الحقائق العامة فى العواطف نحو الأبناء فمحبة الأبناء على علاتهم طبيعة فطر الله الناس عليها يعبر عن هذه الحقيقة أحد الشعراء المصريين بقوله :

لافـرْق بينَكُـم وبـينَ فـؤادِى ... فـى حـالِ قُرْبِى منكُـمُ وبعـادى

فَلَقَـدْ حَبَبْتُكُـم عـلى عِلاَّتِكـم ... كمحـبَّةِ الأبنـاءِ لـلأولادِ (١)

وهناك صورة أخرى نراها شديدة الصلة بالشخصية المصرية فى تصوير العلاقة الأسرية، وهى أن بعض الشعراء كان يتوسل إلى من يمدحهم بإثارة العواطف الأسرية وهى عواطف تقوم على إثارة نوازع الرحمة والشفقة، وإن مزجها بعض الشعراء بشيء من التعفف لكنها نغمة محببة للمصريين حتى يومنا هذا "من أجل الأولاد". هذه النغمة القديمة الجديدة هى التى يرددها الشاعر المصرى البهاء زهير فى مديحه الناصر يوسف بن محمد بن عادى بن أيـوب :

ونَفْسـى بحمـدِ اللّهِ نفسٌ أبيـةٌ ... فهـا هـى لاتهفـو ولاتتلهـفُ

ولكنَّ أطفَـالاً صـغاراً ونسـوةً ... ولا أحـدٌ غيـرِى بهـمَ يَتلطـفُ

أغارُ إذا هـبَّ النَّسـيمُ عليهـم ... وقـلبِى لهُم من رحـمةٍ يترجـفُ

سرورِى أن يَبْـدُو عليهـم تنعُّـمٌ ... وحـزْنِى أن يبـدُو عليهم تقشُّـفُ

نخـرتُ لهُم لُطْـفَ الإلهِ ويوسـفا ... وواللهِ لا ضَـاعوا ويوسفُ يوسفُ (٢)

---

(١) الفريدة، جـ ٢، ص ١ .

(٢) شرح ديوان بهاء الدين زهير، ص ١٦٩ ، البهاء زهير، مصطفى عبد الرازق ص ٥٦ .

وربما ضاق بعض الشعراء ذرعا بالبنوة والأسرة لاكرها فيها، وإنما الفاقة والعوز جعلته ملولا حتى من زوجه ، لأنه إن اقترب منها أتت له بالبنين، وإن أراد طلاقها عاقه دفع مؤخر صداقها، وهكذا أصبح الخوف من إكثار البنوة مصدر عذاب الشاعر أبى الحسين الجزار :

ولـه زوجـة مـتى نظـرتـه	حَسِبْتَ ليتَـها عَجُـوزٌ عقـيمْ
ظـلٌ فى أسـرِها لأجلِ كـتابٍ	معـلمٍ يقْتَضِـى بِهِ المعـلومْ
فهو يخشى الطلاق فقـداً	....(١)

المـرأة :

على الرغم من سمو مكانة المرأة المصرية ونيلها من حقوقها فى مختلف عصورها مالم تنله امرأة فى مجتمع آخر، وعلى الرغم من نشاط المرأة المصرية فى مجال السياسة (٢) والآداب فى العصرين الفاطمى والأيوبى فإن الأدب فيها لم يصور لنا إلا جانبا واحدا هو وصف جمالها ومايرتبط به من زينة وفتنة وبواعث الحب أو الجنس ومظاهر إعجاب الرجال بها فجاء الحديث عنهامعبراً عن نول رجال ذلك العصر حيال جمال المرأة أكثر من أى شيء آخر.

فقد تحدث الشعراء عن المرأة محبوبة، ومعشوقة وأخذوا يتأملون مفاتنها، ويبرزون ماراق لهم من محاسن جسمها فى إقبالها وإدبارها، ويتوددون إليها ويبثونها أشواقهم التى تنبىء عن الظرف أو الجنس.

ويكاد ينعقد إجماعهم على الإعجاب بطول القامة ونعومة الجسم. وطول القامة يناسبه طول العنق، وبهذه المحاسن يصف أحد الشعراء فاتنته بقوله :

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٨ ، ٣ .

(٢) من ذلك ما قامت به سيدات القصر الفاطمى فى إدارة الشئون السياسية من وراء ستار كتدبير مقتل الصالح طلائع بن رزيك . والاستغاثة بجيش نور الدين ، ومن ذلك ما قامت به شجرة الدر التى حكمت مصر ثلاثة شهور . وترجم العماد الأصفهانى فى الخريدة لأديبات مصريات ، وذكر نماذج من أشعارهن. وذكر الأدفوى تراجم لأربع نساء هن :تاج النساء ابنة عيسى بن على بن وهب، خديجة بنت على بن وهب ؛ رقيه بنت محمد على بن وهب . مظفرية بنت عيسى بن على بن وهب ، مقدمة الطالع السعيد للأدفوى

وفــي ذلكَ الحَـــيِّ خُمْصَـانَـةٌ   لها عُـنقُ الشـــادنِ الأغْـــيَدِ (١)

ويقول آخر مشيداً بصفة الهيف ونعومة الجسم أيضا :

ولــي فيهـم شــادنٌ أهــيفُ   يفــوقُ عـلى الغصْــنِ المـائسِ (٢)

ويضيف ثالث إلى صفة الهيف جمال العيون ويشبهها بعيون الظباء الواسعة :

وأهــيَفُ للغصـــنِ أعطافُــه   وللظـــباء العــينِ عيْنَـــاه (٣)

وطول الجسم أمر نسبى، فلا ينبغى أن يزيد عن الحد اللائق ولا أن يصل إلى حد القصر فبهذه السمات يتمنى عمارة أن يستمتع بالمرأة أو بالنساء :

مــنْ كُــلِّ ذاتِ قــوامٍ   مجْـدُولـةٍ كالعَـنانِ

لا بالطـوالِ العَــوالِي   ولا القصـارِ السِّـمانِ

يَمْشـينَ مشــيَ حـمـامٍ   مقـيَّدِ الخَـطْوِ عـانِ

فهــذِه بــدرٌ تَـمٌّ   وهــذِهِ غـصـنُ بـانِ (٤)

واجتمع ذوق ذلك العصر على تفضيل نحولة الخصر وعظم الردفين فى جمال الجسم :

مُغْـرى بحـبِّ الغانياتِ هَـفَتْ به   هيــفُ الخُـصورِ ورجَّح الأكْفَال

غَرْسُ القضـيبِ على الكَـثيبِ بقدِّها   فاتَـتْ بمـيَّاذٍ على مُنْـهالِ (٥)

ويشبه أحد الشعراء ما يلقاه من عنت وظلم حبيبه، بالعنت الذى يلقاه خصره النحيل من ردفه الضخم العظيم :

يَمْشِـى فيَلْـقَى خِصْرُه من رِدْفِـه   مِـثْلَ الذى ألقـاهُ من إعناتِـه (٦)

---

(١) الخريدة ، جـ ٣ ، ص ٧٣ .   * خمصانة : ضامرة الخصر والبطن

(٢) ، (٣) المرجع السابق ص ٢٦ ، ص ٨٧

(٤) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٨٣ .

(٦) الخريدة جـ ٢ ص ٨٢ ، ص ١٢ .

ولكن شاعرا آخر يشيد برشاقة جسم محبوبته فعلى الرغم من نحول الخصر وضعفه لكنه لايتألم من عظم الردفين :

ولوْ سَلَكتْ أمراً لما كان خصْرُها ... على ضَعْفِه منْ رِدْفِها يتَظلَّمُ (١)

ويحسب أحد الشعراء أن الخصر مغروز فى الردف، ولكنه يلاحظ تثنى الخصر فى الردف فيفطن إلى نحولة الخصر وعظمة الردفين

لَوْلاَ تَثنّى خِصْرِه فى رِدْفِه ... ماخِلْتُ إلا أنّه مغروزُ

تهفُو غُلالتُه عليه لطافةً ... فبجسْمِهِ من طَرْزِها تَطْريزُ (٢)

ويشكو أحد الشعراء من ضخامة نهدى محبوبته، لأنهما حالا دون تلاقى القلبين ساعة العناق :

شكوتُ إليهَا نَهْدَين فِى الصَدْرِ بأَعَدا ... مُعَانِقَها عنْ ضَمّه وهو مُغْرَم (٣)

أما العيون فأعجبوا منها بالدّعج :

يامُعيرَ الغُصْنِ قداً أهْيَفَا ... ومعيّر الظَبى طرفاً أدْعَجا(٤)

علمتْ عينَاك عُذْرِى فِيهما ... فاقَامتْ لِى فيك الحُجَجَا

وتغنوا بجمال الوجه وافتتنوا فيه بالخال على الجبين، والحمرة على الخدين :

تتيه بغُرةٍ بدرُ التّمامِ ... وسالفةِ الرشأ الأغيدِ (٥)

وأشادوا بنضارة الخدود وسريان ماء الحياة فيها

ورقّ ماءُ الحُسْنِ فى خَدّه ... فَفَتَّح الوردُ ونداه (٦)

---

(١) الخريدة ، . جـ ١ ص ١٦٢ .
(٢) الخريدة جـ ٢ ، ص ١٣
(٣) الخريدة : جـ ٢ ص ٤٨ .
(٤) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٧٢ . والسالفة : ناحية مقدم العنق .
(٥) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٨٨ .
(٦) المرجع السابق .

ويقول آخر :

يبـدو على الـسود الجـنى إذا بدا   خجـلا من التقصير عن وجناته (١)

ويشرق جمال الوجه فى إطار الشعر الأسود :

شمس الضحـى غـرته والدجـى   طـرته والمسـك ريـاه (٢)

واستملحوا منها عذوبة الريق ورائحة الفم الطيبة :

قد مـزج الخـمرة مـن ريقـه   ببـرد كافـور ثنايـاه (٣)

أما زينتها فكانت وشما تضعه على خدها . فترسم بالمسك صورة عقرب أو ثعبان إثارة أو إغراء، فهى توحى للرجل وتناديه حينما تحذره من الاقتراب أو تخيفه من العقرب أو الثعبان. ومع ذلك فلا بأس بهذا اللذغ، ولابأس من الاقتراب.

فالشاعر ابن عرام يصف حبيبته بالقسوة، ومع ذلك فإنه يقبله على الرغم من أن العقرب يلدغه :

من معينى على اقتناص غزال   نافـر عـن حبائلى رواغ

قـلبه قسـوة كجلمود صخـر   خـده رقـة كزهـر البـاغ

كـلما رمـت أن أقـبل فـاه   لدغـتنى عقارب الأصـداغ (٤)

ويرسل الملك العزيز إلى وزيره طالبا أن تتغزل فى جارته صنعت على خدها بالمسك حية وعقرباً فقال بديها :

فديتـهـا مـن غـادة   مخـلوقة مـن طـرب

سـألتها فـى قبـلة   فـى خـدها المذهـب

فجـاوبت معجـبة   بكفـها المخـضـب

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢

(٢) ، (٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٨٨

(٤) الخريدة ، جـ ٢ ص ١٩٢

روضـــةُ خـدِّى حُرِسـتْ	بحـــيةٍ وعـــقْرَبِ

مـــن رامَ أنْ يلْثِمَهـــا	فَلْــيَرقِـــها بالذهـــبِ

وليشـــربِ الدّرْيـــاقَ مـــن	رضـــابِ ثغْــرِى الشنَّبِ (١)

ويعترف القاضى الفاضل بفتنة العقرب، لكنه اكتشف أن لها رقية تعجزها عن اللدغ وتكف أذاها عنه، ألا وهى القبلات :

حـــدِّثْنا يافتـــى وأخْـــبرنا	وأيُّمـــا شـــئْتَ منهـــما فَـقُـلْ

عن حـــيَّةٍ فى الخـــدودِ ظالمـــةٌ	تمـــنع من شـــمِّ وردِهـــا الخضلْ

إنَّ لهـــا رقيـــةُ مجـــرَّبـــةٌ	وإنَّ ألفـــاظَها من القـــبلْ (٢)

ويبدو أن رقية الشاعر لم تفلح دائما فتراه يعاتب محبوبته قائلا :

ياكَعْـــبةَ الحســـنِ التى زَارَهـــا	مُحْـرِمُها عُـــرْيَان مَـــنْ وَصَـــلِ

مَنْ أمـــرِ العقْـــرَبَ فى الخـــدِّ أنْ	يفتى فـــينا : اللثـــمُ بالقـــتلِ (٣)

ويصـور القـاضى الفـاضل زينة المرأة برسم الحية على خـدها، ويصف الخد بالحمرة الشديدة التى تشبه الجمر :

من حـيَّةٍ فى الجمْرِ ما احـترقَتْ	والجـــمرُ فوقَ الخـــدِّ ما اشْـــتَعَلا

لو أنَّـــها تِـــلْكَ التـــى انقـــلبتْ	يومَ العـــصَا لم يعـــصِ من جـــهلا (٤)

وللدلال الأنثوى متعته فى نظر الذوق المصرى :

غـــرَّاءُ غرَّتْها الشبيبةُ فاكْتَـــسَتْ	تيـــه الـــدَّلالِ وعـــــزَّةَ الإدْلالِ

ممكورةٌ مكرت بقلبِى والهَـــوى	يســـتضعفُ المحـــتالَ للمختالِ (٥)

---

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، د . أحمد أحمد بدوى ، ص ٣٥ .

(٢) ، (٣) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، : ص ٨٧ . استخدام القاضى الفاضل علم الحديث فى الغزل وهو إحدى خصائص العصر كما سأوضحه .

(٤)ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ص ٤٨ .

(٥) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٨٢ . المكورة من النساء : المدمجة الخلق مستديرة الساقين

ويعجب البهاء زهير بلون السمرة فى المرأة :

وسَمْراءَ تحكِي الرُّمحَ لوناً وقامةً   لــها مهجــتى مبذولةٌ وقــيادي (١)

تلك أبرز معالم جمال المرأة فى نظر الذوق المصرى من خلال الأدبين الفاطمى والأيوبى، وهى كما تبدو بعيدة عن الذوق الفرعونى الذى نشاهده فى التماثيل والرسوم الفرعونية، حيث نرى صورة المرأة المصرية فارعة الطول، واسعة العينين، ضئيلة الردفين لها جسم متناسق يساعد على الحركة السريعة لا على التثنى والتمايل والتكسر.

وفى الوقت نفسه أرى أن الذوق المصرى فى العصر الوسيط لم يبتعد عن الذوق العربى فى تصور المرأة الجميلة وقد أجمله الشاعر الجاهلى فى قوله :

هَيــفاءُ مُقْـبلةً عجــزاءُ مدبــرةً   لايُشْــتكى قِـصَـرٌ مِنها ولاطــولُ (٢)

ونلاحظ إعجاب المصريين بجمال العين الدعجاء على عكس ماوصف به الذوق العربى جمال العيون فى الاتساع والاحورار وشبهوها تارة بمقلة الظبى وأخرى بعيون المها فربما كان الذوق المصرى يعكس بعض ملامح البيئة الاجتماعية، وقد كثر فيها العنصر التركى من نساء وغلمان حسان، والترك هم الذين يتميزون بدعجة العيون، فمن الممكن أن تكون هذه الصفة قد أصبحت محببة إلى المصريين حبا حقيقيا، أوفنيا فغدت صفة ويستعذبونها فى أشعارهم.

وقلما نجد تصويرا لمكانة المرأة الاجتماعية فى أدب هذه الفترة ومن ذلك القليل مارواه المقريزى من أن الملك المعز أمر سنة ٦٥٣هـ، ألا تخرج المرأة من بيتها ولايمشى رجل بلا سراويل. فقال أبو الحسن الجزار فى ذلك.

حَـنَا المــلكُ المعــزُ على الرَّعَـايا   وألزمَهُــم قــوانينَ المــرُوَةِ

وصــانَ حَرِيمَهُــم من كلِ عــارٍ   وألبسَــهُم ســراويلَ الفــتُوةِ (٣)

وفيما عدا ذلك لانرى آثاراً أدبية توضح لنا العلاقة الأسرية القريب منها أو البعيد .

---

(١) شرح ديوان البهاء زهير ، ص ٧٩

(٢) شاعر الغزل ، عباس العقاد ، ص ١١٧ ، القاهرة ١٩٦٤ م .

(٣) كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٣٩٧

مظاهر الحياة العامة

لكل إقليم وكل عصر مظاهر حياته العامة التي قد يشترك فيها عصران أو بيئتان ولاشك أن العامل الزمني هو المحك الرئيسي للتعرف على خصائص بيئة من البيئات من خلال مظاهر حياتها العامة، فشيوع بعض المظاهر أو اختفاؤها يعين في تحديد سمات العصر بحيث يمكن القول بوجود مظاهر محددة تميز حياة الناس في العصر الحجري أو عصر البخار أو غيرها. ومع ذلك فلا يمكن إغفال تفاعل هذا العامل الزمني مع خصائص البيئة الجغرافية والطبيعة البشرية. وسأقلب صفحات الأدبين الفاطمي والأيوبي لنرى من خلالهما بعض المظاهر العامة في حياة المصريين مثل : الأطعمة والدور، والحمامات، ووسائل المواصلات، والأندية العامة :

الأطعمة :

كانت مصر غنية بمواردها الغذائية من لحوم وأسماك وطيور وفواكه ومن خيراتها طعم الأدباء وتبادلوا الدعوات على تناول الأطعمة. فهذا الشاعر المصري ظافر الحداد يدعو أحد أصدقائه إلى تناول الطعام معه، وكان قد أعد له نوعا من السمك يسمى سمك (الراى) ويبدو أنه نوع من الأسماك التي تعيش في النيل وتتميز بلحم طرى خال من العظام والشوك وبهذا يغرى الضيف على قبول دعواه ويطمئنه على سلامة أسنانه من تناوله :

أمَـــالك في الـــرَّاى رأىٌ فـــإن ... له صفــةٌ أو جـــبتْ أن يُحـــبْ

تربـــَّى مـــعَ النَّيلِ حـــتىَ ربـــا ... وصـــارَ من الشَّحــمِ ضخماً خـدبْ

ولاحـــسٌ للعظـــمِ في أكــــلهِ ... فليس على السنّ منــه تَعَــبْ (١)

ويستمر الشاعر في إغراء صديقه فيصور له السمك قبل أن ينضج ناصع البياض فإذا مادخل في الزيت علته طبقة من الحمرة المشوية بصفرة فكأنه سكينة بيضاء مصقولة طليت بالذهب :

يروُقـــك نيئـــاً وفـــى قَـــلْيهِ ... فَتَنظـــرُ في حالـــتيه العَجَـــبْ

تَصُـــولُ الســـكاكينُ مصقـــولةً ... وفـــى القلى تمويهُهـــا بالذهـــبْ (٢)

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦ . والخدب : الضخم و العظيم

(٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦ ، ص ٥٠

ويظهر من خلال هجوم بعض الشعراء على المستفيدين فى الدولة - أن اللحم كان وفيرا إلى الحد الذى أصبحت فيه الأحشاء (كالطحال أو المصران) تقدم للقطط وغيرها من الحيوانات، فهو يخاطبهم قائلا :

وارتعُوا فى جذورِ ذى الدولةِ الـهامى نَداها فى أطيبِ اللحمانِ

واشْغَلُونَا بما به يشغَل الهِرّ لنفعٍ أو خيفةِ العدوانِ

بالطحالِ المسدودِ أو طرفِ الريّة أو بالمعلاقِ والمصرانِ (١)

وما أكثر الفواكه التى ذكرها الشعراء واصفين ومشبهين..

فظافر الحداد يتأمل البلح الأحمر متدليا على نخلته وقد أحاط بها السعف الأخضرفكأن البلح في حمرته عقيق، وكأن الخوص فى خضرته زبرجد :

انظرْ إلى البسرِ إذ تبدّى ولونُه قدْ حكَى الشّقيقا

كأنّما خوصُه عليه زبرجدٌ مثمرٌ عقيقا(٢)

ويمسك ظافر الحداد بواحدة من حبات التين المصرى ويصفها بقوله .

جاءَ بلوزٍ أخضرٍ أصفرُه ملْءُ اليدِ

كأنّما قلوبُه من توأمٍ ومُفْرَدِ

جواهرٌ لكنّما الـ أصدافُ من زبرجدِ (٣)

ويتناول واحدة من الكمثرى ويقضمها فيحس بلذة طعمها ورائحتها ويقرن بين قضمها وعض النهود وتقبيلها :

للهِ وافرُ كمثرى ذكرتُ به ماكنتُ أعهدُ فى أيامىَ الأوَلِ

لم أُدنِه لفمى إلاّ وأوهمه من النهودِ لذيذ العضِّ بالقُبَلِ

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦ ، ص ٥٠

(٢) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، د حسين نصار ، ص ٢٥

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ .

قدْ ذُقْتُ من طعْمِه ما أكادُ يبلغُ بـي ... ماذقْتُ من رشفِ محبوبٍ على عجـلِ

يحكى قواريرَ ماءِ الـوردِ خـالطَهُ ... فيها مع الزعفرانِ المسكُ بالعسلِ (١)

ويصف "ابن حيدرة العقيلى" العنب فيقول :

أمهـاتُ الثـمار بينَ الرَّوابـي ... تائهـاتٌ بلبسِ خضرِ الثيّـابِ

وبنـاتُ الكـرومِ تجلى بما قدْ ... صـاغَه الماءُ من عقودِ الحـبابِ (٢)

وكان الظرفاء يتبادلون الهدايا بالفواكه، فالشاعرة المصرية "تقية الصورية" أرسلت (توتا) إلى أحد الأدباء فبعث إليها شاكرا مادحا :

وتـوتٌ أتانـا مـلؤه فى احمراره ... كدْمعى على الأحبابِ حين ترحّـلوا

هـديّةُ من فاقـتْ جمالاً وفطـنةً ... وأبْهَى من البـدرِ المنـيرِ وأجْـمَلُ

فـلا عـدمتْ نفسي تفضلها الذى ... يقصِّرُ وصفِى عن مدَاه ويعـدلُ (٣)

وقد استحسن الذوق المصرى فى تلك العصور من البطيخ ثقل وزنه وبرودته، فالشاعر خفيف الظل قمر الدولة بن داوس المصرى يقول

عن نفسه :

فغـدوتُ كالبطـيخ لا حـلواً ... بل التشبيهُ يحكي نائمًا أو قـاعـداً

لايحـمدُ الوصّـافُ من أوْصَـافه ... مالمْ يكنْ خشـناً ثقـيلاً بارداً(٤)

واستعاض بعض المصريين بلذة الشراب لذة القطايف التى ينتشر تناولها بين الناس فى شهر رمضان. ولما كان هذا الشهر مكرما يستحى فيه كثير من الناس تناول الخمر فلا بأس من أن يستعيضوا بها القطايف :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ، د محمد كامل حسين ، ص ٢٩٢ .

(٣) ، (٤) الخريدة، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٠ .

أهــلاً بشــهرٍ غداً فيه لنا خلــفٌ أكــلُ القطايفِ عن شربُ ابنة العنبِ

وافــى الصــيامُ فوافَتنا قطــائفُه كمــا تســـنَّمتُ الكثبانَ عن كثبِ (١)

وقد تأملها الشاعر متراصة ملفوفة وبعضها مقلى، يسيل اللعاب ويسد رمق الجائع فهى ملفوفة كأنها أغشية بيضاء كالفضة، فإذا قليت احمرت، وكأن الأغشية البيضاء نقشت عليها تعاويذ مذهبة :

مِــنْ كُلِّ ملفـُوفــةٍ بيضٍ إلى أُخَــرِ حُــمرٍ من القلْى تشفِي جنَّة السُّغبِ

كأنَّــهن حـــروزٌ ذاتُ أغشـــيةٍ من فضــةٍ وتعاويذٍ من الذَّهــبِ (٢)

ويدعو أحد الشعراء للكنافة بالهناء، ويلعن أيام المخلل ويشتاق هبوب نسيم القطائف فى السحور، ويعتذر لزوجته عن قصر ذات اليد بأن الحلوى المنسوبة إلى القاهرة ليست فى مصر :

سَقَى اللهُ أكْنَافَ الكُنَافةِ بالقُطْــرِ وجــادَ عــليْها سكرٌ دائــمُ الــدرِّ

وتبّــا لأوقــاتِ المخَــلل إنهـــا تمرُّ بلانفــعٍ وتُحْســَـبُ من عُــمْرِى

أهيمُ غراماً كلَّــما ذُكِــرَ الحــمى وليس الحمى إلا العطــارَةَ بالسـعرِ

وأشــتاقُ إنْ هــبَّتْ نــسيمُ قطائفِ السحــورِ سحيراً وهــى عاطــرةُ النشــرِ

ولى زوجةٌ إن تــشتهى قاهــريَّةً أقــول لها : ما القــاهريةُ فى مصــرِ(٣)

الـــدور :

كانت الدور المصرية بينة الفروق تبعا لاختلاف الطبقات الاجتماعية كما هى عليه الآن فى شتى الأقطار يحدثنا "الأدفوى" عن الدور فى مدينة قوص فيقـول "وبها قباب بأعالى دورها، قالوا:إن من ملك عشر آلاف دينار يجعل له قبة فى داره (٤) وبينما كانت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء زاخرة بالتصاوير والنجف والفسيلات كانت بيوت الفقراء عامرة بالحشرات والقانورات. فقصور فيها من الحسن مايقصر عن مثله الوجود:

---

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٦٢ ، ٦٣

(٢) المرجع السابق :، ص ٦٢ ، ٦٣ . جنة السغب : شدة الجوع والجنون .

(٣) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ١ ، ص ٥٦٨ .

(٤) الطالع السعيد ، ص ١٣ .

فيكَ من الحسنِ كلُّ معنى يقصرُ عن مثلِه الوجودُ

وقد أبدع عمارة اليمنى فى وصف قصور الخلفاء والأمراء وما فيها من مرمر ونافورات ولوحات(١) .

ويثير انتباه ظافر الحداد ما رآه فى قصر أحد حكام الإسكندرية، إذ وجد غزالا مستأنسا يربض ويجعل رأسه فى حجر الأمير فيتغنى بهذه الأبيات :

عجِبتُ لجرأةِ هذا الغزالِ وأمرٍ تخطّى له واعتمدْ

وأعجبْ به إذ أتى جاثماً فكيفَ أطمأنَّ وأنتَ الأسدُ ؟ (٢)

وكان بعض المترفين يزينون مداخل قصورهم وحدائقهم بوضع سرج على الأشجار أو النخيل تضىء بالليل كما نفعل اليوم فى بعض الأماكن العامة. يصف (ابن قلاقس) نخلة عليها زينة من أنوار السراج كالذى يتخذه المترفون اليوم فى أيام الحفلات الخاصة :

ما عهِدنا النخلَ لولا هذه باسقاتٍ بثمارِ اللّهبِ

هَطَلَ الغيثُ لها من فضّةٍ فهى فى قنواتِها من ذهبِ

تلعبُ السرجُ على حافاتِها وتحاكى أنملَ المرتعبِ

ولقد أحسبُها السنةُ هزَّها للسُّكرِ خمرُ الطربِ (٣)

وفى بيت من بيوت عامة الناس يلتقط ظافر الحداد هذا المنظر الذى كونه من البق والبراغيث والعنكبوت :

والبقّ فيها والبراغيثِ خلطةٌ كبزرِ قطونٍ ذرّ فى حَبِّ سُماق*

إذا ما أرانين البعوضِ تجاوبتْ لنا وقّعوا بالرَّقصِ إيقاعَ حذّاقِ (٤)

---

(١) انظر هذا الكتاب ، ص ٦١٠ . وانظر وصف ابن قلاقس لقصر بنى خليف بالأسكندرية ، بدائع البدائه لابن ظافر ، ص ١٧٥ .

(٢) أ – ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ٣٩ .

ب – الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ، حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٦٨ .

(٣) فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢٩٩ .

* القطون حب من الحبوب التى تطبخ والسماق جنس أشجار تستعمل بذوره تابلا وأوراقه فى الدبغ

(٤) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى ؛ د . حسين نصار ، ص ١٣١ .

ولعل ظافرا نزل فى أحد الفنادق وبات فى حجرة صغيرة رافقة فيها عدد كبير من النزلاء فضاق بهم وضاقوا به :

وحجرةٍ من عددِ القبورِ | بتُّ بها للقدرِ الضروريِ
فى ليلةٍ مسرفةِ الحرورِ | كأرؤس الخرفان فى التنُّورِ
أو كالبزاةِ الشُّهبِ والصقورِ | تفعلُ فى الأوجهِ والظهورِ
فعلَ رماحِ الخطِّ فى النُّحورِ | أصواتُها فى الحالكِ الديجورِ
تشبهُ ماصاحَ من الناعورِ | فلمْ نزلْ فى الويلِ والثبورِ (١)

الحمامات

يبدو أن الحمامات التى عرفتها مصر الإسلامية كانت أصغر حجماً من الحمامات التى عرفتها من قبل ، فقد أطلق المصريون على الحمام الذى أنشأه عمرو بن العاص حمام الفأر (٢) على طريقة المصريين فى استخدام النكتة فى التسمية . ورسم ظافر الحداد للحمامات فى مصر الفاطمية عدة صور تعكس لنا ماكان يحبه المصريون فيها ، وما كانوا يكرهونه منها ، وما إعتادوه فى تشييدها ، وألفوه عند دخولها فقد عنى المصريون فى ذلك العهد بتشييد الحمامات الرائعة التى قال عنها المقدسي : إلى حماماته المنتهى .. ولعل أجمع بيت لما أحبه ظافر فى الحمامات قوله :

روضة العين ، لذة العقل والحسن ، جلاء القلوب والأجسام

فلم يمدح حماماً إلا جعله روضة ، بل جنة ، بعض الأحيان ، تجتمع الملذات فيها والمسرات :

وروضةٍ فى هجيرِ | وجنةٌ فى سعيرِ
خصتْ بكلِّ نعيمِ | ولذةٍ وسرورِ

كما وصف زخارفها وحياضها بالصفاء وتعدد الألوان والزخرفة :

(١) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى . د . حسين نصار ، ص ٢٦٦ .

(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ١ ، ص ١٣٥ .

راقــتْ حياضــاً ، فـأقـل القــذى فيها كشمسٍ تحتَ غيــمٍ رقــيقِ
خُصــتْ بألـوانِ الرُخــامِ الـذى لــه بهــا كــلُ طــرازٍ دقيــقِ (١)

ولم يكن ظافر وحده هو الذى أحسَّ بمساوىء بعض الحمامات فى ذلك العصر فالشاعر الناجى المصرى يشاركه الإحساس نفسه ويقول :

حمَّامُــنا هــذا أشــدُّ ضــرورةً ممــن يحــلُّ بــه إلــى حمَّــامِ
تَبْيضُّ أبدانُ الـورى فــى غيــرهِ وَيُميرُهــا هــذا ثــيابَ سخــامِ
قد كنتُ من ســامٍ فحــين دخلتــهُ لشقاء جدى رَدَّنــى مــن حــامِ (٢)

ويصف شاعر آخر الحمامات بالقذارة والظلمة والبرودة ، وقد أخطأوا فى تسميته حمَّاما وكان من الأولى أن يسمى حِماماً بالكسر :

حَمَّامُــنا هــذه حِمَــامُ وإنَّــما حُــرِّفَ الكــلامُ
تُجمعُ فــى أوصافــها ثــلاث البــردُ والنــتنُ والظّــلامُ (٣)

وسائل المواصلات

استخدم المصريون وسائل المواصلات المعروفة فى العصور الوسطى وهى الدواب والبحر ، كما استخدموا النيل فى مواصلاتهم الداخلية . وأهم وسائل المواصلات وأسرعها الخيل ، وللخيل غايتان : فهى عدة القتال كما يصورها طلائع الأمرى . بقوله :

جنائبُ إنْ قيدت فأسدٌ وإنْ عــدَت بأبطالِها فــهى الصَّبا والجنائبُ
أثارتْ بأكتافِ المصلــى عجاجــةً دجَتْ وبدتْ للبيضِ منها الكواكبُ (٤)

ويصفها « ابن الضيف » بسرعة العدو وتحديد الهدف فيقول :

كــم ســابحٍ أعــددَتهُ فوجــدتهُ عــندَ الكريهــةِ وهـو نسرٌ طائرُ
لم يــرمِ قــطُّ بطــرفهِ فــى غايةٍ إلا وســابقُه إليهــا الحــافرُ (٥)

---

(١) ظافر الحداد . د . حسين نصار ص ١٢٧ وما بعدها .
(٢) الخريدة ، جـ ٢ ص ١٠٣ .
(٣) الخريدة ، جـ ٢ ص ٧ .
(٤) ، (٥) فى أدب مصر الفاطمية ، د. محمد كامل حسين ، ص ٣٠٠ .

وهى أيضاً وسيلة السفر تسير على مهل طوراً وتعدو خفاقاً طوراً آخر وهذا أحد الشعراء يطلب من ممدوحه أن يعينه على الوصول إليه ويهديه فرسا حدد له سماته فى الأبيات التالية :

وأعنْ على سفرى إليك بأجْردٍ طاوٍ يطيقُ بجريه ميدانَه
جذلانَ ينفضُ مذرَوَيْه كما مشى للسكر طافحَ سلسل نشوانُه
يعدو على مهلٍ فتحسبُ أنه بازٍ طوى بُعْد المدى طيرأنَه
ويروحُ يومَ السَبْقِ مُجريه على ثقة بأنْ له يُحاز رهانَهُ
والنفسُ تُوقِنُ أننى سأعودُ عن هذا المقام وفى يدىَّ عنانُه (١)

وكما استخدم المصريون الوسائل البرية فإنهم استخدموا كذلك الوسائل البحرية والنهرية. ويبدو أن ركوب البحر أو النهر كان محفوفا بالمخاطر مما جعل كثيراً من الشعراء يعبرون عن خوفهم من ارتياد هذا الطريق (٢) .

الندوات الأدبية :

كانت الأديرة والمتنزهات العامة ملتقى الأدباء والشعراء بمصر منذ زمن الطولونيين وفى حكم الإخشيديين والفاطميين ، ولكن هذه الندوات ضعف سوقها أيام الأيوبيين ، وذلك لأنهم لم يشجعوا هذا النوع من اللهو ، فاتجه الأدباء إلى أماكن أخرى يتناشدون فيها الشعر ويتطارحون البداثة ويتناولون بالنقد بعض ما يقولون (٣) .

وقد حدثنا ابن خلكان عن هذه الملتقيات الأدبية فى ترجمته للشاعر ابن سناء الملك الذى عاصر مجموعة من الشعراء المجيدين وكانت لهم مجالس تجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ودخل فى ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات وكانوا يجتمعون على أرغد عيش (٤) .

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ص ٥١ .

(٢) راجع هذا الكتاب ، ص ١٢٧ .

(٣) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ، محمود مصطفى ص ٢٨٠ .

(٤) وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

ونقل لنا "ابن شاكر" مجلسا لبعض شعراء مصر الأيوبيين كان فى مسجد من ليالى رمضان، وعندما وقد فانوس السحور اقترح بعض الحاضرين على الأديب أبى شجاع يوسف المنبوذ بالنعجة أن يصنع فيه شعرا وإنما طلب منه إظهارا لعجزه فصنع وأنشد.

ونجمٍ منَ الفانوسِ يشرقُ ضوءه ... ولكنَّه دونَ الكواكبِ لايسرى

ولم أرَ نجماً قطُّ قبلَ طلوعِه ... إذا غابَ ينهى الصائمينَ عنْ الفطرِ

قال على بن ظافر فانتدبت له من بين الجماعة وقلت له : هذا التعجب لا يصح لأنا قد رأينا نجوما لا تدخل تحت الحصر ولا تحصى بالعد إذا غابت تنهى الصائمين عن الفطر وهى نجوم الصباح فأسرف الجماعة فى تقريعه فصنع أيضا وأنشد :

هذا لواءُ سحورٍ يستضاءُ بِه ... وعسكرُ الشُّهبِ فى الظَّلماءِ جرَّارُ

والصائمون جميعاً يهتدون به ... كأنَّه علمٌ فى وسطِه نار

وصنع الفقيه القلعى :

وكوكبٍ منْ ضرامِ الزَّندِ مطلعُه ... تسرى النجومُ ولايسرى إذا رقبا

يراقبُ الصبح خوفاً أنْ يفاجئَه ... فإنْ بدا طالعا فى أفقِه غربا

كأنَّه عاشقٌ وافَى على شرفٍ ... يرعَى الحبيبَ فإنْ لاح الرَّقيبُ خبا

ثم ذكر على بن ظافر أنه صنع وأن غيره صنع فى كلام طويل ذكره « ابن شاكر »(١).

الأعياد الوطنية والدينية

أمدنا الأدب العربى بسجل حافل عن أعياد مصر القومية والدينية التى كانت تحتفل بها حكومة وشعبا فى عصر ازدهارها الأدبى وهى أعياد مختلفة المصادر متعددة النزعات تجمعت من جهات بعيدة أو قريبة، فبعضها يرجع إلى العصور الفرعونية كالاحتفال بوفاء النيل، وبعضها عرفته مصر من خلال احتكاكها بغيرها من الشعوب كعيد النيروز الذى أخذته عن

(١) فوات الوفيات ، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى جـ ٢ ص ١٠٨ القاهرة ١٩٤١ م .

الفرس وأمدتها المسيحية بأعيادها كعيد رأس العام وعيد الغطاس، كما أمدها الإسلام بعيدى الفطر والأضحى، واستحدثت الشيعة فى مصر أعيادا خاصة كيوم عاشوراء.

وأصبحت هذه الأعياد مظهرا من مظاهر مصر الاجتماعية ومجالا يستظهر فيه الحكام قوتهم تمكينا لنفوذهم، ومسرحا يتبارى فيه الكتاب بأقلامهم فينشئون الرسائل مهنئين ويزفون بها إلى سائر الأمصار مبدعين فى وصف ذلك اليوم وماجرى فيه. وكما كانت مهرجانا شعريا تلهج فيه ألسنة الشعراء بوصف اليوم ومديح السلطان، ويتلقى فيه المبدعون جوائزهم وعطاياهم(١).

وقد أشار (عمارة اليمنى) إلى كثرة الأعياد الوطنية والدينية فى مصر الفاطمية فى قصيدة رثى بها دولة الفواطم – فقال :

أبْكِي علَى مَاتَـراءتْ مِنْ مكارِمكـم ... حالَ الزَّمانُ عليـها وهـى لـمْ تحـلِ

دارُ الضيافةِ كانـتْ أُنـسَ وَافدِكـم ... واليومَ أوْحشُ منْ رَسْـمٍ ومِنْ طـللِ

وفطرةُ الصَّومِ إذْ أضـحتْ مكارمكـم ... تشكو من الدَّهرِ حيفاً غيرَ محتـملِ

وكسوةُ الناسِ فى الفصْلَين قد درستْ ... ورثَّ منـها جديـدٌ عندهـم وبلـى

وموسمٌ كان فِى يـومِ الخـليجِ لكـم ... يأتـى تجمُّـلكم فـيه علـى الجـملِ

وأوَّلُ العـامِ والعيديـن كـم لكـم ... فيهنَّ مِنْ وَبْلِ جودٍ لـيسَ بالوشـلِ

والأرضُ تهتزُّ فـى يومِ الغديـرِ كمـا ... يهتزُّ مابـيَن قصرَيْكُم مـن الأسَلِ

والخيلُ تعرضُ فى وَشْيٍ وفى شيـةٍ ... مثل العرائسِ فى حَلْيٍ وفى حُلَلِ(٢)

الاحتفال بوفاء النيل :

لعل أقدم أعياد مصر القومية هو عيد وفاء النيل الذى علم المصريين أن يستقبلوه بالفرحة والبشرى فى أيام معلومة من العام، فيخرج السلطان والأمراء يسيرون فى موكب من

---

(١) ذكر المقريزى فى خططه أعياد مصر الفاطمية تفصيلا انظر خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٣٨٤ .
(٢) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٩٣ .

الجنود ويتوجهون إلى باب اللوق ويلعبون الكرة ويحتشد الناس من كل فج يأكلون ويشربون ويمرحون ويشاركون فى مختلف الألعاب احتفاء بوفاء النيل. ويبدع كتاب الديوان فى إنشاء رسائل يزفونها إلى مختلف أقطار الخلافة تخبرهم ببلوغ الماء وارتفاعه واحتفاء السلطان وجنوده وشعبه، وتدعوهم إلى مشاركة مصر، فرحتها بإقامة مهرجانات مماثلة فى كل إقليم وقطر لتعم البهجة سائر الناس.

وهذه رسالة موجهة من الخليفة الفاطمى إلى واليه على "طرابلس" فى تلك المناسبة : "ولما كان يوم كذا ركبنا إلى الميدان السعيد فى أتم وقت أخذ من السعد بمجموعة وأظهر فى أفق العساكر من وجهنا الشريف البدر عند طلوعه، ولم نبرح يومنا المذكور فى عطاء نجيده، وإنعام نفيده، وإطلاق نبدئه ونعيده، والأولياء بين أيدينا الشريفة يمرحون، وفى بحار كرمنا المنيف يسبحون، وفى ميدان تأييدنا المطيف يسيحون والكرات كالشمس تجنح تارة وتغيب، وتخشى من وقع الصوالجة فتقابلها بوجه مصفر مريب، ثم عدنا إلى القلعة المنصورة على أتم حال، وأسعد طالع بلغ الأنام الأمان والآمال والعساكر بخدمتنا الشريفة محدقون، ومماليكنا بعقود ولائنا مطوقون، والرعايا قد ألبسها السرور أثوابا، وفتح لها من الابتهاج أبوابا، وقد آثرنا إعلام الجناب بذلك ليأخذ حظه من هذه المسرة والبشرى، ويشترك هو والأنام فى هذه النعمة الكبرى، ومرسومنا للجناب أن يتقدم بالركوب بمن عنده من الأمراء فى ميدان طرابلس المحروسة ويلعب بالكرة على جارى العادة فى ذلك ليساهم أولياء دولتنا القاهرة فى ذلك ويسلك من طرقهم الجميلة أجمل المسالك (١) .

ويرتبط بفرحة الوفاء للنيل احتفال آخر هو فتح الخليج وربما كان الاحتفالان فى يومين مختلفين فى بعض العصور ثم صار الاحتفال بهما احتفالا واحدا فيما بعد (٢).

ومهما يكن من أمر فإن الأدب العربى شعره ونثره سجل لنا مباهج الشعب واحتفاء السلطان ومساهمة الأدباء والشعراء فى الاحتفال بهذا اليوم.

يخاطب "عمارة اليمنى" الخليفة العاضد مهنئا ومادحا بيوم الخليج فيفضله على سائر الأعياد واصفا الماء أيام الفيضان وقد تكدر لونه، ثم يقارن بين عطاء النيل وعطاء ممدوحه :

(١) صبح الأعشى جـ٨ ص ٣٣٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٥ .

شرفَــت أمـيرَ المؤمنيـن مواسـمٌ | أضحتْ تـؤرِّخُ باسمِـكم وتسـطّرُ
وأجـلُّها يــومَ الخليـجِ فإنَّـه | مـن بينـها يـومٌ أغـرُّ مُشَـهَّرُ
وافاكَ فيـه النِّيلُ وهـو مـن الحـيا | خجـلٌ يقـدِّمُ رجلَـه ويؤخِّـرُ
لـولا تعـثُّرُه بأذيـالِ الثَّـرى | ما كـانَ مـذرَوراً علـيه العـثْيَرُ
لـوْ لـمْ تـغبِّر بالنَّـدى فـى وجهِـهِ | مـا لاح قـطُّ علـيه لـونٌ أغْـبَرُ
ولقـدْ عدِمْنَـاه فَنُبْـتَ نيابـةً | عَزَّ الغنىُّ بـها وأثْـرَى المعْـسِرُ(١)

وتطير الرسائل حاملة آيات البشرى مفصلة ماجاء فى ذلك اليوم، مطمئنة سائر الأقاليم بسلامة الموكب السلطانى ونجاح الاحتفال القومى.

وهذه رسالة موفدة من مصر إلى نواب السلطة بالممالك الشامية :

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القبط بادرت إلى الوفاء شيمه ، وأغنت أمواجه عن منة السحب فذمت عندها ديمه ، وزار البلاد منه أجل ضيف فرشت له صفحة خدها للقرى فعمها كرمه، وبلغ من الأذرع ستة عشر ذراعا ورفع لواءه بالمزيد ونشر وجاء بأنواع البشر، فرسمنا بتعليق ستر مقياسه، وتخليقه وتوضيع أنفاسه، وفى صبيحة اليوم المذكور كسر سد خليجه على العادة، وبلغ الأنام أقصى الإرادة، وتباشر بذلك العام والخاص، وأعلنت الألسنة بحمد ربها بالإخلاص، وسطرها وهو بفضل الله ورحمته متتابع المزيد، بسيط بحره المديد، ومتجدد النمو فى كل يوم من أيام الزيادة جديد (٢) .

وعقب مراسيم الاحتفال بفتح الخليج يجلس السلطان فى مكان على النيل ويلتف من حوله عليه القوم ويتبارى الشعراء فى ذلك الميدان فيدلى كل بدلوه ويفوز أقدرهم بالجوائز والهبات. وهذه صورة لواحد من هذه المهرجانات :

توافد الشعراء على مجلس الخليفة الفاطمى فى تلك المناسبة. فتقدم شاعر يدعى (ابن جبر)وأنشد.

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ص ٢٢ ، ٢٢٤ .

(٢) صبح الأعشى ، جـ٨ ، ص ٣٣١ .

فُتِحَ الخليجُ فسالَ منْهُ الماءُ ... وعَلَتْ عليهِ الرايةُ البيضاءُ

فَصَفَتْ مواردُه لنا فكأنه ... كفُّ الإمامِ فعَرْفُها الإعطاءُ

فانتقد الناس قوله : فسال منه الماء وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ثم تقدم شاعر يقال له مسعود الدولة ابن جرير وأنشد :

مازالَ هذا السدُّ ينظُر فتحَه ... إذنَ الخليفةِ بالنوالِ المرسَلِ

حتى إذا برزَ الإمامُ بوجْهِهِ ... وسطا عليه كلُّ حاملِ معولِ

فانتقد الناس عليه البيت الثانى، وقالوا : أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه، ومع أنه قصد فتح السد بالمعاول، ولكنه لشؤم طالعه خلط بين الضمائر، ثم تقدم شاعر ثالث يقال له "كافى الدولة أبو العباس" وقال :

لِمَنَ اجْتِمَاعُ الخَلقِ فى ذَا المشْهَدِ ... للنّيلِ أمْ لكَ يابْنَ بِنْتِ مُحَمّدِ

أم لاجتماعِكما معاً فى موطنٍ ... وافيتما فيه لأصدقِ موعدِ(١)

فنال إعجاب الحاضرين وهبات الخليفة :

وقد أخذ كل شاعر وكاتب بنصيب فى وصف النيل والاحتفاء بفتح الخليج "فابن الساعاتى" يتأمل كسر الخليج ويصف يومه بأنه يوم مشهود فيه مايرى ومايسمع ويشبه انحدار الماء إثر كسره بانحدار الدموع التى تفيض من ذوى القلوب المحطمة :

إنَّ يومَ الخليجِ يومٌ من ... الحسنِ بديعُ المرئى والمسموعِ

كَم لَديهِ مِنْ ليثِ غابٍ صئولٍ ... ومهاةٍ مثلِ الغزالِ المروعِ

وعلى السدِّ عزّةٌ قبل أن ... تملكَه ذلةُ المحبُّ الخضوعِ

كسروا جسرَه هناك فحاكى ... كسرَ قلبٍ يتلوه فيضُ دموعِ (٢)

---

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى ، أحمد أمين وآخرين ، جـ ٢ ، ص ٣٢ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ٣٨٨ .

وللقاضى الفاضل رسائل متعددة فى وفاء النيل كتبها عن السلطان صلاح الدين الأيوبى منها تلك الرسالة :

"نعم الله سبحانه وتعالى من أضونها بزوغا، وأخفاها سبوغا، وأصفاها ينبوعا، وأسناها متفوعا، وأمدها بحر مواهب، وأختمها حسن عواقب النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره، ويرمى النبات حجره ويحمى مطلعه الحيوان، ويجنى ثمرات الأرض صنوانا وغير صنوان، وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها، ويوضح معنى قوله تعالى : وبارك فيها وقدر فيها أقواتها"(١).

الاحتفال برأس السنة :

احتفلت مصر بأول المحرم "بداية العام الهجرى" وكان الاحتفال رسميا وشعبيا وفى الأدب العربى عدة رسائل ديوانية تشير إلى احتفال المصريين بهذه المناسبة، ومنها رسالة نقلها القلقشندى عن مذكرة أبى الفضل الصورى جاء فيها :

"الحمد لله الذى لم يزل يولى إحسانا وإنعاما، وإذا أبلى عبيده عاما أجدلهم بفضله عاما، فقد أمدكم معاشر (الخلفاء) كرما ومنا، وأتاكم من جوده أكثر مما يتمنى ومنحكم من عطائه مايوفى على ما أردتموه، (وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه) وقد استقبلتم هذه السنة السعيدة، وإذا عملتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراض البعيدة.

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذى غدت الجنة مدخرة لمن عمل بهداه لما سمعه ومهيأة لمن آمن به واتبع النور الذى أنزل معه، وبين بإرشاده ماتجرى أمور السنين عليه فى العدد والحساب، ونسخ ماكانت الجاهلية (تفعله) فيه زيادة فى الكفر وضلالا عن الصواب، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى كمل الله الإسلام بإمامته : وضاعف الأجر لأهل ولايته، ومنح شيعته مقبول شفاعته. وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه، والقائمين بواجب حقه لى والعاملين فى سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه. ويضمن غفرانه ورضوانه،

---

(١) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ص ٣٦٦ .

وسلم عليهم أجمعين، سلاما باقيا إلى يوم الدين. وإن أحق النعم بنشر الذكر، وأرحبها للوصف وأعمال الفكر، نعمة رفعت الشك وأزالت اللبس، ووضح ضياؤها لأولى الألباب وضوح الشمس، واشتراك الناس فتضاعفت الفائدة لديهم، وانتفعوا بذلك فى تواريخهم ومعاملاتهم وما لهم وما عليهم، وتلك (هى) المعرفة باليوم الذى هو مطلع السنة وأولها، ومبدؤها ومستقبلها"(١).

الاحتفال بعيد الأضحى :

ومن أعياد مصر الرسمية والدينية عيد الأضحى، وكان الخليفة يخرج فى موكب رسمى لأداء الصلاة، ويبعث بالتهانى إلى سائر الأقطار من ذلك ماكتبه ابن الصيرفى فى بعض هذه المناسبات.

"وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم أظهر الله فيه قوة الدولة واقتدارها، وأوجب فيه – رغبة ورهبة – مسارعة النفوس المخالفة إلى الطاعة وابتدارها، وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر، وحافظت على ماتحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص فى خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأذمة، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طوالعه، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه وقصد المصلى فى كتائب لجبى، ومواكب للتعظيم مستوجبة، وعزة تتبين فى الشمائل.. والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات، (٢) .

ويستلهم الشاعر "أبو الحسن بن حيدرة العقيلى" شعائر هذا العيد فى مجونه :

قُمْ فانْحرِ الرَّاحَ يومَ النَّحْرِ بالماءِ ... ولا تضحِّ ضحىً إلَّا بصهْباءِ

وعُجْ على مكَّةَ الروحاءَ مبتكراً ... فطُفْ بِها حول ركنِ العودِ والنايِ(٣)

---

(١) ، (٢) صبح الأعشى ، جـ ٨ ص ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر ، د . ط ٨ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠ ، ص ٤٨٦ .

الاحتفال بشهر رمضان :

وإذا أقبل شهر رمضان تبادل الناس الزيارات وأخذ الشعراء يزفون التهنئة إلى كبار الشخصيات في الدولة، من ذلك ما كتبه ظافر الحداد إلى قاضي الإسكندرية الأفضل بن مكين الله بن حديد في هذه المناسبة مهنئا :

شَهْرُ الصِّيامِ بِكَ المُهنَّأ	إذْ كانَ يشبهُ منكَ فنَّا
ما سارَ حولاً كاملاً	إلا ليسرقَ منْك معْنَى
فإذا مدحْنَاك احتقرْ	نا ما نقولُ وإن أجدْنَا(١)

وتخرج المكاتبات من دار الخلافة المصرية واصفة الاحتفال برؤية هلال رمضان وثبوت رؤيته، وتهنيء المسلمين بصوم الشهر من ذلك ماكتبه "ابن الصيرفي" :

"الحمد لله كالىء خلقه في اليقظة والمنام، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للأنام، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب، أخلص ولي، وأشرف وصي وأفضل إمام، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين الى دار السلام، صلاة دائمة الاتصال، مستمرة في الغدو والآصال". وإن من المسرة التي تتهادى : والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفرادى مامن الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين يوم كذا غرة شهر رمضان من شهر رمضان من سنة كذا، وإعلاما بأول الشهر وافتتاحه، وإن الصيام الأول من فجره الأول قبل تنفس صباحه، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده، وأوليائه وأنصاره وعبيده، والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة، وملائكة الله مطيفة حافة، وعودة إلى قصوره الزاهرة، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة" (٢).

وربما جاء رمضان يوم الاحتفال بفتح الخليج وهو يوم الشراب واللهو والمتع والطرب فماذا يصنع المصريون وهم ميالون إلى الأخذ بحظهم من المتع وفي الوقت نفسه حريصون على

(١) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ٣٨ .

(٢) صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٣١٦ .

احترام الموروث من العادات والتقاليد وحب الدين واحترامه، يحدثنا المقريزى عن موقف كهذا فيقول :

"كان يوم كسر الخليج من أيام القاهرة وأعيادها يشترك فيه السلطان والأمراء والناس أجمعين : وفى تلك السنة اشتد إفراط الناس وغلبت المجاهرة بالمنكرات والإعلان بالفواحش ولم ينسلخ رمضان إلا وقد شهد مالم يشهده رمضان قبله فى الإسلام(١) .

ثم يتابع المقريزى وصف ذلك اليوم فيقول : "ركب العزيز وكثر المتفرجون وازدحم الغوغاء وحملوا العصى وتراجموا بالحجارة وفلقت أعين وخطفت مناديل وكانت العادة جارية بأن يوقر شهر رمضان من اعتصار الخمر ولايحدث نفسه أحد بفسخ الحرمة وهتك الستر وفى هذا الشهر غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، وفيه كثر اجتماع الرجال والنساء على الخليج لما فتح، وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بمعاص قبيحة" (٢) .

وربما عكس لنا الشعراء إيثارهم المتعة والشراب على احترام العادات الدينية. وقد تجلى ذلك فى موقف أحد الشعراء المصريين عندما أخذ يهنىء أحد الحكام بحلول شهر رمضان فجعل التهنئة فى نظره يوم انسلاخ الشهر والعودة إلى التمتع بالطعام والشراب روى العماد عن الشاعر قمر الدولة أبى طاهر جعفر بن داوس المصرى أنه حضر مجلس مؤتمر الدولة بن صدقة والناس يهنئونه بشهر رمضان فقال قمر الدولة :

لا أهنّيك بالصِّيام لأنِّى ... واثقٌ بالهناءِ يومَ العيدِ

بل أهنىء بالأكلِ والشُّربِ والزَّفْنِ وصوتِ الغنا وجسِّ العودِ

لابصوم يُجفِّفُ الكبدَ حتى ... يجْعلَ العودَ وهو مثلُ العودِ(٣)

عيد النيروز :

ومن أعياد مصر الوطنية عيد النيروز، وقد ظل هذا العيد بين المصريين منذ أخذوه عن الفرس حتى كانت الدولة الفاطمية، وفى عصرها تفنن المصريون بالمباهج والمرح بكثرة أعيادهم وتشجيع الخلفاء لهم ومشاركتهم فى كل هذه الأعياد.

(١) السلوك للمقريزى ، جـ ١ ، ص ١٩٢ ، هامش ص ١٠٩ من المصدر نفسه .

(٢) المرجع السابق ،ص ١٣٦ .

(٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠ .

وقال (القاضي الفاضل في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : وجرى الأمر في النوروز على العادة من رش الماء، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافح بالإنطاع وانقطع الناس عن التصرف، ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة" (١) .

عيد الغطاس :

ومن أعياد مصر الدينية عيد الغطاس، وهو من أعياد النصارى يشاركهم فيه الشاعر تميم المعز لدين الله الفاطمي بأسلوب ساخر فهو يدعهم يقيمون شعائر ذلك اليوم ليمضي إلى ملذاته ويستبدل بالغطاس في الماء الغطاس في "باطية" عامرة بالشراب :

خلِّ مَنْ يأتمُّ بالصُّلْـ … بانِ يغدُو في اختلاطِ
وأغدُ للصهباءِ نسقا … ها ونسقى ونعاطى
غطسوا في الماءِ جهلاً … وغطسْنا في البواطي*
وشربْناها عقاراً … خندريساً بنشاطِ(٢)

كثرة الأعياد وعلاقتها بالشخصية المصرية :

لقد شغلت الأعياد المصرية حيزا غير صغير في الأدب الفاطمي والأيوبي ولاسيما الرسائل الديوانية لكثرتها من جهة، واهتمام الحكام بها من جهة أخرى. ولعل كثرة الأعياد المصرية في تلك المرحلة ترجع إلى الأسباب التالية :

---

(١) السلوك للمقريزي جـ ١ . هامش ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمي ، تحقيق محمد حسن الأعظمي ، ص ٢٥٨ . * البواطي : جمع باطية : وهي إناء عظيم من الزجاج يملأ بالشراب ويوضع بين الشاربين يغرفون منه . يقول شهاب الدين النويري عن عيد الغطاس إنه يكون في الحادي عشر من شهر طوبه ، ويقولون إن يحيى بن زكريا وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأردن ، ويزعمون أن عيسى عليه السلام لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة ، والنصارى يغمسون أولادهم فيه ووقته شديد البرد نهاية الأرب ، السفر الأول ، النويري ، ص ١٩٢ .

أولا : وفرة الموروث والمستحدث : فللمصريين حضارات قديمة ورثت عنها بعض الأعياد، ومن بين حضاراتها الدينية أعياد مسيحية، ثم جاءها الإسلام فلم تمنع سماحته ولارحابة صدور المصريين من أن يجمعوا بين الأعياد المسيحية والإسلامية فى مصر، ثم أتاها الفاطميون بأيام جديدة فتوسعت لها مصر مكانة بين أعيادها، وهكذا كان البعد الحضارى سببا فى وجود كثير من هذه الأعياد.

ثانيا : موقف الحكام : فقد كان الحكام يشجعون ويشاركون لعدة أسباب منها :

١ - التقرب إلى الشعب المصرى : ولاسيما بعد استقلال مصر استقلالا ذاتيا وماتبع ذلك من محاولة حكامها الاعتماد على شعبها لتدعيم سلطانهم، وقد استلزم هذا التقرب عدم محاربة الشعب فيما تعوده من الاحتفالات الوطنية أو الدينية.

٢ - انتهز الفاطميون فرصة اهتمام المصريين بالأعياد وراحوا يبثون من خلالها عقائدهم ومبادئهم ممثلة فى أيام يقترن فى بعضها الاحتفال بالتوسعة والمرح وفى غيرها بإظهار الأسف والحزن كيوم عاشوراء.

٣ - نجح الفاطميون فى اجتذاب المصريين إلى أعيادهم بما أحاطوها من مظاهر الإسراف والمبالغة فى الزخرف والترف، لأنهم عرفوا حب المصريين لما فيه مبالغة والمبالغة مطلب الفاطميين، لأنها سبيل الغموض والإخفاء، فكأن المبالغة لفائف تختفى فيها الشعائر والمبادىء والأهداف.

ثالثا : طبيعة المصريين، وقد أثرت هذه الطبيعة فى كثرة الأعياد من عدة زوايا :

١ - فقد اعتلى بعض المسيحيين فى الدولة مناصب كبيرة، واهتموا بأعيادهم ولم يجد إخوانهم المصريون من ذوى الأصول القبطية غضاضة فى مشاركة إخوانهم بأعيادهم المسيحية، ونظر كل منهم إلى بعض الأعياد الموروثة كوفاء النيل أو النيروز على أنها أعياد مشتركة بينهما، ثم أحيا المسلمون أعيادهم الدينية، وهكذا التقى الجميع على الجمع بين هذه الأعياد.

٢ - الطبيعة المصرية مرحة، وكانت هذه الأعياد كما صورها الأدب مهرجانا للمرح واللعب وتناول الأطعمة واقتراف الملذات، وحتى ماكان يسوده الحزن ليس ببعيد

عن هوى الشخصية المصرية فهى شخصية عاطفية واو وليست أو الحزن يمثل جانبا فيها.

٣ - المظهر الجماعي فى الأعياد، وهو مظهر يستهوى المصريين ويندفعون إليه، كما لاحظ الأستاذ العقاد أن بائع الحلوى الذى يغنى ويزمر ينتهى من بيعها قبل زميله الذى لا يقوم بذلك الأداء.

مظاهر اللهو والمجون

أخذت حياة اللهو والمجون مكانا بارزا فى الأدبين الفاطمى والأيوبى، وذلك لانتشارها فى المجتمع المصرى وتعدد مظاهرها.

وكان من العوامل التى ساعدت على وضوحها ظروف الحياة الاجتماعية وتأثير الحروب الصليبية.

وقد صور أدب اللهو والمجون بعض ملامح الشخصية المصرية من خلال عدة مظاهر :

١ - الدعوة إلى المتع والملذات. ٢ - وصف الخمر ومجالسها.

٣ - وصف أماكن اللهو ٤ - الغزل بالغلمان.

٥ - الفحش فى تصوير العلاقة بالمرأة. ٦ - مجالس الحشاشين.

الدعوة إلى المتع والملذات :

منذ العصور الجاهلية والشعراء هم قادة الناس إلى اقتراف الملذات، وفى العصر العباسي حمل أبو نواس وعصبته الماجنة لواء المجاهرة بهذه الدعوة.

وفى الأدبين الفاطمى والأيوبى نداءات إلى التمتع واللهو رددها الشعراء المصريون فابن النبيه يدعو إلى الحرص على اغتنام الفرصة للتمتع بالشراب. فالعمر كالكأس يروق أوله ثم يمج أخره :

خذْ مِنْ زمانك ما أعطاكَ مغْتنماً ... وأنتَ ناهٍ لهذا الدهرِ آمرُهُ

فالعمرُ كالكأسِ تُستَحلى أوائلهُ ... لكنَّه ربَّما مُجَّت أواخِرُهُ(١)

---

(١) ديوان ابن النبيه المصرى، ص ٩٤

ويتمادى ابن النبيه فى دعواه مهونا من شأن الذنوب مهما عظم أمرها :

واجسُر على فرصِ اللذَّاتِ مُحتَقِراً عظيمَ ذنبِك، إنَّ اللهَ غافِرُه (١)

ويعتز أحد الشعراء بأنه ممثل الشريعة النواسية فى مصر، مسئول عن إقامة شعائرها من هيام بالغلمان وتغزل بالحسان وإدمان الدنان :

أنَا نائبُ الشَّرْعِ النُّواسى دعنى وباطيتى وكاسى

أهوى الغزالَةَ كاعبَاً وأهيمُ بالظَّبى الخُمَاسِى

من كلِّ معتدلٍ رشيقِ القدِّ ممشوقٍ خلاسى (٢)

وينادى البهاء زهير صاحبه أن يبكر بالصبوح التى وصفها بأنها رائقة كالنسيم، معتقة لم يفض خاتمها، فقد عتقها المجوسى حتى غدا لها قدر عظيم عنده، وتعبد رهبان الدير حولها، ومع ذلك فهى رخيصة السعر وإن كانت عظيمة القدر والقيمة :

رَقَّ فى الجوِّ النَّسيمُ فتفضَّلْ يانديمُ

وكأنَّ الفجْرَ نهرٌ غرقتْ فيه النجومُ

فاجلِ بالصَّهْباءِ ليلاً بقيتْ منه رسُومُ

واسبقِ الشمسَ بشمسٍ لاتُواريها الغيومُ

قهوةٌ رقَّتْ فما فى كأسِها الا نسيمُ

بنتُ كرْمٍ لمْ يفُزْ قطُّ بِها إلا الكريمُ

وعلى طينتِها منْ سالِفِ الدَّهْرِختومُ

لمْ يَزَلْ عنْدَ المجوسىِّ لها قدرٌ عظيمُ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .

ولـــها الـــــراهـــبُ فـى الديْـــرِ يصـــلِّى ويصـــومُ

وقلـــيلٌ كـــلُّ مـــايطلـــبُ فيـــــــها ويـــــــسومُ (١)

وصف الخمر ومجالسها :

والحديث عن الخمر قاسم مشترك بين جميع الشعراء المصريين فى هذه الفترة وصفوها وصفا ينم على تجاربهم الحقيقية معها، وإن كنا نلاحظ تشابها كثيرا بين وصفهم الخمر ومجالسها مع ماردده أتباع أبى نواس، فابن النبيه يدعونا الى التبكير بالصبوح ويصف لونها وتغيرها عند امتزاجها بالماء :

قُمْ فاصطبحْ من شمْــسِ كأسِــك واغتبقْ بكواكـــبٍ طلعـــتْ مـــــن الكَاسَـاتِ

صـفـــراءَ صافيـــةٍ توقّـــد بردُهـــا فعجـــبتُ للنّيـــران فـــى الجـــنّاتِ

ينسلُّ مـــنْ قارِ الظـــروفِ حبابُـــها والـــــدُرُّ مجتـلبٌ مـــن الظلمـــاتِ

وتريـك خيــطَ الصُّــبْحِ مفــتولا إذا مرقــت مـــن الراووق فـــى الطاســـات

عـذراء واقـعها المـــزاجُ أمـــا تـــرى مـــنديلَ عذرتِهـــا بكـــفِّ ســـُقـــاةِ؟ (٢)

ويتـأمل "النجيـــب أبو المكارم" خـمره المعتـــقة وقـد لاح من الـــدن نورها يسطع كالشمس قائلا :

ومحجوبةٍ فى الدَّنِّ قـــدْ كانـــتْ الأُلـــى

قديمـــاً أعدَّتهـــا لصـــرفِ همومِـها

يلوح مـــن الكاســـاتِ ساطـــعُ نُورِهـــا

كشـــمـــسٍ تبدّتْ مـــنْ فتوقِ غيومِـــها

---

(١) أ - البهاء زهير . د . عبد الفتاح شلبى ، ص ١٠٣ .

ب - شرح ديوان (بهاء الدين زهير) ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢) ديوان (ابن النبيه المصرى) ، ص ١٢٤ .

ولستَ تَرى إلاَّ شُعاعاً وإنما
يدلُّ عليها نُغمةٌ من نَسِيمها(١)

ويتأمل شاعر آخر حركة احتساء الكأس وعودة امتلائه من يد الساقى فيصور فقاقيعها بعقد قد ارتسم فوق الكأس ثم أخذت صورته تتضاءل فى قاع الكأس عند احتسائها وكأن صورة العقد وقعت ساجدة، فإذا عادت الكأس إلى الامتلاء تلاشت تلك الفقاقيع وتبددت الصورة :

وكَمْ ليلٍ جلوتُ الكأسَ فيه   وقدْ نَظَم الحَبابُ له عُقُودا
ونادمْنَا بهِ صوراً إذا ما   احْتَساها شاربٌ وقعتْ سجودًا
يُلْبِسُها المديرُ لها بروداً   فيَسلبُ شربُها تلك العقودا(٢)

وصف أماكن اللهو :

كانت الأديرة مكانا للمتع والشراب، وما أكثر هذه الأديرة التى تغنى فيها الشعراء المصريون وغيرهم من زمن بعيد(٣).

يحدثنا تميم بن المعز الفاطمى عن صبواته فى دار القصير مع رفاقه طلاب القصف والشراب الذين يطيب له أن يخلع معهم نقاب العذار ليصل متعة الليل بالنهار :

كَمْ بديرِ القُصَيْرِ لى مِنْ بكورٍ   ورواحٍ على الصَّبا والعَقارِ
حيثُ أخلُو بِما أحبُّ مِنَ القصْفِ   قليلُ الوقارِ لستُ أدارى
كم صَبُوحٍ شَدَدْتُه بغبوقٍ   وظلامٍ وصلْتُه بنهارِ
إنَّما العيشُ أنْ تروحَ عشيًا   قاصفاً عازفا خليعَ العذارِ(٤)

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٣) راجع هذا الكتاب ص ١٠٧ وما بعدها .
(٤) ديوان تميم بن المعز لدين الله تحقيق محمد حسن الأعظمى . ص ٢٣٥ . ودير القصير على رأس جبل مشرف على النيل قرب حلوان .

وكانت الأديرة منتشرة فى أرجاء مصر. ففى أقصى الصعيد كان ديرقنا مرتادا للهو والملذات، يقول عنه "ابن جهور" :

يـــا منــزلَ اللّهــوِ بديــرِقــنا ... قلبى إلــى تلـك الرُّبــى قـد حـنا

سُقيــــاً لأيامــك لمَّــا كــنا ... نمتــــارُ منــك لــذّةً وحسـنا

أيــــام لا أنعــم عيــش منــا ... إذا انتشـينا وصحونــا عدنــا(١)

وما أكثر أماكن اللهو التى تردد عليها المصريون يطربون ويرقصون ويشربون وقد شغفوا بالبرك وراحوا يبحثون عنها فى كل مكان فإن لم يجدوها فى بقعة حازت إعجابهم وطاب لهم التنزه إليها حفروها فيها وجلبوا إليها الماء وأقبلوا على الخروج إليها جماعات فى المواسم وفى غيرها، يقضون عندها الأيام الطوال والقصار فى فنون اللهو وصنوف السمر ويستحثون الشعراء على النظم : من ذلك ماروى أن أبا البركات بن عثمان أخذ وردا أحمر وألقاه فى البركة وطلب من رفيقه ظافر أن ينظم شيئا فيما رأى فقال :

وساعـــةٍ جــادَ بهـــا العمـ ... ـر نـــام عــن خلســتها الدهــرُ

والطيــرُ والـدولابُ يشـدو لــنا ... كمطـــــربٍ يتبعــــه زمــرُ

والــوردُ فــوقَ المــاءِ مــابيننا ... قــد نُثِــرَتْ أوراقـــه الحـمرُ

لــم تــرعيــنى منظــرا مثلــه ... مـــاء تلظـــى فوقـــه جمـــر(٢)

وانتشرت على شواطىء النيل وخلجانه أماكن المتع التى كان يغشاها جماعات الشعراء يصف "البهاء زهير" واحدا من هذه الأماكن العديدة ومافيه من عيش رغيد ويستغفر ربه عما اقترفه هناك من الملذات :

حبَّــذا نورٌ علـــى النّـــيل ... وكاســــــاتٌ تــــــدورُ

ومســــــرّاتٌ تمــوجُ الـــ ... أرض منـــــــــها وتمـــورُ

---

(١) الطالع السعيد ، هامش ، ص ١٢ .

(٢) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ١١٣ .

وقصـــــورٌ مـــــا العيـــشِ نلثُـــــه فــــيها قـــصورُ
كـــــمْ بِهَـــا قَـــدْ مــرَّلـــى أستغفـــر الـلــــهَ ســـــرورُ
كـــــل عيــش غـــير ذاك العيـــــشِ فـــى العالـــم زورُ
منــــــزلٌ لـــيس عـــلى الأر ضِ لـــــــه عـــندى نظـــيرُ[1]

ويقدم لنا "البهاء زهير" فى إحدى قصائده صورة كاملة من حياة المصريين فى هذه الفترة وخروجهم للتنزه على اختلاف طبقاتهم، العابد والفاسق كل ينشد من التنزه مايريده، ولكل نصيب، فعطاء الطبيعة المصرية وحياة شعبها يمنحان كل طالب مبتغاه :

نزلنـــــا شاطـــــىء النـــيل علـــى بســـط الأزاهـــيرِ
وقَـــــدْ أضحَـــى لـه بالـمو ج وجْــــــهٌ نو أساريــــرِ
وفـــى الشَّـطِّ حــبابٌ مثـلُ أنصـــافِ القواريــــــرِ
تسابقـــــنا إلـــى اللهـوِ وواتينـــــا بتبكـــــيرِ
وفيـــــنا ربُّ محـــرابٍ وفيـــــنا ربُّ ماخـــــورِ
ومـــن قــــومٍ مســاتيـــر ومـــن قــــوم مساخـــيرِ
ومـن جــــدٍّ ومـــن هـــزلٍ ومـــن حـــقٍّ ومـــن زورِ
فطـــوْراً فـــى المقاصــير وطـــوْراً فـــى الـسَّاكـــيرِ

وينحاز الشاعر إلى طائفة المتمتعين بجمال الطبيعة وشرب الخمر يحتسونها فى هذا المكان البهيج مع أنغام الشحارير وصوت النواعير :

عـــــلا حـــسُّ النواعـــيرِ وأصــــــواتُ الشَّحاريـــــرِ
وقـــــد طـــــابَ لـــنا وقـــتٌ صفـــــا مـــن غـــيرِ تكديـــرِ

---

(١) البهاء زهير ، د . عبد الفتاح شلبى ، ص ٩٩ .

فقم يا ألفَ مولاى أدرها غير مأمورِ
وخذْهَا كالدَّنانير على رَغْمِ الدَّنانيرِ
أدرْها من سنا الصبحِ تزد نورا على نورِ
عقاراً أصبحت مثل هباء غير منشورِ
بدت أحسنَ من نارِ رأتْها عينُ مقرورِ(١)

الغزل بالغلمان :

ارتبط بالحديث عن الخمر ومجالسها حديث أدباء هذه الفترة عن سقاتها وما يتمتعون به من جمال ودلال وظرف، وقد أعجب "ابن النبيه" من ساقيه بطول القامة وضخامة الردفين والتخنث فى الحركات ونعومة شعره المنسدل على جبينه.

يسعى بها عبلُ الروادف أهيفُ خَنثُ الشَّمائل شاطرُ الحركات
يهوى فتسبقه ذوائبُ شعرِه مُلْتَفَّةٍ كأساورِ الحيَّات

ومرة أخرى يوضح الشاعر شدة بياض وجه ساقيه مع شدة سواد شعره وترنحه فى مشيته وقد نحل خصره واكتنز عجزه :

ساق كأنَّ جبينَه فى شعرِه قمرٌ تبلَّجَ فى اللَّيالى السُّودِ
غصنٌ ترنَّح ردفُهُ فى خصرِه فعجبتُ للمعدومِ فى الموجودِ(٢)

ويزيد فى وصف عينيه الدعجاوين وشفتيه المعسولتين وزينته التى ارتسمت من المسك على هيئة خال فوق جبينه :

وضاحُ درِّ الثغرِ معسولُ اللَّمى متضايقُ الأجفانِ رحبُ الجيدِ
يلوى على زردِ العَذارِ دلالَه كم فتنةٍ بين اللوى وزرود
نبتت على الكافور مسكةُ خالِه والمسكُ ينبتُ فى الظِّباء الغيدِ(٣)

---

(١) البهاء زهير ، د . مصطفى عبد الرازق ، ط ١ ، القاهرة : دار الكتب المصرية ١٩٣٠ ص ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) ديوان ابن النبيه المصرى ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، ص ١٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤١ .

ولعل ابن النبيه يتغزل فى غلام تركى ذلك الذى وصفه بعينين دعجاويتين أما الشاعر "أحمد بن بلال" المعروف بدنقلة فإنه يتغزل فى غلام نصرانى يدعى ابن النحال. ويحدثنا عما أصابه من ضنى وتحول بسبب هيامه به، ثم أخذ يصور لنا مفاتنه وقد تقلد الصليب وربط على خصره زنارا أبرز حسنه، وقد أحس الغلام جماله فراح يتيه دلالا على شاعره :

نحولى من بنى النحّال بادٍ ... ببدر لَقَّبُوهُ أبا سعيدِ

تقلَّد بالصليب ومرَّ يسعى ... إلى قربانه فى يوم عيدِ

ولاث بذلك الزُّنّارِ خصرا ... حكى فى سقمه جسم العميدِ

سألتُ وصالَه فأبى دلالا ... ومر على كالظبى الشرودِ

وقال إذا عشقتَ البدر فاقنع ... إليه برعى طرفك من بعيد(١)

وافتن الشعراء فى وصف الغلمان ومفاتنهم الحسية والمعنوية، فتحدثوا عن الجيد والعينين والخدين والردفين والرقة والظرف والدلال، كما يعبر عن ذلك "ابن قتادة المعدل المصرى" :

أسباك منه جيدُه أم طرفُهُ ... أم شكلُه أم دلُّه أم ظرفُهُ

ياناظرى أم وَرْدُ وجنته الذى ... يلتذُّ للعينِ البصيرة قطفُهُ

صافحته فشكت أنامله الأذى ... وتألَّمت من لمس كفى كفُّهُ

فكأنَّ جسمى جفنه من سقمه ... أو خصره وكأنَّ همى ردفُهُ(٢)

ويلاحظ على النماذج السابقة أنها لاتختلف عما ردده أتباع "أبى نواس" ولم تبرزلنا جانبا خاصا بملامح الشخصية المصرية إلا ماتعكسه هذه الأشعار من أن الغزل بالمذكر كان سمة المجتمع المصرى فى تلك الفترة، ولكن الشاعر "أبا الفخر الأسوانى" يقدم لنا وصفا تنعكس عليه سمات الحياة المصرية. فقد اتخذ الفاطميون من يوم عاشوراء يوما حزينا يرتدون فيه السواد تبدو فيه الهيبة والوقار. ومع ذلك فإن الشاعر المصرى الماجن يشد انتباهه فى ذلك

(١) ، (٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ ، ٢٢٩ .

اليوم منظر غلام لبس ثوبا من الصوف فأخذ يغازله :

أيا شادنا قد لاح في زيِّ ناسكٍ ... فباح بمكنون الهوى كلُّ ماسكِ

رويدك قد أعجزتَ مايعجز الظبا ... وأضرمتَ نيرانَ الجَوَى المتداركِ

أنحن فتكنا يابن بنت محمد ... فتثار منّا بالجفون الفواتكِ ؟ (١)

وإذا كان بعض شعراء مصر تغزل بالغلمان من سقاة الخمور، وإذا كان بعضهم الآخر هام عشقا بهم ، ووصف مفاتن جمالهم، فإن فريقا ثالثا راح يمارس العشق تجربة ومباشرة جنسية. فابن سناء الملك يخبرنا عن ليلة من ليالي الوصال التي استمتع فيها يلثم الخدود ونال ما نال حتى مر الليل، وعندما مضى غلامه أخذ يمحو أثر خطوه بالقبلات لابسحب الذيل :

ظبيٌ بجسماء حالي الجيد بالعطَلِ ... لكنّه قد جلاه الحسنُ في حُللِ

ونلت مانلتُ مما لا أهم به ... ولاترقّت إليه همّةُ الأملِ

ومرُّ الّليل قد غارت كواكبه ... لما نوى الصبح تطفيلا على الطفلِ

لم أسحبِ الذّيلَ كي أمحو مواطئه ... لكنني قمت أمحو الخطوَ بالقبلِ(٢)

وأبو الفخر الإسناوي يحدثنا عن علاقته بغلامه الذي يزعم أنه تعفف به عن اللواط والزنى، ولسنا ندري بماذا يصف العلاقة التي كانت بينهما، والتي كانت سبب عفة الشاعر ؟!

لي شادنٌ هو أدنى ... إليَّ مُذْ كان منِّي

به تعفّفتُ عمّا ... يصمُّ بالعذلِ أذني

لأنّه صان عِرضي ... عن أن ألوط وأزني (٣)

ويصف هذا الشاعر مواضع الفتنة في غلامه، ويركزها في ضخامة الردفين :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٨٥ . الطفل : آخر الليل عند الشروق .

(٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ .

كثيبُ رملٍ فوقه صَعْدةٌ   من فوقها بدر تمام أطلْ

إنْ كان منْ سوُاك لا عابثا   فأنت مخلوق لذاك العمل

ولم يكن ردفك وعص النُقا   إلاّ لأن تتركز فيه الأسل(١).

ويتغزل النظام المصرى فى غلام نحوى، فيقول :

قمر فى حلقةِ النحو   مرعى ونبتُ

كلما أقبل يختال   إلى الحلقة قلت :

ليتنا ظرفا مكان   أنا فوق وهو تحت(٢)

وقد تبذل الأدباء فى محبينهم مما دفع العماد الأصفهانى ألا يثبت هذا الشعر فى خريدته واكتفى بذكر نماذج قليلة منه.(٣).

الفحش فى تصوير العلاقة بالمرأة :

واتخذ الفحش مظاهر مختلفة كان من أوضحها الغزل الحسي، بالمرأة فأحد الشعراء يصور لنا ليلة قضاها مع حبيبته فى العناق والضم بين الرياض وقد تجاوبت معهما عوامل الطبيعة فالرياض تبدى له من أسرارها معانى دقيقة فتتولاها الريح بالتفسير والشرح :

وليلةٍ بات فيها البدرُ يفضحُنا   غيظا على قمرى إذ باتَ يفضحُه

والرَّوضُ يبدى إلينا من سرائره   معنى يدقُّ ولفظُ الرِّيح يشرحُه

وقد تناهى بناضيقُ العناقِ إلى   حدٌ كمطبقِ الجفنين أفسحُه

كأنما قصدُ قلبينا لقاؤهما   دون الوسائطِ فى أمرٍ نصحَّحُه(٤)

وهذا شاعر آخر يبيت ليلة مستمتعا بمحبوبته وقد نامت على عضده فيقبلها تارة

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ ، وعص : كثيب الرمل المجتمع .

(٢) ، (٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ، ص ١١٨ .

(٤) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٢ ، ٤ .

ويشعرها فعل الهوى تارة أخرى.

ويـت ألثمــها طـورا وأشعرهــا

فــعل الهوى بـى وقد نامت على عضدى(١)

أما عمارة اليمنى فيفصح عن أمانيه التى يطمع فى تحققها عندما ملأ بيته بالحسناوات:

فهــــذه بدرتــــمُ وهـــذه غصـــنُ بـــانِ

أدور مـــن ذى إلـــى ذى وليـــس عـــندى تـــوانِ

قســـمتُ قســـمةَ عـــدلٍ والعدل فـــى الحـــبِّ شانـــى (٢)

مجالس الحشاشين :

انتشر شرب الحشيش فى البيئة المصرية فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ولعل الصوفيين الذين كثر قدومهم إلى مصر فى عهد صلاح الدين هم الذين أتوابها من بلاد المشرق فى خراسان والعراق، وكان فى بستان الكافورى بمصر مزرعة مشهورة للحشيشة الجيدة، فالشاعر زين الدين أبو عبد الله بن أبى بكر الحنفى يمدح الحشيشة فيصفها بخضرة اللون وينسبها إلى البستان الكافورى ، وأنها تفعل فى العقول ماتفعله الخمر المعتقة ، وأن رائحتها تدب فى الأعضاء والمفاصل، وأنه غنى بها عن شرب الخمر، وأنه ليس فى حاجة إلى أن يرتدى أجمل ملابسه بل يستعيض عنها بالدلق الذى تعود الصوفى ارتداءه :

وخضــراءَ كافوريـــةٍ بـــات فعلُـــها بألبابنـــا فـــعلَ الرَّحـــيقِ المعـــتَّقِ

إذا نفحـــتنا مـــن شذاهـــا بنفحـــةٍ تدبُّ لنا فـــى كـــلِّ عـــضوٍ ومنطـــقِ

غنيت بها عن شرْب خمر معتَّـــــقٍ وبالدَّلقِ عـــن لبْس الجـــديد المـــزوَّقِ(٣)

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٢ ، ٤ .

(٢) ديوان عمارة اليمنى : ص ٣٨٣ .

(٣) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ .

وكما دعا الأدباء سقاة الخمر أن يناولوهم الكئوس دعا شُرّاب الحشيش جلساءهم وندماءهم إلى شربها :

أعطِنى خضراءَ كافوريَّةً ... يُكتبُ الخمرُ لها من جنْدِها

أسكرْتنَا فَوقَ ماتُسكِرُنا ... وربِحنا أنفسَنا من حدِّها(1)

وقد اختلفت صورة الحشيش فى الشعر المصرى حسنا وقبحا نظرا لاختلاف أمزجة المصريين فمنهم من ذمها وقبحها ، وفضّل الخمر عليها وراح يعدد عواقبها الوخيمة ، فالحشيش فى نظره تفضى إلى البغاء أو الجنون أو مرض آخر من الأمراض العقلية :

لحَا اللّهُ الحشيشَ وآكليها ... لقد خَبُثَتْ كَما طابَ السُّلافُ

كما تُسْبِى كذا تُضْنِى وتُشْقِى ... كما يُشقى وغايتها الخرافُ

وأصغرُ دائِها والداءُ جمٌّ ... بغاءٌ أو جنونٌ أو نشافُ(2)

وذهب آخرون إلى تفضيلها على الخمر ، وعددوا مميزاتها وفوائدها؛ فالحشيشة يتعاطاها الشاربون جهارا فى المساجد والربط، وسعرها رخيص فى متناول الأيدى ، ولونها أخضر يحاكى لون الجنة. وهى تشدُّ انتباه متعاطيها فتذكرهم بأسرار الجمال وتقوى أحاسيسهم نحوه، ولايعاقب عليها الشرع أو القانون ولاتحول أيام العبادة دون تعاطيها ، ولها فوائد طبية حيث تسهل الهضم :

وحقِّك ما بالخَمْرِ بعضُ صِفاتِها ... أتُشْربُ جهراً فى رِباطٍ ومسجدِ

عليك بها خضراء غير ممانع ... بأبيضِ ورق أو بأحمرِ عسجدِ

ولكنْ على رغم المدام هدية ... تنزه عن بيع بغير التزهد

رياضية يحكى الجنانَ أخضرارها ... وخمرهم كالمارج المتوقدِ

مدامهم ينسى المعانى وهذه ... تذكّرُ أسرارَ الجمالِ الموحّدِ

وتخلص من إثمٍ وحدٍّ ولاترى ... ذليلا وتنجو من نديم معربدِ

وتشربُها فى العسرِ واليسرِ دائماً ... ولا تتَّقى فيها ليالى التعبّدِ

---

(1) ، (2) دراسات فى الشعر فى عصره الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ .

ومن فضلها فى الطبِّ جودةُ هضمِها وهَيْهَاتَ يُحصى فضلُها لمعدِّد(١)

والحشيشة تبعث فى النفس المرح والسرور والشعب المصرى يميل إلى المرح والسرور فانتقلت من الصوفيين إلى عامة الناس فأقبلوا عليها، وأحس الملك الصالح نجم الدين أيوب بآثارها السيئة على الناس فمنعها وحرم زراعتها فى البستان الكافورى ، وذات يوم دخل البستان فرأى فيه منها شيئا كثيرا فأمر ، بأن يحرق، فتأسف لذلك الحادث مدمنوها وعبر أحد الشعراء عن لسان حالهم بقوله :

أسفاً لدهرٍ غالها ولربَّما ظلَّ الكريمُ بذلَّةِ المأسُورِ
جمعتْ له الأشهاد كرماً أخضرا كعروسةٍ تُجلى بخضرِ حريرِ
زفُّوا لها ناراً فخلْنا جنَّةً برزتْ لنَا قد زوِّجتْ بالنُّورِ
لم اكتسَتْ منْها غلالةَ صفرةٍ فى خضرةٍ مقرونةٍ بزفيرِ
فكأنَّها لهبُ اللَّظى فى خُضْرةٍ منها وطرفُ رمادها المنثورِ
جارى النُّضارُ علىَ مذابِ زُمرُّدٍ تركا فتيتَ المسك فى الكافورى
للـه درُّك حيَّةً أو ميتةً من منظرٍ بهجٍ بغيرِ نظيرِ
أوذيتِ غيرَ ذميمةٍ فسقى الحيا تربـاً تضمَّن منك ذوبَ عبيرِ
عندى لذكرِك مابقيتُ مخلداً سحُّ الدموعِ ونفثةُ المصدورِ(٢)

مظاهر الزهد والتصوف

من المظاهر الاجتماعية ذات الدلالات النفسية فى تصوير الشخصية المصرية انتشار الحركة الصوفية في مصر، وقد شغلت هذه الظاهرة جانبا غير قليل فى الأدب المصرى شعره ونثره، وأصبح الأدب الصوفى غرضا متميزا عن غيره من أغراض الشعر والنثر ولاسيما فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، حيث أسهم كبار رجال الصوفية المصريين بإنتاجهم الأدبى

(١) المرجع السابق ص ١٠٩ ، ١١١ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .

أمثال : ابن الكيزاني، وابن الفارض، وابن الصباغ القوصي، وإبراهيم الدسوقي، وابن عطاء الله السكندري، وأبي الحسن الشاذلي وغيرهم.

وقد مرت الصوفية بأطوار مختلفة في مصر، وعلاقة الحركة الصوفية كفكر أو تطبيق مع الشخصية المصرية محك للكشف عن بعض خصائصها ومميزاتها.

وفيما سبق أشرت إلى نشاط "سليم بن عتر التجيبي في مصر وماكان يقوم به في مسجد الفسطاط، من قصص ومواعظ وإرشادات، إبان القرن الأول الهجري.

وكانت هذه النشأة الصوفية في مصر مماثلة لنشأتها في بقية الأمصار الإسلامية فقد عرفت الكوفة والبصرة لونا من هذا التصوف في تلك الفترة تمثل في تلك المواعظ وهاتيك الحكايات التي كانت تلقى في مساجد الأمصار الجامعة بقصد التخفيف من غلواء النزعة المادية التي أخذت تغزو المجتمع العربي الإسلامي وقتذاك.

ولكن هذه الفكرة الصوفية البسيطة المحببة إلى نفوس المصريين بدأت تأخذ شكلا آخر في أوائل القرن الثالث الهجري حينما أخذت الصوفية تحدد لها فكرا خاصا حيال سلوك الإنسان الظاهري والباطني تجاه الدنيا ونحو الله، وتجلت هذه النزعة فيما رواه أبو الفيض ذو النون المصري فهو يناجي الله قائلا : "لئن مددت يدي إليك داعيا لطالما كفيتني ساهيا... أقطع منك رجاي بما عملت يداي حسبي من سؤالي علمك بحالي".

ويروى للناس قصصا يذكر فيها "المقامات" و "الأحوال"(١). وقد وضح الدكتور محمد كامل حسين اختلاف الدارسين حول مصدر آراء ذي النون، فمن قائل إنه أخذها عن أستاذه شقران العابد، وقيل عن فاطمة النيسابورية، وقيل عن رهبان الأديرة في مصر الذين لقنوه شيئا من تعاليم الأفلاطونية الحديثة، ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات حول أصول فلسفة ذي النون الصوفية. فإننا نراه يتجه في صوفيته إلى لون جديد لم نعهده في صوفية مصر من قبل، ظهر فيما اصطلح على تسميته (الحب الإلهي) فلا غرابة أن نرى المسلمين بمصر لايقبلون منه هذا الرأي الديني الجديد ورموه بالزندقة وحمل في محنة خلق القرآن إلى الخليفة المتوكل العباسي، ولذلك نرى أن أكثر الذين أخذوا بآراء ذي النون الصوفية ودعوا إلى مذهبه لم يكونوا

---

(١) الأدب الصوفي مصر ، د . علي صافي حسين ، ص ١٥١ .

من أهل مصر، بل لم يكن له أثر يذكر في مصر، فنحن لانجد في عصره ولا في العصر الذي يليه مباشرة من قال في مصر مقالته أو اتخذ طريقته بل عاد صوفية مصر إلى الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى الزهد، واستمر الحال على ذلك حتى القرن الرابع للهجرة"(١). وقبول المصريين للتصوف بهذا المعنى أمر يتفق وخصائص الشخصية المصرية التى كونتها عوامل البيئة الجغرافية، وصقلتها التيارات الحضارية المختلفة، فصحراء مصر وواديها المنبسط واعتدال مناخها وصفاء جوها عوامل ساعدت على تكوين شخصية صافية النفس، وصفاء النفس أول درجة في سلم الصعود إلى التصوف وشرط أساسي لتقبله.

ولم يكن نظام التعبد بالخلوة أو الانقطاع عن الناس أمرا غريبا عن المصريين فلقد ابتدعت مصر الرهبنة وعلمتها أمما كثيرة غيرها.

وكان رفض المصريين قبول الأفكار الصوفية ذات الصبغة الفلسفية أمرا مقبولا أيضا في تلك الفترة إذ لم تكن النفوس قد تهيأت بعد لقبول هذه الأفكار. وبهذا تحددت معالم الصوفية في مصر إبان القرن الثالث للهجرة، وهي لون من ألوان الورع والزهد والحض على التقرب إلى الله تعالى بالعبادة، ففكرة التصوف الفسلفي لم تكن معروفة في مصر قبل العصر الفاطمي.

وفي القرن الرابع الهجري أخذت الصوفية في مصر مظهرا جديدا عندما استغل دعاة الشيعة استعداد المصريين لتقبل المبادىء الصوفية في صورها المبسطة وراحوا يبثون دعواهم من خلال هذا الاستعداد، فكان الدعاة الشيعيون يظهرون الزهد والورع لجذب من لم يعتنق الدعوة، فكأن الدعاة للإسماعيلية لم يختلفوا في مظهرهم عن الصوفية الذين عرفتهم مصر من قبل، وكان الدعاة يأمرون العامة بالتمسك بالعبادة العملية التى تعرف عند الإسماعيلية "بالعلم الظاهر" وينشرون بين الخاصة العبادة التى سموها "علم الباطن" أو التأويل"، وهنا اقتربت بعض آراء المتصوفة من آراء الإسماعيلية(٢).

واهتمت السلطات الحاكمة بالصوفيين، فأخذت تشجعهم، وتقيم لهم نوعا من التنظيم.

---

(١) ، (٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٥٣ .

فالخليفة الآمر الفاطمى جدد قصر القرافة وعمل تحته مصطبة للصوفية فكان يجلس فى الطابق بأعلى القصر، ويرقص "أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر وقد بُسط تحتهم حصر من فوقها بسط، ومدت لهم الأسمطة التى عليها كل لذيذ وشهى من الأطعمة والحلوى ، وكان بين الحاضرين الشيخ أبوعبد الله بن الجوهرى الواعظ وعليه مزق مرقعة على العادة خرقا ، وساله الشيخ أبوإسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقرى خرقة منها وضعها على رأسه (١) .

ويصور الأمير تميم بن المعز حالة الصوفيين الفقراء، وقد اتخذوا من القرافة مأوى وسكنا، فأصبحت القرافة بحلولهم فيها عامرة بالطهر والعفاف، نسيمها الطيب يحيى النفوس، وشمسها بهيجة مشرقة، وسكانها : مابين مؤذن بالليل، وذاكر ربه خاشعا ومبتهل إلى الله بطول الدعاء :

إذا كنـــتَ مصطـفياً مرْبعـــاً ... فخـــصّ "القرافــة" بالاصْطِفــاءِ

منــــــازلُ معــــمورةٌ بالعــفا ... فِ مخصوصـــةٌ بالتُّـقى والــبهاءِ

كـــأنَّ العـــبيرَ لـــها تُربــةٌ ... تضــوّع فــى صُبْحِـها والمســاءِ

ويُحيـــى النــفوسَ بأرجائــهن ... رقــيقُ النَّسيــمِ وطيــبُ الهــواءِ

ديـــــارٌ أديــرَ بهــنَّ النعيــمُ ... ومغْـــنى كملتــذّ رجــعِ الغــناءِ

تزيــدُ الشُّــمُوسُ بهـــا بهجــةً ... وتحـــسنُ فــى مقْلتــى كـلّ راءِ

وينْـــبهِ فيـــها النَّـيام الأذانُ ... إذا مــزّق الّــليلَ ســيفُ الضــياءِ

فمـــــن ذاكـــرٍ ربّـه خشْـــيةً ... ومــن مستـــهلٍ بـطولِ الدُّعــاءِ(٢)

ولاشك أنّ بعض هذا السلوك الصوفى صادف هوى فى الشخصية المصرية ، فحلقات الذكر والرقص والإنشاد والطرب والطعام والشراب، والإسراف فى المظاهر أيا كانت مظاهر ثراء أو فقر حببت الصوفية إلى نفوس المصريين، ومن ثم فإن إقبال المصريين على التصوف

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، ص ٢٧ .

العملى كان بدافع حسى أو عاطفى وجدانى أكثر منه اندفاعا بسبب متصل بالفكر أو العقيدة أو الفلسفة.

وفى العصر الأيوبى أخذت الحركة الصوفية فى مصر مظهرين :

١ – مظهرا اجتماعيا يتمثل فى التنظيمات الرسمية والشعبية للصوفية.

٢ – مظهر فكريا يتمثل فى انتشار بعض الأفكار والمبادىء بأسلوب خاص فى الأدب العربى شعره ونثره. ففى سنة ٥٦٩ هـ وقف صلاح الدين الأيوبى دار سعيد السعداء للفقراء المتصوفين القادمين من البلاد المختلفة وولى عليهم شيخا كما وقف عليهم بستان الحبانية (بجوار بركة الفيل) وقيسارية الشراب بالقاهرة وناحية دهمور من البهنساوية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فمات دونها كانت للفقراء ولايتعرض لها الديوان السلطانى، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره، ورتب لهم فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماماً بجوارهم (١) .

فكانت دار سعيد السعداء (٢) أول خانقاه أقيمت للصوفية فى عهد الأيوبيين، ثم توالت بعد ذلك الخوانق فى مصر حتى كثرت، واسترعى كثرتها انتباه "ابن بطوطة" فقال : "بمصر

(١) دراسات فى الشعر فى عهد الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ٦٤ .

(٢) الخانقاه والرباط والزاوية وجمعها خوانق ورباطات وزوايا معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء وهى كالأديرة فى المسيحية ويطلق الرباط أحياناً على الدير المسيحى كما يقال للراهب المسيحى رابط . غير أن تلك المعاهد الإسلامية لم تكن يوماً للرهبنة وإنما أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعبادة وكان غرض منشئيها والمتصدقين عليها فعل الخير واكتساب الثواب . لفظ الرباط والزاوية عربيان ، فأصل الرباط مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو كما أن الزاوية فى الأصل الركن من الدار أو المكان عامة (محيط المحيط) أما الخانقاة ففارسية ومعناها البيت وهى حديثة فى الإسلام وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف وأول من أحدث الخوانق فى مصر السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكانت الخانقاه التى أنشاها دارا تعرف أولا بدار سعيد السعداء نسبة إلى الأستاذ قنبر سعيد السعداء عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها وفتح من دار الوزارة إليها سر داباً تحت الأرض ليمر فيه ثم سكنها الوزير شاور بن مجير فى أيام وزارته ثم ابنه الكامل فلما ملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير مرسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد عمل هذه الديار برسم الفقهاء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة . انظر السلوك ، جـ ١ : هامش ص ٦٢

يتنافسون فى بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم المعدمين وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب"(١).

ولا شك أن كثيرا من المصريين اتخذ طريق التصوف حتى ينعم بما كان ينعم به غيرهم من سكان الخوانق أى أنهم اتخذوا التصوف وسيلة للحياة الدنيا(٢).

ويرتبط بالمظهر الأول أهداف سياسية للدولة الأيوبية فقد أراد الأيوبيون اقتلاع جذور الفكر ، الشيعى من مصر بعد القضاء على حكمهم. ولما كانت الدعوة الشيعية الإسماعيلية قريبة فى بعض نواحيها من الفكر التصوفى الفلسفى، فقد فكر الأيوبيون فى مناهضة الفكر بالفكر وراحوا يستقدمون كبار رجال الصوفية من مختلف البلاد : فوفد على مصر عدد كبير من الصوفية الغرباء منهم : محيى الدين بن عربى، وأبو الحسن الشاذلى، والسيد أحمد البدوى فهؤلاء وأمثالهم من زعماء المتصوفة هم الذين دخلوا مصر حاملين آراء الصوفية التى لم تعرفها مصر من قبل وكان لهم أثر فى تطور التصوف بما جلبوه معهم من آراء جديدة(٣).

وقد يبدو غريبا أن تقبل مصر على هذا النمط من التصوف وهو التصوف الفكرى لأنه يناقض ماعرفت به الشخصية المصرية من البساطة والمرح والتمتع وهى الصفات التى حددت موقفها من التشيع، وموقفها من التصوف بمعناه البسيط (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) أو الانقطاع للعبادة أو الجانب العملى منه كاللجوء إلى الخوانق والانضمام إلى حلقات الرقص والإنشاد .

ولكن الدكتور محمد كامل حسين يحاول تفسير شيوع هذا النوع من التصوف الفكرى ويرده إلى الظروف التى أحاطت بنشاط "ابن الكيزانى" الشاعر الصوفى الذى ظهر فى أواخر العصر الفاطمى، وكان يؤمن بمذهب الحب الإلهى ويمزجه بالمواقف الوعظية كما يبدو فى قوله :

اصرفُوا عنِّى طَبيبِى ودعونى وحبيبِى
علّلوا قلبى بذكْرَاه فَقَدْ زادَ لهيبِى

(١) ، (٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

طـــابَ فتنْـيكي فـيي هـــواهُ — بـــين واشٍ ورقيـــبِ

لا أبالـــي بفـــواتِ النّفـــسِ — مـــا دامَ نصيـــبي

ليـــس مـــنْ لامَ وإنْ — أطْنَـــبَ فـــيهِ بمـــصيب

جـــسدي راضٍ بـــسقمـــي — وجفُونـــي بنحيـــبي (١)

وقد كان لطريقة "الكيزانى" أثر فى نفوس المصريين، فقد أقبلوا عليها ليشغلوا الفراغ النفسى الذى تركه الدعاة الإسماعيليون. ولما وجد المصريون أنفسهم بعد انقراض الدولة الفاطمية قد حرموا مما يغذى عاطفتهم الدينية فى أية صورة كانت ، اتجهوا للتصوف وأحلوه فى نفوسهم وحياتهم محل ماكان يسمعونه من الدعاة الإسماعيليين. وذلك للتقارب الشديد بين آراء الصوفية وآراء الإسماعيلية، فالدعاة الفاطميون يتخذون من العقل طريقة للوصول إلى المعرفة وإلى الله ، والمتصوفة يريدون أن يصلوا بالمزيد الى المعرفة وإلى الله عن طريق الذوق والرياضة.

والحياة المصرية فى ذلك العصر كانت تدعو إلى شىء من الاستسلام للمقادير والاتجاه إلى الله، والزهد فى الدنيا، فالحروب الصليبية، والفتن الداخلية جعلت المصريين يتطلعون إلى لون من ألوان الحياة الروحية عساها تخفف عنهم هذه الآلام التى حاقت بهم من كل جانب. وكان المصريون فى العصر الفاطمى يهرعون إلى الدعاة ويستغيثون بالأئمة اعتقاداً منهم بأن الأئمة ملاذ كل مستغيث، وكانت العقيدة الإسماعيلية تأمرهم بذلك ، وفى العصر الأيوبى لم يجد المصريون هذا الملاذ فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية (٢) .

وقد ظهرت فى الأدب المصرى أفكار جديدة رددها الصوفيون فى قصائدهم ورسائلهم المتبادلة فيما بينهم، ومواقف الوعظ والتذكير، والأوراد التى يتعبدون بها واقترنت هذه الأفكار بأسلوب خاص. ولست هنا بصدد دراسة الفكر الصوفى فى الأدب المصرى، وإنما أكتفى بالإشارة إلى بعض هذه الأفكار التى سادت فى تلك الحقبة كمظهر من مظاهر الشخصية الاجتماعية بعد أن درست علاقة هذه الشخصية بتطور المفهوم الصوفى وممارسته سلوكا

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

(٢) دراسات فى الشعر عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٦٥ .

وتطبيقا.

ومن أهم هذه الأفكار "فكرة الحب الإلهى" التى رددها كثير من الصوفيين فى ذلك العصر من أمثال ابن الفارض فى قوله :

نسخْتُ بحبى آيةَ العشقِ من قبْلى فأهلُ الهوى جندى وحكْمِى على الكلّ

وكلُّ فتى يهوى فإنّى إمامُه وإنى برىءٌ من فتى سامعِ العذلِ(1)

وإبراهيم الدسوقى فى قوله :

سَقانى محبُوبِى بكأسِ المحبةِ فتهتُ عن العشاقِ سكراً بخلوتى

ولاحَ لنا نورُ الجلالةِ لوْ أضاء لصمّ الجبالِ الراسياتِ لُدكّتِ

وكنْت أنا الساقِى لمنْ كانَ حاضرا أطوفُ عليهم كرةً بعد كرّةِ

ونادمنى سراً بسرٍ وحكمةً وأنْ رسولَ اللهِ شيخِى وقُدْ وتى(2)

وفكرة "النور المحمدى" القائمة على أساس أن محمدا نشأ قبل آدم وأن سره وجد قبل خلق الكون فكان النور المحمدى الذى شهده الأنبياء السابقون جميعهم، فسره تنقل من طور إلى طور حتى ظهر فى هذا القطب شيخ الوقت. ويعبر إبراهيم الدسوقى عن هذه الفكرة بقوله :

نَعَم نشأْتى فى الحب من قبل آدم وسرى فى الأكوانِ مْن قبلِ نشأتى

أنا كُنْتُ فى العلْياءِ مع نورِ أحمد على الدرةِ البيضاءِ فى خُلْويّتى

أنا كُنتُ فى رؤيا الذبيحِ فداءه بلطفِ عناياتٍ وعينِ حقيقةِ

أنا كُنتُ معْ إدريس لمّا أتى العُلا وأسكِن فى الفردوسِ أنعمِ بقُعةِ

أنا كنْت معْ عيسى على المهْد ناطقاً وأعْطيتُ داودا حلاوةَ نغمةِ

أنا كُنْتُ مع نوح بما شهد الورَى بحاراً وطوفاناً على كفّ قدرةِ

أنا القطبُ شيخُ الوقتِ فى كلّ حالةِ أنا العبدُ إبراهيمُ شيخُ الطريقةِ(3)

---

(1) ديوان ابن الفارض، ص 91 ، القاهرة مطبعة الهيئة (مؤسسة المطبوعات المصرية) ، 353 هـ .
(2) ، (3) دراسات فى عصر الأيوبيين د . محمد كامل حسين ، 75 ، ص 68 ، 69 .

ومنهـا فكرة "العلم بالباطن" وكـان ابن العربي يقول بأن العلم الشـرعي يوحى به إلى الرسول (ص) على لسان الملك أما العلم بالباطن عند الولى فهو إرث يرثه الولى من خاتم الأولياء الذى يرثه بدوره من منبع الفيض الروحى جميعه أى الحقيقة المحمدية، ويقول أبو السعود بن أبى العشائر الصوفى المصرى المتوفى سنة ٦٤٤ هـ "الطلب شغل الظاهر والمطلوب شغل الباطن ولا يستقيم ظاهر إلا بباطن ولايسلم باطن الا بظاهر" ونظم ابن الفارض هذه الآراء فى قوله :

فخـذْ علـمَ أعلام الصِّفـاتِ بظاهرِ المعالـمِ فى نفـسٍ بـذاك عليمـةً

وفهـمِ أسامـى الـذَّات عنهـا ببـاطـنِ العوالـمِ مَن روحٍ بذاك مشيرةً(١)

ومنها فكرة :"الفناء والاتحاد بالذات الإلهية" التى يعبر عنها أحد شعرائهم :

وها أنا أبْدى فى اتّحـادى مبْدئى وأنهى انْتهائِى فى تواضعِ رفْعتى

جَلت فى تجلّيها الوجودَ لناظرى ففى كلّ مرئىٍ أراهـا برُؤْيتى (٢)

ومنها فكرة "وحدة الوجود" التى عبر عنها ابن الصباغ فى كلام منثور أورده على سبيل الوعظ والإرشاد أو التوجيه والتعليم، قال : إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه بخاطره، وحرس بسره أن يسبح فيه غير خاطر الحق وشاهد القدم، فهو إذن للحق جميع معانيه وصار الحق مواجهه، فهو كل منظور إليه ومقابله على الظاهر(٣).

تسَرْبَلَ وقتِى فيك فهو مُسَرْبَلٌ وأفنيتنى عنّى فعـدتُ مجـدداً

وكلٌّ بكـلِّ الـكلِّ وصـلٌ محقـقٌ حقائقُ حـقٍّ فـى دوامٍ تَخلّـدا

تـفرُّد أمـرى فانفـردْتُ بقريـتى فصرتُ غريباً فى البريَّة أوحدا(٤)

وكما حمل لنا الأدب الصوفى بعض الأفكار التى كانوا يعتقدونها فإنه قدم لنا وصفا

---

(١) ،(٢) دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى، د. محمد كامل حسين، ص ٧٢، ص ٨١.

(٣)، (٤) الأدب الصوفى فى مصر، د. على صافى حسين، ص ٩٨.

لبعض المناصب التي تنخرط في سلك التنظيم الصوفي، من ذلك وصف أحوال (المريد) كما عبر عنه ابن الصباغ بقوله : "إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه بخاطره وحرس سره أن يسبح فيه غير خاطر الحق وشاهد القدم فهو إذا منفرد للحق في جميع معانيه وصار الحق مواجهه فهو كل منظور إليه ومقابله على الظاهر، ومن أسكرته نار التوحيد حجبته عن عبارة التجريد، ومن أسكرته أنوار التجريد نظر عن حقائق التوحيد وحياء الموحدين من مولاهم أزال عن قلوبهم سرور المنة وحياء الأولياء من لحظ عظمة ربهم أزال عن قلوبهم سرور الطاعة"(١).

(١) الأدب الصوفي في مصر ، د . على صافى حسين ، ص ١٨٦ .

الباب الثالث

آثار الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى

* شخصية مصر فى الأدب العربى بين الوجود والعدم.
* آثار الشخصية المصرية فى الشعر الفاطمى والأيوبى.

آثار الشخصية المصرية فى النثر الفاطمى والأيوبى.

الفصل الأول

شخصية مصر فى الأدب العربى بين الوجود والعدم

يبدو أن عنوان هذا الباب من الكتاب يثير فضولا لدى القارىء الملم بتاريخ الأدب العربى، ولاسيما إذا قصر مدلول الشخصية الأدبية على تلك الآثار، فقد يرجو من وراء ذلك أن يقف أمام منعطف جوهرى فى تاريخ ذلك الأدب، ويجعل همه البحث عن مجموعة السمات التى ينفرد بها أدب هذه الشخصية دون بقية الشخصيات. وهذا يعنى أنه أمام أدب جديد من نتاج هذه الشخصية أو تلك.

وفى رأيى أن العلاقة بين التأثير والشخصية كانت المحك الأول والأخير لدى جميع الباحثين الذين تعرضوا لبحث شخصية مصر الأدبية، فمن أنكر وجودها استند على القول بأنه ليست ثمة سمات خاصة تميز أدب مصر عن غيرها من بيئات الأدب العربى لا فى الشكل ولا فى المضمون، ومن أثبت وجودها اعتمد-أيضاً- على تلك السمات وراح يبرز الجانب الذى تميزت به مصر عن غيرها، وإن كان قد قصر آثار الشخصية الأدبية على جانب واحد من مقومات الأدب الفنية. والذين ينكرون تأثير الشخصية المصرية فى الأدب العربى يختلفون فى منطلقهم إلى ذلك الحكم وإن انتهوا إلى النتيجة ذاتها. وأود أن أقف قليلا أمام رأى عالمين تناولا هذه القضية وهما الأستاذ عباس العقاد والدكتور عبد العزيز الأهوانى.

يعرف العقاد الشعر بأنه : "التعبير الجميل عن الشعور الصادق، فهو شعر وإن كان مدحا أو هجاء أو وصفا للإبل والأطلال، وكل ماخرج عن هذا الباب فليس بشعر وإن كان قصة أو وصف طبيعة أو مخترع حديث(١).

ومن خلال هذا المفهوم نظر العقاد فى الشعر المصرى وانتهى إلى القول بأنه لم يعبر عن حياة الشعب المصرى منذ كان "بنتاءور" أشهر شعراء مصر القديمة فإنه لم يكن شاعر الشعب ولالسان الحياة المصرية، ولكنه كان شاعر فرعون، أى شاعر الكهان والمراسيم والصمت الدينى

---

(١) مقدمة وحى الأربعين . عباس العقاد ص ٦ ومابعدها

والهيبة الملكية، ولاأمل للحياة ولا لذوا فعها وألاعيبها فى الطلاقة والظهور بين هذه القيود والغشاوات، فشعره شبيه بتدوين المحاضر الرسمية التى يعوزها التفصيل والتحقيق، فلاهى بالعلم ولا بالفن، ولا هى بالحماسة ولا بالتاريخ.

وحينما دالت دولة الفراعنة، وجاءت دولة العرب كان المثل الأعلى الشعر عربيا ، ولم يعثر على شاعرأنبتته مصر يذكر بين أعاظم الشعراء وتسمع له رسالة من رسالات الحياة فكل شعرائها عرب أو مقلدون للعرب، لأن الشاعر المصرى المتكلم بالعربية كان مقلدا بالضرورة، محصورا فى طائفة الموظفين وأشباه الموظفين وأذناب الحكام وليسوا هم خير عنوان للأمة وملكاتها ومواهب الفنون فيها، ومن ثم كان شعراء مصر في ذلك العهد عالة على الأدب، ونفاية ضئيلة أولى بها أن تنبذ وتهمل. ثم جاءت دولة الترك والمماليك ودخلت مصر العلوم الحديثة أما الجيل الأخير، فكان التعليم فيه موقوفا على أبناء السروات والحاكمين وأتباعهم، وأكثرهم يرجعون إلى أنساب غير مصرية ولايعرفون الأدب إلا تقليدا للعرب أو الناطقين بالعربية".

ويرى العقاد أن ارتباط الشعر المصرى بالحاكمين مدحا أو رثاء أدى إلى كثرة عيوبه اللفظية والمعنوية، وأهم هذه العيوب المبالغة والشطط، لأن كثرة الممدوحين والمادحين تدعو إلى التسابق فى تعظيم شأن الممدوح وتفخيم قدره، وتكبير صفاته، والإرباء بها على صفات الممدوحين قبله، فلا يقنع الشاعر ولا الملك أو الأمير بالقصد فى الوصف والصدق المألوف فى الثناء، ويجر ذلك إلى التفنن فى معانى المدح وغير المدح، لأن المبالغة الساذجة لاترضى فى كل حين، ولابد من شيء من التنويع أو اللباقة يسوغون به هذه المبالغات المتكررة، ومن هذا التفنن والاحتيال تنشأ المغالطة في المعانى والتورية المتمحلة والهزل العقيم، ومتى اجتمعت المغالطة فى المعانى والتظرف فى المنادمة والتسلية، فهما كفيلان لإتمام مايبقى من صنوف التلفيق فى اللفظ والمعنى وضروب التوشية والتزويق المموه وأشتات الجناس والطباق والمقابلة والطى والنشر والتفويف والتوشيع وسائر ماتجمعه كلمة "التصنيع"، وهذه العيوب التى تجتمع فى هذه الكلمة هى بالإجمال الحد الفاصل بين الأدب المصنوع والأدب المطبوع، ومانشأ منها – كماترى – إلا من طريق التسلية وتوخى إرضاء فئة خاصة"(١).

(١) مطالعات فى الكتب والحياة ، عباس العقاد بيروت ١٩٦٦ ص ١٣

وخلاصة ما انتهى إليه العقاد أنه نفى تأثير الشخصية المصرية فى الأدب العربى الرسمى شكلا ومضمونا "فلم يتفق لمصر عصر نطقت فيه روحها الشعبية فظهرت فى عالم الفنون المهذبة أو قالت القصائد المنتخبة" وبذلك لم يعبر مضمون الأدب العربى عن متطلبات الشخصية المصرية فى كل العصور، ولم تبتدع لغة أو بناء فنيا خاصاً يمكن أن ينسب إليها ويميز أدبها".

والذى يتأمل ما ذهب إليه العقاد يلاحظ أنه نفى عن الشعر المصرى فى كل عصوره أن يكون معبرا عن الروح الشعبية، وكيف ننكر ألا تكون أشعار الحروب الصليبية معبرة عن الروح الشعبية فى مصر إبان ذلك الوقت.

وقد برر العقاد عدم تمثيل الشعر المصرى للشخصية المصرية بأنه شعر مديح، وأن المديح ارتبط بطبقة خاصة، وفى هذا تعميم غير مقبول فليس الشعر المصرى مدحا فحسب، على أن هذا الفن لم يخل من التعبير عن بعض ظواهر المجتمع المصرى ومتطلبات الروح المصرية، فمدائح تميم بن المعز لدين الله الفاطمى لأهله تصور النغمة الشيعية التى أصبحت سمة الحياة فى مصر، ومدائح صلاح الدين الأيوبى وأسرته نداءات من الشعب المصرى وأمانى يرجو تحقيقها.

وقد ربط العقاد بين فن المديح فى الشعر العربى، وعيوب الشعر التى عرفت بعيوب "التصنيع". حقا إن ماعرف بعيوب الصنعة فى الشعر العربى اقترن بالشعر المصرى فى العصر الوسيط، ولكن لا يعنى ذلك أن فن المديح كان سببا مباشرا أو غير مباشر، فهذه العيوب كانت حلى فى ذلك العصر يفتخر أهله بالإكثار منها وهى نتاج بيئة مصر الحضارية، وأثر من آثارها فى الأدب العربى ويردد العقاد أن مصر لم تنجب شاعرا يذكر بين أعاظم الشعراء تسمع له رسالة فى الحياة، ومع التسليم بهذه المقولة فإن ذلك لاينفى وجود آثار للشعراء المصريين فى الأدب العربى اللهم إلا إذا افترضنا أن الأثر قاصر على أولئك الأعاظم دون غيرهم.

وينطلق الدكتور عبد العزيز الأهوانى من زاوية محددة فى دراسة الشعر المصرى هى أشعار "ابن سناء الملك" فيصفه بالعقم والجمود، ثم يعمم هذا الحكم على الشعر المصرى كله،

بل على الشعر العربى بأكمله فى عصر ابن سناء الملك وهو القرن السادس الهجرى : « أما شعراء القرن السادس الهجرى وأما شاعر كابن سناء الملك بالذات .. فلن يكون للدراسة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بل ولن تكون دراسة أسرته أو دراسة حياته الشخصية ذات أثر كبير فى فهم شعره، واكتشاف ماينطوى عليه ذلك الشعر من أفكار وأساليب ذلك لأن هؤلاء الشعراء كانوا يفصلون فصلا تماما بين شعرهم وحياتهم العامة والخاصة، ولقد عاشوا فى دواوين الشعر العربى القديم أكثر مما عاشوا فى بيئاتهم المعاصرة، وكان همهم الأول أن يجيدوا فى منظوماتهم إجادة تتفق وفهم أصحاب الدراسات البلاغية لهذه الإجادة ولم يكن يعنيهم بعد ذلك أن يكون الشعر صادقا أو غير صادق فى تصوير واقعهم الحى، لقد عاش أولئك الشعراء منعزلين فى شعرهم عن جماهير الشعب وعاشوا منعزلين عن ذات أنفسهم(١).

والدكتور الأهوانى يقيم رأيه فى الأدب المصرى على نظرية الصدق فى الفن، ويحدد الصدق بأنه تصوير الواقع الحى، وليس الواقع بكل أبعاده وإنما الواقع اللغوى، ومن خلال هذه القيود التى وضعها لنفسه، ونظر من خلالها إلى شعر ابن سناء الملك انتهى إلى هذه النتيجة، فهو يقيم رأيه على تحليل اللغة والتى تمثل عنصر الأسلوب فى الأدب، ويرى أن عصر ابن سناء الملك شهد ازدواجا فى اللغة : والازدواج اللغوى كما يعرفه الأهوانى : هو وجود فارق كبير بين لغة الشعر ولغة الحياة العادية. وفى عصور الازدواج اللغوى ينصرف الشاعر إلى التلاعب اللفظى وإلى اصطناع المنطق العقلى، واستخدام كلمات من الكتب والمعاجم فقدت تاريخها الحى المؤثر فى نفوس معاصريه ويضرب لذلك أمثلة من شعر ابن سناء الملك فيقول : وإذا شئنا أن نمثل لذلك بألفاظ عن ابن سناء الملك وجدناه يستخدم مثلا : ألفاظ المطر والغيث، والقطر والعطاء بمعنى واحد فهى متساوية المعنى حين يذكرها مشبها بها كرم الممدوح، وإنما الذى يتحكم فى اختيارها غالباً الوزن أو القافية، وليس ما ينطوى عليه كل لفظ من ظلال عاطفية، وإنما فقدت الظلال التى تفرق بين أفرادها، لأنها فقدت صلتها باللغة الحية على ألسنة الناس فأصبحت محددة الدلالة فتساوت كلها. ولقد أخذها الشاعر من الاستعمال القديم لا من المعاصر له. فإن لفظ المطر لا يستقبل بالفرحة فى مصر التى لاتعيش على المطر فإذا تجاوزنا

---

(١) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار د. عبد العزيز الأهوانى ص ٤٠

هذا إلى ألفاظ لا تعرف دلالاتها إلا أن يرجع إلى المعاجم كإطلاق لفظ "جعفر" على الجدول أو لفظ "يوشع" على الشمس وليس لها صلة باللغة الحية أدركنا أن معانيها فى ذهن الشاعر معان جامدة صامتة بغير ضوء أو ظل.

ولاشك أن ابن سناء الملك ومدرسته قد جانبوا الفهم الجيد للشعر وأن ماحسبوه ابتكارا كان عقماً، ولكن هذا لاينفى عن شعرهم أنه صور بيئتهم وواقعهم، فإذا كانوا قد تجاوزوا الواقع فى لغتهم فلم يتجاوزوه فى موضوعاتهم الشعرية ولا فى مذهبهم الذى يرتبط فى عصرهم بسمات الشخصية المصرية.

ولاشك فى أن الدكتور الأهوانى وصف جانبا واحدا من لغة الشعر فى ذلك العصر وهو لغة مدرسة التصنع أو التكلف التى راحت تبتكر وتولد المعانى وتتخذ من التلاعب اللفظى سبيلا لهذا التوليد، ومن شعرائها ابن سناء الملك وشيخه القاضى الفاضل، وكانت فكرة الابتكار هى الشغل الشاغل لكلا الشاعرين. ولكنه من التعسف أن تصدق هذه الأحكام على شعراء العصر أجمعين، فقد شهد ذلك العصر مدرستين من الشعراء تميل إحداهما إلى ماذهب إليه ابن سناء الملك وأضرابه، ومالت الأخرى إلى النقيض من ذلك.

ونادى بعض الباحثين بضرورة البحث عن الشخصية المصرية فى الأدب العربى وأكد غيرهم وجودها، ومن أبرز هؤلاء الدكتور محمد كامل حسين، وقد ذهب إلى القول بأن البحث فى المعانى هو وحده المحك الذى يمكن أن نتعرف من خلاله على الشخصية الأدبية إذ لا يمكن أن نتخذ من الألفاظ أساساً للتمييز بين شعر قطر من الأقطار التى أنشدت شعرها باللغة العربية وشعر قطر آخر. لأن الألفاظ مثل من المثل العليا لشعراء العربية جميعا. كما لايمكن أن نتخذ من الأوزان الشعرية مجالا للتفرقة أيضا، لأن شعراء العربية لم يعدلوا عن الأوزان التى عرفها القدماء. فالتطور الذى حدث على أيدى الأندلسيين بابتكارهم فن الموشحات والأزجال، اختراع المصريين فن "البليق" وإدخال الفرس فنى "الدوبيت" و "الرباعيات" فى الشعر العربى لم يخرج عن الدوائر العروضية التى عرفت قبل اختراع هذه الألوان، ولم يعدل المولدون عن التفعيلات القديمة وإنما ميزوا بعض أشكال الشعر، واحتفظوا بالوزن الأساسى وبلون من ألوان القافية. ومع ذلك فقد كانت هذه الألوان جزءاً يسيراً بجانب الشعر التقليدى الذى أنتجته هذه الأقطار

وكذلك الشأن بالنسبة للقافية، فإن جميع الشعراء اشتركوا فيها حتى المجددون اتخذوا من القافية مثلا عليا لشعراء العرب، وإذا كانوا جميعا قد اشتركوا فى هذه الخصائص فإنهم اختلفوا فى المعانى التى تحدثوا عنها باختلاف عصورهم وبيئاتهم. فإذا أردنا أن نبحث عن شخصية مصر فى الشعر فنحن نجدها فى المعانى التى ذكرها الشعراء وفى الأخيلة الشعرية، وهنا فقط نستطيع القول بأن الشعر المصرى صور البيئة المصرية والحياة المصرية أصدق تمثيل .

وهذا الرأى وإن أكد تأثير الشخصية المصرية فى الأدب فإنه قصره على جانب واحد هو المعانى والصور، مع أننا نستطيع أن نلمس التأثير فى مختلف المقومات الفنية : فى الروح العامة والأغراض والأفكار والأساليب. فقد يكون لاختيار نمط معين من الألفاظ والعبارات أو الاهتمام بغرض من الأغراض أو الميل إلى مدرسة أو بيئة معينة دلالة على ذلك التأثير.

الفصل الثانى

آثار الشخصية المصرية فى الشعر الفاطمي والأيوبى

لعل أفضل وسيلة للتعرف على تأثير الشخصية المصرية فى الشعر العربى أن نقف أمام خصائصه بالصورة التى كان عليها إبان العصرين الفاطمى والأيوبى، ونتأمل العلاقة بين هذه الخصائص الفنية ومقومات الشخصية المصرية، ومن ثم فإننى سأعرض تحليلا لتيارات الشعر أو مدارسه الفنية، وأغراضه ، ومعانيه، وصوره، وبناء القصيدة الفنى، والأسلوب، لنرى بصمات الشخصية المصرية فى هذه الأبعاد.

مدرسة الشعر المصرى

يثير انتباه دارس الشعر المصرى فى تلكم المرحلة تجاور مدرستين متباينتين أخذت كل منهما بطرفى نقيض من الأخرى، ومع ذلك فقد تجاورتا فى بيئة واحدة، وكلتاهما نتاج شرعى لمؤثرات عصر ومكان واحد. فبينما تجنح الأولى إلى التأنق والتكلف تميل الثانية إلى البساطة والخفة.

ولقد اختلف الدارسون فى تسمية هاتين المدرستين : فمنهم من سمى إحداهما بمدرسة الرقة والأخرى بمدرسة الكتاب(١)، ومنهم من سمى واحدة مدرسة الطبع والثانية مدرسة البديع(٢)، ومنهم من سمى واحدة مدرسة البديع والأخرى مدرسة المعانى(٣)، ومنهم من سمى واحدة مدرسة الصنعة والأخرى مدرسة الرقة(٤).

ومهما اختلفت الأسماء فإن الاختلاف الحقيقى بينهما يكمن فى تكلف إحداهما وبساطة الأخرى، وسأوضح سمات المدرستين لأرى آثار الشخصية المصرية فيهما.

---

(١) انظر فى أدب مصر الفاطمية د . محمد كامل حسين ص ٣٠١ وما بعدها .

(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين، د. محمد كامل حسين، ص ١٥٨ ومابعدها (٢) الأدب فى عصر الأيوبيين، د. محمد زغلول سلام، ص ٢٤٩.

(٣) الأدب المصرى من أيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية، دكتور عبد اللطيف حمزة، ص ١٠٨.

(٤) الأدب الصوفى فى مصر، د. على صافى حسين، ٥٤.

مدرسة الصنعة

يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن هذه المدرسة اتخذت من طريقة الحريرى نموذجا يحتذى وكان الحريرى قد أتى فى مقاماته بضروب من عجيب الصنعة اللفظية واللعب بالألفاظ حتى شهد بمهارته وإعجازه فى هذا الفن العلماء واللغويون فى عصره والعصور التالية، وحاول مقلدوه بدافع الإعجاب المفرط أن يأتوا من ضروب البديع بما أتى به وأن يسلكوا الوادى السلكه(١).

ويرى بعض الباحثين أن أصحاب هذه المدرسة خضعوا لتأثير الاتجاهات الفنية التى شغف بها كتاب الدواوين فى العصر الفاطمى وملأوا بها كتاباتهم وأشعارهم. وكان منها ما يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شىء، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع، وكانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعبا يظهر فيه أثر الصناعة وأثر التكلف وأسرفوا فى صناعتهم وتكلفهم إسرافا يدل على طول باعهم فى هذا الفن، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية، ومراعاة النظير إلى غير ذلك من ألوان البديع والبيان حتى بهروا البلاغيين بمقدرتهم على استعمال هذه المحسنات اللفظية، وكثيرا ماكان يحلو لهم استعمال الألفاظ المترادفة ومايشتق من اللفظ الواحد فى الجملة الواحدة أو فى البيت الواحد، هذه الصناعة نراها فى شعر القاضى الموفق بن الخلال، وابن أبى الشخباء، والقاضى الجليس، وابنى الزبير وعمارة اليمنى، وغيرهم من شعراء دواوين الفاطميين. وعرف عن هؤلاء الكتاب والشعراء مذهبهم وقلده كل أديب يطمح فى العمل بالدواوين ويريد الاتصال بالأمراء والوزراء فأصبح مذهبهم الفنى بدعة العصر الأيوبى يسير عليه الشعراء والكتاب .

ومن الطبيعى أن يستمر مذهب شعراء هذه المدرسة فى العصر الأيوبى ويخضع الفنانون ولا سيما الكتاب الخضوع كله لهذه الطريقة التقليدية(٢) التى حمل لواءها فى العصر الأيوبى لفيف من الشعراء، من أبرزهم : القاضى الفاضل وابن سناء الملك والعماد الأصفهانى وابن الساعاتى وغيرهم.

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى، د. محمد زغلول سلام، ص ٣٦٢.

(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين، د. محمد كامل حسين، ص ٢٠١.

وذهبت مدرسة الصنعة إلى تحديد مفهوم الشعر بأنه اختراع المعنى الجديد والإتيان بما هو مبتكرلم يسبق إليه، وكد الذهن فى ذلك التوليد والابتكار. وقد تبلور هذا الاتجاه فى لغة الشعر وألفاظه فاتجه أصحاب هذه المدرسة إلى حشد التزاويق والزخرفة اللفظية و تتضح خصائص أسلوبهم فى النماذج التالية :

يقول ابن النبيه مادحا الأشرف موسى الأيوبى :

صلْت وصلت فى رؤوسِ العدى   كأنَّ فى الآذانِ منها أذانْ
مولاى جُدْ وانعمْ وصِلْ واقتدرْ   وافتكْ فما تفرح أمُّ الجبانْ(١)

ويقول ابن سناء الملك متغزلا :

كم لنا من خلس فى الغلس   خلسٌ تمت برغمْ الحرَسِ
نلتُ فيها عسلاً من لعس   آه واشوقى لذاك اللعسِ
قد تنفستُ فهل عندكم   أن نفسى خرجت من نفسِ(٢)

ويقول ابن قلاقس (فى المجون) :

لا أشربُ الراحَ إلا   ما بينَ شادٍ وشادنْ
وإنْ فنيتُ فعندى   إلى معادٍ معادنْ
قم يانديمى فانصتْ   والليلُ داجٍ لداجنْ(٣)

ويقول القاضى الفاضل متغزلاً :

لفظٌ يصيخُ له سمعُ البليغِ، فما   يذوقُ ذائقةُ ضربا من الضربُ
هذا المحبُّ المخبُّ السَّيرَ نحوكم   تراه يرجعُ عنكم خائبَ الخَبَبِ؟

---

(١) ديوان ابن النبيه ، ص ١٦٣

(٢) الخريدة ، جـ ١ ص ٩٥ . وديوان ابن سناء الملك ص ٤٠٨ اللعس : السواد فى الشفة.

(٣) الخريدة، جـ ١ ص ١٦٢

معمــــر ودّه فيكـــم، ومغتـــبط　　　رجاؤه منكم كالرَّاحِ والحَبَبِ[1]

وإذا تأملنا خصائص هذه المدرسة وجدناها متفقة وجوانب معينة فى الشخصية المصرية، فقوام مدرسة الصنعة عنصران رئيسيان :

أولهما : عنصر ينزع إلى النماذج العليا فى الشعر الموروث يتخذ منها مثله الأعلى .

وثانيهما : عنصر ينزع إلى الزخرفة والتصنع فى الأسلوب جريا وراء التفنن والتوليد الذهنى. وكلا العنصرين قريب الصلة بالشخصية المصرية فالاحتفاء بالموروث وتقليده عزيز لدى المصريين، والموروث عن الإسلام وما يرتبط به من لغة وأدب أكثر إعزازا لاسيما فى الوقت الذى استثيرت فيه العواطف الدينية بفعل الأحداث الخارجية والظروف الداخلية. فلا غرابة أن يتجه فريق من الشعراء المصريين إلى التراث العربى وأدبه ويحاكونه بدافع دينى.

ولعنصر الزخرفة أيضا صلة بالشخصية المصرية، فمن خصائصها الثقافية التى سبقت الإشارة إليها (التمصير)، فهى وإن راحت تقلد النماذج العليا فى الأدب العربى الموروث فإن عنصر التمصير يلعب دوره فى إكساب ما أخذته ثوباً مصريا.

ولمصر طبيعة خاصة فى الحسن كما يرى الرافعى : فهى قد تهمل شيئا من جمال نسائها أو تشعث منه وقد لاتوفيه جهد محاسنها الرائعة، ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبى أفرغت فيه سحرها إفراغا وأبت إلا أن تكون العالية عليه وجعلت آيتها فى المقابلة بينه – فى طابعه المصرى – وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنة ما كانت، تغار على سحرها أن يكون إلا الأعلى[2].

وهكذا تضفى مصر على الشعر العربى الموروث أنواعاً من الزخارف حسبتها حلى مستجيبة فى ذلك لميراث حضارى مديد يدعوها إلى التأنق والزخرفة.

وهذا الإسراف فى استخدام المحسنات اللفظية عند هذه المدرسة امتداد لروح المبالغة العامة التى تعد إحدى مقومات الشخصية المصرية، نراها واضحة فى حديث المصريين وحياتهم

---

(١) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ص ٧

(٢) وحى القلم ، جـ ١ ، مصطفى صادق الرافعى ط ٨ ، بيروت ص ١٨

منذ عصر الفراعنة إلى الآن، ونظرة إلى ماتركه قدماء المصريين من آثار وماتركته مصر فى العصور الوسطى من بناء، ومانراه الآن من مظاهر الحياة تكفى للدلالة على كلف المصريين بالمبالغة فى كل شىء(١) فلا غرابة إذن أن نرى هذا الاتجاه عند شعرائها فى تلك المرحلة.

مدرسة الرقة :

وبرغم انتشار طريقة مدرسة التكلف بين شعراء العصرين الفاطمى والأيوبى فإن لفيفا آخر قد هاجمها وراح يردد :

إذا أحْبَبْتَ قولَ الشِّعرِ فاختَرْ ... لنظمك كلَّ سهلٍ ذى امتناعِ

ولا تقصدْ مجانسةً ومكّن ... قوافيه وكِلْهُ إلى الطباعِ

وكان الشاعر الأسعد بن مماتى أيضا يكره الميل إلى البديع وإغراق شعراء عصره فى الجناس خاصة. قال الحموى : "وكان الأسعد بن مماتى ممن لايجعل الجناس له مذهبا فى نظمه وما أطرف ماقال :

طبعُ المجانسِ فيه نوعُ قيادةٍ ... أو ماترى تأليفَه للأحرفِ(٢)

وقد ظهر هذا الاتجاه فى الشعر المصرى منذ العصر العباسى، ثم ازدهر فى عصر الفاطميين والأيوبيين بحيث كاد معظم الشعراء يتبعون تلك الطريقة فى فنهم، فالألفاظ لينة، وبحور الشعر مجزوءة أو قصيرة ولايظهر فى فنهم أى لون من ألوان التكلف، وقل أن نجد ألوان الزينة اللفظية إلا ماجاء للتظرف، فشعرهم صادر عن طبعهم، ويجرى على ألسنتهم وكأنهم يغرفون من بحر، وأكثر شعراء هذه المدرسة من الغزليين وإذا عرف مذهبهم فى العصر الأيوبى بالطريقة الغرامية، وقد اهتم شعراء هذه المدرسة اهتماما خاصاً بالمقدمات الغزلية فى قصائدهم التى قصدوا بها إلى موضوعات الشعر المختلفة كما أكثروا من الغزل وأطالوا فيه، ويروى أن ابن سعيد المغربى فى زيارته لمصر اجتمع بالبهاء زهير وسأله أن يرشده السبيل إلى الطريقة الغرامية، فوجهه البهاء لقراءة بعض دواوين الشعراء على أن يراجعه بعد ذلك، فغاب ابن سعيد مدة، أكثر فيها من قراءة هذه الدواوين إلى أن حفظ أغلبها، ثم اجتمع بعد ذلك بالبهاء زهير وتذاكرا فى الغراميات وفى غضون حديثهما أنشد البهاء :

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ص ١٦١

(٢) الأدب فى العصر الأيوبى ، د. محمد زغلول سلام، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣.

"يابان وادى الأجرع"

وقال أشتهى أن يكمل هذا المطلع ، ففكر ابن سعيد قليلا ثم قال :

"سقيتَ غيث الأدمع"

فقال البهاء : "والله حسن ولكن الأقرب إلى الطريق الغرامى، أن تقول :

هل ملت من طرب معى (١)

فمدرسة الرقة تتجه إلى مخاطبة الروح المصرية التى عرفت برقة الشعور وعذوبة الحديث وخفة الظل كما تعكسها أبيات الشاعر ابن النبيه :

أفديه إنْ حَفِظَ الهوَى أوْضَيَّعا ... مَلَك الفؤادَ فما عسى أنْ أصْنَعا

مَنْ لَمْ يَذُقْ ظلمَ الحبيبِ كظُلْمِه ... حلُوا فقد جهلَ المحبَّةَ وادَّعى

ياأيُّها الوجهُ الجميلُ تداركَ الصَّبُّ النحيلَ فَقَدْ عفا وتَضَعْضَعا

هلْ فِى فؤادِك رحمةٌ لمتيَّمٍ ... ضمَّت جوانحُه فؤاداً مرجعا

فتشْ حشاى فأنت فيه حاضرٌ ... تجد الحسودَ بضدِّ ما فيه سَعى

هلْ من سبيلٍ أن أبثَّ صبابتى ... أو أشتكى بلْواى أو أتضرعا

إنّى لأستحيى كما عوّدتنى ... بسوى رَضاك إليك أنْ أتشفَّعا(٢)

وقد عالج شعراء هذه المدرسة فنون الشعر المختلفة واهتموا فيه بالتعبير عن العواطف بطريقة أدنى إلى ذوق العامة لا الخاصة وإن لم ينسوا فى هذه الطريقة أن يلائموا بينها وبين الزى الأدبى العام لمصر فى ذلك العصر، وهو الزى الذى يؤثر البديع ويعني به عناية جعلت منه طابعا للأدب المصرى ولونا من ألوان الشخصية. ولم يكن بدٌّ لمصر أن تتأثر بالبديع وألوانه المختلفة فى الأدب. ولم يكن بد لمصر من أن تترك أثرها فى هذا البديع نفسه كذلك خاصة بعد أن نعمت بحضارة الفاطميين الزاهية، ثم حضارة الأيوبيين.

---

(١) دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى ، د. محمد كامل حسين، ١٨٦ ، ١٨٧

(٢) ديوان ابن النبيه المصرى، ص ١٤٩ ، ١٥٠

ولقد عرف المصريون ألوانا جديدة من ألوان البديع تتفق وطبيعتهم وتلائم أمزجتهم وتساير شخصيتهم التى اشتهروا بها فى التاريخ الوسيط. ومن هذه الأنواع : نوع يقال له (السهولة) كتلك التى تظهر فى شعر البهاء زهير وابن مطروح. ونوع يقال له (النزاهة) وهو أن ينزه الشاعر شعره عن ألفاظ الفحش والمجانة. حتى يكون الهجاء نفسه "ممن تنشده العذراء فى خدرها فلايقبح منها" ثم نوع يقال له (التهكم أو التندر).

وقد غلب على الأدب المصرى لون بديعى هو التورية ، والقاضى الفاضل هو الذى نبه الناس إلى التورية، أو كما يقول النقاد، هو الذى عصر سلافتها لأهل عصره، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه وفى نثره (١).

لقد حرص أصحاب مدرسة الرقة على اختيار ألفاظ رقيقة سهلة حتى وهم بعض الباحثين أن شعرهم شعر شعبى ملىء بالألفاظ العامية، والحقيقة أننا لانجد لفظة عامية واحدة ولكن سهولة ألفاظ الشعر جعلت الباحثين يتوهمون هذا الوهم ويدعون الشعبية فى شعر البهاء زهيروغيره(٢).

ولعل القارىء يستشعر الرقة فى هذه المقطوعة التى يمدح بها الشاعر أبو العباس أحمد ابن أبى القاسم أحد الولاة. ويستهلها بهذه المقدمة الغزلية :

قلْ للحبيبِ أطلتَ صدَّكْ	وجعلتَ قَتْلى فيكَ وكَدَّكْ
إن شئتَ أن أسلو فرُدَّ	علىَّ قلبى فهو عندَكْ
أخلفتَ حتى فى زيا	رتنا بطيْفٍ منك وعْدَكْ
وأنَا عليْك كَمَا عهد	تَ وإنْ نقضتَ علىَّ عهدكْ
أحرقتَ بأثْغُرَ الحبيبِ	حشاى لما ذُقتُ بردَكْ
وشهدتُ أنِّى ظالمٌ	لما طلبتُ إليك شهدَكْ

(١) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية، د. عبد اللطيف حمزة، ص ١١٠، ١١١.

(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين، د. محمد كامل حسين ، ص ١٨٧.

أتظـــنُّ غصـنَ البـانِ يعجبُـــنِى وقــد عاينـــتُ قـــدّكْ

أم يـــخدعُ التفـــاحُ الحـــاظِى وقــد شاهـــدتُ خــدّكْ

لا والذى جعــلَ الهــوى مولاى حتّى صرتُ عــبْدك(١)

وتبدو خفة الروح المصرية فى أبيات البهاء زهير حين يقول :

تعـيشُ أنــتَ وتبْقَــى أنــا الــذى مــتُّ حــقاً

حاشـاكَ يانــورَ عيــنِى تلــقى الَّـذى أنــا ألْــقى

قد كــانَ ماكــانَ مــنِّى واللـــهُ خــيرٌ وأبقــى

ولــم أجــدْ بــينَ موتِــى وبــينَ هــجْرِك فَرْقَــا

يا أنعــمَ النّــاسِ بــالاً إلــى متــى فــيكَ أشْــقَى

سمعــتُ عـــنْكَ حديثــاً يــاربِّ لاكـــانَ صِدْقَــا

حاشَــاك تنقــضُ عهــدِى وعروتِــى فيــكَ وثْقَــى

ومـــا عهــدتــُـك إلا مــن أكرمِ النّاسِ خُلْقــا

يا ألـــفَ مـــولاى مهْــلاً يا ألــفَ مــولاى رُفقَــا

لــك الحيـــاةُ فإنـــى أمـــوتُ لاشــكَّ عشْــقَا

لــم يبــق مــنى إلا بقيـــةٌ ليــس تبقَى (٢)

وأصحاب هذه المدرسة يميلون إلى المقطوعات القصيرة بدلا من القصائد الطويلة، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنهم كانوا ينشدون لأنفسهم ولأصدقائهم فى مناسبات خاصة فتركوا طريقة الشعر التقليدى القديم، وأكبر دليل على ذلك أن الشاعر البهاء زهير كان من شعراء مدرسة الرقة والسهولة ولكنه عندما كان يمدح، يضطر أحيانا إلى أن يتخذ الطريقة التقليدية

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين، د. محمد كامل حسين، ص ١٨٧ .

(٢) شرح ديوان بهاء الدين زهير، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

القديمة، ويطيل فى قصائده، ويتخذ فى كثير من الأحيان التفاعيل الطويلة، وهنا تظهر شخصية الفنان المقلد الذى يختلف فى أكثر الأحوال عن شخصية الشاعر المطبوع الذى يصدر فنه عن وحيه وإلهامه لاعن تقليد وتصنع(١).

الأغـــراض

ألقت الشخصية المصرية ظلالها على أغراض الشعر فى شعاب ثلاثة :

١- شعب مهدته بمعاولها الذاتية وشقت بذلك طريقا جديداً أطلقت عليه "شعر الحشاشين".

٢- وشعب أحست فيه وعورة الطريق : ولم يدفعها إلى السير فيه دافع خارجي أو داخلى فأبت أن تطرق أبوابه، وحرمتنا بذلك تصوير مشاهداتها وانطباعاتها عما رأت وهو مايمكن أن نسميه بأدب الرحلات.

٣- وشعب ثالث سلكه من قبل عديد من الشعراء العرب وتنقلوا بين منعطفاته وأزقته ونظرت الشخصية المصرية فوجدت فيه طرقا متشعبة أخذت تختار منها مايناسبها وأعرضت عن بعضها وشقت أنفاقا جديدة، فغيرت من بعض ملامحه حتى أصبحت معظم أغراض الشعر العربى تتميز بطابع خاص لدى الشعراء المصريين.

أولا : الأغراض المبتدعة : أشرت فيما سبق إلى أن شعر الحشاشين كان وليد القرن السادس الهجرى ونتاج البيئة المصرية وصورة مجسمة لبعض مظاهرها الاجتماعية، إذ عكس لنا هذا الغرض حياة الفقراء الصوفيين فى المجتمع المصرى ومايرتبط به من زهد تقابله نزعة المجون وكلاهما وليد أحداث العصر والبيئة المصرية. وذكرت فيما سبق نماذج متعددة لكليهما(٢).

ثانيا : الأغراض المهجورة : لم يهتم المصريون بتصوير الرحلات فى أدبهم لأنهم لم يمارسوها مع أنهم اطلعوا على الأدب العربى وهو غنى بتصوير الرحلة والهجرة، إذ كان أدب الرحلة عنصرا من أهم العناصر الفنية فى بناء القصيدة العربية وهو ما أطلق عليه النقاد اسم "عمود الشعر".

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين، د. محمد كامل حسين، ص ١٩٠ .

(٢) انظر هذا الكتاب ص ٢٥٢ ، ٢٦٤ .

وقد عوّدت الحياة البدوية أبناءها حب الهجرة والاغتراب ، قيل لأعشى بكر : إلى كم هذه النجعة والاغتراب أما ترضى بالخفض والدعة ؟ فقال : لو دامت الشمس عليكم لملتموها ، وفى هذا المعنى يقول أحد الشعراء :

وطولُ مقامِ المرءِ فى الحيّ مخلق لدِ يباجتّيه فاغترب يتجددْ

فإنّى رأيتُ الشمسَ زيدت محبةً إلى النّاسِ إذ ليست عليهم بسرمدْ

وقال موسى بن عمران عليه السلام : لاتتموا السفر فإنى أدركت فيه مالم يدرك أحد يريد أن الله عز وجل كلمه فيه تكليما وقال المأمون لا شيء ألذ من سفر فى كفاية لأنك فى كل يوم تحل محلة لم تحلها وتعاشر قوما لم تعاشرهم. وقال الشاعر :

لايمنعنك خفضُ العيشِ فى دعةٍ من أنْ تبدّلَ أوطاناً بأوطانِ

تلقى بكلِّ بلادٍ إن حَلَلْتَ بها أهلاً بأهلٍ وإخواناً بإخوانِ(١)

وعرف المصريون فيما عرفوه من العرب أدب الرحلات ولكن البيئة المصرية عودت سكانها أن يرتبطوا بها، ففيها رغيد العيش. يصفها القاضى الفاضل فى رسالة بعث بها إلى نور الدين قائلا :

وما بَعْدُ مصر للغنى متطلّب وما بعَد هذا المالِ مال فيكتسبْ

وعلى ترابها تحل الأزمات التى كان من الممكن أن تدفع بسكانها إلى الهجرة فالقحط والفيضان كانا مقبرتين للمصريين يغلقان أبواب الحدود أمام رغبة المهاجرين من المصريين حتى تزول الأزمة فيعود الخصب من جديد(٢).

وهكذا حببت طبيعة مصر سكانها وزوارها الإقامة فيها، فلم ينشأ بين علمائها رحالة "كابن بطوطة" "وابن جبير "و "ناصر خسرو". ولم يصور لنا أدبها شيئاً عن الرحلات بل ذهب بعض شعرائها إلى ذم الغربة ووصف قسوتها على الناس معبراً عن إحساسه نحوها .

---

(١) العقد الفريد، جـ ٣ ، ص ٣٤ .

(٢) شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان ، د. جمال حمدان، ص ٣٣٠

يقول الشاعر المصرى القاضى أبو الحسن على بن محمد بن النضر :

أرى غُرْبَةَ الإنســانِ أخــتَ وفَاتِـه ... ولــوْ نالَ فيـها مُنْتهى طلباتـــه

فلايشترى الدُّنيا ببلــدتِه امــرؤٌ ... فليس عزيزاً فى سوى عَرَصَاته(١)

ولست أدرى هل كان الشاعر فى الشطر الأخير من بيته الثانى مرددا لمثل مصرى معروف فى زمانه أو عرف بعد ذلك، وماتزال تردده أفواه المصريين حتى يومنا هذا ؟ ومن خرج من داره قل مقداره".

ويضرب شاعر مصرى آخر على الوتر ذاته فيقول محمد بن هبة الله بن على بن عرام السديد : "إن فى الغربة مذلة، ولاعز للإنسان إلا فى وطنه، ومن ثم فهو يدعونا إلى القناعة بما نحن فيه، فالرزق يأتينا وإن لم نسع إليه :

لاعزَّ للمــرءِ إلاَّ فــى مواطِـنه ... والذُّل أجمعُ يلقاه من اغْتَرَبَـا

فاقْنَعْ بما كان ممَّا قد حُبيتَ بـه ... بحيث أنتَ وكُن للبيْنِ مُجتنِبًا

وأعلمْ يقيناً بلا شــكٍّ يخالطُـه ... بأن رزقك إنْ لمْ تأتِه طلبَـا(٢)

وإذا كان الشعر المصرى قد حرمنا من أدب الرحلات فإنه قدم لنا فيضا فى غرض آخر هو التغنى بحب مصر والحنين إليها ، ذلك الحب والحنين هما اللذان ملكا قلوب الشعراء زائرين ومقيمين فى مختلف العصور.

وليس بدعاً أن يرتبط الشعراء المصريون والمتمصرون بحبها ويودعوها غرامهم وهيامهم، بحيث لايروى ظمأ نفوسهم وقلوبهم وأجسادهم نهر سوى نيلها العذب :

وقف القاضى الفاضل يوما أمام نهر الفرات يخاطبه - وكان يرافق السلطان صلاح الدين - قائلا :

باللّـهِ قُـلْ للنّيـلِ عـنِي : إنَّنـى ... لمْ أشْـفِ من مـاءِ الفراتِ غليــلاَ

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ص ٩٤

(٢) الخريدة، جـ ٢ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

وسَلْ الفؤادَ، فإنَّه لى شاهدٌ ... إنْ كانَ طرفى بالبكاءِ بخيلاً

ياقلبُ كم خلَّفت ثَمَّ بثينةً ... وأعيذُ صبْرك أنْ يكونَ جميلاً(1)

ولايروق فى نظر البهاء زهير بلد آخر غير مصر، ففيها رغيد العيش، ومن دونها تتساوى البلدان فلا خير لواحدة على الأخرى :

ولمْ أرَ مصراً مثلَ مصرَ تروقُنى ... ولامثلَ مافيها من العيشِ والخفضِ

وبعدُ بلادى فالبلاد جميعُها ... سواءٌ فلاأختارُ بعضاً على بعضِ(2)

ويتذكر العماد الأصفهانى أحبابه بمصر ويدرك بعد مابينه وبين مقامه بالشام فيتمنى قربهم، ويشيد بطيب مقامهم :

تذكَّرتُ فى جلَّق داركم ... بمصرَ ، ويابُعدَ مابيننا

ومـا أتمنَّى سوى قُربِكم ... وذلك واللّهِ كلُّ المنى

لكمْ بالجنانِ وطيبِ المقامِ ... وحسنِ النَّعيمِ بمصرَ الهنا(3)

ثالثا الأغراض المتطورة : وهذه الأغراض متعددة، ورثتها مصر عن الشعر العربى، فعبرت من خلالها عن بعض متطلباتها محوَّرة أو مطوَّرة فيها .

وأهم هذه الأغراض مايلى :

١ – المديح

تجلت آثار الشخصية المصرية فى هذا الغرض من خلال عدة مظاهر :

(أ) شيوع التيار الشيعى فى القيم التى مدح بها الشعراء سواء كان الممدوح شيعيا أو غير شيعى، وهذا يعنى أن هذه المبادىء لم تعد أفكارا مذهبية بقدر ما أصبحت قيما اجتماعية يرددها الشعراء عن وعى وعن لاوعى فى مديحهم الفاطميين أو الأيوبيين أو الخلفاء العباسيين.

---

(١) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ٩١

(٢) شرح ديوان "بهاء الدين زهير" بيروت : دار الكاتب العربى ١٩٦٨ ، ص ١٤٤ .

(٣) كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ٧٠٨

فالشاعر عمارة اليمنى يمدح الخليفة الفائز ووزيره طلائع بن رزيك بعدة صفات تعكس المذهب الشيعى وكان قد قدم من اليمن إلى مصر سنة ٥٥٠ هـ.

فَهَلْ دَرى البيتُ أنّى بعد فرقَـتِهِ ... ماسـرْتُ من حرمٍ إلاَّ إلى حـرمِ

حيثُ الخلافةُ مضروبٌ سُرادقُـها ... بين النقيضيْن من عفوٍ ومن نقـمِ

وللإمامـــةِ أنـــوارٌ مقدّســـةٌ ... تجلو البغيضين من ظلمٍ ومن ظُلَمِ

وللنبـّـوةِ آيـــاتٌ تنـــصُّ لنـا ... على الخفيين من حكمٍ ومن حِكَمِ

أقسمتُ بالفائزِ المعصومِ معتـقداً ... فوزَ النجاةِ وأجر البرّ فى القسمِ

لقد حمى الدينَ والدُّنيا وأهلَهـما ... وزيره الصالحُ الفرّاجُ للغُمـمِ(١)

فهذه الأبيات تشير إلى بعض الأفكار التى رددها الشيعيون حول الإمامة، فالإمام خليفة الله فى الأرض يحمل أنوارا قدسية تبدد أمامه غياهب الظلمات وتجعله قادرا على نشر العدل الإلهى، والإمام وريث النبى ، و علامات النبوة فى الإمام ظاهرة تشير إلى الحقيقة المستورة وهى أحقية الفاطميين فى الحكم باعتبارهم ورثة النبى صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم.

وقد ظلت هذه القيم ماثلة أمام عيون الشعراء، فعلى الرغم من أن الأيوبيين حاربوا المذهب الشيعى واستبدلوا به المذهب السنى فإن الشعراء قد ترسبت فى أذهانهم صور معينة للصفات المستحبة فى المديح من خلال ماتعودوا أن يمدحوا به الخلفاء الفاطميين. فأخذوا يسقطون بعض هذه الصفات فى مدحهم الخلفاء السنيين من عباسيين وأيوبيين. ومن ذلك مانراه عند ابن النبيه حين مدح موسى بن العادل الأيوبى فقال :

الطّاهرُ النّســبِ ابنُ الطّاهرِ النّســبِ ابنُ الطّاهـــرِ النسبِ ابنُ الطّاهــرِ النّسبِ

(١) النكت العصرية، عمارة اليمنى ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

نفسٌ لآبائِها من فضلِها شرفٌ   كذا الثمار لها فضلٌ على الخشب(١)

وهذه صفات أسبغها الفاطميون على أنفسهم حين ادعوا نسبهم إلى فاطمة الزهراء ثم إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وحينما زعموا أن الخليفة يستمد شرعيته من الله تعالى فهو الوصى.

ومرة أخرى يمدح ابن النبيه الخليفة العباسى فيصفه بصفات شيعية فيقول :

فى صدرِه البحرُ أوْ فِى بطنِ راحتِه   كلاهُما يغمرُ السُّؤّال زاخرُه

تقضى بتفضيلِه ساداتُ عترتِه   لوْ كانَ (صادقُه) حياً و(باقرُه)(٢)

فهو يشير إلى العترة وإلى تسلسل الوصاية، ويذكر من الأوصياء جعفر الصادق ومحمد الباقر.

(ب) وقد كشف فن المديح عن مفاتيح الشخصية المصرية فى استعطافها ونيل رضاها فكما أدرك الشاعر الجاهلى أن المديح بصفات الشجاعة والكرم والحمية تهز مشاعر الممدوحين وتحقق له مآربه، أدرك الشاعر المصرى مفتاح الشخصية المصرية فى استعطافها وراح يستحثها العطاء متوسلا إليها بإثارة أحاسيس الغربة والبعد عن الأوطان، وما أقساها على نفوس المصريين :

يستجدى عمارة اليمنىّ أحد الوزراء المصريين فيستحثه العطف على الغريب الذى فقد أوطانه ومآربه :

أُدافعُ الهمَّ عنْ قلبِى فيغلبُنى   ماشِئْتُ من فقدِ أو طانٍ وأوطارِ

فاجعلْ نداك غريباً لا شبيهَ له   من النّدى فى غريبِ الفضْلِ والدارِ(٣)

ومرة أخرى يقول :

سيُثنى عليكُم ضيفكُم وغريبُكم   ثناءً جميلاً والزمانُ له فمُ (٤)

---

(١) ، (٢) ديوان ابن النبيه ، ص ٢٣٩ ، ص ٩٦

(٣) ، (٤) ديوان عمارة اليمنى، ص ٢٥٨ ، ص ٢٦٢ .

(جـ) ولقد كان الكرم قاسما مشتركا فى جميع ماردده الشعراء من مديح، لكن صورة الكرم تختلف باختلاف البيئات، فهو فى صحراء العرب يشبه بالغيث، أما فى مصر فيأخذ شكلا آخر سيتضح من خلال الحديث عن آثار الشخصية المصرية فى معانى الشعر وأخيلته.

٢ - الرثاء :

عرفت مصر فى تلك الفترة لونين من الرثاء هما : الأشخاص، ورثاء الدول والممالك.

(أ) رثاء الأشخاص : لم يعكس فن رثاء الأشخاص تأثير الشخصية المصرية فى الأدب كما كان يتوقع منه، لأن المصريين عاطفيون، والرثاء موطن لظهور الأحزان. وهذا لايعنى عدم تأثيرها على الإطلاق، فمن خلال المعانى التى رددها الشعراء فى رثاء الشيعيين وغيرهم، نلاحظ آثار الطابع الشيعى. يرثى أحد الشعراء والد "صلاح الدين الأيوبى" فيشير إلى فكرة الوراثة قائلا :

ولو خلّف ابناً واحداً سيّد الورى ... لما حازَ ميراثَ الخلافةِ صهرهُ

ولمْ يتنازعْ عمُّه وابنُ عمِّهِ ... عليها إلى أنْ يجمعَ الخلقَ حشرُهُ

فكيفَ لخيسِ آلِ أيوب أسده ... لقد بان خوفُ الدهرِ منهم وذعرُهُ(١)

(ب) رثاء الدول والممالك : وهذا الجانب من الرثاء هو الذى اعتبره الدكتور محمد كامل حسين ابتكارا للشخصية المصرية فى فن الرثاء منذ عصور الطولونيين والأخشيديين، وقد تابع الشعراء المصريون إنشادهم فى هذا الفن وراحوا يرثون القصور الفاطمية بعد زوال أصحابها ويبكون الفاطميين بعد انتهاء عصرهم.

أسَفِي لملكٍ عاضديٍّ عُطِّلت ... حجراتُهُ بعد النّدى والبَاسِ

أخذتْ بنانُ العزِّ من أموالِه ... ورجالِه بمخانِقِ الأنفاسِ

وعسى الليالى أنْ تردَّ زمانَكُم ... لَدْناً كعودِ البانةِ الميَّاسِ

أبنى علىٍّ والبتولِ وأحمدٍ ... وكواكبِ الدُّنيا وخيرِ النّاسِ(٢)

ويرثى القاضى الفاضل قصر العزيز، فيقول :

---

(١) ديوان عمارة اليمنى، ص ٣٦١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

وقفنا على قصرِ العزيزِ، وقدْ عفا ... نعيبُ عليه الدَّهرَ، لما تحكَّما

سلامٌ عليهِ من معنًّى معنّفٍ ... وقلَّ له من صاحبٍ أن يُسلِّمَا

بكيتُ له دمعاً، ولوكنتُ منصفاً ... بكيتُ دماً، والدمعُ ضربٌ من الدما

فيا عجباً منّي ومنهُ، فإنّني ... خَرسْتُ، وهمَّ الربْعُ أن يتكلما(١)

٣- شعر الطبيعة :

عرضت فيما سبق فصلا كاملا عن تصوير الأدب المصرى شعره ونثره لمظاهر البيئة الطبيعة فى مصر بمختلف ألوانها. وقد رأينا آثار الشخصية المصرية فيه من خلال المظاهر التالية :

(أ) التجديد فى وصف بعض مظاهر الطبيعة، فقد أضاف شعر الطبيعة المصرى وصف النواعير، وهو لون جديد فى وصف الطبيعة ابتدعه الشعراء المصريون.

وقد وصف الأمير تميم الناعورة بقوله :

ناعورةٌ أنّتْ أنينَ الهَوى ... لمّا شكتْ حرٌّ وساوِيسها

أنينُها صرّةُ تدويرِها ... ودمعُها ماءُ قواديسِها

كأنّما الكيزانُ فى بئرِها ... هامُ ملوكٍ فى نواويسها

تقذفُ بالماءِ إلى روضةٍ ... كأنّها ريشُ طواويسها

كأنّما السُّوقُ بها نِسوةٌ ... قامت إلى قرعِ نواقيسِها(١)

ووصفها أبو الفرج الموقفى المصرى بقوله :

ناعورةٌ تحسبُ فى صوتِها ... متيّماً يشكو إلىَّ زائرِ

كأنّما كيزانُها عصبةٌ ... زُموا بريبِ الزمنِ الجائرِ

قد منعوا أن يلتقوا فاغتدوا ... أولُهم يبكى على الآخرِ(٢)

(ب) مزج وصف الطبيعة بأغراض أخرى : فقد صور المصريون ملامح بيئتهم التى

---

(١) ديوان تميم المعز لدين الله ، ص ٢٤٥ .

(٢) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ص ١٥٤.

رأوها وأكثروا من الحديث عن المياه والأشجار واقترن لهوهم وغزلهم ومجالس شرابهم بوصف الطبيعة. وفن الأديرة الذى أبدع فيه المصريون يتميز عن فن الأديرة لدى غيرهم من شعراء المجون فالمصريون كانوا دائما يقرنون وصف الطبيعة المصرية بوصفهم مجالس الخمر والائتناس بالغوانى والغلمان الحسان وكأنهم يتعشقون ثلاثة فى مجالس أنسهم الخضرة والماء والوجه الحسن.

(جـ) تميز فى السمات العامة والخصائص الفنية : فشعر الطبيعة المصرى يختلف عما عرف عن شعر الطبيعة فى الآداب العالمية، فهو فى الآداب العالمية ضرب من ضروب التصوف الروحى، فيه من ضروب التأمل والتفكير العميق فى الحياة، وقد يطير بالشعراء خيالهم إلى الحديث عن الخالق أو العالم العلوى والنفس بعد الموت إلى غير ذلك من الموضوعات الفلسفية أو الروحية، ولكن مصر لاتعرف شيئا عن ذلك كله، ولم تسمح البيئة المصرية لهذا اللون من التفكير الفلسفى العميق، لذلك كان شعر الطبيعة فى مصر مخالفا تمام المخالفة لهذه الناحية الروحية الفلسفية بل اكتفى الشعراء بوصف الرياض ومابها من أزهار ملونة وجداول مياه، وما فى الجو من غيم أو مطر، واتخذ شعراء الطبيعة فى وصفهم تشبيهات مادية خالصة، وكل ذلك كان وسيلة إلى وصف قصفهم والدعوة إلى الشراب، فلم يكن ذكر الطبيعة عندهم غرضا قائما بذاته أو فنا يقصدون إليه، وقد اشترك شعراء الطبيعة فى مصر جميعا فى هذه الظاهرة الفنية وذلك كله بسبب ماعرف عن المزاج المصرى من الاتجاه إلى الماديات أكثر من اتجاهه إلى الخيال أو الأمور العقلية.

فهؤلاء الشعراء يمثلون مذهبا خاصا فى فنهم، وفى نظرتهم إلى الطبيعة فهم جميعا يشبهون، وفى تشبيهاتهم صور حسية مادية، هى صور ماكان يرتديه أو يتزين به المصريون فى هذا العصر، ثم تظهر الألوان المختلفة للأزهار وهى عندهم ألوان الملابس أو الحلى، فهى صور منتزعة من صميم الحياة المصرية المترفة، وهم جميعا يصفون الطبيعة ثم يعقبون وصفهم بالدعوةللشراب[١].

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ص ١٤٩، ٧٥.

٤ - الشعر السياسي :

برزت آثار الشخصية المصرية في هذا الغرض من أغراض الشعر في مظاهر متعددة :

(أ) الغزارة في الكم والكيف : فقد تابع الشعر المصرى مختلف الأحداث السياسية الداخلية والخارجية وفصلها تفصيلا دقيقا . بحيث أمكن الاعتماد عليها في تاريخ الحياة السياسية المصرية الداخلية والخارجية.

(ب) سجل هذا الشعر أحداث الثورة المصرية كما سجل روح المقاومة الشعبية فالمصريون لايواجهون حكامهم بالثورة المباشرة ولكنهم يعبرون عنها بأساليب أخرى كالتندر والسخرية كما يبدو في صنيع المصريين تجاه مازعمه الفاطميون من معرفة الغيب وادعاء بعضهم الألوهية، فقد كتب أحد المصريين رقعة ووضعها فوق المنبر أخذها العزيز بالله عندما صعد المنبر في يوم الجمعة ليقرأ البيتين التاليين :

بالظُّلْمِ والجورِ قدْ رضِينا   وليسَ بالكفرِ والحماقةِ

إنْ كنتَ أعطيتَ علْمَ غيبٍ   فقُلْ لنا كاتبُ البطاقةِ

والمصريون يحبون الحياة ولكنهم يضحون بأرواحهم عندما يغزوهم الأجنبي أو تتعرض بلادهم التى أحبوها حبا جما لغزو أجنبى. وكانت نغمة الجهاد الدينى أنشودة يرددها المصريون وهم يجودون بأرواحهم في سبيل الذود عن مصر(١).

(جـ) لم يحتد الصراع المذهبى في الشعر المصرى احتداده عند غيرهم من الشعراء في الأقطار الأخرى، فلم تكن مصر مسرحا فسيحا يتطاول فيه فرسان الرهان في حلقة السباق المصرية.

وقد أشرت إلى أن الاحتكاك الشيعى السنى كان هادئا إذا قورن بالصراع الذى دار في غير مصر من الأقطار.

ولقد ظل عمارة اليمنى مقربا إلى الفاطميين ولم يعتنق المذهب الشيعى بل طلب من

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر، د. محمد كامل حسين، ص ٦٤ ، ٦٥.

ممدوحه أن يعفيه من الجلوس مع من يخوضون فى ذم السلف، وأنكر عليهم ذلك ومازال محظيا عندهم طوال حكمهم بينما ترددت فى جنبات القصور العباسية ببغداد دعوات الاهانة التشنيع بأبناء فاطمة زهراء من ذلك مارواه أحد الشعراء : قال مروان بن أبى حفصة : دخلت على المهدى فاستنشدنى :

ياابنَ الذى ورثَ النبىُّ محمداً	دونَ الأقاربِ من ذوِى الأرحامِ
الوحْى بينَ بنى البناتِ وبينكم	قطعَ الخصامَ فلاتَ حين خصامِ
ماللنّساءِ مع الرّجالِ فريضةٌ	نزلتْ بذلك سورةُ الأنعامِ
أنَّى يكونُ وليسَ ذاك بكائنٍ	لبنى البناتِ وراثةُ الأعمامِ
ألْغَى سهَامَهم الكتابُ فحاولُوا	أن يشرعوا فيهَا بغيرِ سهامِ
ظفرتْ بنو ساقى الحجيج بحقِّهم	وغررتمُ بتوهُّم الأحلامِ(١)

٥ - الهجاء :

يوضح فن الهجاء قيم الذم التى تنتشر فى بيئة معينة من البيئات ، كما يعكس حدة النفس وسماحتها بمقدار تجاوب المجتمع مع هذه الظاهرة.

وقد عرف الأدب العربى صراعا مريرا بين المتنافرين فى ظل المجتمع القبلى فى العصر الجاهلى وفى أيام الدولة الأموية التى شهدت مولد لون أدبى جديد هو فن النقائض التى دارت رحاها بين كبار الشعراء من أمثال : الأخطل وجرير والفرز دق والبعيث.

وكان بعض الشعراء إذا هجا تألم أشد الألم، وربما راح يمرغ وجه فى التراب من الغيظ حتى تجود قريحته بمايرد به على غريمه(٢).

ويأخذ فن الهجاء المصرى صورتين هما :

---

(١) العقد الفريد حـ ١ ص ٥٩

(٢) راجع تفاصيل فن النقائض فى كتاب التطور والجمود فى الشعر العربى، للدكتور عبد العزيز الكفراوى.

(أ) هجاء الأشخاص : الذى عكس لنا آثار الشخصية المصرية من خلال الخصائص التالية :

١- عدم التطرف فى الإيذاء، فهو يرتدى ثوب سخرية لاذعة أو عتاب شديد أو فكاهة، ولايثير التنابز بالألقاب أو نهش الأعراض بصوره مثيرة كالتى سلكها بعض الشعراء.

يقول الشاعر المصرى الناجى فى هجاء الأفضل بن بدر الجمالى :

ماعلمُ الدولةِ إلا امرؤ ... لايعرفُ الشكرَ ولا الحمدَا

لوْ دَخل الحمَّامَ من لُؤْمِه ... فى الصَّيفِ لمْ يعرقْ ولم يندا(١)

فالشاعر يصفه باللؤم وعدم الحياء وهما يثيران فى ذوى النفوس الكريمة الحرارة والخجل من فعل النقائص، فيندى جبينهم ويتصبب عرقا أما المهجوّ فإنه لشدة بروده لايندى جبينه ولو وضع فى حمام ساخن من شأنه إفراز الماء من الجسم. وهذا الهجاء لايثير فى نفوسنا الإحساس بالألم بمقدار مايثير النكتة المرحة. فإذا قارنا هذا الاتجاه بما قاله أحد شعراء النقائض فى العصر الأموى مخاطبا غريمه :

لعلَّ اللهَ فضَّلكُم علينَا ... بشىءٍ أنَّ أمَّكُم شريمُ(٢)

وقول الآخر :

أعدْ نظراً ياعبدَ قيس لعلَّما ... أضاءتْ لكَ النار الحمارَ المقيدَا

أدركنا الفرق الواضح بين التيارين فى صفات الذم وفى طريقة التعبير عنها وفى الآثار التى نحسها فى نفوسنا، فأين اللؤم من نهش الأعراض والاتهام بمعاشرة الحيوان معاشرة جنسية؟

وتبدو خفة الظل والروح المصرية الميالة إلى الدعابة والمرح والفكاهة فى أسلوب الهجاء. يهجو " ابن قادوس " أحد أطباء عصره فيقول :

عليلُهُ منه على ... حَالى خَسار يحْصلُ

تُؤْخذُ منْه ديةٌ ... وبعْد هذا يُقتَلُ(٣)

---

(١) الخريدة جـ ٢ ص ١٠٣.

(٢) المرأة الشريم : هى التى اتحد مسلكاها .

(٣) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

ويهجو " ابن منكلان التنيسي" شريفا يوكل في الحكم فيقول :

أيا شريفاً سـيِّيءَ الخلـقِ ... مستقـبحَ الخـلقةِ والخـُلـقِ

كمْ تنصرُ الباطـلَ ظلماً وما ... تحسنُ أن تدخـلَ في الحـقِّ

تأخـذُ أرزاقَ بنـي آدمِ ... أأنتَ مخلـوقٌ بـلا رزق(١)

(ب) الهجاء الاجتماعي :

اتسم هذا اللون بشيء من الحدة والعنف وإن لم يخل من روح السخرية التي تثير الضحك والفكاهة، كما اتخذ صورة نقد لمظاهر اجتماعية ارتبط فيها المهجو بوضع معين في الدولة.

فالنجيب أبو المكارم بن منقذ المصري يهجو رجلا يدعى الزكي وكان متوليا منصب إدارة الزكاة فيتهمه بالخيانة والبخل ويتحسر على فقد الثقة في الناس فيقول :

واحسـرتـاه علـى الثـقاةِ ... جُعِلَ الزكـيُّ على الزكـاةِ

وهـو الـذي لخيانـةٍ ... أبـداً يُعَـدُّ مـن الجُنَـاةِ

ومتـى تأمَّـل درهـماً ... في الجـوِّ صـار من البزاة(٢)

ويهجو شاعر آخر أحد قضاة عصره فيتهمه بقبول الرشوة - وإن قلت قيمتها - والخور وضعف العزيمة في قضاء الأمور وإنجازها :

قاضي إذاً انفصلَ الخصمان ردَّهما ... إلى الخِصـامِ بحكمٍ غيرِ منفصـلِ

يُبدي الزهادةَ في الدُّنيـا وزخرفِـها ... جهراً ويقبلُ سـراً بعـرةَ الجمـلِ

مهلِّلُ الدَّهرِ لا فـي وقـت هيللـةٍ ... ويلزمُ الصـمتَ وقتَ القولِ والعملِ

ومـا أسمِّـيه لكـنِّي نعـتُّ لكـم ... نعتاً أدلُّكم فيه علـى الرجـلِ(٢)

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ، ص ١٥٢ .

(٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ، ص ١٥٢ .

ويهجو الشاعر ثالث كتاب عصره، فيصور تملق الناس لهم والتقرب إليهم بتقديم الرشاوى والهدايا والتذلل، وكثيرا من الأمراض الاجتماعية. ويبدو أن الشاعر أخفق في مسعاه بعد أن قدم فروض الولاء والطاعة فراح يسبهم في هذه الأبيات :

وكتّابٌ لهُم أبداً حُمَاةٌ ... تُعدُّ لها الرُّقى مثلَ الصِّلالِ
وكلُّهم يجرُّ إليه نفعاً ... فعادتُهُ احتجابي واعتزالي
بأيدٍ تبتدرنَ إلى الرُّشاوى ... كأيدي الخيلِ أبصرتِ المخالي
ولستُ أزورُهُم إلا بشعرٍ ... أنمّقهُ وذلك جُلُّ مالي(١)

وينفس "ابن مقدام المحلي" عن غضبه من أمير يدعى "كازوك" ولي المشارفة بالغربية فيتهمه بالظلم واستيلائه على أموال الناس وتعاضد أسرته معه في تحقيق ذلك ويصب جام غضبه عليه واصفا إياه بأقبح الصفات فيقول :

رجلٌ صيغَ من حما شيب بالشرةِ خلطاً والشؤمِ والخذلانِ
والزناو البغاءِ والجهلِ والإفكِ ... وسوءِ الطّباعِ والبهتانِ
ماظننّا من قبلِه أنّنا نلقى ... جميعَ السوءات في إنسانِ
يتلقاكَ كالحاً عابسَ الوجهِ بقلبٍ خالٍ من الإيمانِ
وله اخوة وأفعالهم في الما ... ل فعل الذئاب بالحملانِ
حَرَّ قلبي على مُتُولي بالبا ... بِ وقولي لصاحبِ الديوانِ(٢)

ولعل أمثال هذه الشتائم هي أعنف ماينطلق به لسان الشعر المصري، وهي إذا قورنت بغيرها هينة يسيرة في إثارة الغضب أو إيلام النفس.

الفكاهة :

الفكاهة كلمة حار الباحثون في وضع تعريف دقيق لها، وذلك لأنها تتضمن أنواعا مختلفة فيما بينها، فهي تشمل السخرية والتهكم والهجاء والنادرة والدعابة والمزاح والنكتة والتورية والهزل والتصوير الساخر(٣).

وقد حظى موضوع الفكاهة باهتمام الدارسين العرب والأوروبيين. ومن بين هذه الدراسات ما قدمه الأستاذ عباس العقاد في كتابه "جحا الضاحك المضحك" واستعرض فيه آراء مجموعة من الفلاسفة مبتدئا بالفكر اليوناني حتى العصر الحديث وأكد في دراسته العلاقة

(١) ، (٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٦٦ ، ص ٤٧ ، ص ٤٩

(٣) الفكاهة في مصر، دكتور شوقي ضيف، ص ١٢ سلسلة كتاب الهلال، القاهرة ١٩٥٨ .

بين هذا الفن ونمط الشخصية الاجتماعية(١) ويصف الدكتور شوقي ضيف المصريين بأنهم من أكثر الأمم ميلا إلى الفكاهة والضحك ومن هنا كان أدبهم غنياً بألوانها وخاصة ماالتصل بالنكت وخفة الروح(٢) ومن أقدم العصور تفكه المصريون وعبروا عن ذلك من خلال الرسوم التي خلفها الفراعنة، والتي حواها كتاب "مصر والحياة المصرية في العصور القديمة" وهو كتاب مترجم عن الألمانية. قد عرف اليونانيون ما عرف الرومان هذه الحقيقة عن المصريين : فالشاعر اليوناني "ثيوكريتوس" الذي عاش في الإسكندرية أثناء القرن الثالث قبل الميلاد يقول عن المصريين : إنهم شعب ماكر لاذع القول روحه مرحه"(٣)

وطالع المصريون فيما أخذوه من الشعر العربي فنا فكاهيا خالصا ظهر في العصر العباسي وعرف بشعر المتطفلين وهم الذين يقتحمون موائد الولا ثم بدون دعوات ودون معرفة سابقة بصاحب الوليمة ويتعرضون بسبب ذلك لمواقف حرجة، لكنهم يواجهونها ببرود، ويصورون ذلك في أدبهم. وقد روى صاحب العقد الفريد طرفا من أخبارهم فهو يحكي، عن طفيلي مر بسكة النخع بالبصرة على قوم عندهم وليمة فاقتحم عليهم وأخذ مجلسه مع من دعي فأنكره صاحب المجلس فقالوا له لو تأنيت أو وقفت حتى يؤذن لك أو يبعث إليك قال إنما اتخذت البيوت ليدخل فيها ووضعت الموائد ليؤكل عليها وما وجهت بهدية فأتوقع الدعوة والحشمة قطيعة وطرحها صلة وقد جاء في الأثر : صل من قطعك واعط من حرمك وأنشد :

كلُّ يومٍ أدورُ في عرصةِ الدارِ ... أشمُّ القُتارَ شمَّ الذبابِ
فإذا مارأيتُ آثارَ عُرسٍ ... أو دخانٍ أو دعوةِ الأصحابِ
لم أعرِّجْ دونَ التقحُّمِ لا أر ... هبُ طعنا أو لَكْزَةَ البوابِ
مستهيناً بمَن دخلتُ عليهم ... غَيرَ مستأذنٍ ولا هيَّابِ
فتراني ألفُّ بالرغْمِ منهم ... كلُّ ماقدمُوه لفُّ العقابِ (٤)

واتخذ التطفل صورة أخرى غير الهجوم على المآدب في وصف حالتهم البائسة ونحس أيامهم و سوء طالعهم. يقول أحدهم :

---

(١) جحا الضاحك المضحك، عباس العقاد، ص ١٢٦ .
(٢) ، (٣) الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف، ص ١٧ ، ص ٢٤ .
(٤) العقد الفريد، جـ ٤ ، ص ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ص ٢٤٣.

أنا فى حـــالٍ تعالـــــى الـلّـــــهُ ربّــى أىّ حَـــالِ

لَيــسَ لـــى شـــــىءٌ إذا قيلَ لـمنْ ذا قلـــتُ ذَالى

ولقــــدْ أفلســـتُ حـــتّى محتِ الشمـسُ خيالــى

ولـقـد أفلســـتُ حتـــّى حلَّ أكـلى لعيــالــى(١)

ويقول أبو الشمقمق :

ليسَ إغْلاَقى لبابِـــى أنَّ لِى فيـهِ ما أخْشَى عليهِ السرِقَا

إنّــما أغلـقتُـه كــى لايــرَى سـوءَ حالىِ من يمُرُّ الطُرقا

منزلٌ أوطـــنه الفــقرُ فلــو يدخُل السارقُ فيــه سُرِقا(٢)

ولعل مصر لم تعرف فى عصورها الإسلامية فكها ساخرا على نحوماعرفت فى شخص سيبويه المصرى الذى عاش أيام الدولة الإخشيدية وكان يظهر الحمق والجنون، وكان يقف فى الأسواق يعظ الناس ويقحم فى وعظه السب والهجاء، فمن ذلك أنه كان يطوف على حماره يوم جمعة، فرأى الناس محتشدين لرؤية موكب الإخشيد أثناء مروره إلى الصلاة فتوسط الجموع وصاح : "ماهذه الأشباح الواقفة والتماثيل العاكفة، سلطت عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة، تتعبها الرادفة وتقلى لهم قلوب راجفة". فقال رجل : "هو الإخشيد ينزل إلى الصلاة" "فقال: "هذا الأصلع البطين المسمن البدين، قطع الله منه الوتين، ولاسلك به ذات اليمين، أما كان يكفيه صاحب ولاصاحبان، ولاحاجب ولاحاجبان، ولاتابع ولا تابعان؟ لاقبل الله له صلاة ولاقرب له زكاة وعمر بجثته الفلاة". ولاريب أن هذا الهجوم على الإخشيد كان يحدث تنفيسا عن الحرج فى نفوس سامعيه فيضحكون ويغرقون فى الضحك ، وكان يتخذ ذلك دائما منحدرا إلى هجائه ومما روى الرواة من شعره قوله :

مَاليـــلةُ المشــتاقِ بـــا عَـدَت النُّوى عنهُ أنيسَه

أوليـــلة المـلدوغ حــــا ذر ميتَّةَ النفسِ النفيســة

بأمـدُ مـن ليـلِ الظريــفِ إذا تجــوَّع للهريـسة(٣)

وتبلور فن الفكاهة المصرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى فى اتخاذه مظهرين : المظهر

(١) العقد للفريد ، جـ ٤ ، ص ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ص ٢٤٣ .

(٢)،(٣) الفكاهة فى مصر ، شوقى ضيف ، ص ٢٨ .

الأول : تجلى فى صورة مقطوعات شعرية كانت الفكاهة مقصودة لذاتها كغرض شعرى متميز. والمظهر الثانى : هو إضفاء الطابع الفكاهى على كثير من أغراض الشعر، فجاءت الفكاهة فيها انعكاسا للروح المصرية وإن كان الغرض الأساسى من القصيدة غرضا آخر غير الفكاهة. ويسمى الدكتور محمد كامل حسين النوع الأول وهو فن الفكاهة المقصود لذاته " بشعر التحامق " ويقول : "إن هذا التحامق أقرب فنون الشعر إلى نفسية الشعب المصرى وهو شعر فكاهى خالص يتعمد فيه الشاعر إضحاك الناس، ولكن الضحك يكون من الشاعر نفسه فى أغلب الأحيان، فهو يصف نفسه فى صور "كاريكاتيرية" متتابعة، ويصف نفسه بصفات ساخرة، وكثيرا ما يتعمد السخف فى القول وفى الصور حتى يظهر حمقه، وأحيانا كان الشاعر يعمد إلى القصائد القديمة المعروفة بين الناس فيمسخها ويغير ألفاظها حتى تظهر القصيدة القديمة فى مظهر جديد فكاهى. يقول أبو الشمقمق :

لو برَحْلِى مابرأسِى ... لمْ أبتْ إلّابنجدِ

خفةٌ ليست لغيرى ... لا أرانى اللّهُ فقدِى(1)

ويقول أبو الطاهر إسماعيل المعروف بابن مكنسة :

أنا الذى حدثكم ... عنه أبو الشمقمق

وقال عنّى أننى ... كنتُ نديمَ المتقى

وكنت كنت كنت كنـ ... ـتُ منْ رماةِ البندقِ

حتى متَى أبقَى كذَا ... نسياً طويلَ العنقِ

بلحيةٍ مسبلةٍ ... وشاربٍ محلقِ

ياليتها قدْ حلقتْ منْ ... وجهِ شيخٍ خلقِ(2)

أما المظهر الثانى فنراه مطلا من خلال معظم الأغراض التى تناولها المصريون وكان الهجاء أكثر الأغراض تمثيلا لهذه الظاهرة. يهجو القاضى الجليس أحد الأطباء فيقول متندرا به :

---

(1) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ص ١٨٤.

(2) الخريدة، جـ ٢ ، ص ٢١٤ .

وأصلُ بليتّى مَن قـدْ غـزانى		من السُّـقمِ الملحِّ بعسكـرينِ
طبيبٌ طبُّه كغـرابِ بـينٍ		يُفرِّقُ بـين عافيتى وبينـى
أتى الحمى وقـد شاختْ وباخـتْ		فردَّ لها الشبابَ بنسختيـن
ودبَّرهـا بتدبيـرٍ لطيـفٍ		حكـاه عن سنانٍ أو حنـينِ
وكانـتْ نوبـةٌ فى كـلِّ يـومٍ		فصيَّرهـا بحـذْقٍ نوبتين(١)

ولم يكن الهجاء وحده مرآة الفكاهة المصرية بل شاركه الشعر السياسى كما مر وشاركها الشعر الاجتماعى أيضا . فالشاعر الدمياطى "ابن قادوس" يتأمل رجلا وهو يصلى وكان إذا دخل فى الصلاة أخذ يكبر كثيرا وكأن به مرض الشك أو الوساوس فيصفه قائلا :

وفاتـرِ النّيـةِ عنيـنها		مـع كثـرةِ الرعدةِ والهـزَّةِ
مُكبرٌ سَبعينَ فـى مـرةٍ		كأنَّه صـلى على حمـزة(٢)

ويصور الشاعر مجونه فيقول :

ولا ئـمٍ يلومـُنى		يريـدُ منـى تـوْبتى
يقـولُ لـى : المـوتُ غـدا		فقلـتُ : هذا حُجَّـتى(٣)

ويصف ابن مكنسة داره وصفا كاريكاتيرياً بطريقته الفكهة فيبرز مظاهر القذارة وسوء الموقع ليستجدى من صاحبه مايعينه على تبديل هذا البيت فيقول :

لى بيتٌ كأنَّه بيتُ شـعرٍ		لابـن حجَّاجٍ من قصيدٍ سخيفِ
ضايقتّنى بناتُ وردان حتّـى		أنا فيـه كـفأرةٍ فى كنيـفِ
أين للعنكبوتِ بيتٌ ضعيـفٌ		مثلُه وهو مثلُ عقـلى الضعيـفِ
وإذا هـبَّ فيه ريحُ السَّراويـل		فسلم على اللحـى والأنـوفِ
بقعةٌ صدَّ مطلعُ الشّمسِ عنها		دفانا مذ سكنتُها فى كسـوفِ
أنتَ وسَّعْتَ بيتَ مالي فوسِّع		منزلى فهو منزلٌ للضيوفِ (٤)

---

(١) ، (٢) ، (٣) الخريدة جـ ١ ، ص ١٩٢ ، ص ٢٢٦ .

(٤) الخريدة جـ ٢ ، ص ٢١١ .

ومن يطالع هذه النماذج يحس فيها الإمتاع والضحك أكثر من إحساسه بالألم والضيق، وتلك آثار الشخصية المصرية فى الشعر يعكسها فن الفكاهة وتتضح إذا ما طالعنا نماذج لشعر السخرية عند غير المصريين من الشعراء العرب. يصف أعرابى امرأة سوداء فيقول :

كأنَّها والكحلُ فى مرودها ... تكحل عينَيها ببعضِ جلدِها

ويقول فيها أيضا :

أشبهكِ المسْكُ وأشبهه ... قائمةٌ فى لونه قاعدة (١)

أما ابن الرومى فكان يعبث بمهجوه عبثا لا ذعا يشبه عبث أصحاب (الصور الكاريكاتيرية) وانظر إليه يقول فى الأحدب الذى يتطير به :

قصُرتْ أخادعُه وغابَ قذالهُ ... فكأنَّه متربصٌ أن يُصْفَعا

وكأنَّما صُفِعتْ قفاه مرةً ... وأحسَّ ثانيةً لها فتجمعا(٢)

ولاتخفى الفوارق بين السخرية المصرية وغيرها من حيث الغاية والغرض والآثار.

الغـزل :

يمكننا أن نلاحظ آثار الشخصية المصرية فى فن الغزل فيما يلى :

(أ) الغزل الحسى : اتجهت الشخصية المصرية إلى الغزل الحسى والغزل بالغلمان لأنهما يسايران طبيعتها ويلبيان حاجتها، فالغزل الحسى فيه وصف لمفاتن المرأة وفيه إثارة الشهوة والجنس وكلاهما قريب من طبع المصريين الذين وصفهم المقريزى بقوله " :رجالهم يتخذون نساء عديدة وكذلك نساؤهم يتخذون عدة رجال، وهم منهكون فى الجماع، ورجالهم كثيرو النسل، ونساؤهم سريعة الحمل" (٣)

وقد اختلف حديث الشعراء المصريين فى وصف مفاتن المرأة والغزل بها عن حديث غيرهم من الشعراء العرب، فالشاعر العربى كان ماديا فى وصفه والشاعر المصرى كان

---

(١) العقد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د . شوقى ضيف ، ص ٢١٣ .

(٣) خطط المقريزى ، جـ ١ ، ص ٧١ .

عاطفيا، وإنما جاء هذا الخلاف من تحضر مصر ورقى عاطفة المصريين برقى حياتهم(١).

ومع ذلك فإن هذه العواطف ممزوجة دائما برائحة الجنس فلا نكاد نلمح فى الشعر المصرى غزلا صور لنا تجربة حب عنيف كالذى رأيناه عند الشعراء العذريين ولعل البساطة التى تمثل عنصرا فى تكوين الشخصية المصرية، جعلت المصريين لايتعمقون عواطفهم، وخاصة عواطف الحرمان التى ينبع منها الغزل العفيف واختصروا الطريق إلى قلب المرأة فراحوا يتوددون إليها بكلمات خلابة وألفاظ معسولة، فموقفهم هذا أشبه مايكون (بالجنتلمان) المعاصر. يقول مروان بن عثمان الفلكى :

يامَا طِلى بديونِ قلبى آنَ أنْ تُقضى الديونُ

شخصتْ له فيك العيونُ وقسّمتْ فيك الظنونُ

وسلبتَ ألبابَ الورى بلواحظٍ فيها فتونُ

وقوامُ أغصانِ الرّياضِ وأين تدركك الغصونَ

الحسنُ فى الأغصانِ فنٌّ وهو فى هذا فنونُ

من أين للأغصانِ ذاك الغنْجُ والسّحرُ المبينُ

أم ذلك الوَرْدُ الجنىُّ بخدّه والياسمينُ (٢)

(ب) الغزل بالغلمان : لم يكن الغزل بالغلمان فى شعر المصريين إلا امتداداً لظاهرة المجون التى أوضحتها سلفا. وقد مثل الغزل بالغلمان مظهرا من مظاهر المجون فى المجتمع المصرى، ولايعنى ذلك أن ظاهرة اللواط كانت منتشرة فى البيئة المصرية.

ويبدو أن كثيراً من الشعراء اتجهوا إلى الغزل بالمذكر كتقليد شعرى إذ غدا معياراً فنياً تقوم على أساسه القصائد، يدل على ذلك موقف بعض الشعراء من الغزل بالمذكر.

وإن غزالا كالغزالة وجهه ضعيف القوى يسطو بليث أبى شبلِ

---

(١) فى أدب مصر الفاطمية ، د محمد كامل حسين ، ص ١٨٨ .

(٢) الخريدة ٨ ، ص ١٠١ ، ص ١٨٢ .

ومن خصره المهضوم كيف مع الضنا ... ينوءُ بردف باهـظٍ حملُه عـبلِ

وإنّى وإنْ شـبّبتُ لا عـن شبيبـةٍ ... فمذهبُ قومٍ فى القريض مضوْا قبْلى

أخطىء فى قصدى وأخطو لصبوةٍ ... وجامعةُ الستين قد جمعتْ رجلى(١)

ويستغفر شاعر آخر ربه من هذا العمل ويبرأ بنفسه أن يكون لوطياً، وإنما هى تقاليد الفن الشعرى :

أستغفر الله من شعر تقدم لى ... فى المرد قصدى به ترويجُ أشعارى

ويقول فى موضع آخر :

ماالمـردُ أكـبرُ همّـى ... ولا نهـايةُ عـلمى

ولسـتُ مـن قوم لـوطٍ ... حاشـا تُقـاى وحـلمى

وإنّمـا خـرجَ دهـرى ... كـذا ففـتّقتُ شـعرى (٢)

وقد تشابهت الصفات التى رددها المصريون واصفين بها المرأة تارة والغلمان تارة أخرى، وهى صفات تنبع فى مجملها من الرقة والظرف :

البدرُ فـى مكْسـرِ شـرْبوشـه ... حُـفَّ بليـلِ الشّـعْرِ الأسـودِ

رَيـّـانُ قُرطُـقه جـدول ... لكـنْ له قـلبُ من الجـلْمدَ

كأنّمـا همْـيانُـه يـرزخُ ... يمـنعُ مَـوْجَ الرّدفِ أنْ يعتدى

غازَلنـا مـن نرجسٍ ذابـلٍ ... وافـترَّ عن نـورِ أقـاحٍ نـدى

وقـامَ يلـوى صـدغَه قـائلا ... لا تغتر ربى فكـذا موعـدى (٣)

وعجز الشعر المصرى عن تقديم قصة حب صادقة صدقا واقعيا أو فنياً بل تكاد تختلط ألوان الجمال النسائى بجمال الغلمان عند جميع الشعراء :

---

(١) الخريدة ٨ ، ص ١٠١ ، ص ١٨٢ .

(٢) الأدب فى العصر الأيوبى ، د محمد زغلول سلام : ص ٢٣٨ .

(٣) ديوان ابن النبيه ، ص ١٣٨ . قرطقه : القرط ، الهميانه : شداد السراويل

) الغزل الصوفي : كان هذا الغزل وليد ظروف اجتماعية خاصة أشرت إليها آنفا وقد تميز هذا الفن بترديد المصطلحات الصوفية واقتباسه بعض ملامح الغزليين العذريين فى مناجاتهم المحبوبة متخذين من ذلك رموزاً يفسرونها بقاموسهم الصوفي الخاص. يقول أحدهم :

تــلذ لـــى فى هـــوى ليلى معـــاتبتى

لأن فـــى ذكرها برداً على كـــبدى (١)

) ومن آثار الشخصية المصرية في الغزل ماتضمنته بعض الأشعار من علامات التودد للمحبوب فى الحلف بحياته وحياة حبه. يخاطب القاضى الفاضل حبيبته فيقسم بحياة حبها أنه لم ينس العهد وأنه راض بما يعانيه مادام فى ذلك رضى المحبوب وسعادته :

وحـــيـاةِ حـــبِّك مانســـيت عهـــدا لحـــبِّك ماحـــييتُ

وإذا رضـــيتُ بمـــا لقـيتُ فقـــدْ نَعِـمْتُ بما شَقِـيتُ (٢)

وإذا كان القاضى الفاضل يقسم بحياة حب صاحبته فإن البهاء زهير يحلف بحياة صاحبته ذاتها :

أحـــبابَنا وحَـــيَاتِكم ســـرُّ الهـــوى عندى مصـــون (٣)

ولايزال الحلف بالمحبوب شائعا بين المصريين فى أغانيهم الشعبية وحياتهم العادية، والحلف بالمحبوب يستحث فى محبوبه غريزة الفخر والاعتزاز بالأنا، وبهذا ينال رضاه، وثقته، ويفلح فى الوصول إلى أهدافه. فليس بدعا مانراه اليوم من حلف المصريين بحياة كل عزيز لديهم رجلا كان أو امرأة صغيرا أو كبيرا.

ويتودد أحد الشعراء إلى القاضى الفاضل فيحلف بحياته قائلا :

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٢١ .
(٢) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ١٩ .
(٣) شرح ديوان بهاء الدين زهير ، ص ٢٥٦ .

وحياتِه وهـي اليمـينُ ولم أكـنْ | أبـداً لأحـلفَ كـاذباً بحـياتِه
لَقَدِ اسْـتَمَدَّ من الفضائلِ معقلا | لايمكـن الأيامُ قـرعَ صـفاتِه
وتناصـرتْ فيه النجومُ فسعدُهَا | لوليّـه ونحوسُـها لعـداتِـه
فإليك مـن مدحِ الخواطرِ شـعلةً | أوْرَى زنادَ رويِّـهـا لـرواتِـه
من مخلصٍ لك فى الولاءِ محقّقٍ | بك أن يبلغَ منـتهـى طلبـاتِه (١)

هـ- تشابه الأنماط الجمالية والعاطفية نحو المرأة : فالصفات التى أضفاها الشعراء المصريون على المرأة صفات متماثلة أو متشابهة، والعواطف لا تكاد تختلف كما أو كيفا وكأنها قوالب صيغت للغزل، ومن الحق أن يقال : إننا لوتتبعنا أى شاعر مصرى من الشعراء ذلك العصر وأردنا أن نستخلص من شعره صورة معينة للمرأة التى أحبها، لما أمكننا فى النهاية أن نتعرف عليها، ولما اختلفت ملامحها عن غيرها من النساء.

وكأن الشعراء اتفقوا على مادة شعرية معينة، استحسنوها فى صناعة الغزل وليست هى بالطبع تقليداً للموروث، لأن المروى عن الأدب العربى كان متميز الحدود والشخصيات وإن تشابه قليلا لدى بعض الشعراء.

و- كما ظهرت فى الغزل المصرى ملامح المذهب الشيعى. فتميم المعز لدين الله الفاطمى يقول :

آلى يمينا على قـتلى مـرددةً | وجاء بالزورِ فيما قال يعتـذرُ
وقال : لحظى ضعيفٌ حين أرسله | ووجنتى وجـنةٌ بالوهـمِ تنفطرُ
وكيف أقـتل مـن أمسى النبى له | أباً، ومَنْ بكتاب الله ينتصـرُ
هذا وجدّى رسـولُ الـلّهِ وجنـته | مخضوبةٌ بدمى ياقـوم فاعتبروا
تشيّع الحسنُ فـيه إذ ألـمَّ بـه | وقلبُهُ ناصبىٌّ(٢) ليس يغتفر (٣)

(١) الخريدة : ، ج١ص١٩٨
(٢) النواصب : اصطلاح شيعى يطلق على جمهور أهل السنة ادعاء بأنهم نصبوا خليفة لهم من عند أنفسهم و تركوا صاحب الحق الشرعى وهو على بن أبى طالب كرم الله وجه.
(٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ص ٢٢١ .

المجون والزهد :

الشعب المصرى منذ أقدم العصور يميل إلى التمسك بأهداب الدين وكأنه شعب يعمل لآخرته فقط، وفى الوقت نفسه نراه شعباً يميل إلى المجون ويأخذ بأوفى نصيب من متع الدنيا ولو كان ذلك ضد الدين، فمصر متناقضة بين متاع الروح ومتاع الجسد، وإذا بالشعر المصرى يضطرب أيضاً فيمثل الناحيتين من حياة هذا الشعب (١) . فليس غريباً إذن أن يدعو الشاعر المصرى" القاضى المعروف بالأديب أبى النضر" إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس.

جهادُ النَّفسِ مفترضٌ فخذْها | بآدابِ القناعةِ والزَّهادة
فإن جنحتْ لذلك واستجابتْ | وخالفتِ الهوى فهو الإرادة
وإن جمحَتْ بها الشهوات فاكبحْ | شكيمتها بمقمعة العبادة
عساك تُحلُّها درجَ المعالى | وترفعُها إلى رُتَبِ السَّعادة (٢)

وفى الوقت نفسه نرى ابن وكيع التنيسى ينادى بخلع عذار الوقار قائلا :

جانبتُ بعدك عفَّتى ووقارى | وخلعتُ فى طرقِ المجونِ عذارى
ورأيتُ إيثارَ الصَّبابةِ فى الذى | تهوى النفوسُ ممحق الأعمارِ
لاتأمرنِّى بالتَّستر فى الهوى | فالعيشُ أجمعُ فى ركوبِ العارِ
إن التوقُّرَ للحياةِ مكدِّرٌ | للعيشِ فهو تهتُّكُ الأستارِ
من تابعتْ أمرَ المروءةِ نفسُهُ | فَنِيَتْ من الحسراتِ والأفكارِ
لاتكثرنَّ علىَّ إن أخا الحجا | برمٌ بقربِ الصاحبِ المهذارِ (٣)

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر محمد كامل حسين ص ١٩١ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية د . محمد كامل حسين ص ٢٨٦ .

(٣) الحياة الفكرية والأدبية بمصر ، د . محمد كامل حسين ١٨٣ .

المعانـــــى والصـــــور

ويمكن أن نرى آثار الشخصية المصرية فى هذا الجانب من مقومات الشعر المصرى من خلال مايأتى :

ردد الشعر المصرى معانيه المستوحاة من أحداث القصص القديمة، وعلى الأخص قصص الأنبياء والرسل الذين كانت مصر مسرح أحداث قصصهم. ولعل قصة يوسف كانت أكبر قصة استوحى الشعراء المصريون معانيها وراح كل منهم يلتمس عنصرا فى القصة ليصوغ منه معنى. وقصة يوسف الصديق غنية بمعانيها، ففيها الصبر ودوافع الأمل إلى تحقيق المراد مادامت النفوس صافية. والشاعر عمارة اليمنى يوظف هذه المعانى فى تهنئة يزف بها إلى الناصر صلاح الدين الأيوبى فيقول :

ياشبيهَ الصدِّيقِ عدلا وحسناً	وسمياً حكساه معنى ومغنَى
هذه مصرُ يوسفَ، حل فيها	يوسف مالكا وماحل سجناً
أنت حرَّمتَ أن يشلَّثَ فيها	بسوى اللـه وحده أو يثنى
إنما الملكُ والوزارة جسمٌ	أنتَ روحٌ فيه، وفى اللفظِ معنى (١)

ويقول أيضاً :

ونُبتَ بمصرَ عن سميِّك يوسف	كماناب عن سكب الحيا واكفُ سكب
حنوتَ على سَجْلى نداه وهديه	وإن كنت لاسجنٌ حواك ولاجُبٌ
ووافقته فى الصَّفحِ عن كُلِّ مذنبٍ	فمامنك تثريبٌ وإن عَظُمَ الخطبُ (٢)

واستمد غيره من الشعراء عناصر أخرى من القصة، فقد كان يوسف الصديق رمز الجمال ورمز الكرم والعطاء أيام الجدب، ومن تلك الرموز يصوغ الشاعر ابن النحاس معانيه مخاطباً صلاح الدين :

يايوسف الحسن والإحسان لابرحت	نجوم سعدك والتوفيق فى قرن (٣)

---

(١) الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤١٤ .

(٢) الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤١٥

(٣) الخريدة، جـ ٢ ، ص ١٢٢ .

أما ابن مجبل الصقلي فيستمد من القصة عنصراً آخر يصور به أحاسيسه نحو أحبابه يشير إلى حادث صواع الملك المصرى الذى وضعه يوسف فى رحل أخيه ليحتجزه إلى جواره يقول :

ياأختَ يوسف إنَّ قلبى فى هواك أخو الصُّواعْ

فلئن ظفرتُ بما لديك وكنت سارقة المتاعْ

فلآخذنَّك من قبيلك أخْذَ ملكٍ واقتطاعْ (١)

ويستمد القاضى الفاضل بعض معانيه من عنصر آخر فى قصة يوسف فيشير إلى القميص الذى جاء به إخوة يوسف إلى أبيهم عشاء يبكون وقد لطخوه بدم كذب فيقول :

وأغْيَدَ شُقَّ لى فيه قميصُ تقى ... وفاضَ دمعى عليه من دم سربِ

سترتُه من عذولٍ إن رضيتُ بأنْ ... أموتُ فيه فما مُعناه بالغضبِ

فهو القميص الذى جئت العشاءَ به ... وما أتيتُ عليه بالدَّم الكذبِ

ولا منيَّةَ إلا قبلَها سببٌ ... وجَفْنُهُ للمنايا أوْ كَدَّ السُّببِ (٢)

ومرة أخرى يستوحى القاضى الفاضل من سجن يوسف بعض معانيه فيقول :

يايوسفَ الحسنِ وفى سجنهِ ... أسيرُه المشغوفُ بالأسرِ (٣)

ويلتقط العرقلة موقف يعقوب من قميص يوسف ليصور موقف صلاح الدين واستقراره بمصر - فيقول :

فكنتَ كيوسف الصدِّيقِ لما ... تلقى منه يعقوبُ القميصا(٤)

ولم تكن قصة يوسف عليه السلام - وهى القصة التى شهدت مصر أحداثها - موضع اهتمام الشعر المصرى، دون قصص غيره من الأنبياء والرسل، فقدت استمد شعراء ذلك العصر معانيهم من قصة موسى وفرعون.

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٨٨ .
(٢ ، ٣) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ٤ ، ص ٣٨ .
(٤) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٤٩ .

فأسامة بن منقذ يحيِّى صلاحَ الدين قائلا :

فما أنت إلاّ الشمسُ ، لـولاك لـم تزلْ ... على مصـرَ ظـلماءُ الضّـلالةِ سرمدا

وكـان بها طغـيانُ فرعـونَ لم يزلْ ... كـمـا كـان لمَّا أن طغى وتمـردا

فبصرتهـم بعد الغـواية والعـمى ... وأرشدتَّهم بعد الضَّلال إلى الهدى (١)

ويشجع ابن النبيه الملك موسى بن العادل الأيوبى على خصومه وأعدائه مستمدا من قصة موسى معانيه فيقول :

ألـقِ العصـا تتلـقّفْ كلَّ ماأفكوا ... ولاتخـفْ ماحبالُ القـومِ حـيَّاتُ (٢)

ويشير ابن النبيه فى موضع آخر إلى حادث المناجاة فى جبل الطور ليصوغ مديحه فى الملك العادل الأيوبى مشيدا ببنائه قلعة الطور قائلا :

المـلكُ العـادلُ مـن أمَّـهُ ... فقـد رأى موسـى على الطُّـورِ

إن كـان قـد دُكَّ قـديما فـقد ... عمَّـرته أحـسنَ تعمـيرِ (٣)

كما استخدم الشعراء عناصر من قصص الأنبياء كقصة سليمان وخاتمه السحرى إذ يمتدح ابن النبيه الملك العزيز الأيوبى فيقول :

هذا سـليمانُ لكـنَّ سِـرَّ خَـاتمِهِ ... موسـى فماضَـرَّه فقـدانُ داود (٤)

وكقصة نوح عليه السلام الذى عمر طويلا ومكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فابن النبيه المصرى يوظف هذا المعنى فى مديحه الأمير على ابن الخليفة العباسى فيقول :

يانـوحُ رِثْ أعـمارنا واحـتكم ... ملّكـك اللّـهُ رقـابَ العـبادِ (٥)

ويستوحى القاضى الفاضل من قصة نوح عناصر (الطوفان والجبل وموقف ابنه) فى بعض المعانى – فيقول :

---

(١) كتاب الروضتين ، ص ٤٤٨ .

(٢) ، (٣) ديوان ابن النبيه ، ص ٢٥٨ ، ١١٨ .

(٤ ، ٥) المرجع السابق . ص ٣٧٣ ، ص ١٠٩ .

فجرى الفجرُ، وأخفَى ناصعاً فالتقى الماءُ بمقدور نَزَلْ

إنَّه ياطيفُ طوفانُ طَغَى وابنُ نوحٍ ليس يُنجيه الجَبَلْ (١)

وكقصة هاروت ملك السحر الذى أصبح التعبير الشعرى به رمز الفتنة والسحر والجمال فهذا ابن النبيه يتغزل قائلا :

فلو رأت مُقْلتّاها روت آيته الكبرى لآمن بعد الكفر ساحره

قامت أدلة صدغيه لعاشقه على عذول أتى فيه يناظره (٢)

الاغتراف من مناهل البيئة الطبيعية :

لم تكن بيئة مصر الطبيعية غرضا من أغراض الشعر المصرى فحسب، بل كانت مصدر إثراء لكثير من معانيه وصوره فى كل الأغراض.

فمن البيئة الطبيعية ينسج القاضى الفاضل بعض معانيه مستلهما نجوم مصر الساطعة الصافية حينا، والبيئة الزراعية حينا آخر، فيقول متغزلا :

نسجوا من اللَّيلِ الشعورا وجلوا من الصُّبْحِ البدورا

ولَّووا من القضبان والكثبِ الروادف والخصورا

إن قلتُ : يحكون النُّجومَ صدقتُ يحكوهن نورا

ومتى سمعت بنجم أفقٍ ليس يألفُ أن يغورا (٣)

ويأخذ عن البيئة الزراعية الغرس والأثمار والقطف ليعبر عن شعوره نحو من يحدثه قائلا :

عَجِّل، فَلِى أجلٌ ، وأنت به تجىء، ومايؤخَّرْ

لى فيك غرسٌ، ليته من قبلِ قطفى كان أثمرْ(٤)

---

(١) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ : ص ٨٨ ، ٤١ .
(٢) ديوان ابن النبيه ، ص ٤٩ .
(٣) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ٤٨ ، ٤١
(٤) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ٤٨ ، ٤١ .

ويصور خد المحبوب وقد أمطره قبلات فاعشوشب واخضرّ كاخضرار الوادى المصرى من حوله :

أمطرتُها قُبلاً، وأصبح خدُّها المحمرُّ مخضرَّ الجوانبِ معشباً (١)

ويستعين العماد الأصفهانى بالنيل ليصوغ منه مديحه فى صلاح الدين قائلا :

للنّيل شطٌّ ينتهى سيبهُ به ونيلُك للراجين نيلٌ ولاشطُّ (٢)

كما يأخذ ابن مكنسة لبنات بنائه الفنى من النيل فى قوله :

أقولُ ومجرى النِّيلِ بينى وبينكم ونارُ الأسى مشبوبةٌ بضلوعى

تراكم علمتُم أننى لو بكيتكم على النِّيل لاستغرقته بدموعى (٣)

ومن الغدران التى تتفرع من النيل وتكثر فى مصر يستوحى عمارة اليمنى صوره فى وصف عطاء الممدوح (طلائع بن رزيك) فيقول :

لايقولنّ جاهلٌ بالقوافى ذهبَ الناقدُ السّميعُ البصيرُ

فالمرجّى أو شجاعٌ عليمٌ بمقاديرِ أهلهن خبيرُ

كنتُ أخشى بأنْ يقولَ المنادى أيُّها الضيفُ جفَّ عنك الغديرُ

فابتدائى بفضله قائلا لى ذاك فى ظلّى المحلُّ الأثيرُ (٤)

وكانت شمس مصر الساطعة مقصد الشعراء المصريين، فاستعانوا بضيائها الساطع فى صورهم : فهذا ابن سناء الملك يقول :

ومليحةٍ بخلتْ فكانت حجةً للباخلاتِ وقلن هذى عذرُنا

إنّى رأيتُ الشمسَ ثم رأيتُها ماذا علىَّ إذا عشقتُ الأحسنا (٥)

---

(١) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ١٣ .

(٢) ، (٣) الخريدة ، جـ ١ ٢١ ، ص ١٩ ، ١٠٨ .

(٤) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ص ٤٢ .

(٥) الخريدة جـ ١ ص ٦٩ ، ٧٣

ويقول أسعد بن الخطير بن مماتي :

قلتُ ألا وقفت ياشـــمسُ للصـــبِّ ... فقالت هيْهاتَ ما أنتَ يوشع (١)

وقال على لسان إنسان حاسد، أعان عليه، ثم توجع له :

لا تُصغِ للحسودِ فى ندبــهِ النِّعمةَ ... مــع كـونِهِ العجــولَ إليهــا

فهو مثلُ السَّحـــابِ إذ يســـترُ ... الشمسَ عن العينِ ثم يبكى عليها(٢)

ويقول آخر :

ظهرْتَ فكنْتَ الشمسَ جلىٌّ ضياؤهــا ... حـَنا دِسَ شـركٍ كان قد طبَّق الأفقا

عــلوتَ كما تعــلو وأشرقتَ مثــلما ... تضىء، ونرجو أن ستبقى كـما تبقى

وهـنِّئت الأعــياد مــنك بماجــدٍ ... تباهتْ به العليا، وهامتْ به عشقا (٣)

كما أسبغ الشعراء المصريون على المناظر الطبيعية صوراً من حياتهم التى اعتادوها وألواناً من الزينة التى كانوا يتزينون بها فى ملابسهم. فابن حيدرة العقيلي يصور منظراً رآه فى إحدى المنتزهات بقوله :

الغــيمُ بـينَ مــــزررٍ ومجــللِ ... والقطــرُ بين مســـرحٍ ومسـلسلِ

والقضـــبُ بين مقـــرَّطٍ ومطــوقٍ ... ومدمــلجٍ ومــــتوَّجٍ ومكـــلَّلِ

والنبـــتُ بين مزعـــفرٍ وممسَّــكٍ ... ومخــلوقٍ ومعــــنبرٍ ومُصَنــدَلِ

ومدبَّـجٍ ومـطـــرَّزٍ ومصــــنَّفٍ ... ومعـــرَّضٍ ومرصَّـــعٍ ومثقَّـــلِ

فاشـــربْ على حــللٍ لو أمكن لبسُها ... كـانت تكـــون مــن الطِّـرازِ الأوَّلِ(٤)

الأخذ من مظاهر البيئة الاجتماعية :

ذكرت – فيما سبق – العديد من المعانى والأفكار الشيعية التى ظهرت فى المديح والغزل والرثاء، وكان للمظاهر الصوفيـة وأفكارها أثر فى المعانى التى رددها شعراء ذلك العصر. فالبهاء زهير يستمد من ألعاب الرفاعية بالنار وما عرف عنهم من اقتحامها بعض معانيه

(١) ، (٢) ، (٣) الخريدة ، جـ١ ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٩٦

(٤) فى أدب مصر الفاطمية . د . محمد كامل حسين ، ص ٢٩٢

فيقــــول:

وإنْ تك أنفــاسى خَشِــيتم لهيبَـها   وهـــالتكم نــيرانُ وجـــدٍ بأحشـــائى

فكـــونوا رفاعـــيِّين فى الحبِّ مرةً   وخوضـوا لظى نارٍ لشوقى حـــراء (١)

ومن المظاهر الدينية الاحتفال بهلال رمضان، وكان الناس يصومون عند رؤيته كما يفطرون عند رؤية هلال شوال، ومن يراه من الناس يكبر إعلانا برؤيته. يستعين القاضى الفاضل بهذه الفكرة ليصور بها أحاسيسه نحو جميل رآه :

يَأبـــى هــــــــلالٌ، مـــنْ رآ   ه أفــــادَ أجْــرًا حــين كَــبرْ

كـــمْ صـــامَ قــلبُ عــن ذنو   بٍ، ثــم لاَح لــــه فأفطــرْ (٢)

ويستعمل بعض المظاهر الحربية متخذاً من لون الراية الأيوبية الصفراء وهى الراية التى حققت انتصارات كبيرة فى ذلك العصر صفة مدح لمحبوبه الذى اعترته الصفرة فشبهها الشاعر بالنضار :

لم تَعْــرُ جســمَك علةٌ، بل صحــةٌ   خــلعَتْ عــليك نضــارَها للنَّاظــر

من عابَ صــفرتَه عليــك فقــلْ له :   أيكون أشرفَ من شعارِ الناصـرِ(٣)

ترديد الأمثال الشعبية :

يعرف الأستاذ أحمد أمين الأمثال الشعبية بأنها نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ، وحسن المعنى ولطف التشبيه، ولاتكاد تخلو منها أمة من الأمم، وميزة الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب، وهى فى ذلك ليست كالشعر والنثر الفنى فإنهما لا ينبعان إلا من الطبقة الارستقراطية فى الأدب (٤)

---

(١) شرح ديوان بهاء الدين زهير ، ص ١١ .

(٢) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ٤٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٤) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، أحمد أمين ، ط ١ القاهرة ١٩٥٣ ص ٦١ .

وقد استمد بعض الشعراء المصريين معانيهم من الأمثلة الشعبية التى كانت شائعة فى عصرهم وما زال الكثير منها متداولا حتى يومنا هذا، وإن اختلف شعراء تلك العصور فى مقدار أخذهم من هذه الأمثال، يردد القاضى الفاضل المثل القائل "الرجل تدب مكان ماتحب" إذ يقول

ورجلُ الفتى فى السَّعى تتبعُ قلبَهُ   فَلِمَ عظَّمَ الحسَّادُ أنْ زرتُه الخطبا (١)

وقد أكثر البهاء زهير من استخدام الأمثال الشعبية فى شعره من ذلك قوله :

إياك يدرى حديثا بيننا أحد   فهم يقولون للحيطان آذان

ترديدا للمثل "الحيطان لها ودان" ويقول :

من لى بنومى أشكو ذا السهاد له   فهم يقولون إن النوم سلطان (٢)

ترديد للمثل "النوم سلطان".

الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف :

ردد كثير من شعراء العصر معانى دينية مستوحاة من البيئة ، وراح بعضهم يقتبس معانيه من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، من ذلك ما قاله القاضى الفاضل معاتباً أحبابه :

عاهدتمُ وتناسيتم عهودكم   فالله عاهد قدماً آدما فنسى (٣)

مقتبساً من الآية الكريمة

"لقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً" (٤)

ويقول أبو جعفر العلوى الحسينى :

يابائعى بالدونِ إنَّ العلا   لاترتضى بيعَك أعلى بدون

(١) البهاء زهير ، د . عبدالفتاح شلبى ص ٧ .
(٢) ديوان القاضى الفاضل . جـ ١ ، ٥٣ .
(٣) سورة طه ، الآية ١١٥ .
(٤) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١٤١ .

وعـــدك قـــد أصبحـــت أتلـــو له   هـــيهات هـــيهات لما توعـــدون (١)

ويقتبس ابن النبيه مجموعة من الآيات القرآنية فى هذه المقطوعة :

يا مغيثى والنـــارُ توقـــد بالنـــا   سِ وترمـــي شـــرارَها المســـتطيرا

يادليـــلى عـــلى الصّـراطِ إذا مـــا   أدهـــشَ الخـــوفُ ناظرى تحـــييرا

بولائـــى أمـــنتُ من ســـــيِّئاتى   حـــين ألقـــى كتـــابى المنشـــورا

فـــيك ســـرٌّ لولاه ماقســـمَ اللّـــهُ   عـــلى النـــاس جـــنةً وســـــعيرا

قـــد هـــدانا بك الســـبيل فـــإمَّا   مؤمـــناً شـــاكراً وإمـــا كـــفورا

فعـــليك السّـــلامُ ياأقـــربَ النَّاسِ   لمـــن جـــاء شـــاهدا ونذيـــرا(١)

ويضمن الشاعر المصرى محمد بن هبة الله قوله :

همُّ العـــلياء ضـــرَّاتُ الغـــنى   وجيـــوشُ الفقـــرِ إكثارُ العـــيالِ(٢).

قول الرسول الكريم "جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشيء" (٣).

معانى مبتكرة فى الشعرالمصرى :

ينسب بعض الدارسين إلى الشعراء المصريين ابتكارهم بعض المعانى التى لم يسبقوا إليها، من ذلك ماقاله الدكتور محمد كامل حين عن الشاعر المصرى ابن قتادة المعدل من أنه أتى بمعان فى فنه الغزلى لم يطرقها القدماء فى غزلهم كقوله :

نظـــرى إليـــك يزيدُ فـــى نظـــرى   فعـــلامَ تحجبـــنى عن النُّظـــرِ

ياجـــملةَ الحســـنِ التى اقتســـمتْ   منهـــا المحـــاسنُ جـــملةَ البشـــرِ

لهـــواك بـــين جوانحـــى كـــتبٌ   قـــد عـــنونتْ بالدَّمـــعِ والسَّـــهرِ

فهذه المعانى التى ألم بها الشاعر فى هذه الأبيات لم يطرقها شاعر عربى من قبل، وإن كان القدماء قد أكثروا من ذكر الدمع والسهر، ولكن الشاعر المصرى جعل لهوى المحبوب فى نفسه كتبا عنوانها الدمع والسهر" (٤) .

---

(١) ديوان ابن النبيه : ص ١٠٣ .   (٢) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

(٣) رواه الحاكم فى الجامع الصغير للسيوطى ، جـ ١ ، تحقيق محمد محيى الدين القاهرة ١٣٥٢ هـ .

(٤) فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢٧٧ .

أضف إلى ذلك أن القدماء لاحظوا أن للمصريين بعض المعانى المبتكرة، من ذلك قول "أبى الفخر الأسناوى فى العذار" :

وغـــزالٍ خــلعتُ قــلبى عــليــه   فهـــو بادٍ لأعـــينِ النُّظّـــارِ

قـــد أرانا بنفســـجَ الشَّـــعرِ بدرا   طـــالعاً من مـــنابتِ الجـــلنارِ

وقـــدتْ نارُ خدِّه، فســـوادُ الـــ   شَّـــعرِ فـــيه دخـــانُ تـــلك النـــارِ (١)

ومع أن المديح بصفة الكرم جرت به أقلام الشعراء، فإن شخصية مصر تصبغ لون مديحها بخصائص بيئتها الطبيعية، فلم يعد العطاء كالغيث، أو المطر، أو السحب الوادقة وإنما فيضان النيل الذى يغطى أرض مصر فيعلم أهلها وحكامها وأدباؤها وزوارها كيف يوصف الكرم والعطاء.

يمدح عمارة الخليفة الفائز ووزيره طلائع قائلا :

ليـــتَ الكواكـــبَ تدنـــولى فأنظمَهـــا   عقـــودَ مدحٍ فما أرضى لكم كـــلمى

زيـــادةُ النّيـــلِ نقصُ عند فيضِهما   فما عســـى يتعاطى منّةَ الدِّيـــمِ (٢)

بنـــاء القصـــيدة

شغل موضوع بناء القصيدة العربية أذهان النقاد العرب، فسنوا لها القوانين وشرعوا لها القواعد .. والتزم الشعراء بالسير على ذلك النهج حتى بدا لبعضهم أن يثور عليه فى خضم ثورة المولدين على الشعر العربى فى العصر العباسى، وراحوا يستبدلون بذكر الأطلال والدمن أحاديثهم عن الخمر وساقيها من الغوانى الحسان أو المرد من الغلمان، مقبحين جمال المرأة العربية مشوهين زينتها، مفضلين عليها تصاوير الكأس ولوحاتها المنقوشة بالصور الفارسية الجميلة.

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى بدأت آثار الشخصية المصرية واضحة فى بناء القصيدة العربية، واتخذ المصريون قالباً مميزاً تجلت فيه آثار البيئة المصرية والروح المصرية

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

(٢) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

فلم يستهل الشعراء قصائدهم بالرحلة والبكاء على الديار والدمن، ولم نعد نسمع حديثاً عن الأثافى والناقة أو غير ذلك مما كان يردده شعراء البادية ومقلدوهم.

ولم يستهل المصريون قصائدهم بالغزل المفعم بالشعوبية كما فعل المولدون فى أوائل العصر العباسى وقد وجد المصريون فى المقدمة التقليدية للقصيدة العربية عنصرين رئيسيين هما : وصف الرحلة، والغزل.

ولما كان المصريون – كما وضحت – شعباً مستقراً فى أوطانه فإنه تخلى تماماً عن الجانب الأول واتجه إلى الغزل، ولما كان للمصرى طابعه المميز فى غزله – كما وضحت – فإنه قدم لنا قالباً خاصاً فى مقدمة القصيدة يمتاز بالرقة، والمزج بين الغزل ووصف الطبيعة المصرية، والحديث عن الخمر، مزجاً قوياً يسبكه سبكا بموضوع قصيدته الأصلى بحيث يشعر القارىء بحلاوة النقلة وراحة الشعور فى تغيير النفس الشعرى.

وعلينا أن نتأمل كيف مزج ابن النبيه فى مقدمة قصيدته التى مدح بها الأشرف موسى بين حديثه عن الخمر والغزل، وكيف انتقل إلى غرضه انتقالا هادئاً :

أدرْ كأسَ المدامِ على الندامى ... ففى خدَّيك لى راحٌ ونقلُ

فنيرانى بغيرِك ليس تطفا ... وأشواقى بغيرِك لاتبلُّ

بمنظرك البديعِ تدلُّ تيها ... ولى ملكٌ بدولته أدلُّ

أبو الفتحِ الكريمُ الطلقُ موسى ... فتى يعطى الكثيرَ ويستقلُّ (١)

ولقد أجاد الشعراء المصريون إجادة تامة فى انتقالهم من مقدمة القصيدة الغزلية إلى الغرض الأصلى، فلم نعد نتلقى الصدمات التى يرمينا بها الشاعر الجاهلى حينما يشدنا بحديثه عن محبوبته، حتى ننساق وراءه فيقذفنا برجمة من حصا الصحراء ويقول لنا : عدّ عن ذا أو اترك ذلك....

يمتدح ابن النبيه الملك الأشرف موسى فيبدأ قصيدته بالغزل ثم ينتقل إلى الحديث عن ممدوحه فيربط الحديث عنه بآخر موقف غرامى كان له مع صاحبته :

بتنا وقد لفَّ العناقُ جسومَنا ... فى بُرْدتين تكرُّمٍ وتعفُّفِ

---

(١) ديوان ابن النبيه ، ص ٢٥٧ .

حتَّى بدا فلقُ الصَّباحِ كجحفلٍ ... راياتهَ رنك المليكِ الأشرفِ (١)

ويمدح الشاعر : "المهذب أبو محمد الحسن بن على بن الزبير" الصالح طلائع بن رزيك، فيستهل قصيدته بالغزل ثم ينتقل انتقالا هادئاً إلى غرضه :

وكلُّ بيضاءَ لو مسَّت أناملُها ... قميصَ يوسف يوما قُدَّ من قبلِ

يغنى عن الدُّرِّ والياقوتِ مبسمُها ... لحسنِها فلها حلىٌ من العطلِ

بالخدِّ منى آثارُ الدُّموعِ كما ... لها على الخدِّ آثارٌ من القبلِ

كأن فى سيفِ سيفِ الدين من خجلٍ

من عزمِهِ ما به من حمرةِ الخجلِ (٢)

ولقد أطال الشعراء المصريون حديثهم الغزلى فى مقدمة القصيدة ولعلهم بذلك كانوا مستجيبين لدوافع رقة الطبع وحب الجنس فقد أحسوا أن الغزل حبيب إلى النفوس فلا بأس أن يسترسلوا فيه.

يستهل ابن سناء الملك حديثه بالغزل ويطيل فيه فى إحدى مدائحه للقاضى الفاضل وقد ركب مقدمته من الغزل وبعض معالم الطبيعة المصرية ثم راح يربط ذلك بمديحه القاضى الفاضل :

ومليحةٍ بخلتْ فكانتْ حجَّة ... للباخلات وقلن هذى عذرُنا

كالبدرِ إلا أنَّها لا تجتلى ... والغصنُ إلا أنَّها لا تُجْتَنَى

ضنَّت بطرفٍ ظل بعدى سقمه ... أرأيتم مَن ضنَّ حتَّى بالضنا

قالتْ تغير من يكون مبخلا ... فعلام أسموه البخيل بودِّنا

وإذا تشكَّى القلبُ إسراع النَّوى ... ظلتْ تشكى منه إفراطَ الونى

وإذا بكت عينى تقولُ تبسَّمت ... إنَّ الدموعَ لها ثغورٌ عندَنا

---

(١) المرجع السابق ص ، ١٩٩ . (رنك) كلمة فارسية مناها (شكل)

(٢) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

ياعــاذلين جــهلتُم فضلَ الهــوى	فعـــذلتم فــيه ولكـــنى أنـــا
إنّى رأيتُ الشــمـــسَ ثم رزيتـــها	مـــاذا عــلىّ إذا عشــقت الأحسـنا
وســألت من أى المعادن ثغــرها	فوجـدت من عبد الرحيم المعـدنا(١)

وربما استوحى شعراء مصر من الموروث العربى فكرة الوقوف على الديار ومناجاتها والدعاء لها بالسقيا وتهاطل الغيث، وراحوا يمصرون هذه الأشياء جميعاً. فالشاعر المصرى ظافر الحداد يناجى منازل الفسطاط ، ويقارن بين عذوبة ماء النيل وعذوبة الحبيب ، ويذهب إلى القول بأن النيل استمد عذوبته من المحبوب، وإن اختلفت آثار كل منهما لديه فعذوبة النيل تروى ظمأه وعذوبة الحبيب تزيد من عطشه :

بمَـنازل الفسْطَاط حـلَّ فــؤادى	فاركــع على عرصـــاتهن ونَــادِ
يامصــرُ هــلْ عرضـتْ لغصن فوقه	قمـــرٌ بربْعِـــك إرْبة لمعَـــادى
تَرِف يمـــيّله الصــبا مــيْل الصَبا	بقـــوام خـــوط البَانَــةِ الميّـــاد
أتُرى أنال النيــلَ بعــض رضـــا به	فعــذبْن مـــنه مياه ذاك الـــوادى
فأفـــاد منْه الطُعْــم لكنْ شــرْب ذا	يـــروى وذاك يزيـــد كرب الصّـادى
وَاهـــاً عـــلى تلك الديـــار فإنهـــا	أوطـــان أحـــبابى، وأهـــل ودادى (٢)

ويترك شاعر آخر السلام على النؤى المتهدم والطلل البالى وماعفا من الآثار بعد الانتجاع ليستبدل، بكل ذلك السلام على الهرمين. ويتلهف شوقا إلى أحبابه ولكنهم ليسوا سكان الفسطاط وإنما هم سكان القصور :

يقول السخاوى فى مديحه الملك الناصر :

ياظبيةَ الهرمين من مــصر، عــلى الرَّ	بــعِ الســلامُ وإنْ تقــوّض أو عفا
أصـــبو إلى عصـــر تقادمَ عــهدُه	فــأزيدَ مـــن ولــه عـــليه تلهـــفا

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٢٩ .

(٢) الخريدة جـ ٢ ، ص ١ ، ٢ .

أحبابَنا بالقصرِ، لو قصرتم ... في الهجرماشمتَ الحسودُ ولااشتفى

أشكو إلى الوادي، فيحنو بانُهُ ... من رقَّة الشكوى عليَّ تعطفا

وجرى بي الأملُ الطموحُ، فأمَّ بي ... سلطانَ أرضِ الله طُرًا، يوسفا

الناهبَ الأرواحِ في طلبِ العلا ... والواهبَ الآجالِ في حسنِ الوفا(١)

الأسلوب

يمكننا أن نلمح سمات الشخصية المصرية في الأسلوب من خلال ألفاظ الشعر المصري، وموسيقاه.

ألفاظ الشعر المصري :

يسترعي انتباه الدارس للشعر المصري أنه استوحى كثيرا من ألفاظ العصر والبيئة فردد أسماء البلدان والأماكن المصرية، وألقاب الأشخاص والمناصب الرسمية في الدولة كما أخذ بعض التعبيرات والكلمات الشعبية، واستخدمها في أسلوب عربي فصيح.

(أ) أسماء البلدان والأماكن :

يكاد الشعر المصري يقدم لنا سجلا جغرافيا بأسماء البلدان والأماكن المصرية من مدن وأحياء ومعالم. من ذلك : "الفسطاط" وقد ذكرها ابن النبيه في قوله :

ساكني الفسطاط لو أبصرتكم ... جليت مرآة عين صديت (٢)

كما ذكرها الشريف القاضي سناء الملك في قوله :

إذا اهتزَّ بالفسطاط غرياه لم يدعْ ... فؤادا بأقصى روضةٍ لم يمتْ ذُعرا(٣)

(آيلة) يشير إليها أحد شعراء الخريدة في قوله :

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٦٤٧ .

(٢) ديوان ابن النبيه ، ص ١٥٥ .

(٣) الخريدة ، خـ ١ ، ص ١٢٠ ، ص ٦٢ .

يا صادرا نحـــو صـــدر يُغيتنـــا   مـــرآك من صـــوب آيـلة آيــل (١)

(سمنود) يذكرها عمارة اليمنى فى قوله :

غـــيث ســـمنُّود بعـــالى ركـــابِهِ   فعـــزُّها أنـــفٌ ذليـــل ومـــارنُ

فكـــلُّ فســـادٍ عن ســـمنود راحـلٌ   وكلُّ صـــلاحٍ فى سمنُّودِ قاطـــنُ(٢)

"إخميم" قال عمارة يمدح الأمير سيف المجاهدين ابن مرتفع عند سفره :

ومافرحـــتْ إخمـــيمُ قبلك بامـــرئٍ   له غـــررٌ من فضـــله و حجولُ (٣)

وقد عرضت لذكر كثير من أسماء البلدان المصرية (كالإسكندرية) (الجيزة) ، (أسيوط)، و(قوص) وغيرها من أسماء المدن المصرية فيما سبق من نماذج.

"المقطم والقرافة" يقول عمارة فى رثاء أحد أبنائه وقد دفنه بالقرافة المصرية :

أيا ســـفحَ المقطَّـــم كم سفحْنـــا   عـــلى مجراك من دمعٍ هـــتونِ

وكم لى فى القرافـــةِ من حـــبيبٍ   قـــريبٍ وهو رهنُ نـــوىً شطونِ (٤)

وسبقت الإشارة إلى أسماء المعالم المصرية كالقصور والمتنزهات والبرك والأديرة ومختلف معالم البيئة المصرية بحيث يمكننا أن نستنطق الشعر فى كتابة (الطبوغرافيا) المصرية.

(ب) التعابير الشعبية الجارية على ألسنة الناس :

نرى هذه الظاهرة واضحة عند الشاعر المصرى البهاء زهير ومن سار على نهجه من أصحاب مدرسة الرقة. وقد قدم لنا الدكتور عبد الفتاح شلبى دراسة مفصلة عن استخدام الأساليب الشعرية التى عبر بها البهاء زهير عن أفكاره.

---

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ، ص ٦٢ .

(٢ ، ٣) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٧٣ ، ص ٣٥١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٧٥ .

فى الكلمة :

(الجديد والخليع)

ذهـــب الجـــديدُ من الشـــبا ب فكـــيف ظـــنُّك بالخـــليع

(مستهتر بمعناها العامى)

بعـــض ماألقـــاه منـــه أنــــه لايزالُ الدهـــر بى مســـتهترا !

(سلمت ، دمت)

ســـلمت مـــن كـــلِّ ألـــم دُمْتَ موفـــورَ النعـــم

(كفـــور)

فأضحى بها من خالفَ الدينَ خائفـا وضـاقَ على الكفـارِ منها كفورها

(زبـــون)

وحـــقكم عنـدى له ألـــف طـالبٍ وألـف زبـونٍ يشـتريه بزائـدِ

(مشفق بمعنى ناصح وشفيق)

ومالى أخفى عن حـبيبى ضرورتى وما هـو إلا مشـفق ونصـيحُ

(اليك–والشيش)

فاليـــك فى النرد وهـــو محـــتقرٌ خـــيرٌ من الشـــيشِ عـــند حـــاجته

(صدفة بمعنى المصادفة)

عسى نظرة من حسنِ رأيك صدفةٌ تسـوق إلى جـدبى بها الماءَ والكـلا

(وحياتكم)

أحـــبابنـــا وحــــــياتكم ســـرُّ الهـــوى عـــندى مصـــون

وفى بعض هذه الكلمات خطأ لغوى مثل كلمة (صدفة) و(مشفق) و(مستهتر) ولكنها مصرية البهاء زهير هى التى أوقعته فى مثل هذه الأخطاء، شأن مايجرى على أقلام بعض الكتاب والشعراء من الأخطاء اللغوية فى هذه الأيام.

في شطر البيت :

(نقطع الطريق بالحديث)

تحثُّ مطيَّنا الأشواقُ هنا ونقطعُ بالأحاديثِ الطريقا

(ده شيء مامرش ببالي)

ولكن بدا منه جفاء فساءني وذلك شيء لم يمر ببالي

(الذنب ذنبي)

أشكو لك الشوقَ الذي لاقيتُه والذنبُ ذنبي

(قلبي عندك)

قلبي لديك فكيف أنت على البعادِ وكيف قلبي ؟

(زي الضرتين)

نحن كما الضرتين في معركة أدرع الصبر عند لقياها

(حفظها "زي الفاتحة")

وغادةٍ بوصلِها مسامحة تحفظُ ودّي مثلَ حفظِ الفاتحة

(بعض ماعندي)

فكلُّ ماعندك من وحشةٍ فإنَّها بعضُ الذي عندي

(أسكنك في عيني – أفرش لك خدي)

وياليت عندي كلُّ يومٍ رسولكم فأسكنه عيني، وأفرشه خدي

(لاشغلة ولامشغلة)

أصبحت لاشغل ولا مزرعة مذبذبا في صفقةٍ خاسرةٍ (١)

جـ – المصطلحات العلمية الشائعة في العصر :

استخدم بعض الشعراء لغة الفلاسفة والمناطقة وعلماء الطب والنجوم وغيرها من العلوم التي عرفتها مصر في مرحلة النضج وأصبح شيئاً معهوداً أن يتظرف بعضهم فيضمن ما ينظم من أبيات مصطلحات لبعض تلك العلوم، بل إنهم كانوا يستمدون بعض معانيهم وصورهم كذلك منها . ويقول شاعرهم مستخدماً بعض مصطلح الهندسة وألفاظها متغزلا :

(١) البهاء زهير ، د . عبدالفتاح شلبي ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

تقسَّمَ قلبى فى محبةِ معشرٍ   بكلٍّ فتىً منهم هواى منوطُ
كأنَّ فؤادى مركزٌ وهُمُ له   مُحيطٌ وأهوائى إليه خطوطُ

وقال آخر بلغة الطب :

جودهُ كالطبيبِ فهو يداوى   سوءَ أحوالنا بحسن الصنيعِ
فهو كالموميا ءِإذا انكسرَ العظمُ ومثل الترياق للملسوع

وقال آخر بلغة الفلسفة :

حبي سعيداً جوهرٌ ثابتٌ   وحبُّه لى عرضٌ زائلُ
به جهاتى الستُّ مشغولةٌ   وهو إلى غيرى بها مائلُ

وقال آخر بلغة الفقه :

أأجيز قتلى فى "الوجيز" لقاتلى   وأحل فى التهذيب أو فى " الشامل
أم فى "المهذب" أن يعذب عاشق   ذو مقلة عبرى ودمع هاطل (١)

ويقول القاضى الفاضل مستخدما بعض مصطلح علم الأصول :

لا لومَ فى الحكمِ على حاكمٍ   والأصل فى الحكمِ على الظاهرِ(٢)

ويقول آخر مستخدماً مصطلحات علم النحو :

خدمتكم ليكون الدَّهْرُ من خدمى   فما أحاله عن حالاتِهِ الأولِ
إن لم تكنْ بكم حالى مبدَّلةً   فما انتفاعى بعلم الحالِ والبدلِ(٣)

د - الألقاب والمناصب الاجتماعية :

حوى الشعر المصرى ألفاظا تدل على المناصب التى كانت قائمة فى ذلك العصر كما نرى نماذج من ألقاب رجال الدولة، من ذلك:لقب (شاهنشاه):وهو لقب الأفضل بن بدر الجمالى :

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٢) ديوان القاضى الفاضل ؛ جـ ١ ص ٣٨ ..
(٣) الخريدة جـ ١ ص ٢٠٣ ص ١٤٣

يقول عمارة اليمنى :

ما أبالـــى سُخْـــطَ أيامـــى إذا   فـــاز سهمى برضى شاهنشاها(1)

ويقول آخر :

ولكن رأت نُعْمىَ شـهنشاه فى الـورى   فقـد أصبحت من جوده تتعـلم (2)

ولقب (شاه أرمن) : وهو لقب الأشرف موسى الأيوبى يقول ابن النبيه مادحا متنقلا من حديثه عن الخمر إلى وصف ممدوحه :

حمراء تفعـــل بالأحـزان مافعـلت   أسياف شاه أرمن فى عسكر لجب (3)

ولكمة (السناجق) : جمع، سنجق وهى من الرتب العسكرية : يقول ابن النبيه :

كـــأنَّ الســـــناجق أوكـــارها   فكـم عصبٍ فوق تلك العصــائب (4)

وكلمة (الدست) : وهى الوزارة يقول أحد شعراء الخريدة :

وأطـلع الدســـتُ فيها شـمسَ مملكـةٍ   ترى التأمُّـل فضلَ العـينِ للأذنِ (5)

موسيقى الشعر :

لاختيار النغم دلالة نفسية واجتماعية تميز شعبا من الشعوب فى عصر من العصور كما تبدو من خلال الرقصات الشعبية والفنون التشكيلية التى تعرضها فرق مختلفة فى عصرنا الحديث. وقد عرف المصريون القالب الشعرى التقليدى للقصيدة العربية ونسجوا على منواله ثم لم يلبثوا أن أخضعوا هذا النظام لما يحبون فواءموا بين نظام القصيدة العربية وطابعهم الشخصى فاختاروا ألفاظا سهلة يعبرون بها عن معانيهم مع محافظتهم على القالب الموسيقى للقصيدة، ومعنى ذلك أن موسيقى اللفظ كانت أول ما تأثر بالشخصية المصرية. ثم بدا تأثير هذه الشخصية واضحا فى استخدام بحور عروضية متطورة فأكثروا من استخدام المنهوك والمشطور

---

(1) الخريدة ، حـ 1 ص 203 ص 143 .
(2) الخريدة ، حـ 4 ، ص 70 .
(3 ، 4) ديوان ابن النبيه ، ص 237 ص 194 .
(5) الخريدة ، حـ 1 ، ص 142 .

والبحور ذات التفاعيل الصغيرة التى تلائم طابع الخفة وتناسب الطريقة الغزلية التى عرف بها المصريون وتخلوا عن البحور طويلة التفاعيل. يقول طلائع الأمرى :

ملك الشوقُ مهجتى حبذا من تملكا

قد رمانى بحُبه ونهانى عن البكا

إنما راحةُ المحبّ إذا أنْ أوْشَكَا

ما أرى السلوّ عنه، وإن جاز مسلكا

ولعل الرقص والطرب المحببان إلى المصريين هما اللذان أوحيا بالنغم الراقص فى الأوزان حتى الشعر الصوفى نراه رقصاً فى أبيات ابن الفارض :

سائق الأظعان يطوى البيد طى منعما عَرّجْ على كثبانِ طىْ

وبذات الشّيحِ عنى إنْ مررْ تَ بحَىٍّ من عريب الجزع حىْ

وتلطفْ وأجرِ ذكرى عندهم علّهم أن ينظروا عطفا إلىّ

قُل تركت الصّبُّ فيكم شبحًا ماله مما براه الشوق فىّ (١)

كذلك نظموا الموشحات على طريقة الأندلسيين، وقد تأثروا فيه ببعض مَنْ وفد إلى المشرق من علماء الأندلس، وأشهر من عرف بنظم الموشح فى مصر ابن سناء الملك، وله ديوان موشحات سماه "دار الطراز".

وأحب المصريون لونا من ألوان الشعر العامى استحدثوه فى هذا العصر أطلقوا عليه اسم البلاليق (*) . كما أقبل المصريون على ألوان من الشعر الشعبى رأوا فيها تعبيرا عن أحساسيسهم أكثر من الأدب الفصيح الذى اهتم أصحابه بالزخرف واللعب بالألفاظ. وربما ساعد على ازدهار هذا الأدب ضعف بعض الشعراء وانتشار اللغة العامية.

---

(١) ديوان ابن الفارض، ص ٣ . القاهرة، ١٢٥٣ هـ .

(*) البلاليق : اسم طائر لريشة ألوان مختلفة وله صوت شجى وكانت البلاليق تنشد بالألفاظ الشعبية المصرية . وأصبحت أظهر الفنون الأدبية المصرية فى عصر المماليك .
الحياة الفكرية والأدبية بمصر . د . محمد كامل حسين ص ١٤٨ .

ومن أشهر هذه الألوان الزجل ومن أزجال الشاعر المصرى أحمد القماح قوله :

وفى الأزاهير قم ترى شىء تذهَّبْ   وشىء تُصبيه قد زَهَا وتفضَّضْ

النرجس أحداق الشهل نعسانةْ   إلا أنها من الندى ليس تغمض

وحين فتح عيونه فى رجهى   شبهت أصفر ولما بدا فى الأبيض

مازعفران على نصاف مطبوع   ولافصوص كهرب فى خلال زبرجد (١)

ومن الفنون العامية أيضا "الكان كان" الذى سماه المصريون الزكالش، قال على بن ظافر : وأخبرنى بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتا من الأوزان التى يسميها المصريون "الزكالش" ويسميها العراقيون "كان وكان" وهما :

النار بين ضلوعى   ونا غريق فى دموعى

كنى فتيلة قنديل   أموت غريق وحريق (٢)

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ٢٨٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

الفصل الثالث

آثار الشخصية المصرية فى النثر الفاطمى والأيوبى

دار النثر الفنى بمصر إبان العصرين الفاطمى والأيوبى فى الفلك الذى دار فيه من قبل وهو الرسائل والخطابة والقصص والسير مع اتساع فى دائرة الرسائل والقصص وتركيز على لون معين فى الخطابة هو الخطب الدينية للوعظ والحث على الجهاد ، وتطور كبير فى القصص والسير.

الرسائل

ويمكن أن نميز بين أربعة أنواع من الرسائل فى تلك الفترة وهى الرسائل الديوانية والإخوانية والهزلية والمطلقة. وللشخصية المصرية آثار فى كل لون من هذه الألوان.

الرسائل الديوانية :

ظهرت آثار الشخصية المصرية فى هذا النوع من الرسائل واضحة فى الأفكار والتنظيم والأغراض، والأسلوب. فقد تميزت طريقة الكتابة الفاطمية عن طريقة الكتابة فى أى عصر آخر، وذلك لأن الكتاب الفاطميين أرادوا إرضاء الخلفاء فجعلوا من كتاباتهم أداة لخدمة المذهب الشيعى ، وانعكس ذلك على تنظيم الرسالة وشيوع الأفكار الشيعية فيها حيث بدأوا رسائلهم وسجلاتهم بالحمد لله ثم بالصلاة على النبى وعلى الوصى والأئمة من أهل البيت، وتعمدوا دائما الإلحاح على أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو جد الأئمة وكأنهم كانوا يردون على كتاب العباسيين المنكرين نسب الفاطميين، وكانوا كذلك يختمون رسائلهم بالحمد والصلاة على النبى والوصى والأئمة. كما كانوا يلمون فى سجلاتهم المصطلحات المذهبية الإسماعيلية ويذكرون التأويلات الفاطمية التى تناسب السجل: فالسجلات التى صدرت فى عيد الغدير كانت تنصب على ولاية على بن أبى طالب والأئمة من بعده. وسجل مأتم عاشوراء كان فى الحسين بن على وما لاقاه أهل البيت على أيدى الأمويين والعباسيين، وسجل رؤية رمضان فى ذكر عقيدة الشيعة

الإسماعيلية فى هلال رمضان، وهكذا كانت السجلات الفاطمية حافلة بالمصطلحات والتأويلات الدينية التى لايمكن أن تصدر عن دولة غير إسماعيلية المذهب(١) . واتخذت الكتابة تنظيما خاصا فى العصر الأيوبى فاختلفت مقدمات الرسالة باختلاف موضوعها ومكانة الشخص الموجهة إليه بحيث يمكن التعرف على عصر الرسالة ومنصب الشخص الموجهة إليه من خلال ديباجة مقدمتها (٢) . وظهرت آثار الشخصية المصرية فى أغراض الرسالة الديوانية، فقد عبرت الرسائل الديوانية عن بعض الأغراض المصرية الخالصة من ذلك السجلات الديوانية والرسائل الصادرة من دار الخلافة فى الأعياد المصرية الخالصة كالاحتفال بوفاء النيل وغيره. وعكس أسلوب الكتابة الديوانية فى تلك الفترة كثيرا من خصائص الشخصية المصرية بحيث تتجلى آثارها من خلال المميزات الفنية لأسلوب الكتابة الديوانية وأهمها :

(أ) الاحتفاء بالسجع : وقد حرص الكتاب المصريون فى عصر الدولة الفاطمية والأيوبية على الإكثار من هذا الغرض البديهى، وظل سمة تميز الكتابة المصرية من بعد عصريهما حتى بداية العصر الحديث.

(ب) كثرة الاقتباس من معانى القرآن الكريم وتحلية كتاباتهم بتضمين آية من آياته.

(جـ) المبالغة فى استخدام الزينة اللفظية والمعنوية فى كتاباتهم : فهم يغرقون فى المبالغة حين يحاولون تشخيص المعانى، ويولعون باستخدام الجناس ويكلفون فى تركيب جملهم بمراعاة النظير فتبدو كتاباتهم جملا قصيرة غالبا، والجملة تتبع الأخرى فى وزنها وموسيقاها ومعناها.

(د) جوده التركيب وحسن الانتقال :فقد كان الكتاب ينتقلون من معنى إلى معنى آخر فى رقة وعذوبة انتقالا يدل على فطنتهم ومهارتهم وأن الصنعة الفنية كانت تستهويهم.

وإذا تأملنا هذه الخصائص فى ضوء مقومات الشخصية المصرية وجدنا توافقا كبيرا بينهما. فالمصرى محب للمبالغة، ولعله كان مضطرا إليها ليتظاهر بالقوة التى تحميه من طمع

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية فى مصر ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) انظر نماذج متعددة منها فى الجزء الثامن من كتاب صبح الأعشى .

الطامعين الذين كانوا دائما متربصين به لوفرة بلاده وكثرة خيراتها منذ فجر التاريخ ولاشك أنه اكتسب هذه الصفة من وحي البيئة [1] كما كان العنصر العربي الذي امتزج بالدم المصري نزاعا إلى الفخر والمبالغة فمن الممكن أن تكون هذه الرواسب العرقية ومؤثرات البيئة الطبيعية سببا في حب المصري للمبالغة[3]. ومن آثار المبالغة استخدامه للزينة اللفظية في أسلوب كتاباته، واهتمامه بتجويد صنعته وتحسين فنه، فخصائص أسلوب كتاباته الفنية انعكاس صادق لمقومات الشخصية المصرية.

الرسائل الإخوانية :

تبادل الأصدقاء فيما بينهم رسائل عبروا فيها عن مشاعرهم الخاصة في مناسبة من المناسبات كالتهنئة والتعزية، وقد تكون في غير مناسبة خاصة كالتعبير عن العواطف والمداعبة، وكانت الرسائل تلتزم نهجا معينا تكثر فيه من ذكر الشعر أو الاقتباس منه، وكثيرا ما تفتتح به أو بآيات من القرآن وقد برع كتاب هذين العصرين في توضيح أساليبهم ببعض آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في رسالتهم عن طريق الاقتباس أو التضمين أو تقليدهما أو الإشارة إلى مافيهما من أمر ونهيٍ وعظة وقصص وماشابه ذلك [4] .

ويقول الدكتور أحمد بدوي، إنّ مابقي لنا من هذا النوع من الرسائل قليل بالنسبة للنوع السابق، وقد عالج كبار الكتاب يومئذ هذا اللون من الكتابة، يتأنقون في عبارته ويتلمسون الجمال والزينة، وللقاضي الفاضل، وابن الأثير، وابن عبد الظاهر وغيرهم رسائل إخوانية كثيرة[1]. ويقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : كان الكتاب يعرضون لألوان شتى من التعب الفني، وحققوا فيها أمورا كثيرة ربما لاتتحقق كلها حتى في الشعر المتكلف[5] ولعل رسالة القاضي الفاضل التي كتبها مشتاقا معاتبا نموذج يوضح هذه الخصائصً :

---

(١) شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٤٠٠ .

(٢) انظر هذا الكتاب ص ٢٨٩ .

(٣) الأدب في العصر الأيوبي ، د . محمد زغلول سلام ، ص ١٧٩ .

(٤) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د . أحمد أحمد بدوي ، ص ٣١٣ .

(٥) أدب الحروب الصليبية ، د . عبداللطيف حمزة ، ص ١٧٥ .

أكـــــذا كـــــلُّ غـــــائبٍ غـــــاب عـــــمن يحبُّه

غـــــاب عـــــنه بشخـــــصه ولا ســـــلا عنه قـــــلـــبه

لو أن لى يدا تكتب، أو لسانًا يسهب، أو خاطرا يستهل، أو فؤادا يستدل، لوصفت إليه شوقا إن استمسك بالجفون نثر عقدها، أو نزل بالجوانح أسعر وقدها، أو ذكر محب حبيبا خاله خطر فى خلده، وتفادى من أن يخطر به ذكر جلده.

حـــتى كأنَّ حبـــيبا قبل فرقـــته لا عـــن أحـــبته ينـــأى ولابـــلده

بالله لاترحموا قـــلبى، وإنْ بلغـــت به الهمومُ، فـــهذا ماجـــنى بيـــده

وهب أن فلانا عاقه عن الكتب عائق، واختدع ناظره كمن هو فى ناضر عيش رائق، فما الذى عرض لمولانا حتى صار جوهر وده عرضاً، وجعل قلبى لسهام أعراضه غرضا ؟

بى مـــنْه ما لَوْبدا للشـــمـــس ماطلعـــت

من المكـــــاره أو للبـــــرق ما ومـــــضا

ومـاعـهدته - أدام الله سـعادته - إلا وقد استراحت عواذله، وعرى به أفراس الصبا ورواحله، إلا أن يكون قد عاد إلى تلك اللجج، ومرض قلبه فما على المريض حرج، وأياما كان ففى فؤادى إليه سريرة شوق لا أذيعها ولا أضيعها، ونفس أسيرة غلة لا أطيقها بل أطيعها.

وأنى لمشـــتاق إليـــك وعـــاتب عليك، ولكن عتبـــة لا أذيعـــها " (١)

فالشخصية المصرية بارزة فى هذا النوع من الرسائل مؤثرة فى بنائها الفنى وخاصة الإسلوب. فجملة الخصائص التى اتسمت بها الرسائل الإخوانية ذات صلة قوية بمقومات الشخصية المصرية التى سبق تفصيلها، فالإكثار من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث استجابة للنزعة الدينية عند المصريين، والإغراق فى الزخارف اللفظية تعبير عن المبالغة التى عرفت عنهم.

---

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د . أحمد أحمد بدوى ، ص ٢٤١ .

الرسائل المطلقة :

وإلى جوار الرسائل الديوانية والإخوانية شهدت هذه المرحلة لونا ثالثا هو الرسائل المطلقة التى ينشئها الكاتب فى موضوع من الموضوعات التى يروق له الكتابة فيها فهى أقرب إلى فن المقال فى عصرنا الحديث، ووجدت من هذا النوع رسائل فى وصف الحروب[1] ، والقلاع والحصون، ورسائل في النيل وما إلى ذلك. ووجدت أيضا أنواع أخرى من الرسائل تدور حول المنافرات والمناقضات وأيهما أنفع وأخطر، أو كالكلام عن البلاد وفضائلها ورذائلها كالكلام عن مصر والإسكندرية ودمشق وحلب[2] .

وقد أثرت الشخصية المصرية فى هذا النوع من الرسائل فى اختيار موضوعاتها التى استمدتها من معالم البيئة المصرية.

الرسائل الهزلية :

لعل أشهر الرسائل الهزلية ماكتبه الوهرانى الذى قدم إلى الديار المصرية فى أيام صلاح الدين الأيوبى، وكان بمصر القاضى الفاضل والعماد الأصفهاني وابن سناء الملك وغيرهم. وقد طلب الوهرانى وظيفة بديوان الإنشاء فحيل بينه وبينها فطفق يتهكم بعلماء مصر وقضاتها وكتابها وشعرائها بإسلوب ساخر فى عدة رسائل. ولعل الوهراني أدرك من خلال إقامته بمصر حقيقة الشخصية المصرية وإعجابها بالأسلوب الساخر فراح يكتب رسائله لتكتسب الشهرة والشيوع ولتبلغ أقصى حد فى الانتشار بين الناس ومن رسائله الساخرة التى كتبها يتهكم برجال الدين وكثرة مايصلون ويأكلون فى رمضان :

"كلما ذكر الخادم تلك الموائد الخصيبة ومايجرى عليها من الخواطر المصيبة، علم أن التخلف عنها هو المصيبة. ولكنه إذا ذكر مايأتى بعدها من القيام والقعود والركوع والسجود علم أن أجرة مايأكله فى تلك الوليمة نحو عشرين تسليمة كل لقمة بنقمة. ماتحصل له الشبعة إلا

---

(١) راجع نماذج من هذه الرسائل فى كتاب أدب الدول المتتابعة فى عصور الزنكيين والأمويين والمماليك ، د . عمر موسى باشا ، بيروت ، ١٩٦٧ .

(٢) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ١٧٩ .

بأربعين ركعة، فتكون الدعوة عليه، والحضور فى الشرطة أحب إليه !.

فزهد الخادم حينئذ فى الوصول، وقنع بالمحصول إذ ليس له من الدين، ولاقوة اليقين، ومايترك معه الراحة تحت المراويح إلى القيام بسنة التراويح. لأنه فى ذلك على رأى القاضى النجيب الذى إذا دعى إليها لايجيب. فموعد الإلمام انقضاء شهر الصيام" (١) .

السير والقصص

لم يتطور فن من فنون النثر العربى فى البيئة المصرية مثلما تطور فن القصص والسير فقد عرفت مصر فى عصر الدولة الطولونية لونا من السيرة والقصة لم تكن آثار الشخصية المصرية واضحة فيهما تمام الوضوح، ولكن الأدبين الفاطمى والأيوبى يفصحان إفصاحا تاما عن تلك الآثار، فبينما استمر اللون الذى كان معروفا من قبل، ظهرت ألوان أخرى قوية التمصير عرفت بالأدب الشعبى(٢) والحق أن هذا اللون من الأدب لم يكتمل نضجه إلا فى عصر المماليك.

"وللشخصية المصرية أكثر من أثر فى الأدب الشعبى وبعض هذه الآثار : الإنشاء، والإيواء، والتحوير، والتمصير، وإشاعة قيم جديدة، وتسوية نماذج جديدة أيضا .. حتى السير العربية الأصل، العربية الأبطال مصّرها الشعب المصرى كملحمة بنى هلال إذا نقاها من تصرفات البداوة وموروثاتها ومواضعات حياتها كنظام الرياسة وبواعث الحروب" (٣) . وكما عرف الأدب الشعبى ازدهار القصة المصرية فى تلك المرحلة عرف الأدب الرسمى لونا من القصص كالذى رواه المتصوفة وأتباعهم من قصص أو وقائع فيها عنصر روائى متصل بأهداف المذهب ووسائل نشره بين الناس.

كما وجد لون من القصص الساخر وهو أشبه بحكايات (جحا) لها طابع روائى، لكنها ساخرة وتدور أخبارها حول شخصية معينة، كالقصص التى حواها كتاب "الفاشوش" فى حكم قراقوش "للأسعد بن مماتى . والحق أن دراسة فن القصص والسير المصرية فى هذه المرحلة دراسة غنية وذات صلة شددة بالكشف عن الشخصية المصرية، تستحق دراسة مستقلة

---

(١) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، د . عبد اللطيف حمزة ، ص ٢٠٧ .

(٢) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، د . عبد اللطيف حمزة ، ص ٢٥٦ .

(٣) الشخصية المصرية ، د . نعمات أحمد فؤاد ، ص ١٣٨ .

متخصصة في موضوعها ومنهجها وهي سير متعددة من أشهرها السيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذي يزن". وسأتناول منها هنا القدر الذي أتمم به الصورة عن آثار الشخصية المصرية في أدبها العربي إبان هذه المرحلة من خلال :

١ – القصص الديني.	٢ – القصص الهزلي.

٣ – قصص ألف ليلة وليلة.	٤ – السيرة الهلالية.

القصص الديني.

عبرت الحركة الصوفية التي نشأت بمصر في مرحلة النضج عن ظاهرة جديدة في المجتمع المصري ذات صلة بتكوينه الجغرافي والبشري والنفسي. وقد ارتبط بالتنظيم الصوفي ظهور كرامات للشيخ يرددها أتباعه، ويلهج بذكرها مريدوه بين الناس، والكرامة أمر خارق للعادة من حيث المضمون، وقصة قصيرة من حيث الشكل ، لها طابع ديني، يميزها عن غيرها من ألوان القصص التي عرفتها مصر في هذه المرحلة. ومن أمثال هذه القصص :

مارواه أبو الفتح رضوان – فتح الله بن سعد الله التميمي المنفلوطي رضي الله عنه – يقول : كنت يوما مع شيخنا أبي الحسن الصباغ رضي الله عنه على ساحل البحر، ومعه إبريق يتوضأ منه، فسمع بالقرب منه صياح الناس، فسأل الشيخ عن ذلك فقيل له قد أخذ التمساح رجلا من الساحل فترك الشيخ الوضوء وأسرع إلى المكان الذي فيه الناس مجتمعين فرأى التمساح قد قبض على الرجل وقد توسط به لجة البحر، فصاح الشيخ بالتمساح أن يقف فوقف مكانه لا يتحرك يميناً ولا شمالا، فعبر الشيخ على متن الماء، وهو يقول : باسم الله الرحمن الرحيم، كأنه يمر على وجه الأرض وكان البحر في نهاية زيادته حتى انتهى إلى التمساح، فقال له : ألق الرجل، فألقاه من فيه . . . وقد هلك الرجل فخذه من مسكة التمساح، فوضع الشيخ يده على التمساح وقال له : مت، فمات موضعه . . . وقال الشيخ للرجل قم إلى البر، فقال : ياسيدي لا أستطيع من فخذي وأنا لا أحسن العوم، فقال اذهب فهذه سبيل النجاة وأشار إلى طريق البر فإذا البحر من الموضع الذي فيه الشيخ والرجل صلب قوي

كالحجارة إلى البر، فمشى الشيخ والرجل حتى وصلا إلى البر والناس ينظرون، ثم عاد البحر إلى حالته المعتادة، وجر الناس ذلك التمساح ميتاً(١) .

وقد عكست هذه القصة وأمثالها أثر الشخصية المصرية على هذا اللون من ألوان القصص، فى التعبير عن شيوع ظاهرة التصوف، واعتقاد الناس فى كرامات الأولياء وشفافية النفس المصرية فى تقبلها تلك الأمور الغيبية عن إيمان وصدق. وهذه النزعة هى التى جعلت مصر دائماً عارضة عن التفكير المادى أو التعقيد الفلسفى الجدلى (٢) .

القصص الهزلى :

من ألوان القصة التى عرفتها مصر فى تلك الفترة نوع من القصص الساخر طالعنا به كتاب "الفاشوش فى حكم قراقوش"، وهو كتاب يحتوى على مجموعة من النوادر فى ثوب قصصى يثير الضحك والسخرية من بطلها. وقد درس هذه القصص كل من الدكتور محمد كامل حسين، والدكتور عبد اللطيف حمزة وذهبا إلى القول بأن مؤلفها هو الأسعد بن مماتى، وكان قد كتبها تبكيتاً وسخرية بشخص عرفته مصر فى العصر الأيوبى هو "بهاء الدين قراقوش" أحد مماليك صلاح الدين ومن أكبر رجاله المخلصين وهو الذى وكل إليه بناء سور القاهرة، وكان حازماً شديد الحزم.

ويبدو أن هذا الأسلوب الحازم لم يرق للمصريين فراحوا يسخرون منه من خلال النوادر التى صاغها أحد مفكرى ذلك العصر، وهو مصرى صميم يرجع نسبه إلى أسرة عريقة من أقباط أسيوط. فصور فى نوادره مجموعة من الأحداث التى تثير ضحك سخرية المصريين. من ذلك :

(أ) قيل إن غلاما لقراقوش كان يشتغل (ركاب دار) أى صاحب الركاب وأن هذا الغلام قتل نفسا . فقال قراقوش : اشنقوه ! فقيل له : إنه حدادك الذى ينعل لك الفرس. فإن شنقته خسرته ولم تجد غيره. فنظر قراقوش ناحية بابه فوجد رجلا قفاصا (أى صانع أقفاص)،

---

(١) الأدب الصوفى فى مصر ، ابن الصباغ القوصي ، د . على صافى حسين ، ص ١٢١ ، ١٧٢ .

(٢) انظر مجموعة من هذه القصص فى كتاب الطبقات الكبى لعبد الوهاب الشعرانى القاهرة ، ١٣٨٦ هـ ، ص ١٣٨ ، ص ١٧٢ ، ٣٠٨ .

فقال : ليس لنا بهذا القفاص حاجة. فلما أتوه به قال : اشنقوا القفاص، وسيبو الركاب دار الحداد لكي ينعل لنا الفرس (١) .

(ب) وحكى أن شخصا شكا إلى الأمير بهاء الدين قراقوش مماطلة غريمه فذهب المدين إلى الأمير وقال له : يامولانا - إنى رجل فقير. وكلما حاولت أن أحصل للدائن على شىء لم أجده، فإذا صرفت هذا الشىء جاء الدائن وطلبنى. فقال قراقوش : احبسوا صاحب الحق حتى يصير المديون إذا حصل على شىء يجد لصاحب الحق موضعا معلوما يذهب إليه فيه ويدفع الحق. فقال صاحب الحق حتى يصير المديون إذا حصل على شىء يجد لصاحب الحق موضعا معلوما يذهب إليه فيه ويدفع الحق. فقال صاحب الحق : تركت أجرى على الله ومضى (٢) .

قصص ألف ليلة وليلة (٣) :

ألف ليلة وليلة مجموعة من القصص يختلف عددها كما يختلف ترتيبها باختلاف النسخ التى وجدت لهذا الكتاب، وكلها تدور فى إطار واحد، وذهب بعض الدارسين إلى القول بأن أصل هذا الكتاب هندى فارسى قديم ترجم إلى العربية فى القرن الثامن الميلادى ثم أضيف إليه مجموعتان أحدهما بغدادية والأخرى مصرية فى أواخر العصر الأيوبى، فكتاب ألف ليلة وليلة لاينسب إلى بيئة واحدة أو وطن واحد أو كاتب بعينه أو قاص بذاته، وإن كان الطابع المصرى قد غلب على قصصه وأن الحياة المصرية فيه بينه واضحة. وترد الدكتورة سهير القلماوى وضوح الطابع المصرى فى تلك القصص إلى أن الكتاب أوى إلى مصر فيما أوى إليها من كتب كونت تراث المدينة الإسلامية. ولما لم يكن مكانه المكتبة فقد آوى إلى العامة وعاش عيشة مطلقة خارج جدران دور الكتب. وهنالك ترك الشعب المصرى فيه أثره الحى القوى. ولاتردد الدراسة المتخصصة فى رد القصص الموضوع فى مصر إلى أصول فى الأدب الفرعونى فقصة على الزيبق - يردها (نولدكه) إلى القصة المصرية القديمة "كنز رامبسنت" Rampsinite وقصة

(١) الفاشوش فى حكم قراقوش ، د . عبداللطيف حمزة ، حجا الضاحك المضحك العقاد ، ص ١١٧

(٢) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية ، د . عبداللطيف حمزة ص ١٩٩ ، ٢٠٠

(٣) أعدت الدكتورة سهير القلماوى دراسة قيمة عن ألف ليلة وليلة وهى التى نالت بها درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة وطبعتها دار المعارف فى سلسلة الدراسات الأدبية .

القرد الكاتب يلمح فيها " شبيبجلبرج geleberg Spie" توت المصرى القديم الذى يصور فى صورة قرد.

وعندما أخذت "ألف ليلة" طريقها إلى أوربا بالنقل والترجمة حملت الطابع المصرى ممثلا فى حكمة النصيحة واصطناع الصبر والأناة وما إلى هذا من مظاهر السلوك والعمل الذى تمتد جذوره فى بيئتنا الزراعية (١) . وقد تجلت الشخصية المصرية فى هذه القصص وبدا فيها الطابع المصرى من خلال عدة مظاهر منها :

(أ) ملامح البيئة المصرية بما فيها - يومئذ - من الإيمان بالسحر والطلاسم والرقى والتمائم ونحو ذلك. ومن صورة التاجر المصرى حتى إنك لتنظر فى أيامنا هذه إلى هذا (التاجر المصرى) فى جهة الغورية فلا تكاد ترى فرقاً بينه وبين ذلك التاجر المصرى الذى يتحدث عنه كتاب ألف ليلة وليلة. و(الحمام) وهو ملتقى الخاصة والعامة فى العصور الوسطى، ومكان التدابير الخفية والمؤامرات الغرامية التى تدبرها عجائز المدينة حيناً وخدم السلطان حيناً آخر.

و(سوق الرقيق) وهو مصدر حيوية دافقة فى قصص ألف ليلة وليلة. ففى هذة السوق التقت طبقات الحكام، وطبقات الصناع، وطبقات التجار. ولكل طبقة تقاليدها وأخلاقها. كما أمدتنا قصص ألف وليلة بصورة دقيقة عن الحياة المصرية الإسلامية في العصر الوسيط بكل مافى هذه الحياة نفسها من جد ولهو، وعادات وأخلاق، وطباع وخرافات.

فوصفت لنا الأعياد والمواسم وفرح الشعب بالسلطان الجديد والمولود الجديد وكيف كان يقترن هذا كله بالعفو عن المسجونين، ورفع المكوس عن كواهل المصريين. كما وصفت لنا الليالى كيف كان المصريون يخافون الحسد ويأخذون أنفسهم بالتفاؤل والتشاؤم ونحو ذلك.

(ب) بعض السمات الأخلاقية لطبقات المجتمع المصرى فقد صورت لنا هذه القصص كيف كان الفرق عظيما بين أخلاق الصناع وأخلاق التجار. فطبقة الصناع تكره الغريب وتنظر إليه على أنه جاء ينافسهم فى صناعتهم، ويستأثر بها دونهم. على حين أن طبقة التجار تنظر إلى التاجر الغريب على أنه مصدر من مصادر الثروة وانتعاش للحركة التجارية فى المدينة. ومن هنا كانت تكرم الضيف وترحب به وتتغلب على طباعها الرقة أو الملاينة وحين المعاملة.

---

(١) ألف ليلة وليلة د . سهير القلماوى .

(جـ) الطابع النفسي للشخصية المصرية : وتتمثل في تصوير حياة (الشطار) الذين يقومون بعمليات الخطف والضحك من الناس وفي الوقت نفسه فهم يتصفون بالمروءة والشهامة، لأنهم سرعان مايردون إلى الناس ما خطفوه منهم مكتفين بالضحك والتسلية.

وفي قصة علاء الدين أبي الشامات، وقصة دليلة المحتالة، وقصة زينب النصابة وقصة الزيبق المصري مايدل على هذا الجانب الفكه من جوانب الحياة المصرية. من أجل ذلك لم يزن الشعب المصري أعمال (الشطار) بميزان الأخلاق، ولا نظر إليهم الولاة والحكام على أنهم خطر على النظام أو الأمن العام، وإنما نظر الجميع إلى هذه الأعمال التي تصدر عن الشطار على أنها من قبيل الألعاب البهلوانية، لاكما يفعل الطارئون على مصر من الأعراب الذي همهم القتل والسلب والإضرار بمن تصل إليه أيديهم من العباد. ومن ثم كان الفرق عظيما في (الليالي) بين صورة رجل (كأحمد الدنف) وعصابته من الشطار، وصورة الأعرابي الذي أتى النهب والسلب والإيذاء : الصورة الأولى تنتزع إعجاب العامة والخاصة، والصورة الثانية لاتحظى منهم بغير السخط والسخرية (١) .

(د) بعض ملامح الشخصية السياسية : في قصص ألف ليلة وليلة وصف لعسف الحكام وظلم الولاة بطريقة تتفق ومزاج المصريين، بل تتفق وشخصيتهم التي تكونت لهم منذ أقدم العصور. فإذا كان عسف الحاكمين قد اتخذ في القصص العراقي في ألف ليلة وليلة صورة بطش الحاكم والرغبة في الانتقام من جانب المحكوم فإنه قد اتخذ في القصص المصري صورة السخرية والفكاهة من الحاكم الذي صدر عنه هذا البطش (٢) .

(هـ) خصائص الإسلوب : تبدو في أسلوب هذه القصص ظاهرة التكرار وكأنه يحاكي الفن المصري الإسلامي في تكرار الأجزاء والوحدات الكاملة. والمزاج المصري يرتاح إلى التكرار بما فيه من الطبيعة المصرية (٣) .

---

(١) ألف ليلة وليلة د . سهير القلماوي .

(٢) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية الى مجيء الحملة الفرنسية ، د . عبداللطيف حمزة ، ص ٣٦٢ .

(٣) الشخصية المصرية ، د . نعمات أحمد فؤاد ، ص ١٤٢ .

السيرة الهلالية :

من القصص الشعبى الذى شاع فى مصر سيرة بنى هلال، وقد بدأت هذه السيرة فى صورة غنائية، ثم أخذت صورة قصصية منذ القرن السادس الهجرى، وتدور أحداث هذه السيرة حول أسرة بنى هلال التى انتقلت من نجد إلى البلاد الإسلامية المختلفة، واستقر بعضها بمصر، وتفرق الكثيرون منها فى الشمال الأفريقى والأندلسى وكانت لهم وقائع فى تونس.

وقد صورت هذه القصة بعض جوانب الشخصية المصرية من خلال السخرية التى عامل بها المصريون حكامهم كما تبدو فى هذه العبارة التى أطلقها أحد المصريين معلقا على طمع الهلاليين فى حكم مصر والاستغلال بها حيث قال "ولكن العرب لايملأون أعين المصريين". وفى السيرة الهلالية انطباعات كثيرة من الروح المصرية والمعتقدات المصرية. مثال ذلك قولهم "مصر محروسة من عدوها بالأقطاب الموكلين بالأرض" ومثل "تعظيمهم لرجال الدين إلى حد أنهم أجلسوا شيخ الأزهر على كرسى السلطنة فى قلعة الجبل ومثل اعتقادهم فى الغيب عن طريق النجوم والرمل ونحو ذلك، وإيمانهم بالمقدر إيمانا لاحد له. وتبدو القاهرة فى السيرة الهلالية واضحة كل الوضوح بخططها وأسواقها وحماماتها ودكاكينها ومساكنها ونحو ذلك. واستطاعت مصر أن تطور العصبية القبلية فى هذه السيرة إلى عصبية وطنية، وأن تطور النزاع القبلى إلى مايشبه النزاع السياسى (١) . لقد هذب الشعب المصرى هذه السيرة وحضرها وارتفع بها فأبوزيد أحد فرسان القبيلة أصبح على يد مصر قائد جيش نظامى يعرف التحضير والتجهيز والتحصن والتعبئة كما مدله المصريون فى الشجاعة حتى ليأتى بالخوارق فى بابها وفقا لمزاج مصر فى التهويل. وعلموه مختلف العلوم والفنون، واللغات وهى لمسة حضارية طبيعية من مصر. وجعلوه واسع الحيلة يعرف مداخل الأمور وخوارجها وكأنه "ابن بلد" - يفهمها وهى طايرة - وانعكس هذا على الأمثال الشعبية المصرية التى تقول : (سكة أبو زيد كلها مسالك) ومع هذا تفكهوا منه كالعادة حين غلبه على أمره، دياب بن غانم فقالوا (كأنك يا أبو زيد ماغزيت). والحسن بن سرحان ارتفعوا به من أمير القبيلة إلى ملك الملوك ولكنهم قيدوه بالشورى فهو لايبرم أمرا لاتراه الجماعة كما جعلوه عادلا عفوا انعكاسا لرغبة النفس المصرية فى العدل والسماحة.

---

(١) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية حتى مجىء الحملة الفرنسية، د . عبداللطيف حمزة ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

وبهذا غدا الحسن بن سرحان بمجامع الصفات المصرية فيه، رمزا شعبيا حتى لنطلق على وجيه السمت والشارة، باذخ العطاء "الفنجرى" (عامل أبو على). ومصر فى سيرة الهلالية (المحروسة) فحين يتطلع إليها دياب بن غانم تردده عنها (الأقطاب وحفظها المصريون لدياب، فالأرعن الأحمق يسمونه (زغبى) نسبة إلى زغبة قبيلة دياب، وانتهى الأمر بأن قتله الفنان المصرى مسموما(١) ".

الخطـــــابة

لم تتضح ظلال الشخصية المصرية فى فن الخطابة اتضاحها فى غيرها من الفنون الأخرى، لعل السر فى ذلك يرجع إلى فقدان كثير من الخطب التى قيلت فى مصر إبان فترة الحروب الصليبية، فقد انتج هذا العصر كثيرا من دواوين الخطب كديوان خطب ابن المنير السكندرى وابن دقيق العيد والحسن بن الخطير وغيرهم. ولو أن هذه الدواوين قد بقيت لاستطعنا أن نقف على الكثير من اتجاهات الخطابة فى ذلك العصر وعلى الكثير من ألوان الحياة الاجتماعية والاقتصادية والخلقية التى كانت سائدة يومئذ مما كان الخطباء يعالجون إصلاحه على المنابر غير أنه لم يبق لنا من هذه الآثار إلا خطب قليلة (٢) . ولم تكن هناك أحزاب سياسية أو حركات مذهبية أدبية أو عقلية تستدعى نهضة الخطابة الأدبية أو المحفلية كما كان عليه الحال فى العصر الأموى أو فى مطلع العصر العباسى.

ومنذ عصر الطولونيين فى مصر وفن الكتابة يطغى على الخطابة، فكانت الخطبة تعد كتابة ثم تتلى على المنابر(٣) . وفى العصرين الفاطمى والأيوبى جدت أحداث تطلبت ازدهار هذا اللون لأنهما فترة جهاد ضد الأعداء، وجهاد النفس ضد النزعات التى تفشت فى المجتمع من مجون ولهو. ويحدثنا التاريخ أن بعض حكام مصر بالغ فى الاهتمام بالوعاظ وكان صلاح الدين الأيوبى يوزع المنح على الوعظ ويظل طويلا يستمع إلى الوعظ، وذكر الحرام

(١) الشخصية المصرية ، د . نعمات أحمد فؤاد .

(٢) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ١٧٨ .

(٣) تميز فى هذه الخطب اتجاهان أحدهما يؤثر السجع على طريقة ابن نباتة وهم الأكثرية والآخر يعدل عنه إلى طريقة الكلام المرسل وزعيم هؤلاء شيخ الإسلام عز الدين ابن عبدالسلام .

أدب الحروب الصليبية ، د . عبداللطيف حمزة القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٢٢٠

والحلال، والبعث والمحشر. ويـــخلع على الواعظين. كما يحـــدثنا التاريخ أيضـــا أنه عـــندما اشتدت وطأة الصليبيين على مصر في دمياط كتب المعظم عيسى إلى "سبط بن الجوزي" يحثه على وعظ الناس وتحريضهم على الجهاد (١) .

ومن خلال تلك الأحداث، وعلى الرغم من القدر القليل الذى بقى لنا من الخطب فإننا نلمح آثار الشخصية المصرية في المظاهر التالية :

(أ) تصوير بعض الأحداث السياسية في مصر : فعندما تحرك الفرنج من دمياط يريدون الاستيلاء على مصر عقب موت الملك الصالح نجم الدين أيوب قرىء على المنابر في المساجد المصرية خطاب يحث على الجهاد جاء فيه :

"انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون". وفيه مواعظ بليغة بالحث على الجهاد، فارتجت القاهرة ومصر وظواهرهما بالبكاء والعويل، لكنهم لم يهنوا، وخرجوا للجهاد في عالم عظيم، وليس هذا الكتاب الذى قرىء على منبر الجامع سوى خطبة مكتوبة (٢) .

(ب) عكست لنا ديباجة الدعاء في خطب الجمعة المادة الأولى من مواد الدستور المصري على اختلافه باختلاف وجهات نظر الحاكمين واتجاهاتهم. فالدعاء للخليفة الفاطمي تختلف معانيه وألفاظه وروحه العامة عن الدعاء للخليفة العباسي أو السلطان الأيوبي.

(جـ) عبرت أساليب الدعاء في الخطابة عن الأوضاع السياسية لا من حيث نظام الحكم القائم، ولا من حيث الدعوة إلى الجهاد والحث عليه بل من ناحية تطور الروح المعنوية في المجتمع.

إن الموازنة بين أسلوب الدعاء لصلاح الدين ونور الدين لتدل على الخطوة الواسعة التي خطاها المسلمون نحو تحقيق جزء من أهدافهم في جلاء الصليبيين عن أرضهم، فبينما نور الدين كان مجاهداً في سبيل الله، مرابطاً لأعداء دينه، إذ بصلاح الدين سيفه القاطع، وشهابه اللامع، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، كما أن موازنة بين هذين الدعائين وبين ماكان

---

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د . أحمد بدوي ، ص ٣٨١

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨١

يدعى به لوزير الحافظ الفاطمى : أحمد بن الأفضل أمير الجيوش وهو ناصر إمام الحق، هادى العصاة إلى اتباع الحق، مولى الأمم، ومالك فضيلتى السيف والقلم. لترينا الفرق فى الاتجاه بين عهدين، فبينما هى فى أيام الأفضل نزاع على إمامة ينصر الوزير الصادق منهما، ويهدى العصاة إلى سبيل الصواب، وفخر بأن الوزير عالم قائد، إذا بها فى عهد نور الدين رباط فى سبيل الله وجهاد لأعدائه، ثم إذا بها فى عهد صلاح الدين تقليم لأظافر العدو وتحطيم لقواه (١) .

(د) تميز أسلوب الخطابة فى تلك المرحلة بسمات أهمها

١ - التأنق فى اختيار الألفاظ والعبارات، فالخطيب ينثر كنانته، ليختار أجود ما عنده من لفظ.

٢ - التزام السجع، وقد تلتزم الفاصلة أكثر من جملتين. والعناية ببعض ألوان المحسنات البديعية كالجناس والطباق.

٣ - الاقتباس من القرآن الكريم، واتخاذه مصدرا للاستشهاد والحث والتحريض.

٤ - الاستشهاد بالشعر، وقد يطول هذا الاستشهاد، كما فعل سبط بن الجوزى فى بعض عظاته (٢) .

وهذه السمات فى جوهرها امتداد للروح العامة التى شاعت فى النثر المصرى فى تلك المرحلة، وأبانت عن ظلال الشخصية المصرية فى مختلف فنونه.

وبعد عرض آثار الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى فهل كونت هذه الآثار سمات خاصة فى الشعر أو النثر انفرد بها الأدب المصرى فى هذه الفترة دون غيره من الآداب العربية فى الأقطار الأخرى ؟ وهل يعنى القول بوجود آثار للشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى ذلك المفهوم ؟

---

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د . أحمد بدوى ، ص ٣٨٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

لقد رأينا من خلال ماسبق عرضه أن هناك موضوعات شعرية ونثرية مصرية خالصة ورأينا معانى وأفكاراً مصرية خالصة، ورأينا بعض خصائص تتعلق بالأسلوب مصرية خالصة خاصة فى الألفاظ الدالة على البيئة والمأخوذة من الأمثال الشعبية. ورأينا فى السير الشعبية والقصص كثيرا من السمات المصرية الخالصة. فمما لاشك فيه أن تأثير الشخصية فى أدب هذه المرحلة ترك سمات تشير إلى تلك الشخصية بحيث لم يشاركها فيه أدب بيئة عربية أخرى.

ولايعنى القول بتأثير الشخصية المصرية فى الأدب العربى انسلاخ الأدب المصرى وفصله فصلا تاما عن أرومته العربية، فهو أدب عربى أولا، ومصرى ثانيا يميز مصر العربية عن بقية عصورها السابقة وتميزه مصر عن الأدب العربى فى غيرها من الأقطار.

فلابد أن تبقى الملامح الأساسية للأدب العربى فى كل أدب يحمل هذا الاسم ثم يأتى دور كلى عصر من عصوره فى كل بيئة من بيئاته ليضيف أو ينقص أو يطور من سماته الأساسية. وفعلت مصر ذلك كله حيث أخذت وأعطت وأضافت وحذفت وطورت ومصرت وأبانت عن شخصيتها ممثلة ومؤثرة فى الأدبين الفاطمى والأيوبى.

وتلك غاية هذا الكتاب الذى أعاننى فى مراجعة مادته العلمية وتصحيحها وتقديمها للقارىء كل من : أستاذى المرحوم الدكتور/عبد الحكيم بلبع، وأستاذى الدكتور إبراهيم عبد الرحمن، والأستاذ/محمود مراد المفتش المالى بوزارة التربية، والآنسة ماجدة السمالوطى المعيدة بتربية أسيوط، والأستاذ/ محمد عبد الرحمن مدير النشر بدار المعارف وإدارة وعمال مطابع سجل العرب بالقاهرة، فلهم منى جزيل الشكر ومن الله حسن الثواب.

أهم مصادر الكتاب ومراجعه

١- ابن سناء الملك، ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر، د. عبد العزيز الأهوانى، القاهرة، ١٩٦٢.

٢- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لتقى الله أحمد بن على المقريزى، تحقيق، د. جمال الشيال، القاهرة، ١٩٤٨.

٣- أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) د. عمر موسى باشا، لبنان، ١٩٦٧.

٤- أدب الحروب الصليبية، د. عبد اللطيف حمزة، القاهرة، ١٩٤٩.

٥- الأدب الصوفى فى مصر، ابن الصباغ القوصى، شيخ التصوف الإسلامى فى القرن السابع الهجرى، د. على صافى حسين، القاهرة، ١٩٧١.

٦- الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين، د. عبد الرازق إبراهيم حميده، القاهرة،١٩٥٧.

٧- الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى، محمود مصطفى القاهرة،١٩٥٧.

٨- الأدب فى العصر الأيوبى، د. محمد زغلول سلام، القاهرة، ١٠٩٦٨.

٩- أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة). د. محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٣٩.

١٠- الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة فى القصص والحكم والتأملات سليم حسن، القاهرة، ١٩٤٥.

١١- الأدب المصرى منذ قيام الدولة الأيوبية إلى فترة الحملة الفرنسية، د. عبد اللطيف حمزة، سلسلة الألف كتاب، رقم ٢٤٢.

١٢- الأرض والتطور البشرى، سوفيان فيفر ترجعة د. محمد السيد غلاب، القاهرة ١٩٧٣.

١٣- الإشارة إلى من نال الوزارة، لابن منجب الصيرفى، القاهرة، ١٩٢٤.

١٤- بدائع البدائه ، لعلى بن ظافر الأزدى، القاهرة، ١٢٧٨ هـ.

١٥- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، لابن إياس، سلسلة كتاب الشعب، رقم ٨٧.

١٦- البهاء زهير : عبد الفتاح شلبى، القاهرة، سلسلة نوابغ الفكر العربى، ٢٨.

١٧- البهاء زهير، مصطفى عبد الرازق، القاهرة، ١٩٣٠م

١٨- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشى، تحقيق ومراجعة (ليفى بروفنسال)، بيروت، ١٩٦٧.

١٩- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى، تحقيق، د. عبد المجيد عابدين، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٠- التاريخ السياسى للدولة العربية، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، د. عبد المنعم ماجد، القاهرة.

٢١- تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول مصر والعراق، د. عبد العزيز صالح.

٢٢- الجيش المصرى فى العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة، د. عبد الرحمن زكى، القاهرة، ١٩٧٠.

٢٣- حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، د. راشد البراوى، ط ١ ، القاهرة، ١٩٤٨.

٢٤- الحركة الفكرية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى الأول، د. عبد اللطيف حمزة ١٩٦٨.

٢٥- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطى القاهرة، ١٩٦٨م.

٢٦- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الإسلام، (آدم متز) جـ١، ترجمة د. عبد الهادى أبوريدة، القاهرة ١٩٥٧.

٢٧- الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، د. أحمد أحمد بدوى، القاهرة ١٩٥٢.

٢٨- الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، د. أحمد بدوى، القاهرة ١٩٧٢م.

٢٩- الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، د. محمد كامل حسين، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣٠- خريدة القصر، وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، للعماد الأصفهانى، تحقيق : شوقى ضيف وآخرين.

٣١- خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب تحقيق : محمد العروسى وآخرين، تونس، ١٩٦٦م.

٣٢- دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين، د. محمد كامل حسين، القاهرة، ١٩٥٧.

٣٣- الديارات للشابشتى، تحقيق كوركيس عواد بغداد ١٩٦٦.

٣٤- ديوان ابن سناء الملك حياته وشعره، تحقيق : محمد إبراهيم نصر، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣٥- ديوان ابن الفارض، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

٣٦- ديوان ابن النبيه المصرى، تحقيق عمر محمد الأسعد، دمشق، ١٠٦٨.

٣٧- ديوان أبى الطيب المتنبى، تحقيق : عبد الوهاب عزام، القاهرة، ١٩٤٤م.

٣٨- ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى، تحقيق محمد حسن الأعظمى، بيروت، ١٩٧٠م.

٣٩- ديوان عمارة اليمنى، تحقيق : هرتويغ درنبرغ، باريس، ١٨٩٧م.

٤٠- ديوان القاضى الفاضل، تحقيق ، د أحمد أحمد بدوى، القاهرة، ١٩٦١م

٤١- الرسالة المصرية، لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى، سلسلة نوادر المخطوطات، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٧٣م.

٤٢- زهر الآداب وثمر الألباب، لأبى إسحق الحصرى القيروانى، القاهرة، ١٩٣١م.

٤٣- ساعات بين الكتب، جـ ١، عباس العقاد، القاهرة، ١٩٤٦م.

٤٤- سفر نامه، لناصر خسرو، ترجمة : د. مصطفى الخشاب.

٤٥- السلوك، لمعرفة دول الملوك، للمقريزى، تحقيق : د. مصطفى زيادة، ١٩٥٧م.

٤٦- سيرة أحمد بن طولون، لأبى عبد الله البلوى، تحقيق : محمد كرد على، دمشق، ١٣٥٨ هـ.

٤٧- سيرة القاهرة، ستانلى لينبول Stanly anepole، ترجمة : حسن إبراهيم حسن وآخرين، القاهرة، ١٩٥٠م.

٤٨- شاعر الغزل، عباس العقاد ، القاهرة ١٩٦٤.

٤٩- شرح ديوان بهاء الدين زهير، دار الكاتب العربى : بيروت ١٩٦٨م.

٥٠- شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، د. جمال حمدان، القاهرة، ١٩٧٠م.

٥١- الشخصية المصرية، د. نعمات أحمد فؤاد، ١٩٦٨م.

٥٢- الشخصية وقياسها، د. محمد عماد الدين اسماعيل، القاهرة، ١٩٥٩م.

٥٣- صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء لأبى العباسى أحمد بن على القلقشندى.

٥٤- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد لأبى الفضل كمال الدين الأدفوى تحقيق : سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦.

٥٥- ظافر الحداد، شاعر من العصر الفاطمى، د. حسين نصار، القاهرة، ١٩٧٥م.

٥٦- الفاشوش فى حكم قراقوش، د. عبد اللطيف حمزة، القاهرة، ١٩٤٥م.

٥٧- الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، حسن إبراهيم حسن، القاهرة،، ١٩٣٢م.

٥٨- فتوح مصر وأخبارها لابن الحكم، القاهرة ١٩٧٤م.

٥٩- فضائل مصر، لعمر بن محمد بن يوسف الكندى، تحقيق : د. أحمد العدوى، القاهرة، ١٩٧١.

٦٠- الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف، سلسلة كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٥٨م.

٦١- فى أدب مصر الفاطمية، د. محمد كامل حسين، القاهرة، ١٩٦٣م.

٦٢- فى الأدب المصرى، أمين الخولى، القاهرة، ١٩٤٣م.

٦٣- فى بناء البشر، د. حامد عمار، القاهرة، ١٩٦٨م.

٦٤- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، أحمد أمين : القاهرة ١٩٥٣م.

٦٥- القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ، د. عبد الرحمن زكى.

٦٦- الكامل فى التاريخ لابن الأثير، ط بيروت، ١٩٦٦م.

٦٧- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، لأبى شامة المقدسى، تحقيق، د. محمد حلمى أحمد، القاهرة، ١٩٥٦م

٦٨- كتاب الولاة وكتاب القضاة، لأبى عمر يوسف، تحقيق "رفن كست" : بيروت ١٩٠٨م.

٦٩- مرآة الزمان، لأبى المظفر يوسف المعروف بسبط الجوزى، مخطوط بدار الكتب، ٢١٨١ (تاريخ).

٧٠- المرأة فى الشعر الجاهلى د. أحمد الحوفى، القاهرة ١٩٦٣م.

٧١- المرجع فى علم النفس، د. سعد جلال، القاهرة ، ١٩٧١م.

٧٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ للمسعودى، القاهرة، ١٣٤٦هـ.

٧٣- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى، ط القاهرة، ١٩٢٤ .

٧٤- مطالعات فى الكتب والحياة، عباس العقاد، بيروت، ١٩٦٦م.

٧٥- مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى د. محمد نبيه حجاب، القاهرة، ١٩٦١م.

٧٦- المغرب فى حلى المغرب (قسم شعراء مصر)، لابن سعيد، ط جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣، د. شوقى ضيف.

٧٧- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، تحقيق : د. جمال الشيال، القاهرة : دار القلم.

٧٨– مصر أصل الحضارة لسلامة موسى، المطبعة العصرية بمصر.

٧٩– مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، سيدة إسماعيل الكاشف، القاهرة، سلسلة الألف كتابرقم ٢٤١.

٨٠– مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، هـ. ايدرس. بل ترجمة : د. عبد اللطيف أحمد على، القفاهرة، ١٩٧٣م.

٨١– مصر ورسالتها، حسين مؤنس.

٨٢– مصرو الشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، بيروت ١٩٧٢م.

٨٣– المنتخبات، أحمد لطفى السيد، القاهرة، الأنجلو المصرية.

٨٤– المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، المقريزى، منشورات مكتبة العرفان بيروت.

٨٥– النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة، لابن تغرى بردى.

٨٦– النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية، عمارة اليمنى، تحقيق در نبرغ باريس.

٨٧ نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى، مطبوعات وزارة الثقافة بمصر.

٨٨– وحى الأربعين، عباس العقاد، القاهرة، ١٩٣٣م.

٨٩– وحى القلم، مصطفى صادق الرافعى، بيروت، ط ٨.

٩٠– وفيات الأعيان، لابن خلكان.

٩١– يتيمة الدهر ، لأبى منصور الثعالبى، ط ١، القاهرة، ١٩٣٤م.

محتويات الكتاب

الفصل الثالث : مشاهد البيئة الاجتماعية :

الباب الثالث

آثار الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى

رقم الإيداع	١٩٩٢/٢٠٧٨
الترقيم الدولى	I.S.B.N 977 - 02 - 3648 - 9

جولدن ستار للطباعة

